جنة الخلد

تأليف

السيد عبد الحسين دستغيب

الحفظ من الشرور ببركة سورة الرحمان

سورة الرحمان عروس القرآن

عنوان موضوعات القرآن، بسم الله

وجهان في إعراب كلمة الرحمان

تعلم القرآن أحد السبل المشرعة نحو نيل النعم

خلق الإنسان ونعمة البيان

الحركة المنتظمة للشمس والقمر

عن القمح ينفلق القمح وعن الشعير الشعير

إقامة القسط والعدل

وضع الله ميزاناً لكل شيء

تقييم الأعمال بميزان الأعمال

العدل في خلق الأرض

فناء الأرض

خصائص النخل الحيوانية

سبعمائة حبة في حبة واحدة

استحباب التطيب بماء الورد

فبأي شهادات الخلائق تجحدان

الفخار، الشيء العظيم الفخر

نار الشهوة ونار الغضب أعدتا لحفظ البشر

فبأي آلاء ربكما تكذبان

الماء العذب الفرات، والماء المالح الاجاج ، لا يختلطان

الماء العذب يحفظ الحياة، والماء المالح يحفظ البيئة

الدرر الكبار والصغار تنشأ عن قطر المطر

السفن الشامخات كالجبال تمخر عباب البحر

ولله ملك الفلك

مآل جميع الكائنات إلى الفناء

الفناء الذاتي والفناء الوصفي

استخدام (من) موعظة للإنسان

عموم الفناء وشموليته نعمة

سؤال الخلائق الله في قضاء حوائجهم

آلة العوم لدى الحيوانات البحرية

ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم

إطلاقات اليوم في اللغة

الخلق، وتقسيم الرزق في الدنيا

تهديد المخالفين بالحساب

الثقلان في ثقل التكليف

الحمد لله الذي لم يجعلني من أهل النار

من ذا الذي يمكنه الهرب من الله؟

إستحالة الهرب من البلاء العام الشامل

الشعلة المضرمة هي الشواظ

مقدمات القيامة عظيمة عظم القيامة

الحساب والسؤال لا يحصل عقيب البعث مباشرة

إرتفاع التناقض باختلاف المكان

تناسب العذاب البرزخي مع كبر المعصية

سيماء المؤمن والكافر في عصر ظهور المهدي عليه السلام

الزقوم والضريع طعام أهل النار

جنتان للخائفين من شأن ربهم

الجنتان، واحدة للعقائد والأخرى للأعمال

أرض الجنة مفروشة بالمسك والعنبر

جنتان كثيفتان

طلاب الجنة قليلون

نساء الجنة كأنهن الياقوت في تألقهن

وجنتان أخريان

ربات الوجوه الصبيحة والأخلاق المليحة في الجنة

شرف الإسم من شرف المسمى

علي (ع) إسم الله الأعظم وآيته الكبرى

أسماء الله هي ماع أقره الشارع المقدس

جنة الخلد

تأليف

السيد عبد الحسين دستغيب

[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرّحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان) (سورة الرحمن، الآيات: ١ ـــ ٤)

الحفظ من الشرور ببركة تلاوة سورة الرحمن:

تعد سورة الرحمن من السور المكية، أي انها نزلت في مكة المكرمة، وتشتمل على ثمان وسبعين آية، جميعها مكي باستثناء آية **(يسأله من في السماوات والأرض)** إذ قيل عنها أنها مدنية.

وقد جاءت روايات كثيرة تؤكد أهمية وعظمة هذه السورة، نذكر بعضها على سبيل التبرّك مما أورده صاحب تفسير مجمع البيان، فقد روي أن من قرأ سورة الرحمن في ليلته، أوكل الله تعالى به ملكين يحفظانه حتى يصبح، ومن قرأها صباحاً، أوكل الله به ملكين يحفظانه حتى يمسي.

شمول قارئ سورة الرحمن بالرحمة:

وفي رواية أخرى عن نبينا الأكرم (ص) أنه قال: إن إخوانكم الجن لأحسن استماعاً إلى سورة الرحمن منكم (لأنهم سكتوا ولم يردوا بشيء عندما تلى الرسول (ص) هذه السورة على مسلمي الأنس وذكر قوله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) في حين أن الجن رددوا عقيب هذه الآية قائلين (لا بشيء من آلائك ربِ نكذب) وهم يعنون بردهم هذا الذي جاء بعد استماعهم للسؤال الرباني الذي يستنطق الجن والأنس، أنهم قد اقرّوا بالتصديق والأيمان بكل نعمة أنعمها الله عليهم) وهناك قال النبي (ص): فقولوا انتم أيضاً بمثل مقالتهم. وقد ورد عن النبي (ص) انه قال: إن من قرأ سورة الرحمن ثم قال عقيب قوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ذلك القول (أي لا بشيء من آلائك رب اكذب) ثم مات في يومه ذاك، فقد مات شهيداً. بل أن قارئ سورة الرحمن يكون في قراءته لكل آية من آي السورة الكريمة قد أدّى الشكر على حق النعم الإلهية ويزيده تعالى من الفضل أن يرحم ضعفة (لأن الإنسان في واقع حاله ضعيف ممتلئ بالضعف من أُم رأسه وحتى أخمص قدميه، فهو في حاله هذا أَمَسُّ ما يكون إلى نيل الرحمة الإلهية سواء كان ذلك في دنياه أم في برزخه أو في عالم الآخرة. هذا الضعف الملازم للإنسان والذي يبرز واضحاً عندما يواجه الإنسان أعداءه الداخليين أو الخارجيين في عالم الدنيا، وكلنا يعلم مقدار ضعف الإنسان في أحوال موته وقبره واجتيازه للصراط. فهو ضعيف ولا يملك إلا ان يكون

محتاجاً في حاجته وفاقته إلى الله (عز وجل)، لذلك كان الله في موضع الرحمة والرأفة لقارئ سورة الرحمن كما هو أمل ورجاء العبد في ربه تعالى).

بياض وجه قارئ سورة الرحمن، وقبول شفاعته:

وقد ورد عن الإمام كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) أنه قال: (لا تدعوا قراءة سورة الرحمن والقيام بها وفي رواية أخرى: واقلّها مرة في الأسبوع (وقد ورد في قراءة هذه السورة أيام الجمع ان فيه استحباباً مؤكداً)، فأنّها لا تقر في قلوب المنافقين (ولعل المقصود من ذلك، أن المنافق لا يحصل له التوفيق في المداومة على قراءة هذه السورة)، ويؤتى بها في يوم القيامة في احسن صورة وأطيب ريح حتى تقف من الله تعالى موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله منها، فيقول الله تبارك وتعالى: من ذا الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويدمن قراءتك؟ فتقول: يا رب فلان وفلان، فتبيّض وجوههم، فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتم، فيشفعون حتى لا تبقى لهم غاية ولا أحد يشفعون له، فيقول لهم: ادخلوا الجنة واسكنوا فيها حيث شئتم)١[1].

---

١ [1] تفسير سورة نور الثقلين (ج٥، ص١٨٧).

١ [2] تفسير الإمام العسكري (ع) (ص٥).

١ [3] لآلئ الأخبار.

١ [4] الكبريت الاحمر، للبيرجندي.

إذاً يُخوّل قارئ السورة بالشفاعة للآخرين فينقذهم من أليم العذاب إن كانوا مسيئين، ويرقى بهم في رفيع المنازل والدرجات فيما لو كانوا محسنين، فتأملوا أيها الأعزاء عظمة مقام الشفيع، فالقرآن يُشفّع بمن تلاه وقارئ القرآن يُشفّع بمن أحب، وقد ورد في الروايات (أن القرآن يجيء في يوم القيامة على هيئة البشر فيّنطق ويَشفع). ولعل البعض تتملكه الدهشة والاستغراب من ذلك، فنقول ينبغي أن لا نستبعد مثل هذه المسائل لأن موجودات عالم الآخرة تختلف عن موجودات عالمنا الدنيوي، فبعض موجودات هذا العالم هي من الأعراض ولكنها تتمثل في عالم الآخرة على صور وهيئات معينة باعتبار عدم امتناع أو صعوبة مثل هذه الأمور في قبال قدرة الله (عز وجل) وعلمه.

تحقق الجمال اللفظي:

وتشتمل هذه السورة المباركة على ذكر الآلاء والنعم الإلهية المتمثلة بجميع صورة اللطف والرحمة وعجائب الإبداع والخلق، إذ يجدها القارئ تستعرض كل ما هو جمال في جمال وعندما يحين موعدنا مع غد الآخرة نجد جميع صورة صور الجمال التي تستعرضها الآيات في قوالب الألفاظ قد تجسدت على أشكال وأمثال بقدرة الله تعالى.

والسعيد حقاً هو ذلك الإنسان الذي يُصغي إلى مسألة من مسائل الآخرة ثم لا يجد في نفسه القدرة على هضمها بعقله فلا ينكرها على أية حال، لأن حقيقة الإنكار تنبع من الجهل وتنشأ عن ضحالة وسطحية التفكير، ولكن وبقليل من التأني وشرح الصدر لمثل تلك

الأمور، والعمل على تدبرها يجد المرء نفسه مستعداً لقبولها، باعتبار انتقاله من مستوى الإدراك في عالم المادة ومغادرة رحم عالم الطبع إلى مستوى العقل والإدراك في عالم المعنويات والمثل وبذلك يتهيأ له قبولها باعتبارها أموراً عادية لأن عالمي البرزخ والقيامة تتجسد فيهما جميع الملكات والأعمال على صورها الحقيقية وهيئاتها الملكوتية، فتتجلى بمظاهر حسان ان كانت ملكاتٍ حسان، وتتجسد بصورة مشوهة ودميمة (والعياذ بالله) فيما لو كانت رذائل وأعمالاً قبيحة فتصدر عنها روائح نتنة تزكم الأنوف لفرط قبحها، بينما تفوح من الملكات الحسان أطيب الروائح وأكثرها شذى لما فيها من حّسن وصلاح. إذاً حقيقة هذا العالم ما هو إلاّ أنموذج لما سيكون عليه ذلك العالم.

ضمُرة، وعاقبة هزوءة بالحديث النبوي:

ومما جاء في كتاب بحار الأنوار في تأييد ما تعرضنا له، ان جماعة حضرت مجلس الإمام الرابع من أئمة أهل البيت الإمام زين العابدين (ع)، فسأل أحدهم الإمام (ع) أن يحدثهم بحديث شريف، فتردد الإمام (ع) في ذلك كارهاً وقال: إن لم نحدث قالوا بخلوا، وان حدثناهم ردّوه علينا واستهزأوا به، فقال بعض من حضر: ومن ذا الذي يتجرأ على حديثكم بالهزو والسخرية؟ نحن كلّنا آذان صاغية لما تحدثونا به لا نردّ منه شيئاً.

فقال الإمام (ع): حدثني أبي عن جدي رسول الله (ص) انه قال: لا يفارق المرء هذه الدنيا ويُشيِّع الأهل والأصحاب جنازته حتى تأتي روحه وتحوم حول جنازتها ثم تولّي

بوجهها صوب الأهل والأولاد والأحبة تناديهم: إياكم أن تخدعكم هذه الدنيا بغرورها كما خدعتني وجعلتني اجمع المال الحرام إلى الحلال، فكانت عاقبته ان صار نفعه لغيري ووزره عليّ، فأرفقوا بي وتمهلّوا، ولا تستعجلوا بي إلى قبري.

فقال حينئذ ضمرة المنافق مستهزئاً: أو ينطق الأموات؟! (ففي ظن ذلك الأحمق ان النطق يصدر عن الجسد المسجى في النعش، وفي انكاره هذا دليل على ضحالة تفكيره وجهله) فقال الإمام السجاد (ع): اللهم إن كان ضمرة قد رام الهزو من حديث رسولك، فأذقه العذاب وانتقم منه. ولم تمض أيام حتى مرض ضمرة مرض الموت، وفارق عالم الدنيا بعد مرور أربعين يوماً من حادثة هزوه بالحديث النبوي، فجاء أبو حمزة الثمالي إلى الإمام زين العابدين وأخبره خبر المعلون وكيف أنه مات، يقول أبو حمزة: حضرت جنازة ضمرة ولما أرادوا أن يدخلوه في قبره، بادرت بالنزول إلى قبره لكي أضع خده على التراب، فما أن أزحت الكفن عن وجهه حتى سمعته يقول (الويل لضمرة فأن مأواه النار).

وبالطبع أن هذه المشاهد ما هي إلاّ صور من اللطف الإلهي الذي يشمل حال بعض الأعزاء من أمثال أبي حمزة الثمالي كيما يترسخ اعتقادهم ويقوى، فتصل ندبة روح ضمرة عبر بدنه المسجى إلى مسامع أبي حمزة. إذاً الروح هي التي تحرك البدن وأعضائه باعتباره آلة وأداة فيتحرك البدن وينطق ويسمع.

ولنعد الآن إلى موضوعنا فنقول:

علو المنزلة في كثرة التلاوة:

وما الترغيب والتشجيع في حقيقته إلا دافع للإنسان نحو مواصلة قراءة القرآن، وخصوصاً هذه السورة الكريمة موضع بحثنا، يقول الله تعالى في كتابه المجيد **(فاقرأوا ما تيسر من القرآن)** (سورة المزمّل، الآية: ٢٠). والميسور منه هو ما يكون جزءاً أو حزباً أو سورة واحدة، مع ان كثرة قراءة القرآن في ذاتها ممدوحة ومستحبة لمن اشتغل بها دون ما يشغله عنها، وقد قيل عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) انه كان يختم القرآن مرة كل ثلاثة أيام وكان يقول لو شئت لختمته في اقل من هذا ولكني ابغي التأني طلباً للتدبر في آياته. وهذا ما يؤكده قوله تعالى **(ورتّل القرآن ترتيلاً)** (سورة المزمل، الآية: ٤). وكثرة تلاوة القرآن ترفع درجات القارئ في القيامة، ففي القيامة يُقال للمرء اقرأ وأرقى، وهذا يعني ان منزلة الإنسان تتصاعد تبعاً لكثرة ما يقرأه من القرآن، بل ان بعض الروايات تؤكد على ضرورة عدم التفريط بالمداومة على ما حفظه المرء من سور القرآن الكريم، لأنه سيقف يوماً ما وقد رقى في درجاته ومنازله عند منزلة معينة فيبصر المنزلة والدرجة الأرفع فيقال له أن تلك الدرجة هي درجة السورة الفلانية التي لم تتعاهدها ونسيتها، فالقرآن كله من عند الله تعالى وهو كلامه المجيد ولكن تبقى لكل سورة ميزة تمتاز بها عما سواها من السور كما أن لكل وردة عطر تمتاز به على مثيلاتها، فمثلاً سورة يس هي قلب القرآن، وسورة الرحمن عروس القرآن، وهكذا في سائر سور القرآن.

وفي حديثنا عن سورة الرحمن موضع البحث فإننا قد أشرنا إلى بعض خصائص المداومة على قراءتها والآثار المترتبة على قارئها.

[٢]

سورة الرحمن عروس القرآن:

نقل تفسير مجمع البيان وغيره من كتب التفسير ان الإمام موسى بن جعفر (ع) روى عن آبائه الكرام، عن أمير المؤمنين (ع)، عن الرسول الأكرم (ص) انه قال: لكل شيء عروس، وسورة الرحمن عروس القرآن.

والعروس لغةً: هي صفة يشترك فيها الذكر والأنثى، وهي كناية من وصول الشخص إلى أقصى درجات السعادة ومنتهى مراتب السرور في ساعة تعدّ من أفضل وأحسن ساعات العمر وبتعبير آخر، العروس هو الشخص الذي يرفل في السعادة والنعيم التاميّن. ولذلك قيل لليلة الزفاف (ليلة العرس)، لأن ليلة الزفاف هي أفضل وأسعد أوقات المرء، ففي تلك الليلة تساق الفتاة إلى منزل الزوج بكل خيلاء وتبجيل محفوفة بالتكريم والتجليل ثم يصار بها إلى مخدع الزوجية بكل حفاوة وبهجة، فتجد العروس في ساعاتها تلك كل مظاهر الإعزاز وآيات الحب والأنس وقد جاء جميع الأحبة والأهل بأبهى زينة وأجمل لباس وقد تسابقوا إلى نيل شرف خدمة عروسهم العزيزة.

من ذلك المثال الحي نجد وجه الشبه في تسمية سورة الرحمن بعروس القرآن، فجميع آيات وسور القرآن تتلألأ وقد اعتمرت بمظاهر الزينة والبهجة والنعيم وهن يُحطِن سورة الرحمن المباركة التي قد ضمت في كنفها صور النعم والآلاء ومظاهر اللطف الرباني وألوان النعيم والسرور وعجائب الخلق والابداع والانشاء الإلهي الذي منّ به الله عز وجل على الإنسان في دار الدنيا أو ما سيجده العبد الصالح في غده الآتي الذي سيخلد فيه بعد أن ينتقل إلى دار الآخرة عبر قطار الموت، ثم يذكّر الله عز وجل عباده بعد أن يستعرض لهم نعمه عليهم فيقول (جل جلاله): **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** تذكيراً منه تعالى بعظيم نعمه وجليل آلائه، فتبدو هذه السورة وقد حملت في كنفها الوجه الواقعي للزينة.

عباد الرحمن، عروس عالم الوجود:

وقد ذكر بعض العلماء هذه النقطة اللطيفة التي تفيد أن عباد الرحمن هم عرائس عالم الوجود كما ان سورة الرحمن عروس القرآن، لأن المرء عندما يصير عبداً للرحمن حقاً، يكون قد صار سيداً وعزيزاً وزيناً للخلائق، فالأرض تنتشي وتمتلئ فخراً وسروراً لأن عبد الرحمن قد حمله ظهرها، وفي رواية عندما ينزل العبد المؤمن في قبره تقول له الأرض (بالطبع ان الذي يتحدث هو ملكوت الأرض) يا مؤمن والله اني كنت لأحبك وأنت تمشي على ظهري وكان الفخر يملؤني بذلك ولطالما تمنيت أن أضمك إلي بين أحضاني.

وعندما ينزل بالفاسق أو الكافر إلى قبره تقول له الأرض: يا عدو الله، والله اني كنت لأبغضك وأنت تمشي على ظهري ولطالما تمنيت أن أضمك وأضغطك فأحشرك كحشر المسمار في الجدار.

عباد الرحمن قبلة أنظار الموجودات:

فكما ان العروس في ليلة زفافها محط أنظار الناس المتجمهرين حولها، فعباد الرحمن يصبحون قبلة تجيل النظر إليهم جميع موجودات العالم، بل ويتعدى ذلك بحيث يصبح ملكوت جميع الموجودات خاضع لعباد الرحمن لأنهم أدّوا حق العبودية لله عز وجل، تلك العبودية التي تشتمل على المعاني الحقيقية للسلطان والملك الواقعيين، فيصير عبد الرحمن سلطاناً لتلك الموجودات، ولما نقول شواهد كثيرة نعزف عن ذكرها ابتغاءً لطلب مواصلة الشرح والتفسير.

الوقوف بوقار وحضور قلب على بساط الرحمن:

ومن يرقب العروس في ليلة عرسها عن كثب يجدها تنقل خطاها وئيداً بكل وقار واختيال، وهو عين حال عباد الرحمن الذين يصف المولى عز وجل نقل خطاهم على الأرض قائلاً: **(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً)** (سورة الفرقان، الآية: ٦٣). وأحد معاني الهون هو الوقار والسكينة، فهم يمشون على بساط الرحمن بكل طمأنينة ووقار وسكينة وراحة بال، ويتحركون وقد استحضروا الله عز وجل في كل خطوة

يخطونها، فهم لا يستكبرون ولا يتبخترون في مشيهم لأن ذلك من دأب الجهال الذين تخدعهم المناصب والثروات فينسون الله ويفقدون لذة ذكره تعالى. ووضوح هذا الأمر لا يخفى على اللبيب لذلك لا نرى حاجة تدفعنا لبسط القول فيه. وهناك من يقول انه معنى كلمة (هون) هو التواضع فيكون معنى الآية ان عباد الرحمن ينقلون خطاهم على الأرض بكل تواضع، ولو رماهم الجاهلون بالقول القبيح لما ردوا عليهم بمثله، بل لاكتفوا بقول سلام لكم منّا فنحن لا نروم لكم الفحش أو الأذى فهذا هو شأن عروس عالم الوجود تترفع عن الجهال ولا ترد عليهم إلاّ بالقول المليح الذي يخجل الطرف المقابل، لأن الرد بفاحش القول انما هو من دأب عباد الشيطان الذي قد يرون على الاساءة بما هو اكبر منها، بل ويجدون متعتهم في إلحاق الأذى والضرر بالآخرين.

قبور عباد الرحمن مخادع عرس:

وعندما يكون خلق العباد الأبرار على تلك الصورة تكون قبورهم مخادع عرس لهم، فقد روي ان العبد بعد ان يجيب على مسائلة الملكين في قبره ويفصح عن عقائده الحقه، يقال له (نم نومة العروس) أي نم نومة ليلة الزفاف وأرفل بالمتعة واللذة والارتياح. ثم يضاء القبر وتتلألأ الأنوار في مخدع العرس كما تصرح بذلك الروايات، فيسطع نور من جناحه الأيمن، ويسطع نور من جناحه الأيسر، يسطع آخر من فوقه، وآخر من تحت قدميه ويسطع نور آخر من أمامه، فأما ما يسطع عن يمينه فهو نور صيام العبد، وما يسطع عن

يساره فهو نور حجه، وما يسطع من تحت قدميه فهو نور زكاته، وأما النور الساطع من امام العبد فهو نور ولاية آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) يقول الشيخ الطريحي في كتابه مجمع البحرين، ان العلة الكامنة وراء قول الملائكة للمؤمن الميت (نم نومة العروس) لأن العروس ترفل في ليلة عرسها في افضل وأحلى النعم، والمؤمن الميت حاله في قبره هكذا، اذ تقدم عليه أرواح المؤمنين لاستقباله ويحتفون به فيتلاقفه الواحد تلو الآخر كمن يتلاقف الورد، وهنا نستشهد بهذه القصة التي تفيد مقالنا هذا.

الاحتفال بقدوم المؤمن إلى عالم البرزخ:

كان قد تعاهد رجلان من العلماء فيما بينهما أن يسارع الذي يبكر بالرحيل منهما إلى عالم البرزخ بالاتصال بالآخر عن طريق الرؤيا ليخبره عن مشاهداته في عالم البرزخ، بعد ذلك فارق أحدهما العالم الفاني ورحل إلى العالم الآخر، فمضت مدة من الزمان إلى أن شاهد الآخر صاحبه في عالم الرؤيا، فعاتبه على جفائه له طيلة تلك المدة، فأجابه الميت قائلاً: لقد كنت مشغولاً في حفل كبير غُمْرنا فيه بألوان البهجة والانشراح والمتعة. فرد عليه صاحبه قائلاً: ولأي شيء كان ذلك الحفل؟، فأجابه: لعلك لم تدرِ ان الشيخ الأنصاري قد ترك عالمكم الفاني وأقبل علينا، فلقد عقدنا له مجلس ترحيب لأربعين يوماً بلياليها.

عنوان موضوعات القرآن، بسم الله:

تعد عبارة بسم الله الرحمن الرحيم الواردة في مفاتيح سور القرآن الكريم جزءاً من تلك السور طبقاً لمذهب أهل البيت (ع) وحسب آراء اكثر الفقهاء، بل وتتعدى ذلك إلى أن يأتي بها المصلي في افتتاح السورة التي تلي سورة الحمد بنيّة انها تختص بالسورة الفلانية احتياطاً.

وهي أول آية من آيات الكتب السماوية التي نزلت، وهي أيضاً أول عبارة أُلقي بها إلى آدم أبي البشر (ع) وهي أُولى آيات القرآن الكريم وبها افتتح القرآن الكريم عنواناً، وبهذا الشأن أورد المحقق النيشابوري في تفسيره قصة لطيفة يقرب فيها معنى ان آية بسم الله الرحمن الرحيم هي عنوان الكتاب المجيد، يقول النيشابوري:

واجهة القصر الجميلة، والعطاء القليل:

مرّ فقير يوماً بقصر ذي بوابة عظيمة وواجهة رائعة فقال في سرّه: ان هذه الواجهة لتعرب عن أن صاحب هذا القصر أحد الأشراف أو الأغنياء، فلأناديهم بفقري واسألهم بسد فاقتي وحاجتي لعليّ اصلح أحوالي، فشرع يناديهم بحاجته ويقول ارحموا البائس الفقير، فجاؤوه بكسرة خبز يابسة، فنظر إليها واليهم ثم لم يلبث أن تركهم هنيهة ثم عاد يحمل معولاً فنزل يضرب البوابة بالمعول، فصاحوا به: ويحك ما الذي دهاك يا هذا؟ فأجابهم: دعوني اهدم هذه البوابة المشؤومة لأنها تعلن كذباً عن ان صاحب هذا القصر المنيف ما هو الاّ امرؤ عظيم والحال ان صاحبه لا يعدو ان يكون ذا فاقة، فناشدوه الكف عن

الضرب بالمعول وما زالوا يلحون عليه حتى قال لهم: ما يكون ما تريدون حتى تزيدوني في عطائي!!

ويضرب المحقق النيشابوري بهذه القصة مثلاً على واجهة القرآن الكريم في آية بسم الله الرحمن الرحيم، فهذه الواجهة تعرب عن كونها مدخلاً إلى الرحمة الإلهية وتنطق بلسان الحال قائلة: تعالوا واسألوا الله برحمته الرحمانية والرحيمية، فمن ذا الذي اقبل بوجهه إلى رحمة الله تعالى وهو يشكو له ما به من الضر فلا يجد لنفسه حينها الدواء الناجع لضره؟

بسم الله، تزيل الأحزان وتحل المعضلات:

ويروى ان من أصابه الحزن لعارض يعترضه أو مصيبة ثم يقول بسم الله الرحمن الرحيم مستيقناً بالله راجياً لرحمته، يمن عليه الله تعالى بأحد أمرين، فأما أن يعطيه مسألته، واما ان تكون الإجابة فيها ما يعارض صلاح العبد فيعوضه الله تعالى بأن يهبه من فضلة ما يشرح به صدر عبده. ولعل الرواية الواردة عن الإمام علي الرضا (ع) التي تقول (بسم الله الرحمن الرحيم اقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها) غير خافية على الكثيرين منّا، فنحن نعرف ان النطق باسم الله الأعظم يفتح جميع الأبواب الموصدة، إذاً فما يمنعنا عن حل مشكلاتنا ونيل الرخاء بعد الشدائد من استعمال بسم الله الرحمن الرحيم هذه الآية التي تطرد الشياطين بمجرد النطق بها.

الاستعانة بالله أحد آثار فهم معنى بسم الله:

وما يهمنا هنا هو حقيقة ومعنى بسم الله باعتبار شدة قربها من الاسم الأعظم فالباء في (بسم الله) هي باء الاستعانة، فيكون معنى بسم الله (بعون اسم الله) ويعظم اثر حقيقة بسم الله عندما يدرك قائلها بما يملك من علم وسلوك أنه قد استيقن ان العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة بدون عون الله لأن المرء لا يمكنه أن يبتدع شيئاً من نفسه، بل ان الإنسان لا يملك حتى نفسه التي بين جنبيه، مع ان اسم الله لوحده لا يقدم عملاً أو يؤخره بدون ارادة الله تعالى في تقديم العون المنشود لعبده، فكم من خارج من داره لم يعد لها ثانية؟ وكم من مشيد بناء لم يتم بناءه؟

إذاً لو أدرك العبد حقيقة بسم الله فسيجد ان حالة الاستعانة والتوجه إلى الله قد حصل عنده، فهو عندما يقول في صلاته بسم الله انما يعني انه يقول بسم الله أقرأ وافتح، وبسم الله اعمل وانطلق وأقول، لأنه يعلم يقيناً أنه لا استقلالية له البتة.

يقول الإمام الحسن العسكري (ع) عن معنى بسم الله (تقول بسم الله أي استعين على اموري كلها بالله)[2] إذاً علينا ان ندرك هذه الحقيقة بحيث تصبح لدينا ملكة وسلوكاً دائماً نفهم مع كل بسم الله نقولها أننا قد استيقنا عجز ذواتنا وسائر الأشياء دون إرادة الله تعالى ومشيئته، بل إن المصباح المضي لا يضيء بذاته أو بذات وقوده النفطي أو الزيتي أو الكهربائي وإنما تحصل إضاءته وفق إرادة الله عز وجل، وان حركة ووجود وبقاء كل

موجود انما يتم وفقاً لإرادة الله تعالى. فهذا الحال لو تملك العبد فصدر سلوكه وفق هذا الأساس فسيدرك معنى المسكنة والعبودية الدائمة لله عز وجل الذي ينبع من علمه بحقيقة ومعنى بسم الله.

أَسِمُ على نفسي سمة العبودية:

وقد نقل عن الإمام الرضا (ع) معنى قول بسم الله فقال أسِمُ على نفسي بسمة من سمات الله وهي العبادة، يقول الراوي فقلت يا بن رسول الله (ص) وما السمة؟ قال: هي العلامة). وعلى هذا الأساس يكون معنى بسم الله لقائلها انه يسم نفسه بسمة العبودية لله عز وجل لانه قد ختم قلبه بخاتم العبودية الكاملة لله تعالى معرباً عن عجزه وانكساره وضعفه وأن لا عصمة له إلا بالله وحده. بينما نرى أن الجنس البشري يتهافت منذ القدم في دعوات الربوبية والاستقلالية فيزعم مكابراً انه قام بفعل العمل الفلاني، وابدع الأمر الفلاني وانه سيفعل كذا وكذا، ولولاي لم يكن الأمر الكذائي وما إلى ذلك من المزاعم والادعاءات التي تقف على طرف النقيض من عبارة بسم الله التي لا يفتأ المرء من ترديده إياها لأنه انما ينطق بها باللفظ دون ادراك وجهها الحقيقي وعليه فلا يستغرب من عدم ترتب الأثر على النطق بها، لأن الجسد الذي تفارقه الروح لا قيمة له، بينما تكمن القيمة الحقيقية بسم الله عندما يتعين مكان وجودها في الروح الإنسانية فيحصل حينذاك على تجلي فيوض آثارها.

إشغال القلب بذكر الله:

وعن رسول الله (ص) في صدد اسم الله الأعظم حينما سئل عنه أي شيء يكون؟ قال (ص) (اقطع القلب عما سواه وقل يا الله)٣[3]، ومعنى ذلك ان ينقطع الإنسان عن الغير تماماً ـــ إلى الله وحده، وهي تمام التوكل على الله والاستعانة الحقيقة به، وعن صحة وقبول عمل الإنسان ينبغي أيضاً أن يكون العمل بالصورة التي لا يرى فيها العبد سوى الله وحده حينئذ يمكن الوصول والحصول على اسم الله الأعظم، لأن ما سيدركه الإنسان في اسم الله عز وجل سيكون هو بذاته الاسم الأعظم، ولو حصّل الإنسان جميع الشرائط والأسباب اللازمة للوصول إلى اسم الله الأعظم ثم لم ينقطع إلى الله وحده فليعلم انه لن يتيسر له أبداً ان ينتهل من حقائق وآثار الاسم الأعظم.

احترام اسم الله يوجب شمول الوالدين بعفو الله ورحمته:

وينقل عن الإمام أمير المؤمنين (ع) ان من وجد كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ملقاة على الأرض فرفعها احتراماً وتعظيماً لكلام الله واسمه الكريم منّ الله على والديه بالراحة فيما لو كانا في شدة ونصب، وانعم عليها بفيوض الروح والريحان ان كانا في راحة وثواب، وفوق ذلك كله يدرجه الباري تعالى في الصديقين٤[4].

لذلك وجب علينا ان نهتم بهذا الأمر الذي كثر حصوله في زماننا هذا نتيجة كثرة الصحف والمجلات والاعلانات التي تحمل كلام الله تعالى واسماءه الكريمة التي نراها

ملقاة في الأزقة والشوارع فنسارع إلى رفعها وازاحتها عن سبيل المارة لئلا تسحقها الأرجل اجلالاً وتعظيماً لأسماء الله وآياته، فنحصل بعملنا ذلك على النفع والرحمة.

[٤]

(الرحمن * علّم القرآن) (سورة الرحمن، الآيات: ١و٢).

وجهان في إعراب كلمة الرحمن:

كلمة الرحمن التي وردت في صدر السورة هي آية كاملة، ولها وجهان إعرابيان.

الوجه الأول: هو أن تكون كلمة الرحمن خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هو الله دلّ عليه المعنى بحيث يكون أصل العبارة (الله الرحمن).

الوجه الثاني: أن تكون كلمة الرحمن مبتدأً للجملة التي تليها (علَّم القرآن) بحيث تكون العبارة اللاحقة خبراً للمبدأ، وتأتي العبارات التالية (خلق الإنسان. علّمه البيان... الخ) خبراً ثانياً وثالثاً وهلمّ جرا لذلك المبتدأ (الرحمن)، وقد حذف حرف العطف (الواو) بين الأخبار المتعددة لتعدد العطف، وهو امر مألوف لغةً.

سبب افتتاح السورة بكلمة الرحمن:

لقد افتتحت السورة بكلمة الرحمن لأن متن السورة اشتمل على احصاء وذكر بعض النعم والآلاء الإلهية، المادية منها والمعنوية، الظاهرية منها والباطنية التي أنعم الله بها على عباده، ثم عزز السورة بذكر ألطافه الدنيوية والأُخروية بما فيها اصناف الرحمات العامة والخاصة،

لأجل كل ما سبق جاء الاسم الشريف (الرحمن) في بداية السورة تذكيراً لنا بعظمة تلك النعم والآلاء الإلهية وتعريفاً لنا بأقسام رحمة الله (عز وجل).

يقول الإمام الصادق (ع) في معنى (الرحمن) انه اسم خاص لصفة عامة، و(الرحيم) اسم عام لصفة خاصة كما أشار إلى ذلك صاحب تفسير مجمع البيان، فاسم (الرحمن) يختص بالله وحده ويحمل صفة رحمته الواسعة الشاملة لكل شيء، اما اسم (الرحيم) فهو اسم عام قد يشترك به الآخرون ولكنه يحمل عن الله عز وجل صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين لوحدهم.

لم لا يقال لغير الله رحماناً؟

على الرغم من ان كلمة (الرحمن) هي صفة ولكنها تدخل في حكم الاسم العلم لأنها صفة غالبة، وطبقاً لذلك لم يحصل الجواز في تسمية غير الله تعالى بالرحمن فكان هذا الاسم خاصاً بالذات الإلهية المقدسة، ولو اردنا ان نقول لغير الله رحماناً لما صح ذلك حتى نسبق هذا الاسم بكلمة عبد حينئذ يصح منا أن نناديه بعبد الرحمن.

وقد ذهب البعض إلى ان العلة الكامنة وراء عدم جواز تسمية غير الله رحمن، لأن الرحمن هو من يمتلك الرحمة الواسعة **(ورحمتي وسعت كل شيء)** (سورة الأعراف، الآية: ١٥٦). فرحمة الله عز وجل تسع لتشمل وتغطي كل شيء من اناس وجمادات وملائكة وسائر الخلق بملكها وملكوتها، وما خلق الله وأمره إلاّ من آثار رحمته (عز وجل).

فالنباتات والزروع في حقيقتها اثر من آثار رحمة الله كما يؤكد ذلك قوله تعالى: **(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها)** (سورة الروم، الآية: ٥٠). بل إن وجود أي موجود هو بفضل رحمة الله تعالى فقد أعطاه بمقدار وجوده وبمقدار ما تستدعيه ارادته تعالى في بقاء الموجود ودوامه، وهذا الأمر لا يمكن ان يصدر عن غير الله تعالى، لذلك انحصرت الرحمة الواسعة الشاملة بالله وحده، وصدق اسم الرحمن عليه دون سواه (تبارك ربنا وتعالى).

تجلي رحمة الله في ثمار الصيف:

في كتاب توحيد المفضل، ساق الإمام الصادق (ع) جملة من الأمثلة على رحمة الله الواسعة ومن جملة ما ذكره الإمام (ع): فانظر إلى البطيخ، فلو كانت نبتة هذه المثار أشجاراً لما استطاعت أغصانها أن تتحمل ثقل وزن هذه الثمار (إذ قد يصل وزن بعض هذه الثمار إلى عشرات الكيلو غرامات) لذلك كانت هذه النبتة زاحفة على الأرض مفروشة عليها.

ومن رحمته الواسعة أيضاً ان خلق الثمار ذات القدرة على اختزان السوائل من ثمار الصيف ليطفئ بها الإنسان حرارة صيفه ويمد بدنه بما ينضح منه من عرق لئلا يجف البدن فتكون هذه الثمار معيناً لبدن الإنسان من حيث الرطوبة والسوائل اللازمة لتوقي جفاف البدن. فجعل الله ثمار البطيخ والرقي وأشباه ذلك في فصل الصيف دون الشتاء تبعاً للمنفعة اللازمة.

اعطاء الحس والشعور اللازمين للموجودات:

ولقد أعطى الله تعالى لكل شيء من الكائنات ما يستلزمه في حياته، حتى المقدار الضروري من الحس والشعور والوسائل والأسباب التي يفترض وجودها لتحقق الشعور والحس والادراك، فمثلاً نرى الحس والشعور موجودين في النباتات، فهي عندما تنمو نراها تتنحى عن الأجسام الصلبة التي تعترض حركتها بحيث تبقي على نفسها من حالة استمرار تعرضها لأشعة الشمس باعتبارها أحد العناصر اللازمة في تأمين الغذاء والنمو ومواصلة الحياة، لأن الجزء الذي لا يتعرض إلى أشعة الشمس بصورة مباشرة أو غير مباشرة سيؤول إلى التلف والفساد، وهذا المقدار المحدود من الحس والادراك لازم وضروري في حياة النبات، لذلك يهبه الباري تعالى وفق مستلزمات حياة النباتات.

وما صدق على النبات، يصدق على الحيوان أيضاً فهو كالنبات وسائر الأحياء الأخرى بحاجة ماسة إلى توافر الشعور والادراك فيه ولكن على نحو اكثر رقي وتطور مما هو عليه في النبات.

فهو (الحيوان) يحتاج إلى الحس والشعور اللازمين لتوفير الاستعدادات الدفاعية والحفاظ على حياته من الأخطار الخارجية المحدقة به ومن الأخطار الداخلية المحيقة به أيضاً، بحيث نرى أن قوائم الحيوان وعيونه وآذانه وأسنانه وغيرها تكون على نحو تمكنه من تأمين الدفاع الذاتي له في مواجهة الأعداء.

فنجد من الحيوانات ما هو زاحف على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين ومنها ما يمشي على أربع كما يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى **(فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع)** (سورة النور، الآية: ٤٥). وقوله عز وجل **(الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)** (سورة طه، الآية: ٥٠). إذاً أعطى الله (عز وجل) لكل موجود ومخلوق تركيبته وهيئته التي تناسبه حالاً وكمالاً، وهذا ما نعبر عنه بالرحمة التي خُلق الله فيها الموجود وأعطاه من القدرة التي تمكنه من تمييز الضر والسوء من الخير والصلاح كيما يستطيع دفع ذلك الضر وجلب النفع لنفسه وهو ما عبّر عنه الباري تعالى بالهدى، وما الهدى الاّ لون من ألوان الرحمة الإلهية لمن يتأمّل.

إلمام الحيوان بصنعة الطب:

ولقد ذكر بعض أهل العلم عن معرفة الحيوانات لمنفعة الطب قائلين:

١ ــ إذا مرض الأسد، فانه يعالج نفسه من خلال أكل القردة.

٢ ــ ويعالج الكلب نفسه بأكل ورق النيل ١[1].

٣ ــ ويعالج الخنزير البري نفسه بأكل السرطان.

---

١ [1] النيل، نبات ينمو في المناطق الحارة كالهند ويستعمل في صناعة صبغ الملابس والأقمشة باللون الأزرق (النيلي).

٤ ــ ويعالج البعير نفسه بتناول ورق البلوط.

٥ ــ ويعالج الضبع نفسه بأكل عذرة الكلب.

٦ ــ ويعالج الببر٢ [2] نفسه بتناول الكلاب.

٧ ــ ويعالج الدب نفسه بأكل النمل.

٨ ــ ويعالج الذئب نفسه بأكل التراب.

٩ ــ ويعالج النمر نفسه بأكل التراب.

١٠ ــ ويعالج الفهد نفسه بأكل الفئران.

١١ ــ ويعالج الثعلب نفسه بأكل القصب، وهكذا أيضاً بالنسبة للأرنب.

١٢ ــ ويعالج الغراب نفسه بأكل الشعير.

١٣ ــ ويعالج الهدهد نفسه بأكل العقارب.

١٤ ــ ويعالج الحمام الجبلي نفسه بأكل الجراد.

١٥ ــ وتعالج القطة نفسها بأكل نبتة سطوح المنازل٣[3].

---

٢ [2] البَبْر، بفتح الباء الأولى وسكون الثانية، وهو حيوان من السنوريّات يشبه النمر ولكنه اضخم منه ويقارن الأسد في هيئته ولكنه يتخلف عنه في الفعالية والنشاط.

٣ [3] وهو نبات طبيعي ينبت على سطوح المنازل الطينية في فصل الربيع.

الأدوية الناجحة للأوجاع القلبية للقطط، والعمى عند الأفاعي:

واعجب ما قيل عن أدوية آلام الحيوانات التي توصلت إليها تلك الحيوانات بفضل ما أودعه الله تعالى فيها من غرائز ما ذكره الدميري في كتابه (حياة الحيوان) فقد أشار إلى موارد لطيفة بهذا الشأن، يقول إن القطط عندما تشتكي وجع القلب، تذهب إلى سطوح المنازل حيث ينبت عشب أخضر زاهي اللون فتتداوى به عن طريق أكله، فلا تلبث حتى تتحسن أحوالها وتعود لها عافيتها من جديد، وعن الأفاعي (وهي أنواع من الحيّات السامة) يقول إن الأفاعي غالباً ما تعمر ألف سنة أو اكثر، فهي بعد أن تطوي من عمرها الألف عام تصاب بالعمى أو بضعف البصر الشديد، فتتحرك (وفق الغريزة التي أودعها الباري فيها) صوب شجرة تدعى شجرة الرازيانه أو شجرة الأسرار، (وتمتاز هذه الشجرة بالقدرة على سحب الأشياء والادواء الحائلة دون القدرة على الأبصار لدى الأفاعي)، فتطوي الافعى الفيافي والقفاز والمسافات من خلال قدرتها الفائقة على الشم حتى تعثر على تلك الشجرة ثم تقترب منها وتأخذ بدلك عينيها بورق تلك الشجرة لتنتهي من عملية الدلك هذه وقد عادت صحيحة البصر.

الرحمة الواسعة التي لا تستثني شيئاً:

كل ذلك كان من آثار رحمة الله الواسعة التي لا تغادر شيئاً من أشياء الوجود، والجميع يرفل في نعيمها، الغني والفقير على حد سواء، باعتبار ان هذه الرحمة هي لون من ألوان العطاء

الإلهي الذي يعم جميع الكائنات دون تفاوت أو استثناء يقول تعالى **(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)** (سورة الملك، الآية: ٣). ويذهب القرآن الكريم إلى تأييد هذا الأمر في قوله (عز وجل) **(انزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها)** (سورة الرعد، الآية: ١٧). وهو تشبيه لرحمة الله تعالى التي مثلها مثل الماء الذي تمطره السماء فتمتلئ به الاوعية، كل وعاء بقدر سعته، فالكأس يمتلئ بسعته، والحفيرة تمتلئ بسعتها، والبحر يمتلئ بسعته، فرحمة الله الرحمانية تغمر الخلائق جميعاً كل حسب قدره وسعته واستعداداته الذاتية وقابلياته التكوينية لينعموا بها.

نَحنُ كنّا عَدَماً دونَ أنْ نُفصِح سُؤالاً   سمِعَ البارئ منّا ما عَجزنا عنهُ مُقالاً

والرحمة الخاصة بالمؤمنين أوسع:

أما القسم أو النوع الآخر من رحمة الخالق (تعالى) فهي الرحمة الخاصة بالمؤمنين، والتي يُعبر عنها بالرحمة الرحيمية، وهي اوسع من الرحمة الرحمانية بمراتب متعددة، فهي وان كانت محدودة بأهل الإيمان إلاّ انها من حيث الكم والمقدار تعدل مائة ضعف من الرحمة الرحمانية وهذا ما يؤكده قول النبي (ص) (ان لله عز وجل مائة رحمة، انزل منها واحدة إلى الأرض فقسمها بين خلقه، فبها يتعاطفون ويتراحمون، وأخّر تسعاً وتسعين يرحم بها عباده يوم

القيامة)٤[4] فما رحمة الله عز وجل الواسعة التي عمّت الخلائق أجمعين الاّ جزء من مائة جزءٍ من الرحمة الإلهية التي اودعها (جل جلاله) في قلوب وأرواح المؤمنين وأوليائه الصالحين وهذا يعني ان الرحمة الرحيمية هي رحمة اكتسابية لا تكوينية، أي انها تصل إلى متناول بني البشر من خلال السعي لها وطلبها فهي تختلف عن سنخ الرحمة العامة التي هي في واقع الحال قد صارت في متناول الجميع دون سعي لها أو طلب للحصول عليها، فبالرحمة الرحيمية التي يحصل عليها العبد ينعم بآثارها المتجسدة بالمنازل الشامخة والمراتب المعنوية الرفيعة ونيل جنة الخلد والوصول إلى رضوان الله تعالى، وهذا لا يتحقق بالضرورة الاّ ان يرتفع الإنسان إلى منزلة الإنسانية التي ارادها الله له، وبعكس ذلك فان الانحدار نحو مرتبة الحيوانية لا تؤمن للمرء اكتساب هذا القسم من الرحمة كما قد سلّمنا بداهة إلى أنه ما من سبيل للحيوانات إلى الجنة والرضوان، ولو قلنا جدلاً بأن الحيوانات يمكن أن يصار بها إلى الجنة فستبقى غير قادرة على الانتفاع من سنايا الجنة ومواهبها. وما يصدق على الحيوانات ذوات الاربع يصدق أيضاً على الحيوانات ذوات الرجلين، لأن العدل يأبى على الله عز وجل أن يساوي في النعيم بين المؤمن الكادح وبين الحيواني، اللاهي باعتبار التمايز بين القدرات المعنوية والبهيمية، ثم إن الجنة وما فيها محض أنوار، وهذه الأنوار لا يستطيع الابصار بها من عمي عنها في دار الدنيا، ومن انعدمت لديه القدرة على رؤية الأنوار ستنعدم لديه القدرة

---

٤ [4] تفسير مجمع البيان، للطبرسي.

على رؤية الألوان فلن يكون بمقدار الأعمى ان يبصر ألوان ازاهير واوراد الجنة وانعدام التمييز لديه فصارت الألوان كلها سوداء في ناظريه، ومن يفقد حاسة شمه لن يعد بمقدوره ان يشم طيب الروائح والعطور، بل وما فائدة انغام الجنة وصوت داود (ع) لمن به صمم؟!، وبعد كل هذا وذاك أيحسن الادراك من عمي وصم وبكم عن الحق كما يقول المولى تعالى **(صم بكم عمي فهم لا يعقلون)** (سورة البقرة، الآية: ١٧١). إذاً لا بد من توفر الاستعداد والصلاحية الذاتية الاختيارية لدى الافراد لنيل الرحمة الرحيمية، وعندما نقول اختيارية نعني ان يفتح المرء اذنيه لسماع دوي الحق وان يكشف عن بصره لرؤيته جلياً وأن ينزع الاغلال والاصفاد المادية التي يقيد بها يديه ورجليه.

العمى والصمم الناشئ عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب:

ففي النظرة المحرمة إلى غير المحارم خيانة، لأنها سهم شيطاني يسدده المرء نحو بصيرته ولعل تكرارها يؤدي إلى الاصابة بالعمى فيصبح المرء محروماً من القدرة على رؤية ألوان الرحمة الخاصة بسبب عميه عن رؤية الحق بعينه.

وكل استماع واصغاء للغو المحرم من موسيقى مطربة أو أغانٍ محرمة ما هو الاّ إسدال لستائر الصمم على الأذن الباطنية لدى الإنسان، مما يؤدي الاسراف فيها إلى وقوع الصمم في أذني المرء الظاهريتين، ويعدّ الكذب واستماع التهمة وعيوب الناس من جملة اللغو المحرم

استماعه، ولو تحاشى المرء كل ذلك لكتبت له الرحمة الخاصة وعداً من الله حقاً كما يبشر الله تعالى عباده بها في قوله (فسأكتبها للذين يتقون) (سورة الأعراف، الآية: ١٥٦). اذ ان الرحمة الرحيمية قد آل بها الله عز وجل على نفسه أن يهبها للمتقين من عباده ومعنى ذلك ان يتناسب نيل الرحمة الرحيمية مع مقدار التقوى لدى العبد المسلم، فكلما ارتفع منسوب التقوى لديه ازداد نصيبه من الاستعدادات والقابليات على الانتفاع والاستمتاع بألوان وعطور ونعم الجنة، وكلما ازداد تطهر الإنسان وزكى عمله في دار الدنيا كلما تحقق له الرصيد الأوفى من النعيم والسعادة الابدية في الآخرة، لأن الآخرة هي دار الفصل والتمايز بين الطاهرين والمتنجسين كما يشير إلى هذه الحقيقة قوله عز وجل (ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) (سورة الدخان، الآية: ٤٠). فكيف يمكن لنا أن نرى من قد علا الدرن والاقذار جسده وهو يجالس سلمان الفارسي؟!!

لذلك كان حريّ بنا جميعاً ان نبادر ونسارع بالرجوع إلى ذواتنا ونجيل النظر في شريط عمرنا لنبحث فيه عن مقدار ما كسبنا فيه من حصيلة التقوى لنعرف درجة اللياقة والاستعداد في نيلنا لرحمة الله الرحيمية الخاصة.

إذاً نخلص بالقول من كل ما سبق أن (الرحمن) هو صاحب الرحمة العامة الشاملة لكافة الموجودات في عالم الدنيا، و(الرحيم) هو صاحب الرحمة الخاصة بالمؤمنين، ورغم ان الرحمة الرحمانية تشمل الجميع إلا ان الرحمة الرحيمية أهم واكبر لأنها الرحمة الباقية

الابدية، وهي الرحمة التي تنفع الإنسان في يوم يكون فيه في أشد الحاجة وأمسّها إلى مثل تلك الرحمة ولكن لن ينالها أبداً إلا من سار في ركب أهل الايمان وأعدّ نفسه للتأهل بها.

التوفيق للإسلام في ضيافة إبراهيم الخليل (ع):

وفي مناقب سيدنا ابراهيم الخليل (ع) أنه كان لا يتناول الطعام وهو وحيد دون أن يكون عنده ضيف، ولعله كان يخرج في كثير من الأحايين ثم يقف على قارعة الطريق ليقدم الدعوة إلى الضيافة لعابر سبيل، وفي أحد الأيام جلب بصحبته رجلاً كافراً قد دعاه لتناول الطعام في ضيافته، ولما شرعا بتناول الطعام بادر النبي ابراهيم بالقول (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم التفت إلى ضيفه قائلاً: قل بسم الله وباشر بتناول طعامك، فأجابه الرجل: ولكني لا ادري من هو الله لاذكر اسمه! فقال ابراهيم (ع): إذاً انفض يديك عن الطعام وانصرف لشأنك.

فأنصرف الضيف إلى حال سبيله، وفي تلك الاثناء نزل الوحي الإلهي على ابراهيم وهو يحمل العتاب قائلاً: لِمَ رددت الضيف؟ لقد كان الله تعالى يرزقه طيلة سنيّه السبعين، ولما أوكل الله تعالى لك رزقه ليوم واحد رددته!

(ولقد أجاد الشاعر الإيراني سعدي الشيرازي وهو يصف رحمة الباري تعالى في جزيل عطائه حيث يقول:

اديم زمين سفره عام اواست   براين خوان يغماچه وشمن چه دوست

ومعناه:

وما أديم الأرض إلاّ مائدة منه غيداً   قد دعا لها الشقي ممن بَرَا والسعيدا

فلما سمع ذلك من الوحي، سارع ابراهيم إلى اللحوق بضيفه وطلب منه العودة، فاعترته الدهشة وقال له: ليس لك إلى ذلك من سبيل حتى تعرفني سبب لحوقك بي، فحدثه ابراهيم (ع) بما جرى من خبر الوحي، وهنا اعترى الكافر الخجل من عظيم أدب ربه وراح يقول: الويل لي، كيف يكون عندي هكذا رب ثم أولي بوجهي عنه وعلى إثر ذلك أعلن هذا الرجل اسلامه على يد الخليل ابراهيم (ع).

نعم اسلم بفعل ما للرحمة والتوفيق من جاذبية، فوصل ببركتهما إلى ساحل الهداية، ولذلك جاء الحديث النبوي الشريف (اكرموا الضيف ولو كان كافراً) لما لهذا الأدب الرباني من جاذبية في تربية الإنسان وجره إلى ساحل النجاة، ولكن وللأسف الشديد بل ومع كل الأسى، فأن ضيف كربلاء الكريم سبط الرسول (ص) وفلذة كبد أمير المؤمنين وبضعة الزهراء البتول (ع) لم يحجب عنه الماء وهو ظمآن فحسب بل وانتهك أهل الكوفة حرمته ثم أوردوه الردى بعد أن دعوه إليهم.

[٥]

(الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان* علّمه البيان) (سورة الرحمن، الآيات: ١ ــ ٤).

تعلم القرآن أحد السبل المشرعة نحو نيل النعم:

لقد ذكرنا آنفاً ان العلة الكامنة في افتتاح هذه السورة الكريمة بالاسم المبارك (الرحمن) هي ما تستعرضه هذه السورة من ألوان النعم الظاهرية والباطنية على ما سيأتي التطرق إليه، ولعل اكبر هذه النعم التي تستعرضها السورة هي نعمة تعليم القرآن **(علّم القرآن)** التي لولاها لما تيسّرت الاستفادة من سائر النعم الأخر، فقد علّم الرحمن تعالى حبيبه محمد (ص) القرآن، وقام النبي (ص) بدوره في تعليمه لسائر المسلمين، هذا الكتاب الذي جمع بين دفّتيه مختلف المعارف والعلوم المشتملة على المعاني التي لا تنتهي حدودها بقوالب لفظية اتسعت لهن ألفاظ القرآن بالشكل الذي يعجز عن مساجلته بني البشر، فضلاً عن الاتيان بمثله باعتبار عجز قدراتهم، ولقد اتسع قلب الرسول الكريم (ص) على الاستاع لهذا القول الثقيل من الوحي **(انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً)** (سورة المزمّل، الآية: ٥). فأجراه البارئ عز وجل على لسان النبي الشريف بيسر وعلّمه الآخرين، ولذلك يعد بعض العلماء مسألة قبول الوحي مشكلة حقيقية لم يستطع أحد ان ينبري لها سوى رسولنا الكريم (ص) بما أمدّه الله تعالى من قوة وقدرة الهيتين جعلتاه مؤهلاً لاستقبال الالقاء الإلهي للقرآن وحمله إلى الآخرين بكل يسر وسهولة **(ولقد يسّرنا القرآن للذكر)**. (سورة القمر، الآية: ١٧).

لا يعدو الإنسان المنزلة الحيوانية عند التجرّد عن الروحانية:

وبفضل القرآن ومعارفه وتعاليمه الأخلاقية يترفّع الإنسان عن حد البهيميّة فيستحيل إنساناً، وبغير ذلك يبقى الإنسان موجوداً حيوانياً يمشي على رجلين، ولعله يتسافل وينحدر في شهواته إلى ما دون أي حيوان آخر، بل قد يتوحش في سلطان غضبه إلى الدرجة التي تهون دونه كل الوحوش الكاسرة، أو يصبح حريصاً على جمع الأموال فيتفوق على كل حيوان **(ذلك مبلغهم من العلم)** (سورة النجم، الآية: ٣٠). لذلك تأتي بركة القرآن الكريم في تنظيم وتقنين الاستفادة من الروح وملكاتها كما يؤكد هذه الحقيقة الحديث الشريف الذي استشهد به عامة أصحاب التفاسير في قول الرسول (ص) (أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل) لأن الشرف الذي يكتسبه الناس من القرآن سواء كان معرفة أو كمالاً انما هو شرف حقيقي استودعه القرآن لبني البشر، وعلى ذلك كان الأفراد المشتغلون والمتعاطون للقرآن هم الذين قد اكتسبوا الشرف والكمال لما في القرآن من نظام للحياتين في داري الدنيا والآخرة، ولقد كان القرآن شفاء من علل واسقام الجهل، إذ ان الطب الإلهي القرآني هو الذي يتصدّى لعلاج وشفاء الأمراض والادواء الباطنية للنفس والهوى وما يعتلج في الصدور **(وشفاء لما في الصدور)** (سورة يونس، الآية: ٥٧). وكذلك فان القرآن يأخذ بأيدي الناس نحو الهدى والرشاد من خلال آياته المشتملة على المعارف القرآنية وتحديد ملامح المبدأ والمعاد واستعراض صفات الله تعالى وأفعاله، ولولا القرآن لما أطلّع أحد على أبناء مبدأه ومعاده وحقيقة وجوده بشكل واضح.

الأشراف، أصحاب اللّيل:

والمجموعة الثانية من أشراف الأمة هم أصحاب الليل كما ورد في الرواية الشريفة الآنفة الذكر، والمقصود بأصحاب الليل هم أهل إحياء الليل الذين يقضون الليل قياماً لله تعالى ويقفون على عتبته المقدسة في الأسحار ويتوجهون إليه وقد استيقنوا ما سيؤول إليه معادهم ببركة ما اخبرهم به القرآن العظيم، لذلك تراهم قد أعدّوا عددهم وهيّئوا زادهم في رحلة إلى دار البقاء بما صدقوا به واعتقدوه فلن يصيبهم بعد ذلك نصب أو قتر مما يصيب أهل الدين الذين حرصوا على الدنيا وأموالها فهم يقومون الليل ويكدّون النهار رجاء جمع المال ونيل الأوطار من نعم تزول ونعيم لا يطول، فرحل أهل الآخرة في حرصهم على طلب الحسنات والزهد في الدنيا سعياً وراء لآخرة، لذا نراهم يهجرون الفراش الوثير والنوم الهانئ إلى رقدة القبر، فيقومون الليل يتلون في بكاء وأنين وبث الشكوى متأرجحين بين الخوف من ربهم والرجاء لما عنده في دعاء وتضرع ومناجاة كما يتصور هذا المشهد الرائع في قوله تعالى **(تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً)** (سورة السجدة، الآية: ١٦).

خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه:

يقول النبي المختار (ص) (خيركم ــ أو خياركم ــ من تعلّم القرآن وعلمه)٥[5] والمقصود بالتعلّم هنا هو العلم المقرون بالعمل، وبالطبع فان العلم بالقرآن يؤدي إلى معرفة الله وتوحيده

---

٥ [5] تفسير البرهان، (ج١، ص٤).

والاستخبار عن المعاد من خلال الآيات الدالة على المعاد كيما يضمّها القلب في كنفه ويستحضرها الفكر متاعاً للسفر نحو الدار الآخرة فيتعرف الإنسان على آيات العمل ليعمل بها، اما تعلّم القراءة لوحده فلا نعتقد بوجود نفع كبير فيه باعتبار ان تلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه انما هو في الواقع مقدمة للمعرفة واليقين والعمل.

أفليس عجيباً ان يلم المرء بتعاليم القرآن الاخلاقية بشكل جيد ويُحسن تلاوة القرآن وينقل علومه ومعارفه ويعلّمها بشكل فذ، لكنه في سلوكه العملي يقف على النقيض من ذلك؟ ولكي نضع هذا الأمر موضع الوضوح نورد هنا بعض الأمثلة على ذلك.

العفو، ودفع السيئة بالحسنة:

فلقد ورد في جملة التعاليم الأخلاقية القرآنية، العفو والتجاوز عن المسيئين، يقول المولى عز وجل: **(وليعفوا وليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم)** (سورة النور، الآية: ٢٢). أي لو عفى بعضكم عن بعض لعفى الله عنكم، وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى **(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن)** (سورة فصلت، الآية: ٣٤). فكيف بنا لا نستغرب ادعاءات البعض أنهم من أهل القرآن ثم نجدهم لا يتجاوزون عمن أساء بحقهم أو يدفعون السيئة بالحسنة!!

إذاً لا بد لأهل القرآن ان يردوا على من فحش لهم بالقول بليّن الحديث، وان يحسنوا القول فيمن ذكرهم في غيابهم بسوء، وان يحترموا من احتقرهم، وان يصلوا من قطعهم، أليس كذلك؟

تعلّم القرآن لأجل العمل به:

لذلك كان تعلم القرآن يهدف إلى الحصول على النتائج العلمية والعملية التي تحقق خير البشرية كما نجده في الرواية الشريفة التالية التي أوردها كتاب بحار الأنوار في المجلد التاسع عشر من باب قراءة القرآن كما في مضمونه الآتي: (في صدر الإسلام الأول كان الرجل الذي يعلن اسلامه يبعث به إلى أحد أصحاب النبي (ص) لأجل ان يتعلّم القرآن، فيباشر الصحابي تعليم المسلم الجديد العهد بالاسلام عشر آيات ولا يُعلمه عشر أخريات حتى يعلم العشر الأوائل)، وها قد تعلمنا نحن أيضاً هاتين الآيتين المتضمنتين للعفو عن المسيء، ومقابلة الإساءة بالاحسان، كيما نجعلهما نموذجين في حياتنا العملية لكي لا نكون ممن ادعى نسبة لأهل القرآن ثم تلكّأ في العمل بما فيه.

نزول السكينة في قلب قارئ القرآن:

وعنما يجلس المرء ليتلو القرآن ينزل الله تعالى عليه النور والسكينة فيعمر قلبه بهما كما في قوله تعالى **(هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين)** (سورة الفتح، الآية: ٤). وانما يتم

نزول السكينة في قلوب المؤمنين لكي يزدادوا إيماناً، وهذه البركة القرآنية العظيمة انما تحصل لأهل القرآن لكي لا تضطرب بعد ذلك قلوبهم تأثراً بالاضطرابات الدنيوية، فيشمخ اولئك كالجبال الرواسي، وينعمون بالاً لأنهم (من فزع يومئذ آمنون) فلا تهولهم الافكار ولا الظنون، وقد جاء في حديث شريف ما مضمونه (خيركم من كان كحال المرتحل، قيل وما ذاك يا رسول الله (ص)؟ قال: **(من يختم القرآن ثم يعاود الكرّة من جديد)**٦[6] وعن الإمام الصادق (ع): **(عندما تعييك الحاجة، فأجعل القرآن وسيلتك في طلب الحوائج)**٧[7].

القرآن، أعظم النعم الآلـهيّة:

ولا شك ان القرآن الكريم هو افضل نعم الله تعالى على الإنسان، فقد اشتملت سورة الرحمن على ذكر الكثير من النعم الربانية ما ظهر منها وما بطن، وعلى رأس تلك النعم جاء ذكر القرآن والشمس والقمر وغيرها ولكن ما الفائدة من سائر النعم الإلهية فيما لو افتقد الإنسان نعمة الهدي القرآني؟ فتصور نفع وجود الجنة للناس في حال افتقادهم للقرآن الهادي والدليل الصائب نحو الجنان، لذلك جاء الباري تعالى بذكر تعليم القرآن في أول سرده للنعم، وجاءت آخر وصايا النبي (ص) بالتزام القرآن والعترة النبوية (ص).

التوسل بالقرآن والعترة لأجل قضاء الحوائج العظيمة:

---

٦ [6] بحار الأنوار، المجلد التاسع عشر.

٧ [7] بحار الأنوار، المجلد التاسع عشر.

روي عن الإمام الصادق (ع) كما جاء في كتاب الصلاة من كتاب بحار الأنوار أنه قال: (لو كانت لديك حاجة هامة فتوضأ عندما يسدل الليل أستاره على الدنيا وصلّ لله ركعتين، تقرأ في الأولى بعد الحمد آية الكرسي، وفي الثانية بعد الحمد أواخر سورة الحشر **(لو أنزلنا هذا القرآن...)** ثم تقرا هذا الدعاء بعد سلام الصلاة (وهو الدعاء الذي يقرأ في ليالي القدر) وقد نشرت القرآن على رأسك قائلاً بك يا الله عشر مرات ثم بمحمد (ص) عشر مرات ثم... (وتذكر أسماء بقية المعصومين الاربعة عشر على النحو الذي مر ذكره) إلى ان تصل إلى ذكر الحجة (ع) ثم تطلب حاجتك فانها تقضى باذن الله تعالى أياً كانت الحاجة). نعم لأن التوسل بالقرآن والعترة لا يرد وخصوصاً في أوقات السحر لأن له فضيلة اكبر.

---

[٦]

(الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان) (سورة الرحمن، الآيات: ١ ــ ٤).

خلْق الإنسان ونعمة البيان:

قلنا أن الرحمن علم حبيبه محمد (ص) القرآن المجيد، وقام النبي (ص) بدوره بتعليم القرآن إلى أمّته بعد أن يسر عليهم مطالبيه من حيث الكشف عن خفي اموره اللطيفة وأسراره الربانية ومكنونات عالم الخلق ومسائل المبدأ والمعاد، ثم تسوق السورة الكريمة نعمة أخرى عظيمة هي افضل النعم بعد تعليم القرآن إلا وهي نعمة خلق الإنسان وتعليمه البيان، والمقصود بالبيان هو الافصاح عن رغباته الداخلية، وقد يكون البيان نطقاً أو خطاً بالقلم أو اشارة وايماءً يعرب فيها الإنسان عما يريد الافصاح به للآخرين، وهو يختلف عما لدى سائر الحيوانات التي تستخدم وسائل محدودة من البيان للأعراب عن الاحساسات والمعاني تكون محدودة باعتبار محدودية المعاني والادراكات لديها عما هي عليه لدى الإنسان لأنها انما تستخدم وسائل لأجل رفع حاجاتها ليس إلاّ، فمواء القطط عند الجوع يأخذ نبرة معينة يختلف عن نبرة الغضب ويختلف أيضاً عن نبرة التملّق أو الدلال ويختلف كذلك عن نبرة الإجابة عندما تسمع صوت وليدها، ولكننا لو انتبهنا إلى وسيلة بيان القطط لا نراها تعدو عبارة (ميو ميو) ولكنها تدرك ألف الميو وباءه بشكل مختلف تماماً عما ندركه نحن في جميع تلك

الموارد، وهكذا الحال لدى سائر الحيوانات وان تباين زيادة أو نقيصة في الافهام أو الاستفهام ولكن يبقى بيانها بياناً محدوداً وناقصاً.

اما عن الإنسان فان الله (عز وجل) ميّزه بنعمة البيان والمنطق بأحلى صور البيان وأروعها بحيث يستطيع من خلالها أن يدرك أخفى الموضوعات، وان يعرب عن الالم الذي يكتنفه وان يبين المعاني الجزئية فضلاً عن الكليّة، والحقائق والمعارف فهو يمتلك من القدرة ما يستطيع به ان يفصح عن كل ما يدركه نطقاً وهو ما نسميه بالبيان نعم، لقد خلق الله تعالى الإنسان على نحو يستطيع فيه ان يقول **(خلق الإنسان * علّمه البيان).**

اللسان ومخارج الحروف، من عجائب الخلق:

فتعالوا إلى اللسان، هذه القطعة اللّحمية المستقرة في الفم وانظروا إلى روعتها، فهي تتحرك بكل حرية في محيط الفم بين الحنجرة والشفاه لتخرج ثمانية وعشرين حرفاً عربياً واثني وثلاثين حرفاً فارسياً، اذ لدينا ستة حروف عربية تنشأ عن حركة اللسان في الحلق وهي (الهاء والحاء والخاء والعين والغين والهمزة) ومنشأ أصوات هذه الحروف في حلق الفم انما يتم بتحريك الإنسان للسان ليضرب بمخارجها فتظهر أصواتهن جليّات.

وهناك اثنا وعشرون حرفاً عربياً تصدر عن أول الحلقوم إلى الشفتين بضمنها حرفان يصدران عن الشفتين هما (الباء والميم) فيصبح مجموع الحروف على ما ذكرنا ثمانية

وعشرين حرفاً عربياً، علماً ان للأسنان من ثنايا وأنياب دور مهم في ظهور أصوات عدد من هذه الحروف، رغم ان المسافة الممتدة بين الحلقوم وفضاء الفم (الحلق) لا تعدو شبراً واحداً ولكن يصدر عن هذا المحيط المحدود ثمانية وعشرون حرفا في قدرة ابداع إلهية جلية، يتم بعد ذلك التوليف والعقد بين هذه الحروف لتخرج الكلمات والجمل والعبارات والموضوعات المفيدة التي تتزاحم بل وقد تتصارع في ذهن الإنسان لينقلها إلى الآخرين في المحيط الخارجي فيتعرف بنو الإنسان على حاجات ورغبات وأفكار بعضهم البعض. وما التعلّم والتعليم إلاّ من النتائج الحاصلة لبركة نعمة النطق والبيان، بل وما هذا التطور والرقي في ميادين التصنيع والاختراعات والمكتشفات إلاّ من آثار فضل النطق والبيان الذي نقله الاسلاف إلى الأجيال الآتية وصولاً إلى تكاملها، فتأمل كيف ان النطق والبيان لو لم يكن لضاعت أتعاب وجهود الناس لثلاثين أو أربعين سنة في ميادين التصنيع والمخترعات، وقد أشار الإمام الصادق (ع) إلى هذه الحقيقة ضمن وصاياه للمفضل بن عمر حيث قال (ع) ما مضمونه: (ولو لم يكن الله (تعالى) قد أنعم على الناس بنعمة النطق والبيان لضاعت ومحيت جميع العلوم والصناعات والحرف ان معنوية كانت أم علوماً دينيه) لأن المعارف الإلهية لا تتحقق إلا بفضل النطق والبيان.

أدوار القلب والدماغ والذاكرة في النطق:

والشيء العجيب هنا هو أن نعمة البيان لها صلة وثيقة بسائر الأعضاء والجوارح، وخصوصاً بالقلب والدماغ، فلو أصيب القلب بالجلطة لأصبح لسان المرء ثقيلاً فيبتلى حينها (بالتلعثم) أو ما يسمى باللكنة أو اللثغة الكلامية.

ولو أصيب الدماغ بجلطة أو بضربة أو صدمة أو ارتجاج على فرض سلامة باقي أعضاء وأجزاء البدن لتعطل اللسان عن العمل في اغلب تلك الحالات.

وللنطق اللساني صلة وثيقة أيضاً بالقوى الباطنية لدى الإنسان، فهو يرتبط بالحس ويرتبط أيضاً بالذاكرة التي تسمى أيضاً (الحافظة)، ودور الذاكرة يتحدد في مهمة تسجيل المعاني باعتبارها خزانة لحفظ المعاني والألفاظ، فعندما يريد المرء ان يشرع بقراءة سورة الفاتحة في صلاته يفترض انها قد حفظت في الذاكرة، ولو افترضنا ان الذاكرة لم تسجلها، فتصوروا كيف سيتأتى لهذا الإنسان ان ينطق بسورة الفاتحة؟ بل لو لم تحتفظ الذاكرة بالمواضيع والمعلومات لتعطل دور الخطيب في الارشاد والتذكير لأنه سوف لا يجد ما يريد قوله للناس من على منبره، لذلك كان دور الذاكرة وقوة حفظها دوراً فاعلاً يساعد حتى في عملية الكتابة، فالخطاط الذي يفقد ذاكرته لا يستطيع بعدها ان يخط بيمينه حرفاً واحداً ألفاً كان أو باءً (لا سمح الله تعالى)، بل ان عدم وجود الذاكرة لعله ينقلنا بشكل قاطع إلى العدم لما يترتب على ذلك الأمر من مخاطر ومفاسد.

فالرحمن علم القرآن وخلق الإنسان ثم علمه البيان بحيث جعله يثبّت ويسجّل المواضيع والأمور التفصيلية وان ينشئ الالفاظ المناسبة للمعاني، وعلى ذلك يكون معنى الآية المباركة ان الرحمن علم الإنسان الافهام والاستفهام بالشكل الذي يمكنه إيصال ما يريده للآخرين بكل يسر وسهولة، وان يدرك أيضاً ما يريده ويقصده الآخرون.

تكامل النبات والحيوان في الإنسان:

إن نعمة البيان التي مَنّ الله تعالى بها على الإنسان ودعّمها بدرك المعاني وتثبيتها وتسجيلها، استلزمت ان يصبح النبات والحيوان إنساناً في تخطي مراحل الوصول إلى التكامل أي ان يصبح جزءاً من بدنه، فيكون من شرف الخضار والثمار ولحوم الضأن ان يشتهيها الإنسان المؤمن فتصبح جزءاً من بدنه ثم من لسانه الذي سينطق انذّاك قائلاً الله اكبر والحمد لله بنطقه التكويني، لأن امنية تلك الموجودات ان تصل بدورها إلى الكمال.

التمر مثلاً ليس لديه لسان يستطيع ان يسبح الله تعالى به تسبيحاً لسانياً، لذلك فهو يتمنى ان يصبح جزءاً من بدون الإنسان المؤمن وان يصدع قائلاً (سبحان الله فالق الحب والنوى) وأن يردد قائلاً (الحمد لله رب الانهار والاشجار) وهكذا الحال تكويناً لدى الحيوانات من الانعام وغيرها. فحرام على الإنسان الذي قدّم له البارئ كل ذلك لينعم به ثم يضع لسانه وفكره وقلمه في غير رضا الله (جل وعلا).

وعلى ذلك يكون شأن البيان هو اظهار شؤون الربوبية، وما سائر الأمور الأخرى الاّ مقدمة لهذه الحقيقة، لأن الادراك العقلي سوف يترجم إلى ألفاظ لسانية، فحقيقة التوحيد العقلي والإيمان بالله تعالى يستدعي جريان قول لا اله إلاّ الله على لسان المرء، وعندما يتعرف المرء على كرم الله ينادي بلسانه يا كريم ويا رحيم، وعندما يقف الإنسان على ذنوبه وآثامه يردد قائلاً يا غفور، يا شكور طلباً للصفح والمغفرة.

إذاً اللسان ترجمان العقل والقلب الفهم، فهل ترون كل ذلك لا يستدعي ولو القليل من الشكر لله عز وجل؟!

دعاء رائع للإمام زين العابدين (ع):

يقول الإمام زين العابدين (ع) في دعاء مكارم الأخلاق (واجعل ما أجري على لساني من لفظة فحش أو هجر أو شتم عرض أو شهادة باطل أو اغتياب مؤمن غائب أو سب حاضر وما أشبه ذلك، نطقاً بالحمد لك وإغراقاً في الثناء عليك)١[1] نعم، فاجعلني اللّهم محصياً لآلائك مستكثراً لنعمك، فلك الحمد على ما انعمت به علي من عينين واذنين ولساناً، ولك الحمد على ما دفعت عني من بلاء فسلّمتني، ولك الحمد على ما حلت به بيني وبين العلل والاسقام فشفيتني.

---

١ [1] الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

هذا اللسان الذي يستطيع ان يحصي ذكر نعم الله، وان يقدم آيات الشكر والحمد لله على ما أولى من نعم واحسان، كيف يأن له أن يجري بلفظ الأمور الباطلات؟! يقول الإمام الصادق (ع) (ولطالما كان والدي يكثر من قول لا اله إلاّ الله حتى يجف ريقه)، ولقد ورد من الروايات ما يدفع المرء نحو ترديد الاذكار كما في الرواية الواردة في اصول الكافي التي تفيد (من قال في يومه لا اله إلاّ الله مائة مرة، كان اثقل الناس عملاً، إلاّ من قالها اكثر منه)٢[2].

آدم (ع) ومحمد (ص) من مصاديق الإنسان:

ورد في روايات أهل البيت (ع) وآراء العلماء والمفسرين أن من مصاديق هذه الآية الكريمة هو خلق آدم (ع)، وآية (علّمه البيان) تعني علّمه الله تعالى الاسماء كلّها، لأن أحد موارد تعليم البيان هو ما علّمه الله (عز وجل) آدم أبا البشر وهي الاسماء الحسنى، وقد جاء في رواية أن الله تعالى علّم آدم (ع) سبعمائة ألف لسان، وهذا هو أحد وجوه الإنسان في هذه الآية.

أما الوجه الثاني لآية (خلق الإنسان) فهو ان المقصود بالإنسان هنا هو محمد (ص) وآية **(علّمه البيان)** تعني ان الله علّمه الحلال والحرام كيما يبلغه للناس ليأخذوا بالطيبات ويذروا الخبائث كما يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى **(ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)** (سورة الأعراف، الآية: ١٥٧).

---

٢ [2] اصول الكافي، للكليني، (ج٢، ص٥١٩).

إنعام الباري على علي (ع) بإحاطته بكافة العلوم:

أما الوجه الآخر من مصاديق قوله تعالى **(خلق الإنسان)** فهو خلق علي بن أبي طالب (ع)، وآية **(علمه البيان)** تعني ان الله تعالى علّمه بيان كل شيء بفضل عنايته كما يستشف من قوله تعالى **(وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)** (سورة يس، الآية: ١٢). فقد نقش الله (جلّت قدرته وعظمته) في لوح قلب الإمام علي (ع) المقدس علم كل شيء، وعلوم الحوادث والكائنات وهكذا الحال أيضاً في قلوب أبنائه الأئمة الأحد عشر المعصومين (ع)، وقد بيّن الله (تعالى) جميع الأمور لهم بما أوقره في صدورهم الشريفة، واستناداً إلى ذلك قيل أن القرآن مجموعة ألفاظ، وأن قلب الإمام هو معنى تلك الالفاظ وحقيقتها، لأن القرآن صامت بألفاظه، والامام قرآن ناطق بحقائق الالفاظ، ورغم كل هذا وذاك تقع الفاجعة ممن لبس لباس الإسلام، فهم يزعمون انهم قد احترزوا من النائبات باسم النبي (ص) ثم لا يتورعون عن فري كبده الحسين (ع).

قد جعلوا من يس حرزاً   وعلى آل طه راشوا السهاما

[٧]

(الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان) (سورة الرحمن، الآيات: ٥ـ ٦).

الحركة المنتظمة للشمس والقمر:

بعدما بين الرحمن كيف انه تعالى علّم القرآن لمحمد (ص) ليبلّغه للناس، وقلنا ان القرآن هو اعظم النعم الإلهية وخلق الإنسان ثم علّمه البيان لكي يتسنى له من خلاله ان يستفيد وان يوصل ما يروم التعبير عنه للآخرين مع ما اشتمل هذا البيان من مقدمات في القوى المدركة والمفكرة والمحافظة التي تسبق نعمة البيان كما أشرنا من قبل، وقد تبين لنا جلياً ان الباري تعالى قد عرف لنا النموذجين من رحمته العامة (الرحمانية)، ثم عقّب تعالى ذلك بذكر نموذجين آخرين من نعمه العلويات ونموذجين تاليين من نعمه السفليات، اما عن نعمه العلوية فهما **(الشمس والقمر بحسبان)**. وكلمة ــ بحسبان ــ هي جار ومجرور يتعلقان بفعل مقدر نحو (يجريان) ومعنى كلمة بحسبان تعني بحساب منتظم، وحسبان مصدر على وزن غفران من باب نصر ينصر وهو الحساب والنظم والترتيب، وتكون خلاصة معنى الآية هي (ان الشمس والقمر يتحركان بحركة منتظمة محسوبة دون أدنى تغيير أو عشوائية في دورانهما.

انتظام السنتين القمرية والشمسية:

تبلغ الدورة القمرية الواحدة ٢٨ يوماً، ويبلغ عدد أيام السنة القمرية ٣٥٦ يوماً على التمام، بينما تبلغ السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وربع اليوم في دورة تامة على اثني عشر شهراً على التمام.

فيا أهل السبعين، هل شعر أحدكم في ماضي عمره بأدنى تغيير في هذا الحساب؟ بل وتتعاقب الفصول الأربعة للسنة (الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء) في نظام محدد فهل صادف أن شوهد الربيع يسبق الشتاء؟ أو ان يأتي معقبّاً للصيف؟

حركة المنظومة الشمسية باتجاه النجم (النسر الواقع):

ولعله من الباعث على الدهشة ما تمّ كشفه في هذا العصر من أن الشمس ومنظومتها تتحرك بسرعة مذهلة نحو نجم يقع في كبد السماء يسمى النجم فيغا (أو النسر الواقع). فالشمس كرة هائلة ملتهبة يبلغ حجمها مليون وثلاثمائة ألف ضعف من حجم الكرة الأرضية التي نسكنها، فعلى سبيل المثال التحقيقي الذي أورده العماء يقال إنه لو افترضنا حجم الارض بحجم (الأجّاصة) فأن حجم الشمس سيكون بقدر كرة قطرها مائتي متر، ولكن الشمس تبدو للرائي صغيرة بسبب المسافة الشاسعة التي تفصل بينها وبين أرضنا والتي تقدّر بـــ ٩٠ مليون ميل.

وعن حركة المشمس فهي تجري ضمن مدار محدد ومعروف يقدّر بعشرين مليون كيلومتراً في الثانية الواحدة من حيث سرعة الحركة، أي انها تطوي بسرعتها في الدقيقة الواحدة ألفاً ومائتي مليون كيلومتراً مع منظومتها التي تصحبها برفقتها وهي (الارض، عطارد، المرّيخ، المشتري، زحل، الزهرة، اورانوس، نبتون، بلوتو) بأتجاه النجم فيغا، وقد أشار القرآن الكريم

إلى هذا الأمر في قوله تعالى (والشمس تجري لمستقر لها) (سورة يس، الآية: ٣٨)٣[3].

ومن كل ما سبق نخلص إلى أن الله تعالى خلق بقدرته القاهرة الشمس، ثم جعل لها فلكاً تسبح فيه، فأنظر إلى عظمة الله وقدرته التي لا يعجزها شيء وقد شهدت له بها إحدى مخلوقاته التي لا تحصى، هذه الشمس بحجمها الهائل وبحركتها المذهلة في مدار منتظم لا تزيد على العشرين مليون كيلومتر في الثانية ولا تنقص عنه شيئاً.

الأهلّة، ظاهرة القدرة الإلهية المدهشة:

وعن الأهلة، وهي تغير صورة القمر من هلال إلى بدر إلى هلال إلى محاق، هذه الصور التي تثير اعجاب الرائي والباعثة على تحيّر المشاهد لها من خلال دقة النظام والحساب في تدرّج مراحلها لتقدّم تقويماً جميلاً للناس كافة يعرفه الأميّ والمتعلّم، وتبدأ الأهلة بأولى مراحلها عندما تكون صورة القمر في ليلته الأولى على شكل خيط دقيق، ثم لا يلبث في الليلة اللاحقة حتى يصبح هلالاً نحيفاً ثم يتدرج في باقي الليالي اللاحقة حتى يصبح بدراً في الليالي الثالثة عشر والرابعة عشرة والخامسة عشرة من الشهرة بحيث تظهر صفحة القمر كاملة متألقة، بعد ذلك تأخذ صورة القمر (البدر) بالانحسار في الليالي المقبلة تدريجياً فتستحيل إلى هلال عريض لا يلبث أن تزداد نحافته ليلة بعد أخرى حتى تحل الليالي السادسة والعشرين

٣[3] ويمكن الرجوع إلى ما ذكره السيد المؤلف(رض) حول هذا الموضوع في كتابه الموسوم (قلب القرآن) المتضمن لتفسير سورة يس لمن أراد المزيد.

والسابعة والعشرين وكأنه خيط دقيق، ثم تستحيل صورة القمر إلى محاق فتنعدم صورته تماماً في الليلتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين، ثم تبدأ من جديد رحلة الظهور ليبدأ الشهر الآخر من الاشهر القمرية على وتيرة ما ذكرنا آنفاً وهكذا دواليك، ولقد أنعم الله تعالى علينا ان جعلنا نتعرف ببركة الأهلة على حساب الشهر القمري لنحدد موعد الصيام وشهره، وأوان الحج وأعياد المسلمين وفقاً لنظام طبيعي يسهل ادراكه للجميع فتحدد الأشهر الحرم بواسطته. ويبقى هذا النظام دون أدنى تغيير حتى يأذن الله تعالى بقيام الساعة كما يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى **(إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيّم)** (سورة التوبة، الآية: ٣٦).

النبات الزاحف والقائم:

ثم يذكرنا الله عز وجل بآيتين ونعمتين من نعمه السفلية في قوله عز وجل **(والنجم والشجر يسجدان)**، ولعل المراد هنا (بالنجم) في هذه الآية هو ما ينجم أي يخرج عن الأرض ويفترشها ناشراً عليها أغصانه وثماره من النبات، كالقرع والخيار والرقي والبطيخ، وهو ما نصطلح عليه بالنبات الزاحف.

وهناك نوع آخر من النبات يقوم على الأرض، أي يثبت عليها قائماً بواسطة سيقانه كما في أشجار التفاح والبرتقال والرمان وما سواها، ولذلك قالت العرب للنبات الزاحف نجماً وقالت

للنوع الآخر أشجاراً أو شجراً، ولو التفتنا إلى مقدار فصاحة وبلاغة هذه الآيات لادركنا السر في الترتيب إذ ان الآية تدعونا فيما سبق إلى رفع رؤوسنا نحو السماء لنرقب الشمس والقمر ونظام حركتهما لندرك من خلال ذلك عظمة الباري تعالى ثم تدعونا الآية اللاحقة إلى ان نطأطئ رؤوسنا نحو الأرض لننظر النبات الذي افترش الأرض أو ما قام عليها وهما يسجدان لله سبحانه وتعالى.

الجميع يسجد لله (تعالى) تكويناً:

السجود لغة يعني الانقياد، وقد جاء معنى السجود هنا بمعنى الانقياد التكويني، والسجود التكويني للنباتات انما هو في حدود ما حدده الله تعالى لها، فهي لا تتعدى ما رسم لها، فالحب والنوى ينفلق في حدود ما أراده الله لها، فحبة القمح لا تنفلق عن نبتة شعير اطلاقاً، وهكذا الحال في سائر الشجر والنبات لأنها لا تباشر فعالياتها الاّ وفقاً للخصوصيات التي أودعت فيها تكويناً، لذلك كانت مقادة في شؤونها التكوينية كسائر الموجودات، وعلى هذا الأساس فهي تسجد انقياداً لأمر الله تعالى وإرادته وفقاً لما هو مطلوب منها.

والشيء المهم في موضوع الانقياد هو السجود الاختياري في الإنسان رغم أنه يسجد سجوداً تكوينياً أيضاً لله كسائر المخلوقات **(ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً)** (سورة الرعد، الآية: ١٥).

فالإنسان منقاد لأمر الله تعالى مذ كان نطفة، وعندما يلج عالم الدنيا، ذكراً كان أم انثى، وجميلاً كان أم دميماً، قميئاً كان أم فارعاً، فقيراً كان أم غنياً، سليماً كان أم سقيماً وحتى يدركه الضعف والعجز والشيخوخة ثم يصير إلى الموت، فهو في جميع تلك الأحوال منقاد لله يسجد له ولا سبيل له إلاّ التسليم لمشيئة الله (جل جلاله). ويبقى الشرف والكرامة للإنسان عندما يسجد لله بمحض إرادته واختياره.

يقول السيد ابن طاووس (عليه الرحمة) في وصيته لولده (وعندما تبلغ عام تكليفك الشرفي باحتفل به وتصدق بمائة وخمسين سكة نقدية، لأن يومك هذا هو اليوم الذي لفت الله تعالى نظرك فيه إلى طاعته، ولأنك قد بت فيه مؤهلاً لقبول الأمر والنهي الربانيين، فحري بك ان تقول ــ انه لمن دواعي الشرف والكرامة ان يأمرني الباري عز وجل أن أُطأطئ رأسي إرضاءً له وامرّغ وجهي بالتراب تعّظيماً لله بمحض ارادتي واختياري فأبرز للملأ عظمة الله سبحانه وتعالى).

---

[٨]

(والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان) (سورة الرحمن، الآيات: ٦ ــ٧).

عن القمح ينفلق القمح، وعن الشعير الشعير:

يقال إن السجود هو أعلى درجات الانقياد والتذلل، وتعد عملية وضع الجباه على التراب صورة من صور السجود، وهذا لا يعني بالضرورة انحصار عملية السجود بتلك العملية، فنحن طيلة أعمارنا لم نشعر مثلاً بأن مرت هنيهة سكنت فيها حركة الارض أو الشمس، بل ان الأشياء جميعاً تبذل طاعتها للأمر الإلهي التكويني مع العلم به أو بدونه، فالأشجار والنباتات بافتراشها الأرض او قيامها عليها نجدها في سجود انقياد وطاعة للأمر الإلهي التكويني وفقاً لما عيّنه الله عز وجل من حيث نوع الأوراق واشكالها ونوع الثمار واشكالها مثلاً. فهل صادف ان أثمرت شجرة الأجاص تفاحاً؟

يقول الله تعالى في كتابه المجيد **(ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس)** (سورة الحج، الآية: ١٨).

كل ما في الكون ينقاد إليه ما خلا الإنسان جهلاً واغتراراً

ولوج الجذر في أعماق التربة، صورة من صور السجود:

ومن جملة معاني السجدة هنا، هو ما تعرّض إلى ذكره الفخر الرازي من أن سجدة النبات والشجر شبيهة بسجدة الإنسان، فكما ان الإنسان يضع رأسه في التراب تعبيراً عن تعظيمه لله (تعالى)، فان النباتات هي الأخرى تضع في الواقع رأسها وأساسها في التراب فتولجه الأرض، وواقع الأمر أن الجزء العلوي من النباتات لا يعد رأساً لها، وقد اخطأ من ظن ذلك، لأن أساس النبات الذي يتغذّى بواسطته ومن خلاله يحصل له النمو والنضج هو الجذر والذي هو بمنزلة الرأس لدى الإنسان، فكما ان الإنسان يتغذّى عن طريق الفم، ثم ينتقل منه إلى بطنه ليتوزع على سائر البدن فهكذا الأمر لدى الزروع والنباتات فهي تتغذى عن طريق الجذور، ومنزلة الجذر من النبات كمنزلة الرأس من الإنسان، لذلك صح أن النباتات جميعاً هي في حال سجود تكويني دائم.

سجود الزرع شهادة على عظمة المبدع:

والوجه الآخر الذي يذهب إليه عدد غفير من المفسرين وأحدهم الطبرسي أن معنى سجدة الزرع هو في واقعه شهادة على عظمة الصانع (تعالى).

كل نبت يفلق الأرض يردد لا إله إلاّ الله بذا أشهد

وانها لجديرة حقاً بالمشاهدة والملاحظة تلك القدرة المودعة في هذا الكائن الحي، فمن خواص الماء انه ينحدر من أعلى إلى اسفل، ويتطلب رفع الماء إلى الاعالي وجود واسطة تأمن صعوده، فلو صببنا الماء على اصول النبات نجد ان لدى النبات قوة تجعل الماء ينفذ صعوداً فيه حتى يبلغ عروق الورق منتقلاً إلى ارتفاعات عدة أمتار أحياناً ثم يتم توزيع الماء على مئات الآلاف من الأروق دون ان تستثنى ورقة واحدة من الماء ويصل الماء إلى جميع الثمار أيضاً فتأمل كيف ان كل جزء في النبات يشهد على عظمة الصانع؟!

ونعود الآن إلى الآية الكريمة **(والنجم والشجر يسجدان)** وتكون خلاصة معناها ان هذين الصنفين من النبات يشهدان بالربوبية لله عز وجل، فقد ورد عن أئمة الهدى (ع) في دعاء القنوت كما نقل السيد ابن طاووس (رحمه الله) في كتاب العروة الوثقى ما فيه اشارة إلى هذا المضمون (سبحان من دانت له السماوات والأرض بالعبودية، وأقرتا له بالوحدانية، وشهدتا له بالربوبية، لا إله إلاّ الله الحليم الكريم).

السجود الملكوتي والتسبيح الملكوتي:

والمعنى الآخر الذي ذكره العلامة الطبرسي وغيره من المفسري هو ان السجود هنا الذي أوردته الآية إنما هو على النحو الملكوتي، فكما ان الشجر يسبح باللسان الملكوتي كسائر الأشياء لا باللسان الملكي، فالمقصود بالسجود هنا هو السجود الملكوتي الذي تؤويه الأشياء

كما في قوله تعالى **(وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** (سورة الإسراء، الآية: ٤٤). وبذلك نخلص إلى أن لجميع الأشياء ظاهراً وباطناً، وباطنها هو عالم الملكوت كما أن ظاهرها هو عالم الملك، وان جميع الأشياء في تسبيح وسجود دائمين من حيث جهتها الملكوتية ولكننا لا نستطيع درك هذه الحقيقة طالما نحن في عالم الملك ولكننا سندرك ذلك حتماً عندما نرد عالم الملكوت فتصبح الحقائق حينئذ واضحة جلية بعد أن نخلّف وراءنا الماء والتراب كما يؤكد ذلك قوله تعالى **(ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** باعتبارنا نجهل ما يجري في العالم العلوي.

والسماء رفعها:

ومن آيات الرحمة الرحمانية الإلهية الأخرى هي (رفع السماء) علاوة على خلقها، فهي رفيعة في الجانب الحسي، ورفيعة أيضاً من حيث المنزلة والدرجة.

فعندما نقول إنها رفيعة حساً أو مكاناً فنعني ان الله تعالى قد وضعها في مكان عالٍ ورفيع، اما عندما نقول إنها رفيعة من حيث المنزلة والدرجة فنقصد أنها قد شرفت على الأرض فارتفعت من موارد عدة سنتناول ذلك بالتوضيح لاحقاً.

وفي السماء رزقكم:

يعد نزول الرزق أحد خصائص السماء كما يشير إلى ذلك قوله عز وجل **(وفي السماء رزقكم وما توعدون)** (سورة الذاريات، الآية: ٢٢). فقد كتب المفسر الطنطاوي (وهو عالم مصري ضالع في العلوم الحديثة، وله تحقيقات مفصلة ومسهبة بهذا الشأن) ان العلم الحديث توصل إلى أن الفضاء المحيط بالأرض امتداداً من سطحها وحتى قطر ١٦ فرسخاً يشتمل على وجود المواد الغذائية، وأن الجزء الذي تنتجه التربة من الغذاء انما حصل بفضل وجود الهواء، ولا زالت التحقيقات جارية من أجل التوصل إلى امكانية الحصول على الغذاء من الهواء مباشرة١[1].

وبداهة أنا لا اريد هنا القول إن ما يتبادر إلى الذهن عن معنى السماء في آية **(وفي السماء رزقكم وما توعدون)** هو السحاب لانه مرتفع في الفضاء باعتبار وجود الفضل والبركة فيه، وأن كان هذا المعنى غير بعيد.

نزول البركات من السماوات:

وفوق نزول الارزاق فأن ألوان البركة وأشكال الرحمة الإلهية تنزل من السماء حيث محل وجود الملائكة، إذ ان الملائكة بأصنافهم العديدة وعظمة خلقهم وخامة هيئاتهم نجدهم قد عمروا السماوات، ومن الأمور الاخرى التي أعطت للسماء رفعتها درجة ومنزلة، هو ان

---

١ [1] (وان من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم) سورة الحجر، الآية: ٢١).

جعل الله تعالى العرش فوقها ووضع الجنة عليها، فقد جاء من سأل الإمام كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق (ع) قائلاً: يقول الله تعالى عن الجنة **(وجنة عرضها السماوات والأرض)** (سورة آل عمران، الآية: ١٣٣). فأين هي الآن؟ (قاصداً أين يكون مقرها إن كان عرضها لوحده يعدل السماوات والأرض مجتمعات، فما بالك بطولها؟) فأجابه الإمام (ع): الجنة فوق السماوات والعرش من فوقهن٢ **[2]**.

عروج صحائف الأعمال وأرواح المؤمنين إلى السماء:

ومن الأمور الأخرى التي تدلل على رفعة السماء هو ان الله تعالى يأمر الملائكة المكلفة بحمل صحائف أعمال المؤمنين بالعروج بها إلى السماء تكريماً لمقام المؤمنين، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى **(ان كتاب الأبرار لفي عليين)** (سورة المطففين، الآية: ١٨). فضلاً عن ان أرواح المؤمنين يُصعد بها إلى السماء.

وقد اثار البعض شبهة مفادها ان لا شرف للسماء على الأرض، إذ ان الأرض هي محل هبوط الوحي الإلهي، ويكفي الارض فخراً وشرفاً أنها ضمّت أجساد أشرف الكائنات سيدنا محمد (ص) وعترته الطاهرة (ع)، والرد على هذه الشبهة نقول فيه:

السماء محل صدور الوحي وقرار أرواح أهل البيت (ع):

---

٢ [2] بحار الأنوار، المجلد الثالث.

نعم إن الأرض كانت محلاً لنزول الوحي الإلهي، ولكن السماء كانت محل صدور ذلك الوحي، ومن البديهي ان يكون محل الصدور أعظم شرفاً من محل الهبوط، ثم ان الارض تحتضن الابدان الطاهرة للنبي وآله (ص) ولكن السماء محل قرار أرواحهم (ع) وللتدليل على صحة ما ذهبنا إليه نستشهد بهذه الرواية الشريفة المروية عن الإمام الصادق (ع) حيث يقول (ان جدي الحسين (ع) لعلى يمين العرش وهو ينظر إلى زوار قبره)٣[3] إذاً ــ والسماء رفعها ــ تعني ان الله عز وجل شرفها برفعتها فأين منها الأرض وسائر الأفلاك؟.

لماذا نرفع أيدينا بالدعاء نحو السماء؟

جاء رجل إلى أمير المؤمنين (ع) وسأله: أليس الله موجود في كل مكان **(فأينما تولوا فثم وجه الله)** (سورة البقرة، الآية: ١١٥). وهو معنا جميعاً **(وهو معكم أين ما كنتم)** (سورة الحديد، الآية: ٤). إذاً لماذا تأمروننا برفع أيدينا نحو السماء في الدعاء؟ فأجابه الإمام (ع) بما مفاده: ذلك لأن السماء محل صدرو البركات٤[4].

نعم إن أية بركة من قضاء حاجة أو قبول طاعة وعبادة أو نزول رزق انما يصدر عن السماء.

---

٣ [3] نفس المهموم للقمي.

٤ [4] بحار الأنوار، المجلد الرابع.

[٩]

(والسماء رفعها ووضع الميزان * ألاّ تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) (سورة الرحمن، الآيات: ٧ــ٩).

إقامة القسط والعدل:

بعد أن ذكرنا رفعة السماء الظاهرية والمعنوية على ما مضى من شرحنا، نأتي إلى موضوع (الميزان) لنجد أن الله تعالى قد وسم ثلاث آيات بسمة الميزان في حين أن مفادهن واحد، ولعل التكرار الحاصل هنا هو بمثابة التأكيد على موضوع امتثال الأمر الإلهي في تطبيق الميزان على السلوك الإنساني كما سنأتي إليه بشرحنا.

(ووضع الميزان) تعني وأقر الميزان، **(ألاّ تطغوا في الميزان)** أي أن لا تتجاوزوا الميزان **(وأقيموا الوزن بالقسط)** تعني الأمر الإلهي باقامة العدل، **(ولا تخسروا الميزان)** أي اعدلوا في الوزن ولا تعطوه ناقصاً.

وهنا يثار هذا التساؤل: ما المراد من الميزان الذي تكرر ذكره في هذه الآيات الكريمات وجاءت الاوامر الإلهية لتؤكد ضرورة مراعاته والنهي عن تجاوزه؟

لقد أورد المفسرون معنيين للميزان، أحدهما: بمعنى العدل، فيكون على هذا المعنى (وضع الميزان) يعني تشريع العدل، كما أشار القرآن الكريم في مواضع متعددة منه على تأكيد حقيقة

تشريع العدل (اعدلوا هو اقرب للتقوى) (سورة المائدة، الآية: ٨). ولقد جاء التشريع الإلهي للعدل لكي يراعي الناس العدالة في أفعالهم الاختيارية كما حكّم الله (عز وجل) العدل في مملكته على سائر مخلوقاته.

العدل في الخلق:

في بداية هذه السورة ذكر المولى عز وجل حركة الشمس والقمر، وقد وضع الباري تلك الحركة على أساس العدل، فلو لم تتحرك الشمس في مدارها الحالي لما كان الحال هو ما عليه الآن، فعلى فرض بقاء حال الغروب وديمومته لن يكون بمدور النباتات والزروع مواصلة النمو والنضج باعتبار حاجتها الملحة إلى نور الشمس، بل وان وجود المسافات والأبعاد بين النجوم والأفلاك على هذا النحو السائد هو لون من ألوان العدل الإلهي.

فالمسافة الفاصلة بين الشمس والأرض هي ٩٠ مليون ميل، وشرارة واحدة من الشمس بامكانها أن تحرق الأرض وما عليها، ولكن هذه المسافة الهائلة بينهما والتي تقدّر بثلاثين مليون فرسخ هي التي جعلت الحرارة تصل إلى الأرض بالمقدار المألوف. فلو حصل (لا سمح الله) ان قصرت المسافة بين الشمس والأرض لاشتدت الحرارة واحترق كل حي على البسيطة، ولو بعدت المسافة بينهما لا نخفضت الحرارة وتجمدت الحياة وانعدمت. إذاً من يراقب نظم الأفلاك ومداراتها يدرك ان نظام حركة كل فلك انما قد جعله الله تعالى في حد

معين يوافق العدل والقسط **(شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط)** (سورة آل عمران، الآية: ١٨). فبالعدل قامت السماوات والأرض، أي ان الله تعالى قد وضع كيفية خلق الأرض والموجودات التي عليها على نحو من الدقة بحيث يصدق القول إن ميزان العدل قد عمّ كل شيء بالسعة والاستعداد الذي يحتاجه ذلك الشيء **(الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)** (سورة طه، الآية: ٥٠). فلم يعط الباري عز وجل للشيء ما هو فائض عن حاجته بحيث انه يضر به اضراراً واضحاً، ولعل هذه الأبيات المترجمة عن الاصل الفارسي فيها خير دليل على ما ذهبنا إليه:

إنّ مَنْ قَسّمَ ذي الدنيا على الأنظار سبعةْ ... هو مَنْ مَنَّ على الشيءِ بما يُؤْمِنُ نَفَعَهْ

لو كان للقطِّ من أجنحةً يسموْ به ... لما ألفيتَ بيضاً للطيرِ في أعشاشِهِ

أو نَبَتَ للحُمُرِ في رأسها قرن البَقَرْ ... لتنّحى الناس عنها من خشيةِ أن تبتقر

العدل في أقوال الإنسان وأفعاله:

لقد جعل الله الإنسان مختاراً في أقواله وأفعاله، وقد تفضل عليه بالاختيار كيما يقتدي العبد بربه في حركاته وسكناته وسائر شؤونه، لكي يقيم العدل ويلتحق بعالم الأنوار، ويجنب نفسه ظلمات الظلم والردى، لذلك وجب على الإنسان أن يكون عادلاً مع ربه وسائر المخلوقات مع ما في هذا الأمر من صعوبات بالغة، وتطبيقه للعدل ينبغي أن يسود الكبير والصغير،

والصاحب والغريب على حد سواء، بل ينبغي له أيضاً أن يعدل مع نفسه، ولعل الوصف الجميل للصراط من أنه (أدق من الشعرة وأحدّ من نصل السيف) تعبير يصدق على العدل وصفاً، فالعدل دقيق دقة الشعرة من حيث التشخيص والتحديد، وهو حديّ من حيث التطبيق والعمل به كحدة نصل السيف لمن أراد السير على منهجه.

ظلمت نفسي:

وفي دعاء كميل نقرأ عبارة (ظلمت نفسي)، والظلم خلاف العدل، فقد يحصل ان نسأل الله تعالى حاجة لم يقدرها لنا بلطفه، فتضج نفوسنا بالأسى والحزن لعدم الاستجابة مع أننا نغفل أو نتغافل عن مئات الالوف من الآلاء الإلهية التي غمرنا بها المولى جل شأنه، وتنسى كل ذلك الإحسان القديم والمن الجسيم وتبقى أبصارنا معلقة برجاء تلك الحاجة التي تقدر لنا الإجابة فيها، ونبقى نصر على ما نريد ولا نلتفت إلى ما يُراد منها، يقول تعالى **(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)** (سورة البقرة، الآية: ٢٣٨). فندع ما يريده الله تعالى منا في أداء الصلاة لوقتها، فأي ظلم هذا الظلم الذي نمارسه نحن؟ ثم ننتظر من الله ان ينظر إلينا نظرة رحيمة، ولقد عبّر الله عز وجل عن هذا الموقف الظالم بقوله تعالى **(الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)** (سورة المطففين، الآية: ٢ ــ٣).

فلم نشترِ استيفاءً ونبيع بخساً؟ أليس هذا هو الظلم؟ عندما يتوقع المرء ان يحقق له مولاه حاجاته ورغائبه ويفيض عليه بالاحسان وضروب النعم وهو في مقابل ذلك لا يلبي أوامر

مولاه ويتقاعس عنها، وصدق الله العظيم (انه كان ظلوماً جهولاً) (سورة الأحزاب، الآية: ٧٢).

اجعل من نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك٥[5]

وقد أوجز أمير المؤمنين (ع) معنى العدل مع الناس في عبارة واحدة يقول فيها (اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك)، فلو كنت لا تحب أن يتقدم إليك أحد ما باساءة، فلا تسيء للآخرين، فاحجز لسانك عن بذاءة القول لكي تجنب نفسك بذاءة أقوال الآخرين، وصن لسانك عن رمي الافتراء على الناس لتجنب نفسك فريّة الآخرين وكن مصداق الحديث الشريف القائل (حب لأخيك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها).

العدل، هو الحد الأوسط بين الإفراط والتفريط:

(ووضع الميزان) أي ان الله تعالى وضع بعدله ميزان العدل.

(ألاّ تطغوا في الميزان) ألاّ ـ في الأصل هي لئلاّ والــ(لا) ناهية، فيكون معنى الآية (ان الله وضع ميزان العدل لكي لا تعتدوا) فالميزان عدل، والطغيان ظلم، وعلى هذا الاعتبار يكون العدل هو الحد الأوسط بين إفراط الطغيان وتفريط الانقاص والتخسير، والظلم خلاف العدل.

---

٥ [5] نهج البلاغة. الكتاب ٣١ من وصية له عليه السلام كتبها لولده الحسن (ع) عند انصرافه من صفين.

(ولا تخسروا الميزان) أي ولا تنقصوا الميزان لأن ذلك تفريط كما هو الطغيان إفراط وهو أمر لا يساير العدل أيضاً، وكثيراً ما يحصل مثل هذا الأمر في المسائل الاعتيادية الحياتية، لذلك جاء الحديث النبوي الشريف ليصحح المنهج الحياتي للإنسان، يقول (ص) (خير الامور أوسطها)، ويدلل على هذه الحقيقة قول الشاعر الإيراني في ترجمة بيته الشعري على ما في معناه:

لا تكثر الأكل شرهاً حتّى تغصّ بهِ ولا تمنع البطن حتى تلقى المحاذيرا

ولقد جاء القرآن الكريم بمنهج وسط بين الافراط والتفريط كما في قوله تعالى **(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)** (سورة الأعراف ــ الآية: ٣١). وقوله عز وجل **(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً)** (سورة الإسراء، الآية: ٢٩).

وعليه يكون الحد الأوسط هو الحد الأمثل والأفضل في تنظيم وتدبير الحياة الإنسانية، ولو عرجنا على موضوع النوم عند الإنسان، لوجدنا ان فترة النوم الممتدة من أول الليل حتى طلوع الشمس يعد تفريطاً، وإحياء الليل كله حتى الصباح دون نوم يعد إفراطاً، فلا يرمي المرء نفسه كالجثة الهامدة ولا أن يتحامل على ثقل أجفانه فيمنع سلطان النوم عن عيونه، بل يفترض ان يعد لنفسه ساعات يريح بها بدنه ويهيئه لما بعد النوم من سعي وعبادات، وما يصدق على النوم يصدق أيضاً على المعاشرة الزوجية والوضع العائلي، فلا يصح ان تترك الحرية الكاملة للزوجة والاطفال بالذهاب حيث شاؤوا (مع افتراض وجود أماكن مشبوهة)

ولا ان يضيق المرء على عياله فيجعلهم نزلاء داره فيكون خروجهم منه كخروج اللص، وعن الشراء وتأمين احتياجات الإنسان الضرورية يفترض الاقلاع عن الاسراف والتبذير لكي لا يمر المرء في الأيام الكؤود عندما يجور عليه الزمان ولا يجد ما يجلبه لعياله، مشاجرة العيال معه وضجرهم من مغايرة الحال عن سابق الأحوال، ويصح أيضاً ان يقلع المرء عن التقتير والبخل وحرمان العيال بحيث انه يمهد لهم بفعلته هذه طريق الاختلاس والسرقة من جيبه أو جيوب الآخرين. لذلك ينبغي ان يكون المرء عادلاً في صلاته مع ربه ومع مخلوقات ربه، مع القريب ومع البعيد لكي لا ينكب عن صراط القيامة فيما لو نكب عن صراط العدل في دنياه كما في قوله تعالى (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) لأن سعة الصراط في القيامة تكون وفقاً لاوضاع المرء في دار الدنيا، وعلى هذا الأساس نرى القرآن الكريم والاحاديث الشريفة يؤكدان ويوصيان ويحذران في نص الإنسان من السقوط النهائي ويدعونه إلى المسارعة في طلب المغفرة ونيل العفو والتوبة من الله عز وجل كما في نص الانقاذ الآتي:ــ (استغفر الله ذا الجلال والاكرام من جميع الذنوب والآثام)، وإلى هنا نصل إلى تمام حديثنا عن المعنى الأول للميزان وهو العدل.

الميزان، آلة الوزن:

اما المعنى الثاني للميزان: فهو المعنى اللغوي والاصطلاحي المعروف لآلة الوزن.

والميزان على وزن (مفعال) وهو يوزن به الشيء ويتم تحديد مقداره ومعرفة وزنه، فالأشياء

المادية التي يمكن وزنها يتم حساب أوزانها من خلال آلتي الميزان والقّبال ويروى ان أول من صنع الميزان هو نبي الله شعيب (ع)، وفي رواية أخرى أن أول من صنع الميزان هو نبي الله نوح (ع)، ولعل أول من صنعه هو نوح (ع) ولكن نتيجة حصول الطوفان انتهى رواج الميزان حينذاك فجاء النبي شعيب (ع) فصنعه ثانية وكثر إقبال الناس عليه.

لماذا يعد الميزان نعمة؟

قلنا في بداية شرحنا لهذه السورة الكريمة أنها قد استعرضت النعم والآلاء الظاهرية والباطنية وآية **(ووضع الميزان)** تعد الميزان نعمة الهية (من حيث المعنى الثاني للكلمة ميزان)، وهنا نتسائل: كيف يعد وضع الميزان نعمة؟. يقول الفخر الرازي، إن الباعث على اعتبار الميزان نعمة هو فرضنا انعدام الميزان الذي سيؤدي إلى حصول العداءات الكثيرة بين الافراد التي يصعب ان لم يستحيل فضها باعتبار تولد سوء الظن من عدم يقين الناس من أن ما قدموه من أموال لشراء احتياجاتهم (كالدقيق والحنطة وغير ذلك) يعادل المقدار الذي يقدمه لهم الباعة من السلعة المطلوبة، فتحصل حالات الغش والخيانة.

لذلك جاءت التعاليم في الشرع المقدس باعتماد الكيل والميزان، بل وببطلان التعامل والتبادل والبيع والشراء دون الرجوع إلى الميزان والكيل، ولعلنا ندرك بوضوح كيف ان المرء الذي يرى بناظريه سلعته التي يروم اقتنائها قد وزنت قد بدت عليه علائم الارتياح

والرضا، لأنه بغير ذلك لا يمكنه تصديق ان المقدار الذي قدّم له لقاء الثمن الذي دفعه هو حقه دون غبن أو اجحاف مسه، وحتى لو ادعى البائع ان المقدار المعطى له قد استوفى السعر وزاد عليه. لذلك كان الميزان نعمة عظيمة جنّبت الكثير من الحيرة والشك والمفاسد. وقد أورد الرازي وجوهاً أُخر يعد فيها الميزان نعمة قد عزفنا عن ذكرها والتطرّق إليها لاعتقادنا بكفاية ما تم ذكره.

تنوع صور الميزان بتنوع أجناس الأشياء:

ولا يخفى عليكم أيها الاعزاء إن بعض الأشياء يتم حساب مقاديرها بالأحجام كالسوائل مثلاً (من قبيل الحليب والبنزين وغيرهما) حيث يتم الحساب بواسطة مكاييل خاصة كاللتر أو الغالون مثلاً، والبعض الآخر يحسب مقداره بوعاء خاص (كالحنطة والملح)، وبعض آخر يحسب مقداره وفق معايير الطول (كالاقمشة والأراضي) وحتى عملية البناء فهي تستدعي وجود آلة حساب ونظم خاصة تدعى (الشاقول) يتم خلالها موازنة هندسية البناء وعدم وجود الانحرافات المحتملة فيه، كل تلك الاشكال هي في واقع أمرها آلات ميزان يتم قياس مقادير الأشياء بواسطتها وحساب كمياتها، بل ان الساعة في حقيقتها ما هي إلاّ آلة لوزن الزمن الصحيح، من كل ذلك ندرك الاسباب الكامنة وراء الهام الله عز وجل الإنسان في صناعة الميزان وتشديده على ضرورة استعماله في المعاملات. ولقد عدّ الباري تعالى مسألة رعاية الميزان من المسائل المهمة والخطيرة في الأمور المادية، فقد انزل قرآناً يتلى بشأن المطففين

في السورة التي تحمل عنوان التطفيف كدليل على خطورة هذه الحالة وعظم دور الميزان في علاج هذه الظاهرة الخطيرة، كما انزل الله آية كريمة تؤكد على الانزال الإلهي للميزان مع الكتاب كما نقرأ في سورة الحديد **(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)** (سورة الحديد، الآية: ٢٥). وفي قصة النبي شعيب (ع) التي حدثنا بها الكتاب المجيد حيث جاءت مسألة مراعاة الميزان كأحد التعاليم الأولى في دعوته الشريفة إلى الله تعالى، وحتى انه يروى ان أول موضوع شُرّع بعد مجيء النبي (ص) إلى المدينة المنورة هو موضوع اتخاذ الكيل والميزان في التعامل الاجتماعي.

العذاب بين جبلي نار:

في قصة مالك بن دينار، ورد أنه كان له صاحباً، فجاءه الخبر أن الحق بصاحبك فأنه في النزع الأخير، فجاءه مالك ووقف عند رأسه وإذا به يراه يرتعش مضطرباً كمن أخذته النار اليها وهو يصرخ بين الفينة (و) الأخرى احترقت.. احترقت فسأله مالك: كيف حالك؟ فرد عليه: اني بين جبلين من نار وقد جاءني الأمر بصعودهما، فالتفت حينذاك مالك إلى زوجة الرجل وسألها عن حاله باحثاً عن دواعي وضعه السيء، فأخبرته قائلة: إنه كان لزوجها مكيالين، أحدهما ينقص به الكيل لما يريد بيع بضاعة، والآخر يزيد به الكيل عندما يريد ان يبتاع بضاعة، فهو يسرق في بيعه وشراءه، فأصابته النار بسوء عمله وقد أشعل لنفسه ناراً يحرق به نفسه إلى الأبد.

لذلك اصبح لزاماً علينا جميعاً ان نلتفت إلى حالنا، ولا نقول (الحمد لله الذي لم يجعلنا ممن يتكسب بالميزان والمكيال) لأننا وان لم تكن لدينا آلة ميزان ولم نكن نمتهن البيع والشراء، فيفترض بنا أن نجعل أفعالنا وأقوالنا موزونة وصحيحة، فمن يدري فلعل فينا من قد أشعل نيراناً لنفسه بسوء عمله وقوله. فلقد ذكرت إحدى الروايات أنه (عندما يحين وقت الصلاة، تنادي الملائكة: أيها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم)٦[6].

وأنا أقول لكم هلموا واغسلوا ذنوبكم بقطرة دمع تذرفونها على الحسين المظلوم، فكلنا غرقى في بحار الذنوب وليس لنا إلاّ من حسين واحد(عليه الصلاة والسلام).

٦ [6] بحار الأنوار/ كتاب الصلاة.

[١٠]

(ووضع الميزان * ألاّ تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

(سورة الرحمن، الآيات: ٧ ــ ٩).

وضع الله ميزاناً لكل شيء:

لقد ذكرنا فيما سبق أن الميزان الذي تناولته الآيات الكريمة بالذكر له من حيث المعنى احتمالان: الأول: يعني العدل، وقلنا إن معنى كلمة (وضع) هو أَمَرَ، فيكون معنى آية **(ووضع الميزان)** أن أمر الله بالعدل، كما أن أفعاله تعالى تصدر عن جهة العدل، أما الاحتمال الثاني الذي ذكرناه فهو آلة الوزن والقياس المعروفة، والتي يتم بواسطتها وزن الأشياء والتعرّف على مقاديرها، فيكون معنى **(ووضع الميزان)** على الاحتمال الثاني هو خلق الله الميزان لكي يشاع به العدل.

إذا الميزان الذي وضعه الباري (عز وجل)، يمكّن الناس وزن الأشياء المادية الصورية والمعنوية الروحانية، لذلك كان الميزان من النعم الإلهية المهمّة، وأحد ألوان الرحمة الرحمانية. وقد تناولنا بالحديث ما يتعلق بميزان الأشياء المادية، وأمّا ما يتعلق بالمسائل العقلية فإن العقل الفطري الذي وهبه الله للإنسان يعد في ذاته ميزاناً من شأنه أن يحدد الحق

من الباطل وأن يفصل بين الصائب والصالح من الأمور وبين النقيض من ذلك، وقد ذكر أهل العلم قوانين عدة بهذا الصدد.

ضرورة الميزان في الأمور المعنوية:

لو افترضنا أن الخالق (تعالى) لم يجعل للأمور المعنوية والباطنية والروحانية ميزاناً يستنبط من تلك الأمور العلم والمعرفة والحكمة التي تعد أساس سعادة الدارين، لهوى الإنسان في وادي الضلال والجهل والضياع، ولظن كل فرد منّا نفسه أفضل الخلق وأعتبر نفسه روحانياً من الطراز الأول، لأن الإنسان بطبيعة حاله يحب نفسه ويكرم شؤونه ويرى لذاته الرفعة على ذوات الآخرين في ضرورة اكتساب المنافع وتأمين المصالح. وعندئذ يبتلى بالعجب والغرور ولا ينظر بعد ذاك إلى الآخرين سوى نظرة التحقير والاستصغار.

ولذلك وتجنبّاً من حصول المنازعات والخصامات وطفو الضغائن والأحقاد والعداوات على سطح الحياة الإنسانية، ألهم الله (تعالى) الإنسان والميزان والقبّان المكيال وسائر آلات القياس والعيار، ثم أوصاه بتعاهدها لكي يستطيع تنظيم شؤون حياته المادية في تبادل المنافع، وفوق هذا وذاك وضع المولى (جل جلاله) موازينَ ومقاييس للأمور المعنوية لكي يُخرج الإنسان والبشرية جمعاء من ظلمات الجهل ونتائجه الوخيمة المترتبة عليه، كالجهل والغرور والكبر، فجاءت تلك الموازين على صور شتى كما سنرى:ـــ

القرآن الكريم ميزان للسعادة والشقاء:

فقد جعل الله (عز وجل) القرآن الحكيم ميزاناً للسعادات والشقاوات من حيث جنبة الألفاظ. وما من شك في حقيقة صحة إخبار القرآن لمن أراد أن يستخبره عن نفسه أهو من أهل السعادة أم من أهل الشقاء بل يجده دليلاً مرشداً لما طلب ففي قصة بهلول العاقل مع هارون الرشيد كفاية عن استخبار القرآن في هذا الشأن، فلقد كان هارون في هودجه وقد ارتدى ملابس السلطنة البهيّة، وقد سار موكبه بكل عظمة وحشمة، وإذا بصائح يصيح.. يا هارون!! فأنزعج الخليفة من سوء أدب المنادي وصاح بحاشيته: ائتوني بهذا. (لأنه كان يعتقد بأن ينادى بلقب (يا أمير المؤمنين) ومع إظهار آيات الاحترام والتبجيل) فجاؤوه ببهلول، فبادره هارون قائلاً: كأنك لم تعرفني من أنا يا هذا فناديتني بما ناديتني؟ فأجابه بهلول: كلا، واني لاعرفك بشكل جيد من أنت، الست أنت من خزنة جهنم؟ فاستشاط هارون غضباً وقال له: وكيف ذاك؟ قال بهلول: لأن الله تعالى وهبك الملك والقوة لكي تحول بين الناس وبين أن يسلكوا سبيل جهنم بأن تنهى عن المنكر، ولكنك حيث لم تفلح في حمل الناس على ما آتاك الله إلى سبيل الجنة والرضوان، كنت بذلك أول وارد على جهنم، حينئذ بكى هارون (إما تظاهراً بتأثير الموعظة فيه، وإما تأثراً مؤقتاً) فقال هارون: أصبت يا بهلول، فإلى ما سيؤول حالي؟ قال بهلول: (لقد انزل الله قرآناً ميزاناً للأعمال يستطيع كل منّا ان يعرض حاله عليه)، فاعرض نفسك على قوله تعالى **(إنّ الأبرار لفي نعيم* وان**

الفجّار لفي جحيم) (سورة الانفطار، الآية: ١٣ ـ ١٤). وانظر إلى ما سيؤول إليه أمرك؟ ففي الجنة مثواك ان كنت من الأبرار والصالحين، وفي النار عقباك إن كنت من الفجار والأشرار).

أهل بيت النبي (ص) ميزان الأفعال والأقوال:

اما الميزان الآخر لأقوال الإنسان وأفعاله فهم الأنوار الطيبة والعترة الطاهرة للنبي محمد (ص)، فهم الحد الأوسط الحقيقي، والقسط الواقعي، والميزان الدقيق لمن أراد أن يستخبر حاله، فسلوكهم المثال وشأنهم الاعتدال، ومن أراد زنة نفسه فليزن أقواله وأفعاله بأقوالهم وأفعالهم (ولا نقصد هنا تطابق فعل المرء وقوله مع أقوال وأفعال أهل البيت (ع) كأن ذلك مستحيل على كل أحد، ولكننا نريد بقولنا هذا أن يختبر الإنسان أفعاله وأقواله هل هي مؤالفة لأقوالهم وافعالهم (ع) أم أنها مخالفة).

ولاية عليّ (ع) ميزان للأمور المعنويّة:

جاء في تفسير علي بن ابراهيم القمي، إن الإمام الصادق (ع) قال: (والنجم والشجر يسجدان) النجم هو النجم هو جدي خاتم الأنبياء (ص)، ويسجدان ـ يعني يعبدان الله تعالى، (والسماء رفعها) يقصد بذلك سماء النبوة، إذ إن الباري عز وجل قد منّ على جدي رسول الله (ص) بالمقام الشامخ، (ووضع الميزان) يعني ان جعل ولاية علي بن أبي طالب (ع)،

فعلي هو القسطاس المستقيم، وعندما تقوم الساعة وتنصب الموازين في يوم الحساب، تأتي مسألة ولاية علي (ع)، فان كان المرء في ولايته لعلي (ع) مراعياً شؤون وسلوك وأقوال علي (ع) كان من أهل النجاة والفوز (وهذا بالطبع لا يخلّ بالوجوه والمعاني الآخر للميزان)، لأن الله تعالى يقول **(وزنوا بالقسطاس المستقيم)** (سورة الإسراء، الآية: ٣٥). معنى القسطاس المستقيم هو الميزان الصحيح، فهو في الأمور المادية يمثل الميزان والقبان والمكيال وغيرها، أما في الأمور المعنوية فهو الإمام علي (ع) كأحد مصاديقه وأبرزها.

الأنبياء موازين لأممهم:

وقد جاء في رواية حول مضمون قوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة). ان الإمام (ع) يفسر هذه الآية قائلاً: الموازين القسط هم الأنبياء وحجج الله عز وجل، إذ إن النبي (ع) هو ميزان الأمة، فكلما اقترب الإنسان في أحواله وسلوكه وأقواله ومعتقداته من النبي أو إمام الزمان لنال السعادة والمنزلة الرفيعة بنفس ذلك المقدار، لذلك كان علينا لزاماً أن نقيّم أحوالنا وأوضاعنا مع أحوال وأوضاع أئمتنا (ع) كما نرى في هذا الأنموذج:

ترويض النفس على كظم الغيظ:

لقد علّمنا مولانا أمير المؤمنين (ع) فضيلة كظم الغيظ، ولا ندري مقدار ما استفدنا من تعليم مولانا، فكلنا يعرف قصة عمرو بن عبد ود العامري في نزاله مع الإمام علي (ع)،

وكيف ان ذلك الدنيء بصق في الوجه الشريف للإمام أمير المؤمنين فما كان من الإمام إلاّ ان كظم غيظ نفسه ولم يؤاخذه على ما فعل انتصاراً لنفسه بل تركه هنيهة دون رد حتى يأخذه بالانتقام في ذات الله عز وجل فكان رده (ع) موضع فخر جميع الأولياء والأوصياء (ع) وسائر الخلق.

من عليّ خذ درس إخلاص   أسد الله وفخر ذي الأولى
العمل

حين جار الوغد عمرو وبصق   حيّر في الردّ أرباب النهى

ولعل من رائع القول ما نُسب إلى الإمام علي (ع) قوله:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني   فمضيت ثمة قلت لا يعنيني

إطلالة على إنفاق وزهد أمير المؤمنين:

نطل من خلال الآيات المباركة في سورة الدهر على جانب من إنفاق الإمام علي (ع) في سبيل الله عز وجل كما في قوله تعالى **(ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)** (سورة الدهر، الآية: ٨). فلقد قدموا طعامهم للآخرين رغم حاجتهم الماسة إليه لصيامهم وفرط جوعهم لأنهم مصداق قوله تعالى **(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)** (سورة الحشر، الآية: ٩). وعن زهد مولى المتقين (ع) الذي صار حديثاً تتناقله الركبان

والبوادي من أهل خاصته أو من عامة الناس، فلباسه البسيط الذي لم يكن يحظى منه بأدنى اهتمام يقول عنه مقسماً (والله لقد رقعت مدرعتي هذه، حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها عنك؟ فقلت اغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى)١[1] نعم أليس القماش لستر العورة ورفع الحاجة، فأي أهمية تولى لقماش يكون سعر المتر الواحد منه مائة دينار، أو نصف دينار؟ لأن المهم في الأمر هو أن يجد الإنسان ما يستر به عورته ويغطي به بدنه، وان لا يولي الإنسان أهمية لأقوال الآخرين أو أن يتهيب مقالتهم له لبساطة ما يقتنيه لسد حاجاته أو حاجات عياله، ولقد قال معاوية (عليه الهاوية) وهو أحد أشد أعداء أمير المؤمنين (ع)، عن زهد الإمام علي (ع) (والفضل ما شهت به الاعداء): علي هو من لو كان لديه وعاء مملوء بالتبر وآخر بالتبن، لتصدّق بالتبر أولاً ثم لأتبعه بالتصدق بالتبن.

وصف ضرار لعلي (ع):

يقول ضرار بن ضمرة، دخلت على معاوية بعد موت أمير المؤمنين (ع) فقال لي: صف لي علياً, فقلت اعفني، فقال، لا بد ان تصفه، قال ضرار: قلت، إمّا إذا كان فانه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزخرفها، ويأنس بالليل ووحشته، غزير العبرة، طويل

---

١ [1] نهج البلاغة ــ الخطبة ١٦٠.

الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا، يجيب إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييئس الضعيف من عدله، فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغابت نجومه قابضاً على لحيته تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غرّي غيري، أبيّ تعرضتِ؟ أم إليّ تشوقتِ؟ هيهات، هيهات، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وحظك يسير، وعيشك حقير، آه آه من طول السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق)٢[2].

بلى والله، متى كان لعلي (ع) رغبة بالدنيا؟ وما الدنيا؟ لكي يعلق المرء بها قلبه وقد عاش بها ستين أو سبعين سنة؟ فحقاً قول سيدنا أمير المؤمنين أن متاعها إلى زوال ولذاتها إلى اضمحلال وهمومها كثيرة، وأحزانها طويلة.

بعد استعراضنا لجانب من هذا الميزان نقول: لنزن أنفسنا به ولنر هل نمتلك نحن الآن القرب من تلك الأحوال والصفات، أم لا؟ والعياذ بالله تعالى. لندرك بوضوح معنى الميزان الظاهري والباطني.

لا تعرضوا عن الإمام (ع):

---

٢ [2] عدّة الداعي، لأحمد بن فهد الحلي.

(ألاّ تطغوا في الميزان) أي إياكم أن تبخسوا الناس أشياءهم وان تجوروا عليهم هذا عن الميزان الظاهري، اما في الميزان الباطني فتعني هذه الآية، إياكم أن تظلموا أئمتكم وتعرضوا عنهم لانهم هم موازين العدل الإلهي، فمن اعرض منكم بوجهه عن آل محمد (ص) فقد رمى بنفسه في الهلكات، وعليكم أيضاً أن لا تدعوا موازين القسط هذه رهينة دورهم أو أن تتركوها معطلة ثم تركضون خلف من هم سواهم معنى نقض القرآن وظلم نفسه فاصبحوا من المحرومين بما جنته أيديهم.

[١١]

(ووضع الميزان * ألاّ تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

(سورة الرحمن، الآيات: ٧ ــ ٩).

تقييم الأعمال بميزان الأعمال:

إن من رام الحصول على السعادة التامة وجب عليه أن يجعل من ميزان سلوك الإمام علي (ع) مثالاً يقتدي به في سلوكه، لان الإمام هو ميزان الأعمال كما في زيارة الإمام (ع) (السلام على ميزان الأعمال)، بل حرّي بنا أن نجعل أمير المؤمنين (ع) نموذجاً لتقييم أنفسنا من خلال موازين صفاته وأحواله علاوة على ذلك.

ولعل البعض يعتلج في صدره هذا التساؤل: ما معنى ان أمير المؤمنين ميزان للأعمال؟ وكيف يكون الأنبياء والأوصياء موازين إلهية؟، والجواب على هذا التساؤل هو ان ما يتبادر إلى أذهان البعض من أن أعمال العباد ستكون في كفة ميزان ثم تكن أعمال الإمام علي (ع) أو أعمال النبيين والوصيين في كفة أخرى لمعرفة أي كفة سترجح على الأخرى هو تصور خاطئ، وانما نعني بميزان الأعمال هو تقييم أعمالنا وفق عمل الامام باعتباره أصلا وأساساً ونموذجاً للقياس والتقييم من حيث درجة القرب والبعد والتشابه والتنافر في الأعمال والسلوك، لا أن نتصور ان هناك من سيكون له إخلاص كإخلاص علي (ع) أو عمل كعمل الأنبياء، أو عرفان كعرفان الأئمة، لأن هذا التقييم سيعني بالضرورة هلاك جميع الناس وفق هذا المنظور، لأنه ما من أحد يمتلك من الصفات والفضائل ما لدى اتباع الأئمة (ع) كسلمان وأبي ذر(رض)، فكيف سنتصور رقي الحال بهم إلى درجات الأئمة والنبيين (ع)؟

ومن مثل علي (ع) في عبادته؟

في مرة اعترض بعض الأشخاص على الإمام السجاد (ع) قائلاً له: لم تثقلون على أنفسكم بكثرة العبادة وطول الصيام وغزير البكاء؟ ألستم معصومون؟ ألستم من ذرية النبي (ص)؟ وهنا صاح الإمام السجاد (ع) على ولده وقال له: ائتني بالصحيفة التي تشتمل على ذكر

عبادة جدي علي (ع)، فجاءه الإمام الباقر (ع) بها، ثم شرع في تلاوة ما كتب فيها وهنا استرسل الإمام بالبكاء ثم قال: ومن مثل علي (ع)؟!

نعم الإمام السجاد (ع) يقول هذه المقالة، وانه ليعني بها ما يقول، من انه هو أيضاً ليس مقدوره أن يكون كعلي (ع)، وفي هذا الدليل الكافي لكي يدرك الآخرون منزلتهم ويعرفون حقيقة حالهم، واظنني وفقت في الإجابة على تلك الشبهة، فكما عرفتم اننا كنا نتحدث مرة عن النجاة، ونتحدث أخرى عن السعادة التي تمثل منزلة رفيعة للغاية لا تفوقها منزلة، وهذه المنزلة هي المقام الشامخ الخاص بالإمام علي (ع)، وتبقى منازل الآخرين تتدرج في القرب من تلك المنزلة بحظ وهم بالسعادة التي تقترب من السعادة التامة بمقدار قربهم من الإمام (ع) وبمقدار كمالاتهم، فعلى سبيل المثال ان للاخلاص وحضور القلب درجات، فان لم يكن بميسور المرء تحقيق الاخلاص والغفلة، لأن العمل الذي يفتقر إلى الاخلاص لا قيمة له وإن كان في عظم الجبال.

إذاً، الإمام علي (ع) ميزان، وهذا يعني ان اسس السعادة تكمن في علي فلو عمل الإنسان وفقاً لتلك الأسس لحصل على السعادة بالمقدار الذي نهل به من تلك الاسس وعمل بها فيكون الميزان هو ما يحققه الإنسان في كسب النجاة.

أنوار بحار الولاية تغسل أدران الذنوب:

والمعوّل في النجاة هو رجوح الحسنات على السيئات، فلو كانت حسنات المسلم اكثر من سيئاته (حيث تقف حسنة الإيمان بالله، وولاية أهل البيت (ع) في رأس قائمة الحسنات بالطبع) كان من أهل النجاة، ويروى انه (يأتى في يوم القيامة عند الميزان بأعمال المؤمن، فإذا بكفة سيئاته ترجح على كفة حسناته، حينئذ يأخذ اليأس من النجاة يسري في عروقه حتى ليكاد ان ينقطع به الرجاء، فإذا بنور يشع فجأة ويأخذ بغسل ذنوب المؤمن وسيئاته، فيقول: ما هذا النور يا رب؟ فيأتيه الرد: انه نور حب علي (ع).

وقد جاءت عدة روايات بهذا الشأن لمن أراد الاستزادة، يجدها في المجلّد الثالث من كتاب بحار الأنوار.

إذاً كلما ازدادت درجة التعلق والحب (بغضّ النظر عن قلة عمل المحب)، كلّما ظهر أثر جاذبية الحب بين الحبيب والمحبوب، إلى أن يصار بهما إلى الاجتماع.

ميزان الأعمال رادع عن الغرور:

والنقطة الأخرى المهمة في موضوع وضع الميزان هي، الحيلولة دون إصابة المرء بالعجب والغرور، لأن من يراقب إخلاص علي (ع) سيقول في نفسه: أين إخلاصنا من إخلاص علي (ع)؟ ومن يرى عمل علي (ع) في ضربة ضربها في يوم الخندق كانت افضل من عبادة الثقلين، سيقول أين عملنا من عمل علي (ع)؟ ورغم ان علياً (ع) مع كل

ما كان عنده من عمل وإخلاص يتأوه مردداً: (آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق)!! إذاً ما الذي ينبغي أن نقوله نحن؟ أليس انه من البخس ان نولول وننذب صارخين من قلة فهمنا ووعينا لنكون قد عبّرنا عن إدراكنا لقلة أعمالنا وضعف إخلاصنا لنكون قد مارسنا عبادة ترقق قلوبنا القاسية فنردد في كل حين حروفاً تترجم صدق ما تعتمر به قلوبنا وضمائرنا (الهي أنا المتسوّل الذي قد رام وصلك، قد جئتك وأنا اعلم اني لن أنال ما لم استحقه منك بعملي، ولكني يا رب لست ابرح عن بابك المشرع ولن اقطع من فضلك رجائي (لأن سليمان في سعة ملكة لم يرم النملة بالحرمان من لطفه).

حب علي (ع) ينفع في سبعة مواطن:

يعد موطن الميزان في مواقف القيامة من اصعب المواطن والمواقف، فقد نقل عن النبي (ص) أنه قال: (حبي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن، أهوالهن عظيمة، عند الوفاة، وفي القبر، وعند النشور، وعند (تطاير) الكتب، وعند الحساب، وعند الميزان، وعند الصراط)٣[3] وفي رواية أخرى منقولة عن الإمام الرضا (ع) يقول فيها من زارني على

---

٣ [3] خصال الصدوق.

بعد داري، أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتى اخلصه من أهوالها، إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان)٤[4].

القحط والغلاء من آثار نقص المكيال:

ورد في الخبر أن أمير المؤمنين (ع) كان ماضياً في السوق، فرأى عطاراً يزن الزعفران وقد مالت كفة الميزان بشكل مفرط يثير لدى الرائي شكاً ان الميزان فيه عيب، فقال له الإمام (ع): اعمد إلى إصلاح ميزانك أولاً، ثم بعد ذلك زن به **(ألاّ تطغوا في الميزان)**، وقد ذكر البعض ان معنى الآية هو (إياكم أن تجوروا فيما وزنتم به).

ثم تأتي آية **(وأقيموا الوزن بالقسط)** وهو تأكيد على ضرورة اقامة الوزن بالعدل (ولا تخسروا الميزان) أي خذوا حذركم ان تنقصوا الكيل والميزان، وقد ثبت ان انتشار نقص المكيال والميزان في أمة ما يؤدي إلى شمولها بالآثار والنتائج السيئة في الدارين، كما أكّد ذلك الحديث النبوي الشريف (لو أخسر قوم موازينهم، رفع الله تعالى البركة عن زروعهم) أي انهم سيبتلون بالقحط والغلاء، إذ إن بعض آثار الذنوب السيئة كما في القحط والغلاء تظهر واضحة في دار الدنيا بسبب نقص الميزان، وحصول الجفاف وقلة الأمطار بسبب منع الزكاة، وكثرة موت الفجأة نتيجة شيوع الزنا، وما على ذلك.

---

٤ [4] عيون أخبار الرضا (ع) (ص٣٦١، باب٦٦).

سيول الغش أغرقت البقرة!

وفي معرض الحديث عن النقص في الميزان، يتندّر البعض بتناقل هذه القصة التي تقول ان رجلاً كان يمتلك بقرة يعتاش على بيع لبنها، فصادف ان كثر الطلب على لبنه فعمد لاجل تأمين حاجة الناس إلى خلط اللبن بالماء، وكان لهذا الرجل صاحب ناصح ما إن أدرك ما عمد إليه صاحبه حتى سارع إلى نهيه عن الغش وردعه إلى حالته الأولى، ولكن صاحب البقرة لم يرعوِ وضاعت نصائح الصاحب المخلص هباءً، واستمرت الحال بصاحب البقرة، يخلط لبنها بالماء ويقدمه للناس فترة من الزمن، حتى جاء في أحد الأيام سيل عظيم اجترف المنازل والمزارع، وكان من ضمن ما اجترفه السيل، بقرة البائع الغشاش، فحزن صاحب البقرة على ضياع رأس ماله وأهتم كثيراً لذلك، فجاءه صاحبه الناصح مغتنماً الفرصة ليقدم له العزاء على ما أصابه قائلاً له: لا تحزن يا أخي وليكن حسن عزائك التجمل بالصبر، كل ما في الأمر إن الماء الذي خلطته طيلة أيامك الماضية مع لبن بقرتك قد استحال سيلاً واجترف البقرة، فلا تبتئس!!.

نعم إن النقص في الكيل والميزان يعدم البركة، لأن المنقص عندما يظن انه قد خدع المشتري انما قد خدع نفسه في الواقع وظلمها، لأنه سيخسر ماله في الدنيا نتيجة سوء عمله، وسيكون نصيبه في الآخرة:

إحاطة الديّانين بالمخسر في يوم القيامة:

عند قيام القيامة يتعلق الديانون بمن أخسر الناس حقوقهم وانقصهم كيلهم ووزنهم فيطالبونه عن كل درهم بسبعمائة ركعة صلاة، فإن أعطى وفى، وان لم يعط حمّلوه من أوزارهم وذنوبهم بذلك المقدار، وفي رواية يرويها العامة، أن المخسر يطالب عن كل درهم بأربعة آلاف ركعة فإن وفى فبها وإلاّ فإنه يعذب بذلك المقدار.

وبعد أن تتم تصفية حسابات الناس مع المخسر، يساق به إلى جهنم فيجد أمامه جبلين من نار، فيقال له: اذهب وزن من هذين الجبلين)٥[5]!

وكان الإمام أمير المؤمنين (ع) يأتي إلى سوق الكوفة وينادي **(اتقوا الله * ولا تخسروا الميزان * وزنوا بالقسطاط المستقيم)**، وحقيقة الأمر ان النقص في الميزان لا قيمة له، لأن البطن تمتلئ بكل ما يملأها المرء، ولكن العمل هذا يؤدي بصاحبه إلى خسران الدنيا والآخرة ونحن نعلم ان العيال والاطفال لا يأكلون إلا ما قدرّ الله لهم من رزق، فالله الله أن تجعلوا رزق عيالكم مالاً حراماً فيأتونكم في القيامة هم أيضاً ويأخذون بتلابيبكم صارخين بكم لم أخسرتم الميزان وأطعمتونا مالاً حراماً؟

---

٥ [5] (روي عن النبي (ص) انه قال: إن من يختان الناس في المكيال والميزان، يؤتى به في القيامة إلى جهنم، ويوضع بين جبلين من نار، ثم يقال له: كِل وزِن هذين الجبلين، ويبقى على هذه الحال في النار). تفسير منهاج الصالحين.

فتأملوا كيف ان لذة أي عمل لا تعدو طرف اللسان ثم يكون مصيرها الزوال بسرعة، فلم يضيع الإنسان نفسه في وديان الشقاء والبلاء العظيمين، أترونها لذة لها عظيم نفع؟!

إكراماً لصنمِهِ، لا يُخسر عابدُ الصنمِ الميزانَ!!

كتب أحد أصحاب كتاب التذكرة انه في سفر له إلى الهند ذهب إلى دكان قصاب ليشتري اللحم فلفت نظره تشاغل القصاب عند وزن اللحم بالنظر بين الحين والآخر إلى شيء قد لفّه بالمنديل في أعلى الميزان: يقول سألته: مالك كلّما أردت أن تزن اللحم نظرت إلى ذلك المنديل الملفوف؟ فأجابني: إن ذلك الذي تراه ملفوفاً هو صنمي، وقد علقته في أعلى الميزان لكي أرقبه كلما أردت وزن اللحم لئلا تدفعني نفسي إلى إنقاص الوزن!!

وأسوء من عبدة الاصنام اولئك الذين يبرأ الإسلام منهم وهم يزعمون انهم يؤمنون بالقرآن ويؤمنون بقوله تعالى **(وهو معكم أينما كنتم)** (سورة الحديد، الآية: ٤). ولكنهم عندما يجدون أنفسهم تدفعهم لطلب المزيد من المال بطريق الحرام يسارعون إلى إنقاص الوزن والكيل ويغشّون الناس ويرتكبون ألوان الجرائم والخيانات، كما كان شأن عسكر كربلاء عندما ارتكبوا أفظع جريمة بحق الدين رجاء جائزة حقيرة أمّلهم يزيد (لعنه الله) بتقديمها لهم.

(والأرض وضعها للأنام) (سورة الرحمن، الآية: ١٠).

العدل في خلق الأرض:

بعد أن أشارت السورة إلى خلق السماء ورفعها، والتطرّق إلى النظام والعدل السائدين في حركة الشمس ومدار القمر، قرّر الباري تعالى العدل قانوناً ثابتاً للناس وشدد أوامره بمراعاة الميزان كما تحدثنا في ذلك من قبل، وقد ساق لنا الله عز وجل أمثلة على العدل الإلهي لكي نحكّم العدل في جميع شؤوننا مختارين طائعين تأسياً بخالقنا تعالى، ثم جاء الحديث الآن إلى ذكر خلق الأرض وتأكيده على ضرورة التزام العدل في الأرض كيما ينظم الناس شؤون حياتهم وفق ذلك بعد استحكام شيوع العدل في السماء والأرض تكويناً.

صلاحية الأرض للحياة:

(والأرض وضعها للأنام) ومعناها إن الله (جل وعلا) جعل الأرض صالحة لحياة المخلوقات التي أوجدها لتعيش على تلك الأرض، و(الانام) جمع لا مفرد له ويعني الخلائق. وقد أزاح المولى تعالى جميع الحوائل والموانع التي تعيق حياة الموجودات في كوكب الأرض بجعلها ممهدة لسكانّها وعمّارها كما يؤكده قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً) (سورة النبأ، الآية: ٦). فكوكب الأرض هو أحد الكواكب والأجرام التي لا تحصى عدداً في هذا الكون الرحب

الفسيح ويؤلّف الماء ثلاثة أرباع سطحها حسب رأي العلماء قديماً وحديثاً، وقد كتب صاحب كتاب أنيس الأعلام المرحوم فخر الاسلام عن مساحات البحار قائلاً، إن مساحة المياه التي تغطي سطح الأرض تصل على أربعة وأربعين مليون وسبعمائة وخمسين ألف ميل مربع، في حين تتفاوت أعماق المحيطات بحيث يبلغ أبعدها عمقاً ستة آلاف قامة (أي ما يعادل عشرة آلاف متر تقريباً).

تأثير المد والجزر على الظروف الحياتية:

إن المراقب لحركة كوكب الأرض المذهلة ليعجب كيف أن المياه الموجودة على سطحه لا تغرق سطح الأرض، ومن يراقب حالة المد والجزر البحري كيف تنتظم حركته بنظم معين فيدفع البحر الرمال والحصى على سواحل البحار وشطآنه فيصنع منها تلالاً وسدوداً وجدراناً، ليدرك بلا ادنى شك ان ما يصنعه البحر لم يكن بوازع من وعي وحس وشعور أبداً، وانما يتم ذلك من خلال الوحي التكويني الإلهي المستودع في البحر المنشأ لحالة المد والجزر، إذاً أحد أهم المهام التي تصدى لها المد والجزر البحري هو صنع الحواجز وانشاء السدود المحيطة بسواحل البحار لكي تتمكن مخلوقات اليابسة من العيش بهدوء وهناء مضافاً إلى أن حالة المد والجزر تحول دون تعفّن ونتن ماء البحار في حالة سكونه وركوده مع كون وجود الأملاح في مياه البحار يعد عاملاً أساسياً آخر في عدم السماح للبحر بتعفّن مياهه، وبذلك سلمت الحياة على اليابسة من الزوال والعدم.

الحركة المذهلة غير المحسوسة للكرة الأرضيّة:

جاء في كتاب دائرة المعارف من الحركة المحورية للأرض حول نفسها، ان بعض المكتشفين يعتقدون بان الأرض تتحرك بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية الواحدة، أي ما يعادل ألفاً وثمانمائة كيلومتراً في الدقيقة (وهي المسافة الممتدة من مدينة مشهد في أقصى الشمال الشرقي من إيران إلى مدينة شيراز في الجنوب الغربي مروراً بمدينة طهران العاصمة، حيث تقطع الأرض في حركتها المحورية هذه تلك المسافة الشاسعة بدقيقة واحدة من الزمن!)، وبذلك تكون المسافة التي تقطعها الأرض في هذه الحركة حوالي خمسمائة ألف فرسخ في اليوم الواحد ــ وطبقاً لهذه الحركة المذهلة، ووفقاً للمألوف فإن المخلوقات الأرضية يفترض بها والحال تلك التزلزل والفناء، ولكن الواقع يحكي باللمس والاحساس ان أي مخلوق لم يشعر بهذه الحركة مطلقاً، ومثل هذا الحال، لربما وجد الكثيرون منا ما يشابهه (مع الفارق) في ركوب البواخر العملاقة وشاهد بنفسه كيف ان الباخرة تمخر عباب البحر في حركتها السريعة نسبياً دون أن يشعر المسافرون وهم على متنها بحركتها، فهم ينعمون بالهدوء والسكينة، ويتحركون على ظهرها وبين أقبيتها ويأكلون وينامون بشكل عادي للغاية (باستثناء الحالات التي يهيج فيها البحر وتنشأ فيها الزوابع البحرية عندما تتلاطم أمواجه بعنف).

إذاً معنى قوله تعالى (والأرض وضعها للأنام) هو أن الله (عز وجل) جعل في الأرض من مستلزمات الراحة والاستقرار ما يمكن المخلوقات من العيش بهناء وهدوء على سطحها، مع تزيين هذا الكوكب بالثمار والاشجار وغير ذلك من الأشياء التي ستأتي الآيات اللاحقة لتحدثنا به، لكي يلفت المولى (جل جلاله) نظر عباده إلى عظمة هذه الآيات الأرضية.

الجبال أوتاد الأرض، وخزائن نفائس الله فيها:

وفي جملة تركيبات الأرض الديمغرافية وجود الجبال التي تعتبر الباعث الهام على ثبات الأرض وتماسك وحدتها، فرسوخ الجبال الرواسي فيها بشكل متين جعلها وكأنها ملتحمة بالأرض من حيث إنها قد مدت عروقها إلى داخل عمق القشرة الأرضية، وفي أعماق البحار والمحيطات لكي تعطي لسطح الأرض وجوداً رصيناً متماسكاً يحول دون تمزق الأرض عند تفجر البراكين الناشئة عن الانفجارات الهائلة في باطن الأرض. وفوق ذلك تكمن أهمية الجبال في كونها خزائن لثروات الأرض ونفائسها، فكما أن المرء يبحث عن اكثر المواضع استحكاماً ليودع فيها كنوزه وثرواته، جعل الله تعالى الجبال خزائن ثروات الأرض ومعادنها (كالذهب والفضة والنحاس والعقيق والفيروزج والمرمر وسائر المعادن والفلزات)، كما يؤكد ذلك النص الوارد في دعاء الجوشن الكبير (يا من في الجبال خزائنه)، مضافاً إلى كل ما سبق فان الجبال تعد منازل آمنة ومساكن طبيعية محكمة لكثير من الحيوانات.

سطح الأرض، ليس بالرخو اللّين ولا بالصلد الشديد:

وقد جعل الله سطح الأرض على نحو يمكن فيه اعمار الأرض وزراعتها والعيش عليها، فلا هي بالرخوة اللينة التي تغور بواطئيها، ولا هي بالصلبة الصلدة بحيث يتعذّر شقها وزراعتها أو بناء المساكن عليها، وهنا ألفت نظركم إلى هذه العبارة (تعرف الأشياء بأضدادها) أي ان انعدام وجود الليل يؤدي إلى عدم معرفة نور النهار وضيائه، ولولا المرض والسقم لم تعرف نعمة العافية والصحة (كما في الريح التي تضرب ظهر الإنسان فتسلبه القدرة على الجلوس والقيام)، وهكذا أيضاً في سطح الأرض فهو يشتمل على وجود الأضداد لو التفتنا إليها لعرفنا واستيقنّا عظمة نعمة إمكانية الحياة على وجه الأرض المألوف، ففي الأرض توجد مناطق البحيرات الملحية، والصحاري الرملية، وأراضي الرمال المتحركة (وتلك المناطق لا تصلح للحياة تماماً) وكذلك توجد في الأرض مناطق الاهوار والمستنقعات، والمناطق الجبلية البركانية المشتملة على البراكين النشطة، ومناطق الغابات، ومناطق الوديات السحيقة، وغيرها من المناطق كما يذهب إلى تأكيد ذلك قوله تعالى **(وفي الأرض قطع متجاورات)** (سورة الرعد، الآية: ٤). فلو نظرنا إلى تلك المناطق ثم نظرنا ثانية إلى سطح الأرض المألوف من حيث استوائه وسهولته حفراً وشقاً واعماراً واستثماراً وزراعة لوجدنا كيف ان الله عز وجل جعل الأرض مهاداً للأنام يمكنهم الاقامة عليها والحياة فيها، إذاً

التوجه إلى الاضداد يؤدي إلى تيسير إدراك عظم النعم.

وما لم يصلح في الأرض للحياة، يصلح للعبرة والموعظة:

ففي الأرض مناطق تشبه إلى حد كبير (كورة الحداد)، في شدة حراراتها كما في صحراء برهوت إذ إن فصولها الأربعة صيف قائظ يشتعل ناراً، حتى أن الطيور لا تستطيع من اجتياز هذه المنطقة طيراناً، وهناك مناطق أخرى تشبه البرادات الضخمة من حيث درجة الحرارة المنخفضة وشدة البرودة بحيث لو مر بها حيوان ما لانشلّت حركته وتجمدت دماؤه ولنفق ميتاً، كما في مناطق القطب الجنوبي من الأرض.

(نسأله تعالى أن يجعلنا ممن عرف آلائه فشكر، ونظر إلى آياته فاعتبر).

[١٣]

(والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذّبان) (سورة الرحمن، الآيات: ١٠ ــ ١٣).

فناء الأرض:

قلنا إن الله (عز وجل) جعل الأرض مكاناً ملائماً لحياة المخلوقات من حيث إمكانية العيش والراحة فليست هي بالصلبة القاسية التي يستحيل معها العمران والزراع، ولا هي بالرخوة اللينة التي يستحيل بها الثبات والاستقرار، بل كانت الأرض بين بين تلائم طبيعة حياة

المخلوقات. ولما كان (كل حادث فانٍ)، فنستفيد من كلمة (وضع) الواردة في آية **(والأرض وضعها للأنام)** أن الأرض حادثة ومخلوقة، وأن مصيرها إلى الزوال والفناء كما تشير إلى هذه الحقيقة سورة الفجر في قوله تعالى **(كلاّ إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً)** (سورة الفجر، الآية: ٢١). وقد ذكر علماء الهيئة (الفلك) ان للأرض أجل محدود إذا ما حل بها يحل حينذاك الموت والفناء. وقد أورد اولئك العلماء عدة احتمالات لكيفية وشكل الفناء للأرض نستعرض أهمها:

١ ــ الانخفاض الحاد في درجة الحرارة، أو اصطدامها بجرم آخر، أو تلاشي جاذبية الشمس بالنسبة لأبدان الحيوانات عندما يدركها الموت، فالحرارة الكامنة في باطن الأرض والتي تصهر المعان في جوفها سيأتي عليها يوم تنتهي فاعليتها وقابليتها على الاذابة والصهر لبرودتها، ولعل ذلك سيتزامن مع قيام الساعة وحصول الانفجارات الداخلية الرهيبة في باطن الأرض واشتعال البحار والميحطات١ [1]، مما يبعث ذلك إلى انجماد الأرض وموتها٢ [2].

٢ ــ الاحتمال الثاني:ــ اصطدام الأرض بجرم سماوي آخر يهيّئ أسباب فنائها.

---

١ [1] (وإذا البحار سجّرت) سورة التكوير، الآية: ٦).

٢ [2] لمزيد من المعلومات، يمكن الرجوع إلى كتاب المعاد من مؤلفات سماحة السيد المؤلف(رض).

٣ ــ الاحتمال الثالث:ــ انتقال الشمس إلى مرحلة الشيخوخة والهرم بحيث تصل إلى اليوم الذي تتلاشى فيه حراراتها العالية، وينعدم ضياؤها، مما يؤدي ذلك إلى تلاشي جاذبيتها، فتتلاشى الأرض وسائر أجرام المجموعة الشمسية لارتباطهن الوثيق بنظام المجموعة.

تلك الاحتمالات أوردها علماء الفلك إلى جانب احتمالات أخر عزفنا عن التطرق إليها، وما يهمّنا هو ما تطرق إلى ذكره القرآن الكريم عن موضوع تبدّل الأرض في قوله تعالى **(يوم تبدّل الأرض غير الأرض)** (سورة إبراهيم (ع)، الآية: ٤٨). وهو ما أشار إليه مولى الموحدين الإمام علي (ع) في قوله (إنّ الله يبدّل هذه الأرض بأخرى غيرها لم يعص الله فيها)٣[3]. فكما أن بدن الإنسان يفنى ولا يبقى، فان محل استقراره ومكان نشأته وترعرعه الذي شغل فيه حيّزاً من وجوده وتعلّق به قلبه، سيفنى ويزول هو الآخر أيضاً.

ما الدّنيا؟ وما لّذاتها؟!

يقول أحد علماء الأخلاق، شاهدت في إحدى المقابر عالماً يرقب القبور بعين الدهشة والحيرة وينقّل نظره بين تلك القبور ومحل يقوم فيه بعض الأفراد بتنظيف المرافق الصحيّة ونقل الفضلات والأوساخ والنجاسات إلى مزبلة على مقربة منها، فتقدمت إليه وسألته: بماذا تفكر؟ قال لي: أفكر في الدنيا ونعمها، فتلك القبور قد ضمّت أبدان من قد تنعّموا بنعم الدنيا ثم

---

٣ [3] بحار الأنوار/ المجلد الثالث.

صاروا إلى الرقاد تحت التراب، وهذه هي نعمهم التي خلفّوها وراءهم قد استحالت إلى نفايات ونجاسات وألبسة بالية ممزّقة!!

وذلك ما تؤكده الروايات الشريفة بالفعل: (الدنيا جيفة، وطلاّبها الكلاب، وعمّارها هدّامها)، وهنالك ملك ينادي في كل يوم (يا بني آدم لِدوا للموت، وأجمعوا للزوال، وأبنوا للخراب).

ونؤكد هنا لكي لا يلتبس الأمر على البعض فيفهموا من ذلك كراهية بناء الدور مثلاً، كلا، إنّما الكراهية والنهي جاءت في من يعمر دنياه، ظنّاً منه بالخلود فيغفل عن العمل لآخرته فيكون قد أخربها.

متى يشرع ركب الموتى بالرحيل؟

جاء في كشكول الشيخ البهائي (قدس سره)، أن أحد وزراء هارون الرشيد رأى بهلولاً في إحدى المقابر فقال له: كيف تهجر يا بهلول المدينة وأهلها وتقيم في المقابر؟ فأجابه بهلول: لقد قدمت على قوم إذا حدثتهم لا يؤذونني، وان حدثوني لم يغتابوا ولم يكذبوا ولم يرموا أحداً ببهتان. فردّ عليه الوزير قائلاً: أو يحدّثوك؟! قال بهلول: بلى، ولقد سألتهم: أيها الركب الذي قد حط رحاله، حتى مَ تقيمون، ومتى ترحلون؟ فأجابوني: إننا ها هنا قد حططنا رحالنا وننتظر لحوقكم بنا لنرحل سوية!!.

بلى والله **(قل ان الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلوم)** (سورة الواقعة، الآية: ٤٩ ــ ٥٠). فمرحى لمن أعدّ لرحيله وسفره الطويل كثير الزاد، (اللّهم اجعلنا ممن قد أعدّ الزاد لرحيله وإن تأخرت قوافلنا عن اللحوق بمواعيد نبتغيها فان موعدها معك، اللّهم فأخرج حب الدنيا من قلوبنا، واجعل أفئدتنا معلقة بالآخرة).

من نعم الله فاكهة الأرض:

(فيها فاكهة) ثم يعقّب المولى (تعالى) ذكر نعمة خلق الأرض وجعلها صالحة للعيش بذكر جانب من نعمه المنبثقة عن رحمته الرحمانية لأهل الأرض كيما يزدادوا بصيرة وليعتبر بها أولوا الالباب. وأول تلك النعم هي (الفواكه)، وقد تناولت هذه السورة ذكرها لكي نتدبّر كيفية صيرورتها من حيث أنواعها وألوانها وصورها، مع أن أشجارها قد سقيت من ماء واحد ونبتت في تربة واحدة كما في قوله(عز وجل) **(يسقى بماء واحد)** (سورة الرعد، الآية: ٤). بل أننا نجد لكل ثمرة مذاقاً خاصاً يختلف عما سواه في باقي الثمار، ففيها ما طعمها حلو، وما طعمها حامض، أو طعمها مرّ المذاق، أو ما تشتمل على ما بين الطعمين من المذاق، بل وفي الثمار ما يأكل لُبّها دون قشرها كما في الرمّان، ومنها ما يأكل كلّها ظاهرها وباطنها كما في التمر والتفاح، نعم لقد خلق الله تعالى كل تلك الضروب من الفواكه **(لتعلموا أن الله على كل شيء قدير)** (سورة الطلاق، الآية: ١٢).

بين حموضة الحصرم وحلاوة العنب:

والآن تعالوا إلى شجرة العنب، هذه الفاكهة اللطيفة، فثمرتها تبدأ بالحصرم حامض المذاق ثم تتدرج في زيادة الحلاوة حتى تصل إلى مرحلة النضج فتصير عنباً لذيذ الطعم حلو المذاق، فمن أين جاءت هذه الطعوم؟، الطعم الحامض أولاً يظهر ثم يختفي، فكيف اختفى هذا الطعم؟ وكيف استحال إلى طعم حلو؟ ألا يستدعي هذا الأمر أن يقدم ذواقوا العنب الشكر لصانع العنب المبدع؟

وعن نزول الفاكهة الحديثة النضج في أول أوانها، يروى عن النبي (ص) انه كان يقبلّها ثم يضعها على عينه ويقول: (اللهم فكما أريتنا أوله في عافية، أرنا آخره في عافية)، وواقع الحال يؤكد ان عدم مصاحبة العافية لهذه النعم يُعدم لذّتها للآكل ويسلبه هناها. لذلك كان الأجدر بالمرء المؤمن عندما يأكل فاكهة ما (كالرمان أو العنب مثلاً) أن يأكلها حبة حبة مستحضراً قلبه بذكر الله (عز وجل) وبكل سكينة لكي يشعر بلذة هذه النعمة الإلهية وبالخصوص في ثمرة الرمان، فقد ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله: إن الإمام أمير المؤمنين (ع) كان يفترش شيئاً من القماش عندما يتناول الرمان لكي لا تتناثر حباتها، ثم يعود إلى ما انفرط منها حبة حبة فلا يبقى عليها[٤] [4] ولقد جاء في الروايات ان الرمان ينير

---

[٤] [4] سفينة البحار (ج١ ص٥٢٥).

القلب أربعين يوماً لمن تناولها في صبيحة الجمعة٥[5]، ومن أكل اثنتين تنوّر قلبه إلى ثمانين يوماً وهكذا.

وبديهي ان حضور قلب الآكل في تناول الرمان له اكبر الاثر في تنوّر قلبه، اما في الكافر أو المنافق فهما لم يتركا لنفسيهما قلباً كيما يشع النور في داخله. وعن التفاح ورد في الأثر انه والسفرجل من ثمار الجنة (أي ان اصل هذه الفاكهة من الجنة وفي الجنة، أما ما هو موجود منها في دار الدنيا ما هو إلاّ انموذج لما في الجنة) وأنه لا ضرر فيهما، سيما في ثمرة السفرجل والكّمثرى.

الغسل ثم البسملة ثم الأكل:

ولقد جاءت الوصايا بضرورة التزام غسل الفواكه عامة قبل تناولها، وان لا يدع المرء قول بسم الله الرحمن الرحيم عليها عند الاكل، ولقد وردت بعض الروايات والأخبار التي تؤكّد ان من تناول بعض الفواكه على حب رسول الله (ص) لأنه كان يشتهيها لم يصله ضررها ان اشتملت عليه كما في هذه الرواية (من أكل التمر على شهوة رسول الله (ص) لم يضره)٦[6] ولقد كان الإمام أمير المؤمنين (ع) يحب التمر هو أيضاً، ولقد جاء ذكر الباري

---

٥ [5] سفينة البحار (ج١ ص٥٢٥).

٦ [6] سفينة البحار، (ج١، ص١٢٥).

تعالى لفاكهة التمر بعد ذكر اطلاق الفاكهة تعبيراً عن شأنها الكبير.

التمر، خبز وحساء وفاكهة ودواء:

(والنخل ذات الأكمام) والنخل هو شجرة التمر وهو من فواكه الأرض، وصفة (ذو الاكمام) هي جمع لكم وهو الغلاف أو الغطاء، لأن التمر قبل أوان نضجه يبقى محفوظاً تحت ستائر معيّنة تدعى (الأكمام)، فانظروا إلى يد القدرة الإلهية كيف تجعل نواة تمر زُرعت فاستحالت إلى شجرة نخل عظيمة!!، ثم لو جئنا إلى نفس الشجرة لوجدنا ان جذوعها وسعفها ذو نفع وفائدة جمة كمصدر من مصادر الطاقة الحرارية، وثمر هذه الشجرة الحلو المذاق يعوّض عن الخبز وعن الحساء لما فيه من مواد غذائية تنعدم وفرتها فيما سواه من الثمار، فالتمر مفيد في رفع رطوبة البدن وقطع البلغم، ولقد جاء في الشرع المقدس استحباب تناول سبع تمرات قبل النوم لقتل الديدان المعويّة وقطع البلغم كما في هذه الرواية (ومن أكل سبع تمرات من (العجوة)٧[7]. قتلن الديدان في بطنه) وفي رواية أخرى (يذهبن بالبلغم)٨[8].

---

٧ [7] العجوة: نوع من افضل أنواع النخل.

٨ [8] سفينة البحار (ج١، ص١٢٥).

سبعمائة حبة في حبة واحدة

[١٤]

(والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام) (سورة الرحمن، الآيات: ١٠ ــ١١).

خصائص النخل الحيوانيّة:

لقد جاء ذكر النخل في هذه السورة المباركة بعد ذكر الفاكهة، وهو ذكر خاص بعد عام، إذ إن النخل من جملة الفواكه التي خلقها الله (عز وجل)، له أكمام وهي الأغلفة المغطيّة لثمرة(التمر).

وانمّا جاء ذكر النخل تخصيصاً لاشتمال هذه الفاكهة على خصائص تتجلّى فيها القدرة الإلهيّة اكثر مما هو في سواها من الثمار. فمن خصائص النخل انه اقرب أنواع النبت إلى الحياة الحيوانية، فقد ورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال (استوصوا بعمتكم النخلة خيراً، فإنّها خلقت من طينة آدم، ألا ترون انه ليس من الشجرة تلقح غيرها)١[1] وهذه الرواية تشير إلى قرب حياة النخل من الصفة الحيوانية (وأن كان هذا القرب محدوداً)، فعندما يذبح الحيوان ويتم فصل رأسه من بدنه يموت، وفي النخل أيضاً لو اصيب رأسها بضرر ليبست.

---

١ [1] بحار الأنوار (١٤٢) باب التمر.

تلقيح النخل، والحب بين ذكره وانثاه:

ومن خصائص النخل الأخرى، أن الانثى يتم تلقيحها من الذكر الذي هو من جنسها، والتلقيح ضروري لأجل تحقيق التوالد والتناسل، ولأجل ان يعطي النخل ثمرة يستلزم التقليح كما هو الحال في الحيوانات, والمتخصصون في هذا المجال مطلعون على هذه الحقيقة حيث يتم التلقيح بواسطة العبوات الدائرية التي ينتجها ذكر النخل من ذات جنس الأنثى.

وهناك خصوصية أخرى عجيبة يتميز به النخل وهي العلاقة والحب بين الذكر والأنثى وهي عين مثيلتها في الحيوانات، إذ إن الله (عز وجل) جعل في هذه الشجرة قدرة خفيّة على التقارب بين الزوجين من هذا النبات، فقد نقل بعض الثقات انه قد حصل في أحد بساتين النخيل ان كانت نخلة انثى تقع على مسافة عشرة أقدام من ذكرها، وما أن مرّت ستة شهور حتى اقتربت النخلتان من بعضهما البعض بحيث أصبحت المسافة بين جذعيهما لا تعدو الشبر الواحد!!، ولعلّهما يتعانقان بأن ترمي كل نخلة برأسها على الأخرى ليحتضنا فيما بينهما، ويشبكان سعفهما سوية لكي نعلم (**إن الله على كل شيء قدير**).

دور الحبوب في ترميم خلايا بدن الإنسان:

(**والحبّ ذو العصف والريحان**) هذه الآية معطوفة على الآيات التي سبقنها بحيث تكون في واقعها (فيها الحب ذو العصف والريحان)، فعندما ذكر الله تعالى الأرض، وتطرّق إلى ذكر

الفواكه ثم خص بالذكر النخل، جاء ليخص الحبوب بالذكر، باعتبار أن الحبوب تشتمل على الوفرة في المواد الغذائية التي يتغذى عليها الإنسان والحيوان، فهي طعام لذيذ ومغّذٍ.

وبما أن البدن من حيث تركيبته مادي، فهو يتضرر في خلاياه المكونة لانسجة البدن عندما تصدر عن ذلك البدن حركة أو جهد ليؤمّن بواسطتها الطاقة الحرارية اللازمة للقيام بالفعاليات المختلفة، وبذلك كانت خلايا البدن في تعويض دائم لأجل مواصلة تجديد القوى الجسمانية، فمثل البدن كمثل المصباح والموقد الذين يحتاجان إلى النفط أو الزيت أو الكهرباء لأجل ان يستطيعا مواصلة عملهما وتأدية دورهما، لذلك كانت أبدان الإنسان والحيوان تتلاشى وتموت في حال تعطّل وصول المواد الغذائية لها لفترة محدودة من الزمن، وكلّنا مطلّع على حال البدن عندما يبتلى بالأمراض والاوجاع كيف يكون مخيفاً ضعيفاً، لأن المزاج عند المرض يخرج عن الاعتدال فلا يميل إذّاك إلى تناول الطعام، أو لا تتحقق عملية هضم الطعام بصورة صحيحة أو بشكل طبيعي، فعندئذ لا تحصل التغذية السليمة فيهزل البدن ويضعف ولما كانت خلايا أنسجة البدن تتفسّح وتتحلّل وتموت، كان البدن في أمّس الحاجة وبشكل متواصل إلى تعويض تلك الخلايا والانسجة، ولا يتم هذا التعويض إلا من خلال تناول الحبوب واللحوم والفواكه وتأتي الأولوية في الأهمية للحبوب باعتبارها تضم في تركيبها مختلف أنواع الفيتامينات التي يقل وجودها في غيرها من المحاصيل النباتيّة، فالرز والقمح والشعير والذرة

فيها من المواد الغذائية ما يقل في نظيرها من النباتات، ولقد أولت الروايات الواردة عن أهل البيت (ع) لهذه المحاصيل أهمية كبيرة كما سنرى عما قليل:ــ

الرز، شفاء لا داء معه:

روي عن الإمام الصادق (ع) في أهمية الرز أنه قال: (كل شيء يحتمل معه الداء والدواء، ما خلا الرز، فإنه شفاء لا داء فيه)٢[2] و(صادف) أن تشرّف رجل من أهل العراق بالحضور عند الإمام الصادق (ع)، فنقل هذه الرواية على تفصيلها الآتي الذي نجد فيه الكفاية في التدليل على موضوعنا، يقول: كانوا قد طبخوا الرز في دار الإمام (ع)، فدعاني الإمام لتناول الطعام، قلت له: لقد تناولت طعامي يا مولاي، فقال الإمام (ع): ان افضل هدية كان يقدمها لي أهل العراق ليلاً هي الرز)٣[3] وانظروا إلى جمال بيان وتعبير من قال إن الرز يقال له في الفارسية (بِرنجْ) وهي لفظة مخففة لكلمة (بيرنج) التي تعني (لا ضرر فيه).

الشعير، غذاء فيّاض بالبركة، وهو طعام الأنبياء (ع):

---

٢ [2] بحار الأنوار (م١٤) باب الأرز.

٣ [3] المصدر السابق.

والشعير هو الصنف الآخر من الحبوب الذي أولته روايات أهل البيت (ع) أهمية خاصة، فقد جاء عن الإمام الرضا (ع) قوله (فضل خبز الشعير على البُر ٤[4]، كفضلنا على الناس، وما من نبي إلاّ وقد دعا لأكل الشعير وبارك عليه، وما دخل جوفاً إلاّ واخرج كل داء فيه، وهو قوت الأنبياء وطعام الأبرار، أبى الله أن يجعل قوت الأنبياء إلاّ شعيراً٥[5].

وورد في كتب الطب القديمة أن الشعير يوجب انتفاخ البطن ويمكن تلافي ذلك بأكل التمر، وهو (الشعير) طعام نوراني ينير قلب المؤمن.

وللعدس أيضاً خواص جسمية وروحية اشتملت على ذكرها الورايات، فهو يؤدي إلى ترقيق القلب ويغزر الدمعة، فقد روي إن نبياً شكا إلى رب العالمين جفاف عينه وقلة دمعه، فأُمر بأكل العدس٦[6]، وعن النبي يحيى (ع) يروى أنه كان يكثر من أكل العدس، وكان بكاء يحي مضرباً للأمثال من حيث كثرته وغزارة دمعه.

واللوبياء هي الأخرى من الحبوب الممدوحة، وقد ذكرها المرحوم المامقاني في آدابه وسننه. وجميل جداً أن يتناول المرء المؤمن الأطعمة المستحبة التي مدحها أهل البيت (ع) باعتباره تابعاً لمحمد وآله (ص) فيأكلها رغبة في طاعتهم وموالاتهم. وقد ورد عن الإمام الصادق (ع):

---

٤ [4] البُر: القمح أو الحنطة.

٥ [5] سفينة الحبار (ج١، ص٣٧٥).

٦ [6] بحار الأنوار، المجلد الرابع عشر.

(من أكل سفرجلة، أنطق الله الحكمة على لسانه أربعين يوماً)٧[7] وقد ذكرنا فيما سبق ان هذه الفوائد لا تعمّ إلاّ المؤمن الصالح الذي يتناول طعامه بقصد التبرّك واتباعاً لسنن أهل البيت (ع)، ولأجل الاستفادة من نعمة الله ورحمته لما لهذه النعم من بركة ظاهرة وباطنة.

تجنّب تناول الثمار غير الناضجة:

وقد شدّد أهل البيت (ع) على قاعدة عامة مفادها النهي كراهية عن أكل الفواكه والحبوب غير الناضجة، والشاهد على ذلك ما ذكره الإمام (ع) من قوله تعالى **(كلوا من ثمره إذا أثمر)** (سورة الأنعام، الآية: ١٤١). لأن الثمرة غير الناضجة عديمة النفع ان لم تكن في الأغلب تشتمل على الضرر.

وعن الباذنجان يقول الإمام (ع): إذا اشتدّ الحر ونضج التمر فلا ضير فيه٨[8] أي عندما يأتي أوان نضجه، ومع كل ذلك ينبغي مراعاة القاعدة الصحية الإلهية في قوله تعالى **(كلوا واشربوا ولا تسرفوا)** (سورة الأعراف، الآية: ٣١). لأن أحد أضرار الاسراف في تناول الأطعمة هو حصول قسوة القلب، حتى وان كان الاسراف هذا في الاكثار من تناول العدس الذي يؤدي تناول قليله إلى رقة القلب، لأن الإكثار من تناول الأطعمة يؤدي إلى امتلاء المعدة وتلكؤها في عملية الهضم، فيحصل الهضم الناقص وتبقى بعض المواد الغذائية غير مهضومة

---

٧ [7] سفينة البحار (١، ص٦٢٩).

٨ [8] بحار الأنوار، المجلد الرابع عشر.

فتفسند في باطن الإنسان وتسبب في خروج الأبخرة الفاسدة التي تتصاعد نحو الدماغ فتؤدي إلى إفساد إدراك المرء وتعطّله.

رواية لطيفة لضمان السلامة:

يروى عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال لإنبه الإمام الحسن (ع) (لا تجلس على الطعام إلاّ وأنت جائع، ولا تقم عن الطعام إلاّ وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وإذا نمت فأعرض نفسك على الخلاء، فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب) ومسألة أكل الطعام على الجوع إنما أكدّ عليها الإمام (ع) باعتبار وجود الكراهية في أكل الطعام دون وهود الشهوة له، اما عن معنى القيام عن الطعام في حالة الشهية له، فهو يعني ترك تناول الطعام قبل الشبع بلقيمات مثلاً، ولعل البعض يعتقد بغير ذلك، إذ يقال إن بطن الجائع يتسع لاربعين لقمة، وعن تجويد المضغ فهو تناول الطعام بشكل يحصل معه المضغ الكافي حيث يختلط به اللعاب بالصورة التي ييسر للمعدة عملية الهضم بشكلها الصحيح، وتجويد المضغ يستوجب تجنب الشارهة والسرعة في الأكل، وكثيراً ما يحصل لمن يتناول طعامه دون حصول حالة المضغ الكافي، الكثير من الاضرار والأدواء الناشئة عن حصول الخلل في برنامج عملية الهضم في المعدة، ناهيك عن عدم حصول المرء على الفائدة المطلوبة من موضوع الأكل ذاته، لذا أُستحبت كثرة المضغ وتصغير اللقمة.

سوء الاستفادة يعود بالأضرار:

ومن الأمور الأخرى التي تعد في كفران النعم هو ما يتناوله الإنسان من ألوان الأطعمة، ثم يدعي بعد ذلك انه قد أصابه الضرر من تلك الاطعمة، يقول الإمام الصادق (ع) (الكفر بالنعم هو أن يقول الرجل أكلت كذا وكذا فضرّني)٩[9] نعم لأن الضرر الناشئ إنّما كان بسبب تناول الطعام دون أن يشتهيه، أو بسبب الخلط في تناول عدة أكلات، أو بسبب الافراط في تناول الاطعمة، وليس بسبب لون الطعام المتناول، فمن يتصور ان الرقي أو البطيخ أو العسل أو اللبن ضار بذاته؟! إذاً يجب أن نعرف ان بعض الاكلات تستوجب تناول معها ما يحول دون حصول الضرر لبدن الإنسان، فمن يتناول اللبن عليه ان يطعم معه الرقي (خصوصاً فيمن طوى مرحلة الشباب وبالصورة التي يكون سبيلهم في تناول الطعام يترّفع عما يفعله الصبيان والاطفال حينما تمتد أياديهم إلى كل ما يرونه أمامهم، لأننا ندرك ان الله تعالى قد أحسن في صنعه وابداعه، فهو لم يخلق الضرر والسوء، وانما منشأ الضرر والسوء هو عدم وجود الاستخدام الصحيح للأشياء، والسوء والضرر منشأه انعدام الاعتدال، والاعتدال نابع من العدل، وعندما يقال لنا اعدلوا فمعنى ذلك ان نتجنّب التفريط بالعدل بوضع كل شيء في موضعه المناسب، إذاً يجب على المزكوم ان يتجنّب تناول العسل حميّة.

---

٩ [9] سفينة البحار (ج٢، ص٥٩٩).

كثرة النوم منشأها الافراط في تناول الأطعمة:

وفي موضوع الافراط في تناول الطعام، (جاء رجل إلى الإمام الصادق (ع) وشكا له كثرة نومه قائلاً: يا بن رسول الله (ص) إني لكثير النوم، فأوصاه الإمام (ع) قائلاً: أقلل من طعامك)، نعم لأن تناول لقمة اضافية تجعل المرء مضطراً إلى الاكثار من عب الماء، وهذا يؤدي إلى كثرة النوم، لأن كثرة عب الماء تؤدي إلى زيادة رطوبة الأبدان، وهي رغم ذلك غير ممدوحة لتأكد حصول الضرر من جرّائها، وحال المكثر من شرب الماء كحال إغراق الشجر بالماء سقياً الذي يعود عليها بالموت المحتّم. لذلك كان الافراط في تناول الطعام مستدعياً لكثرة النوم (وخصوصاً في اللّيل) فيحرم الإنسان نفسه من نيل الأوطار في تهجد الأسحار، فيفوته قطار السحر. ويسبقه ركب طلاب المغفرة، ويبقى المسكين غارقاً في سبات نومه الثقيل محروماً من بركات التهجد رغم نداء الملك وأقرانه بصوت عالٍ (إلا هل من سائل، إلا هل من تائب، إلا هل من مستغفر).

ولقد جاء عن كيفية شرب الماء انه يستحب شربه مصّاً وعلى دفعات ثلاث يقول بعد كل دفعة (الحمد لله)، ولو عزز هذا القول بذكر عطش الإمام الحسين (ع) في عقيب الدفعة الثالثة لكتب الله تعالى له بذلك القول مائة ألف حسنة (خصوصاً لمن يشرب بارد الشراب في قائظ الأيام وهو ظمآن).

[١٥]

(والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات:١٢ ــ١٣).

سبعمائة حبة في حبة واحدة:

إن الله عز وجل أودع الأرض أنواع الحبوب التي تشكل بمجموعها مادة غذائية مهمة للإنسان والحيوان على حد سواء (كالحنطة والشعير والرز والعدس والحمص واللوبياء والذرة والماش)، ولكل نوع من أنواع هذه الحبوب خصائص معينة يصطلح عليها اليوم (بتركيبات الفيتامينات) التي تعود على الأبدان بعظيم النفع والفائدة، بل إن فقدانها (الفيتامينات) يكون باعثاً أساسياً لابتلاء البدن بمختلف الأمراض والعلل. وعن معنى عبارة (ذو العصف) فإن العصف هو التبن أو الأوراق والسيقان الرقيقة المتبقية من السنابل بعد استخلاص الحبوب منها، كما في قوله تعالى **(كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء)** (سورة البقرة، الآية: ٢٦١). والمضاعفة الإلهية هنا تحصل بفعل البركة الربانية ومددها، ولعل البركة تنعدم نتيجة ارتكاب الناس لألوان المعاصي ومنها منع الزكاة فيؤدي ذلك إلى انخفاض مقدار العطاء الإلهي.

شيوع الفساد في المجتمع يفسد الطبيعة:

فقد ورد في رواية منقولة عن أهل البيت (ع) (لو لم يعص الله في أرضه لما بقيت من شجرة دون ثمر، ولما أثمرت من شجرة ثمراً مرّاً أو محفوفاً بالأشواك) وهذه حقيقة يؤكدها قوله تعالى **(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس)** (سورة الروم، الآية: ٤١). إذاً مبعث المرارة والسوء هو فساد الإنسانية فيترتب على ذلك حصول الأثر القهري على الطبيعة المبصرة للنبوة والشاهدة للامامة، المخبرة عنهما (رغم عدم ادراكنا لذلك بواسطة حواسنا) وهو أمر لا ينكر على أية حال كما يعززه قوله عز وجل **(ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)** (سورة الأعراف، الآية: ٩٦). إذاً حصيلة البذرة الواحدة هو أضعاف ما يبذر الإنسان من سنابل وحبوب، له الحب الخالص ولحيواناته العصف غذاءً وزاداً، ولعل في الحب نفسه غذاء للحيوانات كما تشير هذه الآية لذلك **(متاعاً لكم ولأنعامكم)** (سورة النازعات، الآية: ٣٣).

وتأسيساً على ما سبق يكون معنى قوله تعالى **(والحب ذو العصف)** هو ان الله تعالى قد جعل الحب ذو العصف مما تنبت الأرض حباً خالصاً وتبناً يعيش عليهما الإنسان والحيوان.

الريحان، الزرع طيب الرائحة:

(والريحان) ـــ للريحان معنى عام، وهو ما يطلق على كل نبتة لها عطر، سواء كان ذلك العطر منبعثاً عن أغصانها وأوراقها أو عن أزاهيرها وأورادها، إذاً يكون الريحان اسماً لكافة

الزروع ومختلف النباتات ذات الروائح الطيبة، وفوق كل ذلك نجد ان الازاهير والاوراد التي خلقها الله تعالى مما لا نحصي لها عدداً تتباين في ألوان عطورها، ولعل الورد الأحمر هو اكثر تلك الاوراد انتشاراً، إذ نجد رواية تصفه بأنه من أوراد الجنان، بل وتذهب إلى اكثر من ذلك فتعدّ عطره انموذجاً لعطر محمد (ص)، وان اصل شجرته في الجنان في المقام المحمود لمحمد وآله (ص).

الورد الأحمر، عطره محمديّ:

فقد نقل كتاب بحار الأنوار عن الإمام الصادق (ع) قوله (من وقعت في يده وردة، ثم شمّها ووضعها على عينه وصلى على محمد وآله، غفر الله له ذنوبه ولو كانت عدد الرمال، وزاد في حسناته بذلك المقدار حتى يلقيها أرضاً).

قلم القدرة يخط على الورد:

ولما كان ذلك الحديث الشريف قد جرّنا إلى هذا المقام، فلا نرى ضيراً من ان ننقل لكم هذه الرواية التي ذكرها صاحب بحار الأنوار لتستضيء بها بصائر قلوبنا.

(يقول عبد الله بن سنان، استأذن رجل على الإمام (ع)، فأذن له الإمام وسأله: من أين؟ فأجابه الرجل: من بلاد الصين، فسأله الإمام (ع): أطَرَق اسمنا أسماعكم في تلك البلاد؟ (في الحقيقة ان الإسلام وصل إلى أقاصي الأرض وادانيها ومنها بلاد الصين، ولكن الحكام

الطواغيت من آل أمية وبني العباس كانوا يحولون دون وصول أسماء أهل البيت (ع) إلى إسماع الناس، وعليه فللمرء أن يتخيّل كيف كان وضع المسلمين أبّان عصر الإمام (ع)!؟)

فقال الرجل: بلى يا بن رسول الله (ص)، فنحن من أهل ولايتكم، ولدينا شجرة ورد تورد أوراداً قد نقشت على تلك الاوراق يد القدرة الإلهية عبارة (لا إله إلا الله محمد (ص) رسول الله) عندما يطلع عليها الصباح، ثم لا تلبث أن تكتسي تلك الاوراق عصراً بعبارة (لا إله إلاّ الله علي (ع) خليفة رسول الله (ص). ولعل هناك الكثير من أمثال هذه النماذج والظواهر والحوادث التي عملت فيها يد القدرة الإلهية جاءت على غير المألوف لدى الناس ، وقد شاهدها الكثيرون وسمع بها آخرون مما لا يستبعد العقل البشري حصولها١٠[10].

إذاً فمعنى (الريحان) هو ما يصدق إطلاقه على كافة العطور والروائح الطيبة التي أودعها الباري عز وجل في النباتات والزروع، وهو من جملة آيات الله التي لا تحصى، إذ خلق الله الريحان للإنسان كيما يشمّه فيتعرف على القدرة الأزليّة ويدرك بنور العقل خالق الورود والعطور فيؤمن به، ويثني عليه حامداً.

الحسنان (ع) ريحانتا رسول الله (ص):

---

١٠ [10] هناك نماذج لمثل هذه الظواهر التي اختطتها يد القدرة الإلهية ومن الحواديث غير المألوفة نقلها السيد المؤلف(رض) في كتابه (القصص العجيبة) يمكن الرجوع إليها لمن طلب الاستزادة.

وكلمة الريحان الواردة في هذه السورة المباركة تذكّرنا بأحد ألقاب الحسنين (ع) وإحدى كنى الإمام أمير المؤمنين (ع) كما تصرح بذلك هذه الرواية، تقول الرواية (إن الإمام علي (ع) دخل يوماً على رسول الله (ص) فسلّم عليه، عندها رد عليه الرسول (ص) قائلاً: وعليك السلام يا والد ريحانتي). ونحن نعلم ان النبي (ص) لم يقل ما قاله اعتباطاً (حاشا لرسول الله)، بل لأن الحسنين يفوحان بعطر الجنة، إذ إن النبي (ص) عندما حانت ساعة رحيله عن الدنيا الفانية، كان الحسنان قد جلسا على صدره الشريف في أوان احتضاره ولما أراد الإمام علي (ع) أن ينزلهما عنه، قال له الرسول (ص): دعهما لي لأشمّهما وأتزوّد من ريحهما١١ [11]

إذاً أليس من حق عشاق الحسين (ع) أن يكونوا ممن لا يبغوا عن الحسين وعن الحور العين في الجنة حولاً؟، بل طوبى لهم، وطوبى لمن يشم في ساعة حضور الموت ريح الحسين (ع)، ثم تفيض روحه على ذكره وقد أعبقت بعطره الشريف.

وإني لأرجو في نفسي الأخير حين الموت ان يصبح تراب بدني الحقير موطئاً لقدميك

---

١١ [11] بحار الأنوار، المجلد السادس.

فبأي شهادات الخلائق تجحدان

[١٦]

(والحب ذو العصف والريحان * فبأيّ آلاء ربّما تكذّبان) (سورة الرحمن، الآيات:١٢ ـ١٣).

استحباب التطيّب بماء الورد:

وخلاصة معنى هذه الآية الكريمة هو، أن الله تعالى جعل الأرض مصدراً للحبوب بمختلف أنواعها وضروبها، هذا الحب (ذو العصف) الذي تتيبس أوراقه، فيخلص حباً غذاءً للإنسان ويستحيل العصف إلى طعام للحيوان، وقد جعل الله تعالى الأرض مصدراً للريحان أيضاً، من كل نبات طيب الرائحة، يدخل على النفس الارتياح ويعمّها بالهناء. وقد جاء في الشرع المقدس باستحباب التعطّر، خصوصاً بعطر ماء الورد الذي يتم استخراجه بواسطة عملية التقطير المعروفة من الورود، ويتأكد الاستحباب في تعطير الرأس والوجه بشكل خاص في اليوم الأول من شهر رمضان المبارك، وعند الخروج من المنزل، ولعل أحد علل استحباب التعطر بماء الورد هو انتفاء الفقر والبلاء والمرض عن المتعطر، بل دفع المرض العضال عن بدن الإنسان.

ولو قايسنا ما نجده اليوم من عطور خلابة مع ما هو موجود في عالم الغيب لألفيناها من أردأ عطور عالم الوجود، حتى ان عطور الدنيا جميعاً ما هي إلاّ قطرة واحدة من بحار

وعطور عالم الغيب، بل هي نسمة من نسمات ريح الجنة العبقة الشذّية، هذه الريح التي يشمها الرجل المؤمن من على مسيرة خمسمائة عام، بل وفي إحدى الروايات المنقولة عن الإمام الصادق (ع) من على مسيرة ألفي عام، وبالتأكيد ان اختلاف المسافة في الروايتين انما حصل باعتبار اختلاف منازل ودرجات الأفراد المؤمنين من حيث درجة الإيمان، ففيهم من يشم ريح الجنة من مسافة خمسمائة عام وفيهم من يشمها من مسافة ألفي عام.

عرق جبين النبي (ص) عطر فوّاح:

بل ان الروح المحمدية (ص) المطهرة في ارتباطها ببدنها لم تكن تظهر واقعية التجلّي المحمدي بأكثر من جزء من أجزاء المليون من التجلّي الكامل الذي سيتحقق في عالمي البرزخ والقيامة، لأن الدنيا صغيرة جداً ازاء عظمة تجلّي الروح المحمدية، ورغم ذلك كان عطر محمد (ص) أطيب وافضل وأعبق كل العطور والروائح الطيبة في هذه الدنيا بأسرها، إذ يروى أنه في ليلة زفاف السيدة الزهراء فاطمة(س) حضرت زوجات النبي (ص) وقد حملن معهن عطوراً تفوح منها روائح طيبة، وجاءت (أم سلمة) زوجة النبي (ص) بقارورة عطر مغلقة فغطّ أريجه وشذاه على جميع العطور قاطبة فجلب انتباه جميع من حضر آنذاك، فسألوها: من أين لك هذا العطر؟ فأجابتهم: إنه عرق جبين النبي (ص) قد جمعته في هذه القارورة يوم كان النبي (ص) نائماً في حجرتي في نهار يوم قائظ. وبقي شذى هذا العطر المحمدي يفوح في أزقة المدينة لحين من الزمن فيشمه كل رائح وغادٍ. ولا يفوتني هنا أن

أعلمكم بالمحرومين من شم عطر محمد (ص) انهم اولئك الذين يسمعون ذكر اسمه الشريف ثم لا يصلّون عليه شحاً وبخلاً.

فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟!

وبعد ان تذكر السورة نتفاً من النعم والآلاء الظاهرية والمعنوية تتوجه وتقول **(فبأيّ آلاء ربكما تكذبّان)**؟ خطاباً موجهاً للجن والأنس يتكرر واحداً وثلاثين مرة في هذه السورة الكريمة.

فبعد ان تذكر السورة نعمة خلق الأرض في قوله تعالى **(والأرض وضعها للأنام)** تصوّر كيف أن الباري تعالى مهد الأرض لعمارها من الجن والانس والعقلاء وهم الأنام، يأتي السؤال الإلهي التقريري في نص قوله **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** ثم تأتي الآيات تترى **(يا معشر الجن والانس...)** و**(سنفرغ لكم أيها الثقلان)** لتوضح المقصود من قوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** وهو خطاب موجه للجن والانس إذ هما الثقلان كما سيأتي الاشارة إلى ذلك في حينه، فالجن مكلفون كما أن الناس مكلفون، وهم يخضعون لثواب الأعمال والأقوال والنيات وعقابها كما عند الإنسان أيضاً، وفيهم الكافرون والمشركون والمسلمون وفيهم أيضاً المحسنون والمسيئون كما نألف ذلك في بني البشر تماماً.

التكذيب، كفران النعم:

والآلاء هي النعم، ومعنى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** هو بأي نعمة من نعم ربكما يا معشر الجن والانس تكذبان، والتكذيب هو الكفران والجحود هنا في هذه الآية، فيكون معنى (تكذبان) هو تكفران وتجحدان ولا تؤمنان، إذ انه من البديهي عدم وجود من يكذب وجود الشمس والقمر والأرض والنبات والحبوب إذاً تعبير (تكذّبان) الوارد هنا هو تعبير أدبي لا بد وأن يحتمل وجهاً ما، وهذا الوجه هو وضوح ورود كلمة التكذيب هنا بديلاً عن كلمة الكفران. فكل موجود يشهد بلسان حاله ان صانعه عالم قادر، وكل حبة قمح أو رز أو عدس، وكل غصن ريحان، وكل زهرة ووردة، كل ذلك يشهد بحكمة الخالق العظيم، ويأتي الإنسان البائس الكافر ليكذب شهادات جميع تلك الموجودات، ويفوق ذلك جهلاً في انكار حتى شهادات أعضائه وجوارحه.

ومع ان كافة الموجودات تشهد لله تعالى بالوحدانية والعلم والقدرة والحكمة، تبقى الأهمية الكبرى في وجود هذه الشهادات تكمن في قبول وتصديق الجن والانس بها.

فأنت أيها الإنسان، عندما تقع عيناك على وردة، تجدها تخاطبك بلسان حالها قائلة لك إن لي صانعٌ ومبدعٌ قد أفاض عليّ بالنزر اليسير من معدن عطوره الفواحة، وهو ذات الصانع المبدع الذي خصّك بالقدرة على الشم التي أودعت في أنفك.

إذاً من يكفر بهذه النعم وينكرها ويكذّب بها سوى المرء الكافر؟ لأنه لا يقبل شهادة الورد هذه، بل ولا يصدق بحاسة الشم التي لديه، وعلى ذلك كان ملكوت جميع الموجودات عدواً للكافرين. إذا معنى قوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** هو فبأي شهادة من شهادات الموجودات لا تصدقان؟!

الاستفهام التقريري من الكفّار والجاحدين:

وأما عن (أيّ) الواردة في هذه الآية، فهي أداة استفهام تفيد الاستفهام التقريري هنا، والمقصود من الاستفهام التقريري هو ما يريده المتكلّم من إقرار يصرّح به المخاطب بشأن موضوع ما يحصل على ما أراد إقراراً من المخاطب.

وهذه الآية الكريمة هي في الواقع استفهام الهي تقريري يريد به الباري عز وجل ان يحصل به على إقرار المنكرين والجاحدين، فقوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** تعني هل ترون (أيها الجاحدون) إن خلق الأرض واعمارها بالكائنات والزروع والفواكه والحبوب والرياحين موطناً مناسباً للرفض والتكذيب؟! لأن هذا التكذيب ليس في محله، والأجدر بهم ان يرددوا بألسنتهم القاليات (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وهذا هو الإقرار المطلوب، لأنه إقرار له شأن عظيم ينبثق عن الإدراك والحس والعلم والأيمان، ولأن الإقرار التكويني لجميع الموجودات (ومنها الكافر والمنافق) إنما يحصل دون الحاجة لوجود الحس والادراك.

حال المؤمن عند تلاوة القرآن:

وكما ذكرنا في بداية تعرضنا بالشرح لهذه السورة الكريمة، الرواية المنقولة عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري عندما حدثهم رسول الله (ص) بصدد هذه السورة قائلاً (ع): ان اخوانكم الجن أحسن إصغاءً لها منكم، إذ كلّما تلوت قوله عز وجل **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** ردّوا قائلين (لا بشيء من آلاء ربنا نكذب)، فقولوا انتم أيضاً مثل مقالتهم.

وأمر النبي (ص) هذا في واقع الحال هو إشارة إلى موضوعنا لمن يدقق النظر فيه، لأن المؤمن عندما يروم قراءة القرآن يجب عليه أن يدرك ان محدثه هو صاحب القرآن تعالى، ولو وصل إلى قوله عز وجل **(يا أيها الذين آمنوا)** مثلاً لسارع بالقول لبيك، وعندما يصل إلى آية رحمة يسأل الله من رحمته، وهكذا فيما لو وصل إلى آية عذاب لسأل ربه ان يقيه النار والعذاب، لأن القرآن كلام الله تعالى إذاً علينا أن نقول عندما نتلوا أو نسمع قوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** ونحن معنيون بهذا الخطاب الإلهي، (لا بشيء من آلائك ربي اكذّب(لأنني قد صدّقت بشهادات مخلوقاتك في وحدانيتك وقدرتك وعلمك وحكمتك، ولأنني أؤمن بشهادة كل شعرة وعرق وعظم وشحم في بدني يشهد لك بالوحدانية. يقول الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة (وأنا أشهد يا الهي بحقيقة ايمان و..... ولحمي ودمي وشعري وبشري وعصبي وقصبي وعظامي ومخي وعروقي وجميع جوارحي و..... ان لو حاولت

واجتهدت و.. أن أُؤدي شكر واحدة من انعمك ما استطعت ذلك إلاّ بمنّك الموجب عليّ به شكرك أبداً).

سهم الشهوات يفقأ عين البصائر:

فالويل والثبور لذلك المرء الذي يصم أذنيه، ويغمض عينيه عن استماع ورؤية هذه الحقيقة الباهرة، ويصر مكابراً معانداً على انكارها وعدم التصديق والأيمان بها.

وكما نعلم أن ما من أمر إلاّ وتدلل عليه مجموعة دلائل وتشهد عليه جملة شواهد فتجعله أمراً واقعاً، ولو تأملنا هذا الكون الرحب، الواسع بآفاقه، لوجدناه يشهد لله عز وجل بالوحدانية والعلم والقدرة، وهذا مما لا تستطيع إدراكه جميع العيون، إذ إن العيون والبصائر التي فقأتها سهام الشهوات والأهواء والأوهام الفاسدة لا تستطيع بعد ذلك رؤية الصور الإلهية للأشياء مع شديد الأسف، إذاً هم **(صم بكم عمي)** (سورة البقرة، الآية: ١٨). وقد يستمّر العمى إلى ما بعد الدنيا **(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)** (سورة الاسراء، الآية: ٧٢). لذا وجب على المؤمنين أن يعربوا عن آيات شكرهم وثنائهم لله عز وجل على نعمة الهداية، إذ لولا هداية الله لحل بنا الضلال الذي حل بسوانا، يقول تعالى **(الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله)** (سورة الأعراف، الآية: ٤٣).

الشكر، سبيل التمتع بالنعم:

والمسألة الأخرى في هذه الآية المباركة هي ما تعلمنا وترشدنا إليه في انتهاج سبيل الفيض الرباني الذي نغور في سبره من خلال ما نقدمه من شكر وحمد وثناء للمولى (جل جلاله)، وهذا يعني ان حقيقة الانتفاع والتلذذ بالنعمة إنما يتم من خلال تقديم الشكر والحمد للمنعم. فلو كذب الإنسان بالنعمة يكون قد كفرها، ومن يكفرها يكون قد أضاع النعمة من يديه، وعلى العكس من ذلك، لو أراد المرء ان تحصل له البركة والزيادة والديمومة في النعمة الإلهية للزمه ان يشكر الله على ما أنعم، وأولى مراحل الشكر هي رؤية النعمة، وهذا ما أكدته الحكمة المنقولة عن الأقوال الثلاثة في وصايا الامام الصادق (ع) التي يجدر بنا استحضارها دائماً والعمل وفقها، فالقول الأول هو: (إذا أنعم الله عليك بشيء وأحببت بقاءه، فأكثر من الحمد والشكر، لأن الله يقول (**لئن شكرتم لأزيدنكم**) (سورة إبراهيم الآية: ٧). وقد ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي هذا النص الذي ينطق بالشكر من خلال الاعتراف بجزيل النعم (سيدي انا الصغير الذي ربيّته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي ارويته). (والقول الثاني هو: (وإذا استبطأت الرزق، فاكثر من الاستغفار، فإن ربكم يقول (**استغفروا ربكم انه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً* ويمددكم بأموال وبنين * ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً**) (سورة نوح، الآيات: ١٠ ــ ١١ ــ ١٢).

وقد ورد الاستحباب في الاكثار من الذكر الآتي بين الطلوعين (سبحان الله العظيم وبحمده، استغفر الله واسأله من فضله) حتى تطلع الشمس، وهو ذكر نافع للغاية، فقد جاء رجل إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) وشكا له الدين وعسر الحال، فأشار عليه الإمام (ع) بهذا الدعاء بعد الانتهاء عن صلاة الفجر (ان يذكره مائة مرة كما في رواية). والقول الثالث هو: (وإذا أحزنك أمر، فأكثر من قول (لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم) فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة)١[1]، ومعنى لا حول ولا قوة تعني ان ما من قوة أو قدرة سوى قدرة الله العلي العظيم وقوته، وعليه لا يكون التمسك الحقيقي إلاّ بحول الله وحده وقوته ونبذ ما سواه تعالى في الاتكال عليه والتمسك بحبله، فهو العون الوحيد لمن استعان به.

محمد (ص) وعلي (ع) نعمتان عظيمان:

ونقل صاحب تفسير البرهان في معرض تفسيره لقوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** نقلاً عن الإمام الصادق (ع)، إن مصداق هذه الآية في آلاء الرب هما محمد (ص) وعلي (ع)، فالمولى تعالى يقول فبأي نعمة من نعم ربكما تكذبان؟ أبنعمة وجود خاتم الأنبياء (ص) محمد، أم بوليه الأكبر والنبأ العظيم وآيته الكبرى وحجته العظمى وعينه الباصرة وأذنه السامعة ويده المنفقة علي (ع)؟ وبأيهمّا تجحدان؟. وهنا يفترض بنا أن نقول (لا بشيء من

---

١ [1] المجالس السنية، (ص٣١٢).

آلائك رب اكذب)، بل نحن نحمدك على ان جعلتنا من أمة محمد (ص) ولم تجعلنا من سائر الامم، ولك الحمد ان جعلتنا من المتمسكين بولاية علي بن أبي طالب (ع)، ولكن انظروا إلى اولئك القوم الذين كذّبوا وجحدوا اشرف أولاد آدم (ع) يوم غدروا به في عرصه كربلاء فحق عليهم بذلك الشقاء والويل والعذاب الأليم.

أترجو أمة قتلت حسيناً   شفاعة جده يوم الحساب!!

[١٧]

(فبأي آلاء ربكما تكذّبان * خلق الإنسان من صلصال كالفخّار) (سورة الرحمن، الآيات: ١٣ ــ ١٤).

فبأي شهادات الخلائق تجحدان؟!

فيا معشر الجن والأنس، بأي نعمة من نعمنا تكذبان؟ وبأي شهادة من شهادات مخلوقاتنا لا تصدقان؟ أبشهادة السماوات التي دلت على عظمة خالقهن؟، أم بشهادة الشمس والقمر في نظام حركتهما الدقيق المؤكد على حكمة مبدعهما؟، أم بشهادة العدل والميزان الذي عمّ جميع مفردات هذا الوجود العميق فشهد بذلك على قدرة الله وعدله؟، ام بشهادة وجودكم، وبيان منطقكم اللذين وهبكم الله اياهما؟!! (لا بشي من آلائك رب نكذّب بل **(ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)** (آل عمران، الآية: ٥٣).

التكرار في القرآن يحقق أموراً مهمة:

أما الجانب الآخر الذي يفترض ان نشمله بالبحث والشرح فهو سبب تكرار هذه الآية الكريمة، وهي أن هذا التكرار تعددي أم لا؟. ونقول انه مما لا شك فيه أن التكرار التعددي الذي يفتقر إلى القصد والغاية لا يعدو أن يكون أكثر من لغو فحسب، وفوق ذلك، فإن الكلام الفصيح والبليغ يجب أن يتحرّى عدم حصول التكرار فيه قدر المستطاع، باستثناء الحالات التي يكون من ورائها بغية مهمة ومعقولة، إذّاك يكون مقتضى البلاغة حصول التكرار، وعليه يعد التكرار في هذه الصورة تكراراً لفظياً لا تعدديّاً، فمثلاّ في قصة آدم وزوجه، وقصة موسى وفرعون نجد تكراراً لبعض الاحداث في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ولكن وبشيء من التأني ودقة الملاحظة نجد أن كل موضع من القرآن قد أخذ في استعراض موضوع معين استندت إليه حالة التكرار الذي لا ينفك في مراعاة ما سبق وما لحق.

ففي قصة آدم وحواء ومحلهما في الجنة وخروجهما منها كما يذكر ذلك القرآن، نجد ان التكرار قد حصل في مواضع لأجل (ذم الحرص) مثلاً عندما أدّى الحرص إلى اخراجهما من الجنة، في حين أن آدم (ع) كان يطلب بالحرص البقاء في الجنة، وعندما يكرر القرآن هذه الحادثة في موضع آخر نجده يكرر ذلك ليس بقصد ذم الحرص وإنما بقصد (ذم التكبّر) الذي يعد أول معصية ارتكبت عندما عصى إبليس ربه استكباراً، يقول تعالى **(إلاّ إبليس، أبى واستكبر وكان من الكافرين)** (سورة البقرة، الآية: ٣٤). وعلى هذا الاساس ترتب موضوع

طرده واخراجه الأبدي من الجنة، لذلك نجد أن المولى عز وجل يوصينا بقولة تعالى (**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**) (سورة الأعراف، الآية: ٢٧). في موضع آخر كما نلاحظ.

الإلهام الإلهي في تعليم دفن الموتى:

أو أن يكون الهدف المتوخّى في التكرار هو الفات نظر القارئ أو السامع (كما في قصة آدم وحواء) إلى ان الأعمال التي يختارها الإنسان للتكسب والمعيشة أو للحصول من خلالها على النفع أو دفع الضرر هو إنّما تتحصل وفقاً لما يلهمناه الله عز وجل، وحتى موضوع دفن الأموات تحت التراب، هو في الحقيقة إلهام الهي للإنسان كما في قصة آدم في موضوع (هابيل وقابيل)، فبعد أن قتل قابيل هابيل، حمل جثته وراح يولول صارخاً، ويلاً لي، كيف سأخفي جثة أخي؟ وبأي شيء سأغطّيه؟ حينئذ بعث الله غرابين (ليعلمانه) فتنازعا وقتل أحدهما الآخر، بعد ذلك احتفر الغراب حفرة لأخيه وواراه التراب، فتعلّم قابيل من الغراب ما يمكنّه من دفن واخفاء جثة أخية هابيل حيث نقرأ في قوله تعالى (**قال يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي**) (سورة المائدة، الآية: ٣١). إذاً من كل ما ذكرنا من هذه الشواهد نخلص إلى أن حصول التكرار في الموضوع الواحد في عدة مواطن من القرآن المجيد إنما هو في واقعه ليس تكراراً، بل هو كلام مضغوط لواقعة ما تروم الآية من خلاله التدليل على النقطة أو النقاط المطلوبة، فتعمد إلى استحضار ذهن القارئ أو السامع

إلى ما يسبق التدليل وما يعقبه وببيان يتلائم واختلاف البغية الإلهية في الطرح بين حادثة وأخرى.

التكرار، يؤكّد الحجة ويحقق الإقرار:

قلنا إن أداة الاستفهام (أي) الواردة في الآية موضوع بحثنا انما جاءت في صورتها التقريرية، وعليه يتضمّن هذا الأمر علم المعاني، فعندما يريد المتحدث الفصيح البليغ أن يحصل على إقرار المخاطب أو المستمع يلزمه أن يكرر العبارات المتشابهة ليوصل بواسطتها تأكيده وتشديده على الموضوع الأساس الذي حصل من أجله التكرار، فاللغة العربية (وكذا في الفارسية أيضاً) تحتوي على الكثير من النماذج من هذا القبيل، فلو أراد الوالد أن يؤدب ولده المسيء، لأنطلق في موضوع التأديب من استخدام الحوار الاستفهامي خصوصاً مع الشاب الذي يتخطّى مراحل الطفولة والصبا، فيخدعه طيش الشباب بعدم الالتفات إلى نصح والديه ومحاولة الاعتماد على نفسه في صنع القرار وكثيراً ما يفشل، فيتوجه إليه والده بالخطاب قائلا: لم فعلت ذاك؟ لم اسأت تربيتي فيك؟ ألم تكن وليداً قد لففناك بالقماط ونتعاهدك بالحنان والرأفة؟ ألم أكن أشقى يومي كلّه من أجل أن أطعمك؟ أتتكر ذاك؟! أتتكر عندما كنت طفلاً ضعيفاً وامسك بيديك وأحملك على صدري لئلا يعترضك عارض؟! ألم اكن اشتري لك الملابس وأكسوك من أجودها؟ أتتكر ذاك؟! وهكذا يذكر الوالد ولده بأفضاله ونعمه عليه بصور متعددة ثم يعقب كل قول بقوله أتتكر ذاك؟! وهذا التكرار الذي

نراه في هذا المثال إنما جاء ليؤكد الحديث على اصل الموضوع ولكي يستحصل الوالد من ولده على إقراره. ولو كان المخاطب ينبض قلبه ويجري الدم في عروقه لذاب من فرط حيائه، ولطأطأ رأسه خجلاً واستحياءً من ذكر أفضال والده عليه ولأعترف وأقر بكل شيء قيل له، ولقال بكل يقين (لا أنكر من ذلك شيئاً يا والدي).

إذاً سياق الآيات الكريمة في هذه السورة كما ذكرنا تتناول نعم الله وآلائه وتحصي شيئاً منها مما تفضل به الله عز وجل على الجن والانس ولا تلبث السورة أن تذكر الإنسان والجن في عقيب كل آية بقوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** كيّما يقر صاحب الفؤاد الحي لمنعمه عز وجل بالنعم المغدقة عليه ولا يجد بدّاً من الاقرار بها وعدم إنكارها.

آلاء عديدة، وتذكير متجدد:

إذاً، ما هو الباعث على تكرار هذه الآية الكريمة واحد وثلاثين مرّة في سورة الرحمن؟

والجواب هو: ان هناك عدة أسباب ذكرها العلماء، وقد اخترنا منها أهمها وأفضلها، منها إن الله عز وجل ذكر في بداية هذه السورة (آيات الآفاق) ثماني مرات ثم أعقبهن بذكر هذه الآية، بعد ذلك ذكر الباري تعالى جهنم في سبع آيات (بعدد أبوابها) وأعقب كل آية بآية الاقرار، ثم ذكر ثمانى آيات عن الجنة (بعدد أبوابها) ثم استفهم تقريراً في نهاية كل آية بآية الاقرار، لذلك نجد أن التكرار في آية الاقرار جاء كلازمة تأكيدية على وجوب عدم كفران

النعم التي قد تعدد ذكر ألوانها وضروبها، فكان التكرار صورة من أروع صور الفن البلاغي في القرآن كما سنرى ذلك لاحقاً.

خلق الإنسان من صلصال:

قلنا إن هذه السورة تتحدث وتخاطب الثقلين (الجن والانس)، فهي بعد ان تورد شيئاً من نعم الله التي لا تحصى وتشهد الثقلين على ذلك، تأتي لتتحدث عن نعمة النشأة وكيفية خلق الإنسان، فتقول **(خلق الإنسان من صلصال كالفخّار)** والصلصال يحتمل في معناه وجهان هما: أولاً: الطين المخلوط بالرمل، ثانياً: الطين الجاف الذي استحال صلداً كما في الاواني المفخورة، وقد وضحت كلمة (كالفخار) هذا المفهوم للصلصال. وعليه يتوضح لنا ان خلق الإنسان كان من طين يابس كالفخّار.

لماذا التعددية في مبدأ النشأة الآدمية؟

ولقد أورد القرآن الكريم عدة مراحل لخلق الإنسان ونشأته في مواطن متعددة منه، فمرة يعبّر عن مبدأ النشأة بالتراب كما في قوله تعالى **(أكفرت بالذي خلقك من تراب)** (سورة الكهف, الآية: ٣٧) . و**(منها خلقناكم)** (سورة طه، الآية: ٥٥). ومرة يعبّر عنها بالطين كما في قوله عز وجل **(خلقتني من نار وخلقته من طين)** (سورة الأعراف، الآية: ١٢). ومرة أخرى يعبر عنها بالطين المخلوط باللجن، وهنا جاء التعبير بالطين المفخور.

ولكي نتجبّب الالتباس بالموضوع هذا، نستعرض سوية مضمون الحديث الشريف الذي نقله السيد ابن طاووس، وهو حديث يتولّى التعريف ببداية خلق الإنسان على نحو اجمالي كما سنرى:ـــ

التراب، عنصر أساس في تركيبة البدن:

عندما شاء الله تعالى أن يخلق خلقاً ويسكنه في أرضه، ويحمّله التكليف بأداء فرائضه، جاء الأمر إلى جبرئيل (ع) بأن يهبط إلى الأرض ويأتي بحفنة من ترابها، فما أن هبط جبرئيل إلى الأرض ليفعل ما كلفّ به حتى أقسمت عليه الأرض بعزة الله وجلاله أن لا يقدم على أخذ شيء من ترابها خوفاً من أن يخلق الله مخلوقاً من مادّتها ثم يعصي إلله عز وجل عليها، فرجع جبرئيل (وبالطبع أن الذي أقسم على جبرئيل هو ملكوت الأرض، لا التراب الأصم هذا كما أشرنا إلى ذلك من قبل)، فأمر الله ميكائيل (بعد أن نقل التماس الأرض وقسمها عليه) بالذهاب والنزول إلى الأرض والأتيان بحفنة من ترابها، ولما هبط ميكائيل اهتزت الأرض وأقسمت عليه أن يدعها وشأنها، وهكذا أوعز الله تعالى إلى عزرائيل للتصدي بتنفيذ هذه المهمّة وان لا يلتفت إلى توسلات الأرض وقسمها عليه، عندئذ باشر عزرائيل مهمته واقترب من الأرض ورفع منها حفنة تراب دون أن يعرها أذناً صاغية وهي تلتمسه وتتوسل إليه وتقسم عليه، ولقد حمل عزرائيل أول ما حمل تراب آدم (ع)، ولذلك كان هذا الملك هو الموكّل بقبض روح الإنسان. واستناداً إلى تلك الرواية فإن حفنة التراب كانت قد قبضت من

الأرض الممتدة بين الطائف ومكة المكرمة وطبقاً لما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين (ع) في قوله المنقول في نهج البلاغة (ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها، تربة سنّها بالماء حتى خلصت)٢[2] ولقد تعاهدها الباري تعالى أربعين يوماً وهي على هيئة التراب، وهنا ندرك بوضوح معنى أن أصل الإنسان من التراب.

المراحل اللاّحقة في نشأة خلق الإنسان الترابية:

بعد تلك المرحلة، جاءت المرحلة التالية بصدور الأمر الإلهي بصب الماء على ذلك التراب لأربعين يوماً لأجل أن يختمر التراب فيصبح طيناً **(وخلقته من طين)**، بعد ذلك تُرك الطين لأربعين يوم أخرى كيما تتغير صورته فيصبح حماً (وهو الطين الأسود المتغير اللّون) مسنوناً (المصبوب في حالة السيولة والميعان)، ثم تمر أربعين يوماً أخرى ليصير صلصالاً (وهو الطين المتيبس)، وهنا نرى من خلال سلسلة المراحل المذكورة آنفاً والتي يعرضها القرآن الكريم في موضوع النشأة الإنسانية أنها (النشأة) تتباين بتباين المراحل المتوالية للخلق والإنشاء. ولقد كانت الملائكة تمر على التراب وهي في وحيرة ودهشة متسائلة ماذا يريد الله عز وجل أن يخلق من هذا التراب؟

---

٢ [2] نهج البلاغة/ الخطبة الأولى.

وبعد ان تطوى كل تلك المراحل الابتدائية في عملية خلق الإنسان، تأتي المراحل المتقدمّة، فينظّم البارئ تعالى الهيكل العظمي لبدن الإنسان ثم يغطّيه بالعروق والعضلات واللحم والبشرة الجلدية وغير ذلك من أنسجة وأجهزة، لتنتهي مراحل الصنع الإلهي للبدن البشري، ثم ينفخ الله تعالى في ذلك البدن من روحه ليصبح إنساناً **(فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي)** (سورة ص، الآية: ٧٢).

إذاً ندرك من خلال كل ما سبق وضوح معنى كلمة (صلصال) في ذلك السياق، وهذا بالطبع يختص بأبينا آدم (ع) أبي البشر، أما ما يتعلق بخلق سائر الناس:

أصل النشأة ترابية لجميع الناس:

فهم أيضاً شأنهم هكذا وحتى قيام الساعة، ونتساءل: ماذا كنّا نحن؟ ونحن لا نرى أنفسنا الاّ أبداناً من اللحم والعظم والجلود وما سواها، ونتساءل: ماذا كنّا في أرحام أمهاتنا؟ ألم نكن نطفاً وقرت في تلك الأرحام واستقرت فيها إلى حين؟ وللإجابة على هذ التساؤل نقول أولاً، كيف تشكلت هذه النطفة؟

والجواب على ذلك هو ان النطفة قد تشكلت وتكونت من تركيبات شاركت فيها مختلف أجزاء وأجهزة بدن والدنا، ثم انتقلت من صلبه إلى أوعية المني التي دفقتها هي الأخرى كما نجده في قوله عز وجل **(يخرج من بين الصلب والترائب)** (سورة الطارق، الآية: ٧). ولقد

كونّت أجزاء بدن الوالد هذه النطفة بواسطة الأطعمة التي تم التغذّي بها، وما هذه الأطعمة إلاّ القمح وسائر النباتات المألوفة في طعامنا وغذائنا وباقي الأشياء التي قد نشأت من التراب إن نباتاً أو حيواناً، وعليه يكون أصل نشأتنا جميعاً هو التراب الذي انبثقنا منه.

لذلك كان من اللازم علينا عندما نصف أقدامنا في الصلاة لله عز وجل أن نستحضر في ضمائرنا أننا لسنا أكثر من حفنة تراب رفعها الباري تعالى:

يا فاطراً للخلق الذي منك ظهر   هذا التراب الضعيف منك اقتدر

فنحن من أصل ترابي نشأنا، ثم نعود إليه تارة أخرى، نعود إلى هذا التراب عندما ننتقل إلى المثوى الابدي في المقابر، هذه البيوت التي سندخلها إن عاجلاً أو آجلاً، فطوبى لمن زارها في حياته واتعظ بها.

ولعله من المناسب في هذا المقام أن نتطرق إلى الموعظة البالغة التي أهداها لنا سيدنا أمير المؤمنين (ع) عندما يقول (ما لابن آدم والفخر؟ أولّه نطفة، وآخره جيفة) نعم لم الفخر يا بن آدم، لماذا تكثر من تريد أنا، أنا؟ أنا فعلت الافاعيل تلك، وأنا الذي صنعت الصنائه هذه. فتعالوا لننتزع الفخر والكبر والعجب من نفوسنا، ونرفض أن نكون تبعاً ليزيد الذي يخاطب رأس الحسين الشريف (ع) وهو يقول متمثلاً بأبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القوم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فل خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف ان لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل

قد أخذنا من عليٍّ ثارنا وقتلنا الفارس الليث البطل

(خلق الإنسان من صلصال كالفخّار * وخلق الجانّ من مارج من نار * فبأي آلاء ربكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ١٤ ــ ١٦).

الفخّار، الشي العظيم الفخر:

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار) قلنا إن معنى هذه الآية هو، ان الله عز وجل خلق الإنسان من الطين اليابس ذي الهيئة الفخارية، وكثيراً ما يقال للأشياء المفخورة (فخارٌ) لأن صناعتها كانت من اصل ترابي يفوق سائر أنواع التراب فضلاً وجودة، ولأنها أيضاً تحقق الاستفادة الأفضل قياساً بالأواني غير الفخارية.

الخلق الترابي، والتواضع الفطري:

يقول السيد ابن طاووس، إن من الالطاف الإلهية التي منّ بها الله على الإنسان أن خلقه من تراب (ويقصد بذلك اصل نشأته) لأن في طبع التراب التواضع الفطري، على العكس من النار التي تتصاعد ألسنتها وترتفع.

فيا أيها الإنسان الذي خلقك الله من تراب عليك ان لا تخرج عن حد تواضعك الذي جبلت وفطرت عليه، ولا تنسى حقيقتك الترابية التي نشأت عنها فلقد (خلق الإنسان من صلصال

وهذه هي إحدى النعم الإلهية التي تعين الإنسان على تحقيق العبودية لله باختياره، وتجعله خاضعاً له (عز وجل).

الجن، ما احتجب من الخلق عن الأنظار:

(وخلق الجان من مارج من نار) والجان هو اسم جنس من مادة (جنن) وتعني ستر، وعليه يكون الجن مخلوقاً مستوراً ومحتجباً عن أعين الناس، لأن العين البشرية تستطيع رؤية الأجسام المادية الكثيفة، في حين أنها لا تستطيع رؤية الأجسام النورانية والنارية اللطيفة، وهذا هو السبب الحائل دون استطاعة رؤية الملائكة والجن.

وللجن أنواع وأقسام، فمنهم الشياطين، وهذا النوع من الجن لا يصدر عنها إلاّ الشر والسوء والضرر، وهم من ذرية ابليس اللعين الشيطان الاكبر، وهذه الطائفة قد ابتعدت عن رحمة الله تعالى بالقدر الذي لا يمكن أن يصدر عنهم الاّ الشرور والغوايات، تماماً كحال جدهم الاكبر ابليس الرجيم، الذي رجمه الله تعالى فأبلس من رحمته.

والنوع الآخر من الجن، هم اولئك الذين لا تختلف أحوالهم عن أحوالنا نحن البشر، من حيث امتلاك الاستعدادات اللازمة للهداية والرقي والتكامل، هذه العوامل التي تعتبر عوامل أساسية ومؤثرة في تحقيق أداء التكاليف والأوامر والطاعات التي تؤدي إلى حصول المرء

من خلالها على المنازل والدرجات الرفيعة في الدارين، دار الدنيا، ودار الثواب والكرامة، ولقد سئل الإمام الصادق (ع) عن محل مؤمني الجن في الجنة فقال (لهم محل خاص في وسط الجنة).

قدرة الجن وأضراره محدودان:

وكما نعرف ان النبي (ص) بعث إلى الجن فضلاً عن بعثته إلى الأنس، كما هو الحال في سائر الرسل (ع)، وعالم الجن كعالم البشر، فيهم المحسن والمسيء والمسلم والكافر والمشرك، وفيهم الشيعي والسني، وفيهم الصالح والفاسق.

اما من حيث القدرات فيجب الالتفات إلى أن الجن لا يمتلكون القدرات المطلقة التي يستطيعون بواسطتها من إلحاق الاضرار بالناس، فلربما يصل ضررهم إلى بعض الناس لوجود إذن لهم في ذلك باعتبارهم يستحقون نيل تلك الاضرار والايذاءات.

تعاهدوا أنفسكم بذكر اسم الله وبالقرآن:

ومن جملة الوصايا والتعاليم الواردة في حفظ الأنفس، ونيل الأمان من شرور مردة الجن وفسّاقها، هو ذكر الله على أية حال، وقول بسم الله في كل حركة يتحركها الإنسان، خصوصاً عند الهم بالخروج أو الدخول إلى الدار، وعند إشعال النار أو رمي جذوتها، وعند الدخول

إلى الأسواق والحمامّات التي تعد من مراكز تواجد الشياطين، وعليه كان ذكر الله مدعياً لحفظ الأنفس من الشياطين ودفع شروهم.

ولتلاوة آية الكرسي أعظم الأثر في دفع شرور الجن. مع الالتفات إلى ان مؤمني الجن لا يصدر عنهم الاذى بالمرّة (وبالذات نحو الشيعة)، ولكنهم قد يوصلوا بعض الضرر إلى الأشرار، وتأكيداً لحديثنا هذا نستعرض سوية هذه الحكاية الجميلة المشتملة على جملة من الفوائد:

مؤمن الجن يزور مدّاح أهل البيت (ع):

نقل العلامة المجلسي بسند متصل عن دعبل الخزاعي(رض) شاعر أهل البيت (ع) هذه الحكاية، يقول دعبل تشرفت في يوم ما بالحضور لدى مولاي الإمام الرضا (ع) في مدينة خراسان، ثم ودعته في رعاية الله وحفظه وقفلت راجعاً، وفي طريقي مررت بمدينة قم فاستأجرت حجرة هناك، ولما حلّ المساء قمت وأغلقت على نفسي باب الحجرة وجلست افكر بكتابة قصيدة شعرية أمتدح بها أهل البيت (ع)، فجأة هالني ظهور رجل يرتدي حلّة بيضاء، قد شخص إزائي وبادرني بالتحية والسلام، ففرق منه قلبي، فلما رآني على تلك الحالة بادرني بالقول: هوّن عليك ولا تخف فأنا أخ لك في الدين من إخوانك الجن وقد جئت طمعاً في زيارتك لأنك شاعر أهل البيت (ع)، فلما استأنست به، شرع يحدّثني عن أحوالهم ثم

اخبرني قائلاً: لقد كنت فيما سبق من أتباع فرق الخوارج والنواصب، وكنت اكنّ العداء لأهل البيت (ع) والمناصبة، وفي يوم من الأيام صادف أن مررت (مع رفاق لي بالمعتقد ذاك) بالعراق، فلاحت لنا على البعد قافلة من البشر كانوا يقصدون كربلاء، ولمّا كنّا جميعاً نعادي أهل البيت (ع)، عقدنا فيما بيننا العزم على إيذاء اولئك النفر، وما أن هممنا بالتعرّض لهم حتى رأينا ملائكة السماء قد برزت لنا من فوق رؤوسنا بالحراب، وأحاطت ملائكة الأرض برجال القافلة من كل جانب حينذاك حصل لي اليقين ان اولئك النفر من الآدميين الذين حضرت الملائكة لنصرتهم، هم ممن لهم الشأن عند الله عز وجل، وأدركت ان لصاحب القبر (ع) في كربلاء كرامة عظيمة عند الله تعالى وأن الحسين (ع) من ذوي الشأن الرفيع عنده، فتداركت حالي بالمسارعة إلى الاستغفار في ذلك المكان الشريف ثم انتقلت إلى زيارة الإمام الحسين (ع) مع جملة زواره، وبعد ذلك شاهدت القافلة تلك قد عرجت بالمسير نحو مكة المكرمة فصحبتهم ولما عادوا إلى المدينة المنورة عدت معهم، وفي يوم من الأيام رأيت رجال القافلة قد أحاطوا رجلاً فتقدمت معهم إليه وإذا به هو الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) فعرفته ثم أقبلت عليه قائلاً: إني نادم يا سيدي على ما مضى من فعالي، فرد علي الإمام (ع) قائلاً: قد قبل الله توبتك، فسألته: أن منّ عليّ بحديث، قال الإمام: سمعت عن آبائي وأجدادي (إلى أن أرجع الحديث إلى الرسول محمد (ص) انه قال: الجنة حرام على الأنبياء

حتى أطأها بقدمي، وعلى الأوصياء حتى يطأها علي (ع)، وعلى الأمم السالفة حتى تطأها أمتّي، وحرام على امتي أن تطأ الجنة حتى تحبك يا علي.

(اللّهم اجعلنا من أوليائه، وأخرجنا من هذه الدنيا على ولايته).

[١٩]

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجانّ من مارج من نار * فبأي آلاء ربكما تكذّبان) (سورة الرحمن، الآيات: ١٤-١٦).

نار الشهوة ونار الغضب اعدّتا لحفظ البشر:

وعن كلمة (كالفخّار) الواردة في الآية المباركة، فقد أبدع المفسر المصري (الطنطاوي) في قوله، الفخّار هو الطين الذي أنضجته النار، ولما كان الطين الذي لم تنضجه النار غير متماسك الأجزاء بشكل جيد بحيث يتمكّن من الدوام والاستمرار، لذلك كانت النار هي الباعث على إيجاد الهيئة الدائمة المتماسكة لتشكل الطين اللازب.

وطينة الإنسان هكذا شأنها أيضاً، فهي قد عولجت بنارين، نار الشهوة ونار الغضب لكي تحصل على الشرائط الميسرّة لإدامة الحياة المادية ومواصلتها، فلولا نار الشهوة للطعام لما سعى المرء نحو طلب الطعام، ولضعف بدنه ووهن عظمه، ولأدركه الفناء والتلف، ولولا نار الشهوة الجنسيّة لما سعى الإنسان نحو الزواج ولأنقطع النسل وانعدمت الذراري. ولولا

حرارة المعدة لما تيسر للطعام امكانية الهضم والتحلل لأن مصنع البدن الإنساني بحاجة ماسة إلى (قدر الضغط) الذي زودّه الله تعالى به. وبفضل نار الغضب تحصل الغيرة لدى الإنسان التي تدفعه نحو حفظ الأعراض والأموال من أن تنالها أيادي الغير بسوء، فهي لا تدع المرء يرضخ إلى وطأة الظلم، وتحول بينه وبين أن يباشر بظلم الآخرين أيضاً.

بري، أجمل نساء الجن:

(وخلق الجان من مارج من نار) (سورة الرحمن، الآية: ١٥) قد تطرقنا في حديثنا عن الجن إلى وجود فرق وطوائف متعددة منه، وهم ليسوا (من حيث الشكل والصورة) على هيئة واحدة، فبعضهم في غاية الحسن والجمال، ولعلهم يتفوقون على البشر من هذه الناحية كما يقال عن (بري) المرأة الجنيّة الساحرة الجمال، والبعض الآخر في منتهى الدمامة وقبح المنظر، وهم على أية حال يناظرون البشر من حيث أشكالهم وصورهم.

وفي الجن طوائف لا تتزاوج ولا تتناسل، وإنما يتكاثرون بالبيض والتفريخ، وتتفاوت أعمار الجن من طائفة لأخرى، ومن فرد لآخر، ولقد أشارت أحد الروايات المنقولة عن الإمام الصادق (ع) أن بعض طوائف الجن لا يدركهم الموت حتى تقوم الساعة، والبعض يدركهم الموت بزمن متفاوت.

تفاوت أعمار الجن بين الطول والقصر:

(فقد جاء رجل من الجن يدعى حسام بن قيس إلى رسول الله (ص)، فسأله النبي (ص) عن عمره فأجاب، لقد كنت يافعاً يوم قتل قابيل هابيل، ولقد تبت إلى الله في زمن النبي نوح (ع) وعلى يده، وركبت السفينة معه، ثم جئت ابراهيم (ع) يوم ألقوه في النار ولقد حضرت عند موسى (ع) وعيسى (ع) كما حضرت اليوم عندكم)١[1].

وطول أعمار الجن الذي حدثتنا به الروايات إنما هو غيض من فيض.

معاني المارج المتعددة:

(من مارج) والمارج هو خالص النار الذي لا دخان فيه، ويقول البعض إن معنى المارج هو المختلط، ويقصد بالمختلط، اختلاط النار بأشياء أخر، كالهواء، كما يختلط التراب بالماء في نشأة الإنسان (وهو ما يعبّر عنه بالطين الذي ورد بالنص في القرآن الكريم)، وعلى هذا الأساس يكون معنى الآية، ان الجان قد خلقه الله تعالى من خليط النار والهواء. وقال آخرون إن معنى المارج هو المضطرب، كما إن للنار لهب مضطرب، ولعل الناظر إلى النار في أول وهلة يظن أنها بسيطة التركيب، والحال أنها تشتمل على أجزاء مركبة قد اختلطت مع بعضها البعض.

تركيبة النار، في إخبار القرآن بالمغيّبات:

---

١ [1] مدينة المعجزات، البحراني.

لقد أثبتت الاكتشافات الحديثة، أن النور ليس كما اعتقد القدماء من أنه شعاع بسيط، فلقد تأكّد أن نور الشمس مثلاً، يحمل في تركيبته سبعة ألوان أساسية وبضعة ألوان ثانوية، فمن نظر إليه بشكل مجرّد لا يجده إلاّ نوراً بسيطاً، بينما هو مركب وقابل للتجزئة والتحليل.

وهكذا الحال أيضاً في النار، فقد اعتبر القدماء النار بسيطة، وعدّوها أحد عناصر الحياة والخلق الأربعة (الماء، التراب، الهواء، النار)، ولكن المتأخرون أثبتوا بالبراهين أن النار مركبة وليست بسيطة، ولقد عدّ المفسر المصري الطنطاوي موضوعا (كالفخار، مارج) معجزتين قرآنيتين، لأن المارج هو النار المختلطة المضطربة، والمادة المركبّة الملتهبة، وقد أخبر القرآن الكريم بها إخباراً غيبيّاً، ولم يدرك ذلك إلاّ في الآونة الأخيرة.

الجن أقوى من الإنسان، وألطف منه:

(وخلق الجان من مارج من نار) أي أن الله تعالى خلق الجان من النار المركبّة والمختلطة مع الهواء، (أو مع أجزائها المركبة معها بالفعل)، ومن ذلك ندرك أن الجن مخلوق لطيف وعجيب، إذ تبلغ لطافته وشفافيته حداً تؤهله لامتلاك قوة خارقة لا يمكن بأي شكل من الأشكال قياسها مع قوة الإنسان، فبعضهم (كالعفريت الذي ذكره القرآن في قصة سليمان (ع) وحادثة الإتيان بعرش بلقيس، إذ أعرب لسليمان عن قدرته قائلاً (أنا آتيك به قبل أن تقوم

من مقامك وإني عليه لقوي أمين) (سورة النمل الآية: ٣٩). له من القدرة ما يستطيع أن يطوي المسافات الشاسعة بوقت قصير ويحمل الأحمال الثقال.

ومن حيث خزين المعلومات التي يمتلكها الجن فهي تفوق ما يمتلكه الإنسان إلى حد ما، فالكهانة التي كانت معروفة في سالف الزمان، (ولعلها لا زالت إلى يومنا هذا في بعض آفاق الأرض) هي رياضة شيطانية تقوم على أساس التعامل مع الجن الذي يقوم بدوره بتقديم بعض المعلومات الجزئية إلى الإنسان الكاهن. وتبلغ لطافة الجن حداً يستطيع بها أن يتوغل في أعماق الإنسان، فكم من غافل عن الله تعالى قد أصبح اُلعوبة سهلة في يد الشيطان (خاصة النساء اللواتي يقعن في حبائله وأشراكه بسبب عواطفهن الجياشة أو رقتهن الفائقة).

نور المؤمن يطغى على نار الجن:

لأن الغافل عن ذكر الله عز وجل يكون قد أقترب من الشيطان، ومن يكثر من تناول الأطعمة والاغراق في النوم يصبح فريسة سهلة لغواية الشيطان، فالصيام بفوائده الجمّة وعوائده الوفيرة فيه من الخصائص ما يمكن دفع الشياطين عن الصائم، ولو أقترب الشيطان من الإنسان المؤمن، وتذكّر المؤمن ربّه لشعّ منه نور الإيمان فلا يجد الشيطان بدّاً من الهرب والفرار منه، باعتبار غلبة نور الإيمان على نار الجن، والحال ان نار الجن والشياطين ليست

بأشد من نار جهنم التي صرحت بها الآيات والأخبار، إذ عندما يمر المرء المؤمن على الصراط تبتعد عنه النار وتتنحى قائلة: (يا مؤمن جزني فقد أطفأ نورك لهبي)٢[2].

المطلوب المعرفة القلبية لا الشهادة العلمية:

فالنور الذي يشع من قلب المؤمن (بفضل ما يحمله من إيمان) يجعله روحانياً إلى حد يستطيع به أن يُطفئ نار جهنم بفضل ما يمتلأ به القلب من الإيمان لا ما يملأ البطن ويغرق النفس في الشهوات، لأن المعيار هي الروحانية لدى الإنسان وقوة الآصرة الارتباطية مع الله عز وجل، لا كما يتخيّل البعض من رفعة بعض الأفراد بسبب ما يحملونه مثلاً من شهادات جامعية عالية أو كون الإنسان مثقفاً بأحدث الثقافات العصرية، لأن المرء الذي تأخذ الدنيا منه جل اهتمامه سوف يكون أنيساً رائعاً للشيطان كما تحدثنا بذلك هذه الرواية:

وسوسة الخنّاس في صدر العاقل:

جاء في كتاب مجمع البيان في تفسير سورة الناس في معنى قوله تعالى **(من شر الوسواس الخناس)** (سورة الناس, الآية: ٤). أن الخنّاس يصغي إلى قلب الإنسان فان وجده غافلاً، عشعش في صدره ثم لم يفرّط في الاكثار من الوسوسة إليه حتى يضطره إلى عبادة الهوى،

---

٢ [2] لآلئ الأخبار.

ولكن لو تذكّر الإنسان ونشط عن غفلته لفر منه الوسواس ولأضحى طريداً لا محل له في صدره.

وقد أكّد الشرع المقدس على ضرورة الاستعاذة بالله من وساوس الشياطين كما في قوله تعالى **(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون)** (سورة المؤمنون، الآية: ٩٧ ـــ ٩٨). ولقد قلنا آنفاً أن مؤمني الجن لا يؤذون أحداً، بل إنهم يحبّون مؤمني الانس ويسعدون بلقائهم، بل وإنهم يحضرون إلى مجالس الوعظ وتفسير القرآن مع مؤمني الأنس، ويقدمّون العون والمساعدة لمؤمني الأنس في مواطن الشدّة والضرّاء.

مجيء الجن لنصرة الحسين (ع):

فبعد أن وصل الحسين (ع) عرصة كربلاء، قام ابن زياد(لع) بإغلاق كافة المنافذ والطرق المؤدية إلى كربلاء لكي لا يستطيع أحد الوصول لنجدة الحسين (ع)، في تلك الأثناء كان هناك خمسة من شيعة الحسين (ع) يطوون الطريق ليلاً، ويكمنون في الحفائر نهاراً، وإلى أن وصلوا إحدى القرى الواقعة على الطريق الموصلة بين الكوفة وكربلاء فاختبأوا في أحد الأكواخ وإذا برجلين يظهران فجأة أحدهما شاب يافع والآخر شيخ طاعن في السن وهما يرتديان ملابس بيض، وقالا السلام عليكم لا تخافوا نحن من مؤمني الجن وقد جئنا مثلكم لنصرة الإمام الحسين (ع) ولما اطمأنوا بهما، قال أحدهما: إني أرى أن اذهب إلى كربلاء

لاستطلع الأخبار ثم أعود إليكم فما تقولون؟ قالوا له: أصبت الرأي فسر على بركة الله وقعدوا ينتظرون، فلم يمض زمان طويل حتى عاد الرجل الجني ولكنه لم يتجلّ أمامهم بصورته بل خاطبهم بصوته قائلاً وهو يعزّيهم بعظيم المصائب: والله لم آتيكم من عرصة كربلاء إلاّ بعدما رأيت جسد الحسين (ع) ملقاً على صعيد أرضها٣[3].

---

٣ [3] مجالس الشيخ الشوشتري.

[٢٠]

(فبأي آلاء ربّكما تكذّبان * رب المشرقين ورب المغربين * فبأيّ آلاء ربّكما تكذبّان)

(سورة الرحمن، الآيات: ١٦ ــ ١٨).

فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان؟

وبعد ان ذكّر الله تعالى بنعمة خلق الإنسان من التراب، وخلق الجن من النار، خاطب الجن والإنس أن بأيّ نعمة من نعمي أنتما لا تؤمنان وتجحدان؟ اتجحد يا بن آدم نعمة خلقك من حفنة تراب وجبلناك منها فجعلناك متواضعاً فطرياً بفضل نشأتك الترابية فتيسر لك الهوّي إلى الأرض وتمريغ وجهك بترابها لتعبد ربك وتتخلى عن كبرك وعتوّك فتتواضع بعد ذلك للناس، وبعد كل هذا كيف يمكنك ان تكفر بالتراب الذي انشأ منه هيكلك العجيب وصنع بدنك المهيب؟

ولقد قلنا فيما مضى أن أحد وجوه تكذبان يعني تكفران، لأن الإنسان الكافر هو من يجحد ويكذب بشهادات جميع الكائنات بأن لله الوحدانية، بل ويجحد ويكذب بشهادة هذا التراب الذي قد صار هيكلاً وبدناً وحواساً وهو ينطق بلسان حاله شاهداً ودليلاً على وحدانية الله وعلمه وقدرته (تعالى وتبارك).

الجن ونعمة النار:

وما صحّ على الإنسان، يصح على الجن بالضرورة، فهل تكفرون بنعمة النار اللطيفة التي خلقناكم منها ومنّنا من خلالها عليكم بالقوة والقدرة الفائقتين؟.

ولقد جحد الكثير من الجن بنعم ربهم كما جحد بها اخوانهم الإنس، لأن بعض، يقتفي آثار بعضن فتراهم يستخدمون هذه القدرة والقوة التي وهبهم الله إياها في موارد الشر والاذى دون سبل الخير والإحسان، والآن ألا ترون أن ذلك هو عين كفران النعم وتكذيبها؟

علاقة آيات السورة الأُول مع بعضها:

(رب المشرقين ورب المغربين)، كلمة ــ رب ــ في هذه الآية خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، وعليه يكون المعنى ــ الذي هو رب المشرقين ورب المغربين ــ ويكون معنى الآيات حسب السياق هو (الرب الذي خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار وهو رب المشرقين ورب المغربين). ومن يدقق النظر في هذه الآية يجدها تفسيراً للآية التي سبقتها، ففي البداية قلنا إن السورة استعرضت في فاتحتها وعلى نحو إجمالي خلق الإنسان دون ذكر كيفية هذا الخلق، بعد ذلك جاءت الآية التي مررنا بها قبل قليل لتوضح كيفية خلق الإنسان في قوله تعالى **(خلق الإنسان من صلصال كالفخار)**، وعن الشمس والقمر، جاءت الآيات الأُول لتحدثنا عن نظام حركتهما في قوله تعالى **(والشمس والقمر بحسبان)** ثم جاءت هذه الآية (رب المشرقين ورب المغربين) لتؤكد أن الحركة المنتظمة في المدار

المعين، والسرعة الدقيقة للشمس هي التي أدت إلى ظهور المشرقين والمغربين على ما سنتناوله من توضيح لاحقاً.

نقطة طلوع وأُفول الشمس والقمر:

فــ (المشرقين) تثنية لكلمة المشرق ومعناها أن هناك نقطتين لشروق الشمس، وأما كلمة (المغربين) فهي الاخرى تحتمل هذا المعنى أيضاً، ومعناها هو وجود نقطتين للغروب والاختفاء عن الأنظار، وجدير ذكره أن هناك العديد من الاحتمالات حول مصاديق (المشرقين والمغربين) نورد منها:ــ

الاحتمال الأول: وهو أن يكون المراد بالمشرقين والمغربين، مشرق ومغرب الشمس والقمر، وهذا الاحتمال وإن كان لا يمتلك الوضوح الكافي إلاّ أنه أليق بهذا المقام، لأن الآيات السابقة تحدثت عن حركة الشمس والقمر ونظامهما، ثم جاءت هذه الآية لتؤكّد انبثاق المشرق والمغرب عن الحركة المنتظمة لهما، مما استدعى ذلك اعتماد هذا الاحتمال واعتباره الأنسب في معناه.

حركة الأرض من الشمال إلى الجنوب وبالعكس:

ومما لا شك فيه ان حصول الليل والنهار، والشروق والغروب هو من آثار حركة الأرض حول محورها، ولكن وكما نعرف أن للأرض حركة أخرى هي الحركة الموضعية مع وجود

الحركة المحوريّة، وتتمثل هذه الحركة بانتقال الأرض من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال في مدارها حول الشمس، ويستغرق الانتقال الواحد ستة أشهر، ولعل حركة الأرض الموضعية هذه هي أقرب شبهاً بحركة المهد وهو ما يشير إليه قوله تعالى **(ألم نجعل الأرض مهاداً)** (سورة النبأ، الآية: ٦). من حيث الذهاب والإياب نحو نقطة وسيطة نعبّر عنها (بالاعتدال الربيعي)، حيث يتساوى في تلك النقطة طول الليل مع طول النهار، ثم يأخذ النهار بالطول والليل بالقصر بحلول فصل الصيف نتيجة حركة الأرض الموضعية نحو الجنوب ولمدة ثلاثة أشهر، لتعود بالتساوي عند نقطة وسيطة أُخرى تدعى نقطة (الاعتدال الخريفي)، ثم تنتقل الأرض في حركتها نحو الشمال ولفترة ثلاثة أشهر أيضاً ليطول الليل ويقصر النهار وكأنما قد تقمّص الليل لباس النهار وتقمّصّ النهار لباس الليل، وهو ما يعبر عنه القرآن بتعبير دقيق كما نقرأ قوله عز وجل **(يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل)** (سورة لقمان، الآية: ٢٩). وتستمر الحركة وهكذا دواليك.

عدد المشارق والمغارب بعدد أيام السنة:

واستناداً إلى ذلك فان الشمس تظهر يومياً من نقطة معينة ثم تختفي في نقطة محددة بحيث يختلف مكان الظهور ومكان الاختفاء في كل يوم عمّا سبقه، ومنشأ ذلك هو الحركة الموضعية (الانتقالية) للأرض في مدارها، رغم ان هذه الحركة غير محسوسة لدينا، ولكننا ندرك حقيقة هذا الأمر من خلال الفاصلة الكبيرة في شروق الشمس بين نقطة شروقها الصيفي ونقطة

شروقها الشتوي، وتستغرق عملية انتقال نقطة الشروق هذه فترة ستة أشهر، أي ما يقرب من مائة وثمانين يوماً، وهكذا الحال بالنسبة لنقطة الغروب، واستناداً إلى ذلك فإن للشمس مائة وثمانون مشرقاً، وما يماثل هذا العدد من نقاط المغرب، وهو ما تذهب إلى تأكيده الآية الكريمة **(فلا أقسم برب المشارق والمغارب)** (سورة المعارج، الآية: ٤٠). فانظر إلى هذه القدرة الجبارة التي حركت أرضنا العظيمة وفق حسابات منتظمة ودقيقة في مدار فظهرت بذلك ظواهر تعدد المشارق والمغارب على هذه النحو المألوف، وتأمّل.

المشرقان والمغربان، في بدأ حركة الأرض وانتهائها:

الاحتمال الثاني: ويمكن أيضاً ان يكون المقصود بالمشرقين والمغربين، هو وجود المشرق الأول الناشئ عن بدأ حركة الأرض الموضعية في أوّل فصل الصيف، وحصول المشرق الثاني من انتهاء الحركة الموضعية في أوّل فصل الشتاء، وهذا يصدق أيضاً على المقصود من المغربين.

فمن خلال الاحساس بارتفاع قرص الشمس إلى أقصى ما تصل إليه وانخفاضها إلى أدنى ما تصل إليه عند النظر إليها وهي في كبد السماء في فصلي الصيف والشتاء يشاهد الرائي وجود خطّين لسير الشمس متباينين. واستناداً إلى ذلك يكون المقصود من المشرقين، هو مشرق رقم

(١) على الافق، ومشرق رقم (١٨٠) على نفس ذلك الأَفق، وأما عن المغربين فهما، المغرب رقم (١) على الافق، والمغرب رقم (١٨٠) المقابل لنقطة المشرق (١٨٠).

المشرق والمغرب الجهويّان:

ومع ذلك فنحن نجد في آية أخرى أن الباري (عز وجل) يشير إلى وجود مشرق واحد ومغرب واحد في قوله **(رب المشرق والمغرب)** (سورة الشعراء، الآية: ٢٨). ويبدو أن المقصود من ذلك هو تقسيم الأفق إلى أربع جهات هي (الشمال والشرق والجنوب والغرب) وعليه يكون معنى الآية هذه هو تأكيد الله (عز وجل) على جهتي الشرق والغرب المشتملتين على نقاط المشارق والمغارب المتعددة.

إذاً نخلص إلى عدم وجود أي تناقض بين ما أوردته الآيات المتعددة من حيث الإفراد أو التثنية أو الجمع، لأن كل معنى من تلك المعاني يشير إلى جهات ونقاط معينة وجميعها يشتمل على الصحة والدقة، فالآية التي تناولت تعدد المشارق والمغارب إنما انطلقت في ذكر التعددية باعتبار تعدد أيام السنة الواحدة، والآية التي أشارت إلى التثنية في ذكر المشرق والمغرب على انهما (مشرقان ومغربان) إنما نبّهت إلى ابتداء وانتهاء حركة سير الشمس الحسيّة ووجود الفصول، بينما الآية التي أفردت ذكر المشرق والمغرب قد جاءت لتؤكد على الجهويّة في تقسيم الأفق إلى أربع جهات.

تعدّد المشارق والمغارب، لتعدّد الشموس والأجرام:

ولعل المقصود بكثرة المشارق والمغارب، هو المشارق والمغارب الخاصة بالأفلاك السماوية الأخرى سوى كوكبنا (الأرض) لتعدّد شموسهن ونجومهن، لأننا نعرف ان لكل كوكب مشرق ومغرب، وهذا الأمر لا يختص بكوكبنا لوحده، فمجرتنا (درب التبانّة) تشتمل على ملايين الشموس، وما شمسنا هذه إلاّ واحدة منها، وكما أن أرضنا تتحرك حول الشمس بمدار محدد فتلك الكواكب تتحرك هي الأخرى بشكل منتظم حول شموسها وفق ما دبّره الله تعالى لها من أنظمة ومدارات محسوبة، فأظهر (عز وجل) بذلك عنواناً من عناوين قدرته اللامحدودة في تعدّد مشارق ومغارب تلك الأفلاك جميعاً.

تأمّل السماء يبعث على كثرة الحيرة والخشية:

ولو طالعنا دعاء الجوشن الكبير وتأمّلنا عبارة (يا من في السماء عظمته) لوجدناه يشير إلى أحد أسماء الله الحسنى، فهذا النص يؤكد في معناه على تجلّي عظمة الله في بديع صنعه للسماء العظيمة، ولو أراد أحدنا أن يتأمل في عظمة الله (عز وجل) لوجد السبيل إلى ذلك مشرعة، فيرمق السماء ببصرة ثم لا يجد بدّاً حينها من الاحساس بالحيرة والدهشة العظيمتين.

يقول رسول الله (ص) كما في الرواية (ربِّ زدني فيك تحيّراً) باعتبار ان زيادة درجة حيرة العبد في عظمة ربه تؤمّن له كثرة الخوف والخشية من بارئه فيسارع إلى القول (اللّهم أنت

كما اثنيت على نفسك، ولا أحصي ثناءً عليك) لأنه سيجد نفسه اصغر من ان يثني على ربه، بل وكيف نثني عليه بما أهله ونحن لمّا نعرفه حق معرفته؟!!

أبشهادة الشمس تلك، تكذّبان؟

(فبأي آلاء ربكمّا تكذبّان) أي فبأي نعمة من نعم ربكما تجحدان؟، أبنعمة المشرقين والمغربين؟ أم بشهادة الشمس على وحدانية الله وعلمه وحكمته وقدرته؟! أتكذبّان بنعمة المشرقين والمغربين الناشئين عن ارتفاع الشمس وانخفاضها (حسب الحس لا حسب الواقع)، أم بحركة الأرض الموضعية من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، هذه النعمة الإلهية العظيمة التي تكمن عظمتها في ما يلي ذكره:ـــ

الفصول الأربعة ونشوُها عن المشرق والمغرب:

فلو افترضنا أن الشمس تبقى ثابتة في نقطة المشرق الصيفي مثلاً، فهذا يعني بقاء الصيف سرمدياً وانعدام الفصول الثلاثة الأُخرى مما سيؤدي الحال هذا بالنتيجة إلى انعدام الحياة وتلف الكائنات، لأن تواصل وديمومة الصيف سوف يُبقى الزروع (مثلاً) عاجزة عن إنتاج ثمارها ومحاصيلها، ولاستحالت النباتات كلّها إلى علف يابس، ولانقطعت الأمطار الربيعية والشتوية ولحفّت الأرض وقحلت وأجدبت، ولغارت المياه، وتصاعدت درجات الحرارة حتى يصل

الضرر إلى الإنسان والحيوان وسائر الكائنات الحيّة وللحقها الموت ولأحرقت الشمس كل شيء، وعندها فليتأمل المتأمل شكل الحياة من بعد.

ولو افترضنا على العكس من ذلك ديمومة فصل الشتاء من خلال بقاء الشمس في نقطة المشرق الشتوي، لأصبحت الأرض قطعة موحلة من كثرة الأمطار، ولتجمدت التربة الرطبة من فرط البرودة، ولاندثرت الثمار والمحاصيل الصيفية، ولاستحالت الحياة على أرض باردة إذاً نحن نلحظ دورة عجلة الحياة لا تدور إلاّ بدوران الفلك، وببركة تعدد المشارق والمغارب الناشئة عن حركة الأرض نحو الشمال أو باتجاه الجنوب مع وجود حركتها المحورية.

وجود التدرج في الحرارة والبرودة، نعمة اخرى:

ولعله من الجدير بالاهتمام هو موضوع الفساد الناشئ عن الانتقال المفاجئ من حالة البرودة إلى حالة السخونة الشديدتين وبالعكس، لأن ذلك لو حصل للفظت الكثير من الأحياء أنفاسها ولتيبست أكثر الزروع واغلب الاشجار، ونحن نرى أحياناً كم يعاني المرء عند حصول الانخفاض الشديد في درجات الحرارة في فصل الشتاء فلا يلبث أن يصاب بالانفلونزا أو الرشح والزكام، فكيف لو فاجئه الشتاء القارس بُعيد الصيف القائظ مباشرة؟

ولكن الله تعالى جعل بلطفه برزخاً بين الصيف والشتاء وهو الخريف، وآخر بين الشتاء والصيف وهو الربيع بحيث ان حرارة الصيف تتدرج بالانخفاض حتى تدخل في برودة الشتاء ثم تتصاعد الحرارة تدريجياً حتى تدخل في حرارة الصيف.

ولمّا كان ذكر النعمة لوحده يعد نعمة كاملة، فتأمل عظمة نعمة المشارق والمغارب أيها الإنسان، هذه النعمة التي ينبغي علينا جميعاً أن ندركها ثم نعترف بها، خصوصاً ونحن نسبح الله بحمده ونذكره عند الطلوع وعند الغروب.

تشابه دورة حركة الشمس ودورة الحياة:

شبّه بعض العلماء دورة حركة الشمس تشبيهاً رائعاً عندما قرنوها بدورة حياة الإنسان، يقولون: عندما تريد الشمس أن تشرق، تعلن عن شروقها بطلوع الفجر الذي يقارن أيام الحمل في بطن الأُم عند الإنسان، وعندما تشرق الشمس يولد الإنسان، ثم تأخذ الشمس بالارتفاع في عرض السماء ضحىً فيمر الإنسان بمرحلة الطفولة والصبا، وعندما تتوسط الشمس كبد السماء يكون الإنسان قد وصل إلى مرحلة الشباب والنضج وتكامل العقل والقوى، ولما تأخذ الشمس بالانحدار نحو الأفول عصراً يمر الإنسان بمرحلة الكهولة وفقدان نضارة الشباب وعنفوان الرجولة والقوة، وعندما يأن العصر وتنخفض شدة حرارة أشعة الشمس ويصفّر لونها ويبهت، يمر الإنسان بمرحلة الشيخوخة والفتور والضعف، وعندما تصل الشمس إلى

الغروب ويختفي قرصها ولا يبقى منها إلا الأثر من النور الباهت يكون الإنسان قد وصل وشارف على لفظ أنفاسه الأخيرة في نهاية مطاف العمر، وعندما يجن اللّيل يكون الإنسان قد فارق الحياة. وحركة الشمس هذه يمكن أن نعبّر عنها بتعبير آخر باعتبار حركتها الموضعية الانتقالية بوجود الفصول الأربعة، ففصل الربيع هو فصل الطفولة والتفتح والصبا، وفصل الصيف هو فصل الشباب والفتوة واليفاعة، وفصل الخريف هو فصل الكهولة والشيخوخة والعجز، ثم فصل الشتاء وهو فصل الاحتضار وبرودة البدن والموت.

هي الآهات تترى أن نزول والدهر باق   والورد يورق في ربيع قد أتى حلو المياسم

وتلّفنا حقب السفين وكأنها ربصت بنا   ها قد رجعنا حفنة من تربة فوق النياسم

جعلنا الله تعالى ممن التفت إلى حاله فاستيقظ من رقدة الغافلين من قبل أن يحل الموت بساحتنا. فيا أيها الناس الذين قد توهج نور الشيب في وجوههم ورؤوسهم، وشارفت شموس أعمارهم على الوصول إلى حافة الافق الغربي، وبهت شعاع السنين الذهبية، هلّموا لتدارك الأمر قبل فوات الأوان، فأن الفرصة توشك على الفوت والانقضاء.

[٢١]

(مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ١٩ ــ ٢٣).

الماء العذب الفرات، والماء المالح الأُجاج، لا يختلطان:

ومن الآيات الإلهية الباهرة، والشواهد الربانية الكبرى، الدالة على قدرته المطلقة، هي نعمه وآلائه المتمثلة بوجود البحار المالحة والأنهار العذبة التي تشكل بمجموعها ثلاثة أرباع سطح الأرض الوسيعة. وترتبط البحار فيما بينها، وتتصل الأنهار مع بعضها الآخر دون أن يحصل طغياناً من أحدهما على الآخر بصورة يسلبه فيه طعمه، فلا المياه المالحة تكتسح الحلوة فتصيّرها مالحة، ولا المياهُ العذبة تغلب المالحة فتحيلها عذبة المذاق. والآية **(مرج البحرين يلتقيان)** تشتمل على عدة معانٍ محتملة نذكر منها:

١ ـ الاحتمال الأول: وهنا يكون معنى الآية الكريمة هو أن الله تعالى جعل البحرين (العذب والمالح) يلتصقان، واستدلالنا على أن المقصود من كلمة (البحرين) هما البحر المالح والبحر العذب يعود إلى قوله تعالى **(وهو الذي مرج البحرين، هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً)** (سورة الفرقان، الآية: ٥٣). أما معنى قوله **(بينهما برزخ لا يبغيان)** فهو أنه سبحانه قد جعل بين البحرين حائلاً ومانعاً وحاجزاً بيد قدرته يحول دون أن يطغى أحد البحرين على الآخر فيسلبه صفته.

٢ ـ الاحتمال الثاني: أن تكون كلمة (البحرين) التي صرحت بها الآية قد قُصد بها بحري الروم وفارس، إذ إن هذين البرين يتصلان مع أحدهما الآخر دون أن يحصل الطغيان من

أحدهما على الثاني فيغلبه. ومهما يكن الاحتمال فان المعنى يقصد به عدم حصول الطغيان من أحد البحار على ما سواه، والشواهد المؤكدة على هذه الحقيقة كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال، نهري دجلة والفرات ونهر الكارون، فهذه الأنهار الثلاثة العذبة تصب في الخليج الفارسي، ورغم ان مستوى سطح هذه الأنهار لا يختلف عن مستوى سطح البحر، لكننا نجد أن مياههن حلوة عذبة، وقد اتصلت بالبحر المالح ولكن دون أن يطغى الماء المالح عليهن فيجعلهن مالحات، ولم يتفق العكس أيضاً، والأعجب من ذلك أن حصول المد والجزر البحري وانخفاض منسوب المياه وزيادتها تبعاً لتلك الظاهرة البحرية لم يجعل طغيان الماء المالح على العذب، أو العذب على المالح سبيلاً.

ولا تبغي البحار على اليابسات فتغرقهن:

وقد يصل عمق بعض البحار المحيطات إلى ستة آلاف قامة بحرية، مع أنه (على ما يقال) أن مياه البحار والمحيطات تتأرجح في حركة دائمة، ولعلّها تؤدي أحياناً إلى بروز أمواجْ عاتية هائلة تضاهي في عظمتها الجبال الشامخات التي تؤدي إلى تحريك رمال القاع فيتلّون ماء سطح البحر بلون رماله من شدة هيجان واضطراب البحر المخيف، وقد وصف البحارة وملاحوا السفن حالة هيجان البحر بحالة الجنون عندما تصطبغ أمواج البحر بلون رمال القاع.

ولما كانت البحار والمحيطات تغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض، فإن هيجان هذه البحار والمحيطات مع وجود قيعانها السحيقة، فكان مما لا بدّ به ان تكتسح المياهُ سطح الأرض اليابس، ولكن هذا الأمر لم يحصل لوجود يد القدرة الإلهية التي حالت وتحول دون ذلك. وعلى هذا الأساس قال بعض المفسرين ان المقصود من كلمة (لا يبغيان) لا تعني انهما لا يطغيان على أنفسهما، وانما عنت ان البحار الحلوة والمالحة، أو بحري الروم وفارس لا يبغيان على سطح الأرض فيغرقه. ومن كل ما سبق نخلص إلى أن تفسير كلمة (لا يبغيان) له صورتان.

الأولى: وهو أن لا يبغي أحدهما على الآخر فيكتسحه.

الثاني: انهما لا يبغيان سوية على سطح الأرض فيغرقانه.

ولعل ما يؤيد المعنى الثاني في حقيقته هو مشاهداتنا الكثيرة لظاهرة المد والجزر عندما تتقدم أمواج البحر لترتطم بسواحل البحار ثم تعود ثانية على أدراجها من حيث أتت، أو مشاهداتنا لحصول حوادث السيول المدمّرة للأراضي والبنايات، فلو حصل ان طغت البحار على السواحل والمدن والأراضي لأدركنا معنى الطوفان والغرق الذي سينجم عن ذلك، ولعلّ ما نشهده أو نسمع به من تنفيس بعض البحار أو الأنهار عن غضبها وثورتها باغراق محدود لبعض الشواطئ والسواحل (كما يحصل في سواحل شبه القارة الهندية) هو آية إلهية تذكر

الناس بعظم العافية بعد البلاء الذي لا يلبث أن يزول وقد اكتسح شيئاً من الأراضي والأبنية. وأزهق عدداً من النفوس، وعلى النقيض من ذلك نجد أن الكثير من الجزر التي تتوسط البحار والمحيطات (كما في أندونيسيا التي تتشكل من اكثر من ألف جزيرة كبيرة وصغيرة معمورة) لم يطغ عليهن البحر، على حد علمنا.

الحائل بين الماء المالح والعذب:

إذاً الحالة التي نألفها في حياتنا في البحار والمحيطات وكبار الأنهار هي حالة انعدام البغي والطغيان والغلبة على بعضها الآخر، أو على يابس الأرض، فنجد الأنهار العذبة تمتد جراياناً لعدة فراسخ دون أن يطال عذوبة مائها طعم التبدل والتغير، ثم يأخذ طعم الماء في ذات هذه الأنهار بالملوحة في مكان معين من النهر ليمتد جرياناً إلى مسافات أخر، أما المنطقة التي يحصل التباين فيها بين طعم الماء (ملوحة وعذوبة) نجدها تشتمل على وجود الطعمين، ولعل هذا هو الحائل الذي يسميه القرآن الكريم بالبرزخ الذي تتجسد فيه القدرة الإلهية الحائلة بين البحرين طغياناً، ولذلك سميت الفترة الفاصلة بين عالمي الدنيا والآخرة (برزخاً) وهي الفترة الممتدة من ساعة الموت وحتى البعث.

العيون العذبة تتوسط البحار المالحة:

وعادة ما تكون مياه البحار مالحة، السبب في ذلك لكي يبقي الباري تعالى على امكانية حياة الكائنات ودون حصول حالة التعفن الناشئة عن أجساد الحيوانات الميتة بعد تفسّخها، وعن كيفية ظهور الملوحة في طعم مياه البحار ذكر المختصون عدة عوامل أساسية في ذلك أحدها وجود الجبال الملحية في قعر المحيطات والبحار التي تعطي لمياه البحار هذا الطعم المالح. ورغم ان ماء البحار والمحيطات مالح فإنه في بعض الجبال الموجودة في قيعان تلك البحار تنبثق عيون وينابيع عذبة تتشكل في وسط البحار المالحة، وكثيراً ما يرتادها الغواصون عندما يضربهم العطش، ليطفئوا من مائها نيران العطش المستعرة.

ولقد سمعت ان البريطانيين قد اكتشفوا عيون ماء عذبة في سواحل البحر المحيط بالبحرين، وقد أسسوا لها شبكات من الأنابيب لإسالة مياهها العذبة إلى الأراضي البحرينية١[1].

البحار نعمة، فلا تكفرانها:

(فبأي آلاء ربكما تكذّبان) أي فبأي من نعم ربكما تجحدان أيها الثقلان، فهذان البحران (العذب الفرات والمالح الأُجاج) اللذان انعم الله تعالى بهما عليكما قد جعلهما لا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يبغيان على الأرض فيغرقانها، ألا تجدانهما يشهدان بحكمة الله وقدرته المطلقة؟، إذاً لم تعميان عن رؤية هذا البرزخ الذي اختطّته يد القدرة الإلهية فحالت دون أن

---

١ [1] تزامن تفسير المؤلف(رض) لهذه السورة الكريمة مع وجود العهد الاستعماري البريطاني للبحرين قبل اكثر من ٢٥ عاماً، ولذلك أشار سماحته إلى هذا الأمر. لذا اقتضى التنويه.

يبغي أحدهما على الآخر؟! فيا حسرة على العباد الذين يرون كل هذه الألطاف والعنايات الربانية، ويشاهدون جميع أشكال الآلاء والنعم والأفضال الإلهية التي فاقت حد الوصف والحصر، ثم تزداد غفلتهم ويكثر عَمَهَهُم دون أن تزداد معرفتهم بالله أو أن يستحكم الأيمان في قلوبهم.

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان):

ثم يخرج المولى (عز وجل) من هذين البحرين، الدر الصغار والكبار آية عظيمة من آياته الكثيرة، وكما نعرف أن الدرّ بشكليه اللؤلؤ أو المرجان إنمّا يتم استخراجه من باطن البحار المالحة كما هو المعهود في ذلك، بينما نرى قوله تعالى **(يخرج منهما)** تعني ان عملية استخراج اللؤلؤ والمرجان إنما تحصل من كلا البحرين (المالح والعذب)، ولتوضيح ذلك نذكر أهم الوجوه المقبولة في بيان هذا الأمر:

إن المشهور بين الغواصين أن الأماكن التي يكثر فيها صيد اللؤلؤ، هي تلك التي يتصل فيها الماء العذب بالماء المالح، وقد ثبت مؤخراً بواسطة الاكتشافات الحديثة ان اللؤلؤ والمرجان لا يقتصر وجودهما على المياه المالحة، فقد ذكر المفسر الطنطاوي في تفسيره ما مفاده، أنه قد تم بالفعل استخراج الدر من المياه الحلوة الواقعة في سواحل أميركا والصين، وعلى هذا يكون

معنى الآية ان الله تعالى يخرج اللؤلؤ والمرجان من المياه المالحة (كما هو معروف) ومن المياه العذبة أيضاً كما دلت على ذلك الاكتشافات والتحقيقات العلمية الحديثة.

بحر النبوة وبحر الولاية:

وعن باطن وتأويل قوله تعالى **(مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان* يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان)** فقد ذكر العلماء والمفسرون والمحدثون من الخاصة، وبعض مفسري العامة أيضاً، مصاديق لهذه الآيات المباركة، فقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) في قوله تعالى **(مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان)** أنه قال: علي وفاطمة بحران عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه، وقوله **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** قال (ع): الحسن والحسين (ع). وقد ذكر صاحب مجمع البيان ان (البحرين) علي وفاطمة (ع)، **(وبينهما برزخ)** محمد (ص) و **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** الحسن والحسين (ع).

إذاً يكون معنى قوله تعالى **(مرج البحرين يلتقيان)** من حيث التأويل هو التقاء مجرى النبوة والإمامة، يجريان العصمة والولاية، التقاؤهما في زواج الإمام أمير المؤمنين (ع) من فاطمة الزهراء (ع)، ولمّا التقى بحر النبوة ببحر الإمامة، بحر الولاية الإلهية مع بحر الطهارة النبوية، بحر الوفاء ببحر الحياء، بحر الخساء ببحر الطهارة واتصّلا، كان **(بينهما برزخ)** أي

محمد (ص) لأنه هو واسطة الاتصال بين هذين البحرين، **(لا يبغيان)** ولا يبغي أحد هذين البحرين على الآخر، ولا يتمرّد عليه، فعلي وفاطمة روحان في جسد واحد. لقاء علي مع فاطمة كان (كما يعرف ذلك الكثيرون) حديثاً تناقلته الألسن في كل مكان، ففاطمة حينما لم تطلب لنفسها شيئاً من علي (ع) فيعجز عن الإتيان به وإذّاك تلوح على وجهه الشريف قسمات الخجل والاستحياء، لذلك تحملت وصبرت في دار علي (ع) إلى أن طلبت منه أن يأتيها بحلي، **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** فإذا ينبثق عنهما الدر، الحسن والحسين (ع).

يقول الشاعر الإيراني وصال الشيرازي في تصوير هذه اللّوحة الرائعة:

كسنم كر غوص بحرين نبوت باولايت ر	**نه مرجان جون حسن يابم، نه لؤلؤچون حسين جود**
ولو أني سبرت الغور في بحر النبوة والولاية	**لما ألفيت مرجاناً كالحسن، ولا لؤلؤاً كالحسين**

[٢٢]

(مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان * فبأيّ آلاء ربّكما تكذبّان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربّكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ١٩ ــ ٢٣).

الماء العذب يحفظ الحياة، والماء المالح يحفظ البيئة:

ذكرنا أن معنى كلمة **(لا يبغيان)** هو أن لا يعتدي أو يطغى أحد البحرين على الآخر، أو أن لا يطغى ماء البحرين على اليابسة من الأرض. وهناك احتمال ان يكون معنى **(لا يبغيان)** هو لا يطلبان، من بغى يبغي بغية وهو الطلب، فيكون معنى الآية على هذا الاحتمال، أن البحرين لا يطلبان إلاّ ما قدّر الله لهما ضمن الحدود المحددة لهما، فلا العذب يطلب المالح، ولا المالح يطلب العذب وبذلك لا يحصل عندهما الطغيان. **(فبأي آلاء ربكما تكذبّان)** أين فبأي نعمة من نعم ربكما أيها الثقلان تجحدان؟! أبالبحر العذب أم المالح؟ فهذا الماء العذب الذي لولاء لتعفن الهواء بسبب وجود الفضلات والنفايات، ولولاه لماتت حيوانات البحر من تعفن مياهه ولعمّت العفونة جو الأرض بأكمله، ولفسدت حينئذ الحياة.

اللؤلؤ والمرجان، حصيلة تلاقح العذب بالمالح من البحار:

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)، الفرق بين اللؤلؤ والمرجان هو على ما قاله البعض، ان صغار الدر تسمى لؤلؤاً، وكبارها تسمى مرجاناً، ولقد تحدثنا بعض الشيء عن تفسير هذه الآية، ولكن يهمنا هنا ان نتناول بالبيان عملية إنتاج اللؤلؤ والمرجان الناشئة عن تلقيح الماء المالح بالماء العذب، وعندما يحصل التلقيح يخرج الماء المالح الدر على هيئة لؤلؤ ومرجان، وتتشابه عملية تلقيح مياه البحرين مع التلقيح في الإنسان بين الذكر والانثى أو الحيوان أو النبات، فينشأ من التلقيح في الإنسان الطفل، وينشأ عن التلقيح في النخل التمر.

(فبأي آلاء ربكما تكذبان)، فأنظر إلى اللؤلؤ والمرجان كم فيه من المنافع للناس؟ فهناك من يعتش على بركة صيده بالغوص بحثاً عنه، وهناك من يعتاش على نقله إلى الأسواق، وهناك من يعتاش على بيعه حليةً وزينة.

الأمطار، تنشئ البحار العذبة من البحار المالحة:

ومن الوجوه الأخرى في معنى كلمة (البحرين) الواردة في هذه الآية هو ما روي عن الإمام أمير المؤمنين علي (ع) يقول الإمام: المراد بالبحرين، بحر الأرض وبحر السماء، فأحدهما مالح والآخر عذب، (نعم إن السحاب المار من فوق رؤوسنا هو في حقيقته بحر متحرك، قد رفعته في السماء يد القدرة الإلهية، وهو البحر العذب المرتفع فوق البحار المالحة، فيستحيل مطراً بقدرة الله تعالى، ويلتقيان سوية، والعجيب في الأمر، ان البحر العلوي العذب قد نشأ

بفضل البحر السفلي المالح فصار مطراً عذباً، نشأ نتيجة تسخين أشعة الشمس لسطح مياه البحار، فتبخر وصعد في السماء، ثم عاد لينزل مطراً عذباً فراتاً).

(بينهما برزخ) أي بينهما حاجز نعبّر عنه بالسحاب، و**(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)**، يتناقل العامة من الناس، ان الصدف أو القوقع (وهو حيوان بحري صغير معروف) الذي يعيش في قيعان البحار يصعد أحياناً إلى سطح الماء عند هطول الأمطار فيفتح فمه ليبتلع قطرة من قطرات المطر ثم يعود أدراجه إلى قاع البحر، فتستحيل تلك القطرة إلى لؤلؤة. كما تشير إلى ذلك ترجمة الأبيات الشعرية الفارسية التالية:

قطرة من مطر قالت لن	**إنني أخجل من لقيا البحر**
فهو في الوسع عظيم بينم	**صغري في وسعه محض صغر**
هكذا تأنف حبّات السم	**أن يكن في نفسها فخر الكبر**
فحباها الله أن أنزله	**في بطون الصدف أغلى الدرر**
فتواضع يرفع الله لك	**ما بوحل الصين يلصقه الكبر**

وقد اثبتت التجارب ذلك الأمر، اذ لوحظ أن السنين التي يقل فيها هطول الأمطار يقل فيها صيد اللؤلؤ، ومن ذلك نستنتج ان اللؤلؤ والمرجان منشأه الماء العذب الذي ينزل من السماء

على صورة المطر فيلقح الماء المالح الذي تعيش فيه الأصداف والقواقع المنتجة للآلئ والمرجانات.

بحر العقل وبحر الهوى:

ولمّا كان البحر واسعاً بهيئته، عزيزاً بمائه، عنّاً بمحتوياته، قيل لكل شيء واسع وغزير وغني بحراً، ومثل هذا نجده كثير الاستعمال في الاستعارات اللفظية، والتشبيهات اللغوية، فقد يقال لغزير العلم من العلماء (بحر علم)، أو أن يقال للرجل الجواد (بحر جود) وما إلى ذلك من الاستعارات والتشبيهات* وما نريده الآن في هذا المقام أن نطرق المعنى الباطني في تأويل آية (مرج البحرين) فالمعنى الباطني يقول أن المراد بالبحرين هنا هما بحر العقل وبحر الهوى، فلقد أودع الله عز وجل بقدرته في الإنسان بحراً عذباً سائغاً وبحر (العقل) وجعله مصدراً للخيرات والبركات ودليلاً عليها، وأودع أيضا إلى جانبه بحراً مالحاً أجاجاً هو بحر (هوى النفس) وجعله منشأً لكل ألوان الشرور والنكبات والشقاء، وهذان البحران موجودان لدى جميع الناس، وهما بحران وسيعان جداً، ثم أنشأ الباري تعالى بينهما برزخاً وحائلاً يحول دون أن يبغي أحدهما على الآخر، فليس بمقدور بحر نور العقل أن يعدم ظلمة الهوى، ولا بمقدور بحر ظلمة الهوى أن يجنّ على بحر العقل بظلمته فيغلبه، لأن من غلب عليه بحر العقل أصبح ملكاً أو شبيهاً بالملائكة، ومن غلب عليه بحر الهوى صار حيوان أو كاد أن يصير ولكن إرادة الله عز وجل سبقت في ان يكون الإنسان حاملاً في كيانه هذين البحرين

المتلاطمين دون ان يبغي أحدهما على الآخر، وعليه كان الوجود الإنساني مشتملاً على نزعتين متضادتين جعل الله (جل جلاله) الإنسان في وسط هاتين القوتين ثم حفّه بلطفه ورعايته.

التضادّ في القوتين يؤدي إلى رقي الإنسان معنوياً:

وببركة نور العقل ومرارة الهوى تنشأ جوهرتان ثمينتان عنهما هما التفويق والعصمة مصداق قول (عز وجل) **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)**، فمن ألطاف الله تعالى على الإنسان أن يمّن عليه بالتوفيق للخيرات، بينما نجد الملائكة أو الحيوانات لم تحصل لهما هذه المنّة لكونهما لا يشتملان في كيانهما على وجود قوىً متضادة، لأن الملائكة تنعدم لديهم جنبة الشرور والهدى، وتفتقد الحيوانات جنبة الرقي المعنوي، بينما الإنسان ضم في كيانه هاتين الجنبتين، فعقله يبغي الغلبة على هواه، وهواه يطلب السيادة على عقله، فهذا يحبّذ له مباشرة العمل الفلاني، وذاك يحذّره عن فعله وارتكابه، ويستمر الصراع بين نور العقل وظلمة هوى النفس، ثم ينبثق التوفيق الإلهي للإنسان عن ذلك الصراع بعد انتصار العقل في نهاية المطاف عندما يعمل المرء المؤمن وفق ارشاداته ونصائحه، ولو عرف المؤمن قدر التوفيق الإلهي وقيمته لارتقى سلّم السمو والرفعة الذي قد وقف الأنبياء والأئمة (ع) على أعلى درجاته وهو ما نصطلح عليه بالعصمة فيكون المرء من اتباع المعصومين وينال المنازل الشريفة

والدرجات العالية القريبة من منازل المعصومين ودرجاتهم فيكون في حاله هذا قد حصّن نفسه من ارتكاب المعاصي.

وهذا هو أحد وجوه المعنى الباطني لقوله تعالى (**مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان**) وهما كما قلنا بحرا العقل والهوى فـ (**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**) المتمثّل بالتوفيق والعصمة.

الدنيا والآخرة، الملك والملكوت:

والوجه اللطيف الآخر في المعاني الباطنية لآية (**مرج البحرين**) هو أن مصداق البحرين هما الدنيا والآخرة، فلقد أوصل الله (سبحانه وتعالى) بين هذين البحرين في عالم الأمكان، عالمي الملك والملكوت، عالمي الظاهر والباطن، ثم جعل بينهما برزخاً كيما يكون المرء في عالم الدنيا في معزل عن الآخرة، لا هو يراها ولا يمكنه الوصول إليها، وعندما يصير الإنسان إلى مرحلة الموت يصبح في محل تستحيل عليه العودة إلى دار الدنيا١ [1] فالدنيا إذاً لا تبغي على الآخرة فتطفى عليها، ولا الآخرة تبغي على الدنيا فتكتسحها، ولكن الاتصال بين هذين البحرين يظهر لؤلؤ العقائد الصالحة ومرجان الأعمال الزاكية، فلولا بركة الحياة في دار الدنيا لما

---

١ [1] من ضروريات مذهب أهل البيت (ع) موضوع الرجعة، ونعني رجوع بعض الأفراد على عالم الدنيا (ممن لحقهم الموت) قبل قيام الساعة، وواضح أن هذا الأمر لا يختلف أو يتنافى مع ما ذكرنا أو مع قوله تعالى (رب ارجعون * لعلّي اعمل صالحاً فيما تركت* كلاّ...) باعتبار ان الرجعة تشمل البعض دون الكل، ولأجل إزالة موارد الشبهة والالتباس المحتملة نرجع الراغب إلى كتاب ٨٢ شوال لسماحة السيد المؤلف(رض).

حصل المؤمن على أنوار العقيدة اللؤلؤية، وأي لؤلؤ هذا؟ انه نور الإيمان الذي لا تقيّمه الكنوز، فقد ورد في الرواية أن المؤمن في القيامة يشع من جبينه نور عقيدته الحقة فيغطي هذا النور كلّ ما امتد إليه بصره، ويشع من جنبه الأيمن أيضاً نور هو نور أعماله الصالحة.

[٢٣]

(مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ١٩ ـــ ٢٣).

الدُرَرُ الكبارُ والصغارُ تنشأُ عن قطر المطر:

لقد قلنا آنفاً ان الله تعالى أجرى بقدرته البحرين، العذب الفرات والملح الأجاج ثم جمع ينهما وجعل في موضع الجمع برزخاً حال دون أن يبغي أحدهما على الآخر فيعدمه، وقلنا إن الماء العذب ضروري في رفع حاجة العطش وإطفاء شعلة الظمأ، بينما تكمن ضرورة الماء المالح في مهمة الحيلولة دون تعفن الهواء والمساعدة في الابقاء على الحياة بشكلها المألوف. أمّا عن اللؤلؤ والمرجان، فقد ذكرنا أنهما من أشكال (الدُر) ومنشأهما حبات المطر التي تقتنصها التواقع والاصداف البحريّة، وما اللؤلؤ إلا كبار الدُر الناشئ عن ابتلاع الصدف لكبار حبات المطر، والمرجان هو صغار الدُر الحاصل عن ابتلاع التواقع لصغار حبات المطر.

تجلّي نور الأعمال الصالحة في قبر المؤمن:

ثم استعرضنا عدة وجوه تأويلية للآيات موضوع البحث، وقلنا إن أحد تلك الوجوه يتمثل في مجري الدنيا والآخرة، ويحجز بينهما حاجز البرزخ، وقلنا إن التلاقح الحاصل بين البحرين المذكورين يؤدي إلى ظهور نور العقائد، ونور الأعمال الصالحة الخاصة بالمرء المؤمن، ومن المناسب هنا أن نستعرض سوية هذه الرواية التي حمل مضمونها مصداق ما ذكرناه آنفاً، ذكرت الرواية أن المرء المؤمن عندما يرحل إلى قبره وقد خلّف وراءه عالم الدنيا، يأتي إليه الأهل والأصحاب فينزلونه القبر ثم يوارونه الثرى. وعندما يصير إلى قبره يبصر خمسة أنوار تملأ عليه القبر ضياءً الأول من فوقه والثاني من تحت أرجله والثالث عن يمينه والرابع عن شماله والخامس من أمامه وهو يتلألأ كأنه صادر عن كوكب درّي، فيتساءل ما هذه الأنوار؟! فيأتيه الجواب، أمّا النور الذي من فوقك فهو نور الصلاة، واما النور الذي عن يمينك، والنور الذي عن شمالك فهما نوري الصوم والحج، واما النور الذي من تحتك فهو نور الزكاة، واما النور الذي يسطع أمامك فيغلب بشدة تشعشعه بقية الأنوار، فهو نور ولاية محمد وآل محمد (ع).

بحر الخوف وبحر الرجاء في الوجود الإنساني:

ومن جملة الوجوه التأويلية لقوله تعالى (مرج البحرين...) ان الخوف والرجاء هما من مصاديق البحرين المذكورين، وقد أجراهما الباري (عز وجل) في كيان الإنسان، وهما في واقعهما بحران عظيمان يشتملان على الحالات المختلفة والمتناقضة في الوجود الإنساني

والتي تتوزع على كفتي ميزان، بحر الخوف المالح الأجاج المعزز بالنار والهول والقبض، وبحر الرجاء العذب الفرات المعزز بالبرودة والأنس والبسط، هذان البحران اللذان انفطر عليهما الإنسان، فبالخوف الذي يعتمر القلوب يصبح الكيان الإنساني ضعيفاً محترقاً، وبالرجاء الذي يرد الأفئدة تُثلج الصدور، فيحول بحر الرجاء أن يذيب بحر الخوف تلك القلوب والأفئدة، لذلك كان وجود هاذين البحرين في قلوب المؤمنين ضرورياً ولازماً ثم جعل المولى عز وجل برزخاً بين البحرين لكي لا يغلب أحدهما الآخر فيهوى الإنسان إلى مكان سيحق، لأن غلبة الخوف على الرجاء تجعل المرء آيساً لا أمل عنده فيخلق لنفسه جهنماً يُسجن فها ثم لا يعود بمقدوره أن يخرج منها، وهو ما نعبّر عنه باليأس من رحمة الله تعالى المؤدي إلى الكفر، لأن الإنسان والحال هذا سيهجر كل عمل صالح ويتوقف على فعل الخيرات. أمّا لو غلب الرجاء خوف الإنسان لتولّد عنده الغرور بحيث نجده لا يبال بمعصية يرتكبها أو ذنب يقترفه لأن الخوف قد رحل من قلبه، فيترك المرء في هذه الحال عمل المستحبّات ويدع الأنفاق وتقديم الصدقات ثم يؤدي به سوء الحال إلى سلوك سبيل خسران الدنيا والآخرة كما يحسرها في حالة غلبة الخوف على الرجاء تماماً.

لقاء الخوف مع الرجاء يحصّل الإتيان بالطاعات وهجر المعاصي:

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ثم يخرج من بحري الخوف والرجاء لؤلؤ التقوى وهجران المعاصي ومرجان الطاعة والعبادة، باعتبار أن الخوف يمنع ارتكاب الذنوب حتى وان كان

الذنب بمقدار خردلة، ويطرد الرجاء (المتمثل) بالتعلّق بلطف الله تعالى وإحسانه) عن قلب المرء كل أشكال اليأس والقنوط، وحينها يندفع الإنسان مسارعاً إلى فعل الخيرات وعمل الطاعات والإكثار من الباقيات الصالحات، وعليه يصبح حد الاعتدال أو ما يعبر عنه بالحد الوسط هو الحد المطلوب بين بحري الخوف والرجاء اللذان لا يبغي أحدهما على الآخر، فيتوسط المرء خوفه ورجاءه ويصبح تقياً ورعاً مسارعاً في الخيرات.

دعي عبدنا:

فقد نقل السيد الجزائري (عليه الرحمة) قصة شاب غلبته شقوته فأبتلي بطيش الشباب وارتكاب الآثام والمعاصي وصادف ان وقع يوماً طريح فراش المرض ينازع الموت، ولما استيقن ان الموت غالبه توجه إلى امه يوصيها قائلاً: إذا رأيتني قد فارقت الحياة، فشدي الوثاق بقدمّي ثم جري الحبل واسحبيني وناديني يا عاصي، يا اسود الوجه!!

ولما رحل الشاب عن دار الدنيا وتذكرت الأم وصية أبنها، لم يطاوعها فؤادها على تنفيذ ما أراده منها فلذة كبدها، وبقيت تصارع نفسها بين الاستجابة وبين ترك فعل الوصية، وأخيراً قررت ان تنفذ وصيته على كراهية منها لذلك فشدت رجليه بحبل وقامت تريد أن تسحبه وإذا بالنداء يأتيها (دعي عبدنا)!!

فطوبى لذلك القلب الذي اعتمر بخوف الله ورجائه، ولقد نقل صاحب تفسير منهج الصادقين نظير هذه القصة يقول فيها: عندما نزل الموت بساحة أحد الأشخاص وأيقن هذا الرجل من أنه قد بات على حافة نهاية العمر تأوه وهو يردد قائلاً: يا من له الدنيا والآخرة ارحم من ليس له

الدنيا والآخرة)، فكان تأوهه ذاك ودعائه الحزين مقدمة وباعثاً لأن يغمره الله (عز وجل) برحمته ويشمله بمغفرته ويتجاوز عن خطاياه.

نعمتا الخوف والرجاء، وبابا الرحمة الإلهيّة:

(فبأي آلاء ربكما تكذبان)، فيا معشر الجن والأنس بأي نعمة أنتما لا تمنان؟! أبنعمة الخوف تكفران؟! أم بنعمة الرجاء تجحدان؟! وهاتان النعمتان اللتان اوقرهما الله (عز وجل) في قلوبكما فنلتما بفضلهما وبفضل البرزخ (الذي حال بينهما أن تطغى إحدادهما على الأخرى) السعادة والتقوى والأعمال والنوايا الصالحات.

نعم ان التوفيق والعصمة والخوف والرجاء وسائر الوجوه الباطنية في تأويل هذه الآية المباركة ما هي إلا نعم ربانية تستلزم أن يقدّم العبد في مقابلها آيات الشكر والحمد لله رب العالمين الذين من بها عليه وعلى سائر الناس المؤمنين، لا أن يقابلها بالجحود والكفران والانكار ولقد تناولنا من قبل حول تأول هذه الآية الكريمة **(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** أحد الوجوه الباطنية وقلنا انها تشير إلى الحسين (ع)، كما أن سورة الحديد قد أشارت إلى ذكرهما (ع) في قوله تعالى **(يؤتكم كفلين من رحمته)**. (سورة الحديد, الآية: ٢٨) حيث ان المقصود بكفلي الرحمة هما الحسنان (ع)، والحقيقة ان الحسن والحسين (ع) بابان واسعان من أبواب الرحمة الإلهية ينبغي أن نقدم لله عز وجل عنهما أسمى آيات الشكر والحمد، لا أن نكفر

بهما ونجحدهما. ولكن أتدرون ما فعل الأشقياء البائسين عندما أبدلوا الشكر كفراً وحاربوا هاتين النعمتين وقتلوهما، فقد دسّوا السمّ للحسن المجتبى (ع) وفرثوا كبده، ثم أيبسوا شفتي الحسين المصطفّى (ع) ظلماً ثم نحروه واحتزوا رأسه!!!

[٢٤]

(وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام * فبأي آلاء ربّكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ٢٤ ــ ٢٥).

السفن الشامخات كالجبال تمخر عباب البحر:

ومن آياته الباهرات أن تشق السفن عباب البحر وتنساب متحركة فيه.

وكلمة (الجوار) هي في الأصل (الجواري) وقد حذفت الياء ثم كسرت الراء، والراء المكسورة دليل واضح على حذف يائها، و(الجوار) هي جمع جاري وجارية، وهو كل شيء يتحرك على صفحة الماء، ويطلق هذا الاسم على السفن والبواخر، وهو مرادف لكلمة السفينة والفُلك بضم الفاء، وإنما حصل هذا الاختلاف في التسمية لوجود خصوصيات معينة في الأسماء لسنا الآن في صدد بحثها.

أما كلمة (المنشئات) فهي تقرأ على نحوين، الأول: بفتح الهمزة على أنها اسم مفعول، وهنا يكون المعنى هو المرفوعات، وهي تختص بالسفن الشراعية التي ينصب على متنها لوح أو

عمود خشبي يسمى (الصاري) ثم تربط به قطع من الأقمشة والمنسوجات الخاصة وتسمى (الأشرعة) فتقوم هذه الأشرعة بصد الريح فيفعل ضغط الريح عليها أثره عند فتحها ونشرها فتتحرك السفينة نتيجة لذلك. أما الثاني: فتقرأ بكسر الهمزة، فيصبح معناها المبتدئات أو المعدّات للحركة والسير. و(كالأعلام) تعني كالجبال، لأن الأعلام هي جمع علم وهو الجبل الشامخ، وقد شبّه الله حركة السفن على صفحة الماء في البحار بهيئة الجبال الشامخات، فكما ان الجبل الراسي على الأرض يبدو للعيان من على مسافة بضعة فراسخ، فكذلك حال السفن وهي في لجج البحار عندما تبدو صواريها شامخات وكأنهن جبالاً راسيات على الأرض، وهذا التشبيه يسوقنا إلى معرفة الأسباب والدواعي لذكره، واعتبار ان السفن آية من آيات الله تعالى.

العناصر الأربعة المكوّنة للطبيعة:

كلنا يعرفُ أن أركان عالم الطبيعة هي الأشياء الأربعة التي يصطلح عليها بالعناصر الأربعة، وكافة التشكيلات والتركيبات الموجودة في هذا العالم إنما تتشكل وتتركب من هذه العناصر وهي (الماء، الهواء، التراب، النار)، ولقد اكتشف العلم الحديث ما يزيد على ثمانين عنصر في تركيب الكائنات والموجودات، ولكن تبقى العناصر الأساسية في تركيبة سائر العناصر هي العناصر الأربعة التي ذكرناها، وقد قام العلم الحديث بتحليلها وتجزئتها واستخراج العناصر البسيطة منها. وقد أشارت الآيات الأُول الواردة في هذه السورة الكريمة

إلى موضوع خلق الإنسان من التراب وهو العنصر الأول في عملية الخلق والإبداع الإلهي لأعجب واشرف الكائنات. ثم أعقبتها الآيات التالية بالإشارة إلى موضوع خلق الجن من النار، ثم تلتها الآيات اللاحقة لتتحدث عن الماء العذب والأجاج واختلاطهما دون أن يفقدا خواصهما الذاتية وخروج اللؤلؤ والمرجان عنهما، وبقي العنصر الرابع وهو الهواء، وهو ما لمّحت إليه هذه الآية الكريمة في موضوع سوق السفن الشامخات كالجبال لتشق عباب البحار.

ولعل نعمة الهواء ليست بالخافية على الإنسان من حيث أهميتها وضرورتها، فقدرة الإنسان والحيوان البري إنما تعتمد بالأساس في مواصلة الحياة على تنفس الهواء، وحتى النباتات هي الأخرى في أمسّ الحاجة للهواء. ولكن ما يهمنا ذكره هنا هو ما أوردته الآية المباركة عن دور الرياح في حركة السفن الشراعية وأهميتها. وهذا يتطلب بدوره أن نقدّم للموضوع المقدمة الآتية:

غرق الأجسام التي تكون كثافتها أكثر من كثافة الماء:

لقد أثبتت التجارب أنّ أي جسم له حجم أخف من حجم الماء لا يغطس في ذلك الماء، ولو كان الحجم أثقل لغطس. بمعنى آخر أن الأجسام ووفقاً لحجمها (مع أخذ حجم الماء بنظر الاعتبار) لو قلّت عن حجم الماء لاستقرت على وجه الماء، والعكس من ذلك يؤدي على غوص الجسم في الماء، ولو أخذنا على سبيل المثال الإبرة ووضعناها على صفحة الماء لغطست بينما نجد أن البواخر العملاقة التي تزن آلاف الأطنان تستوي على صفحة الماء ولا

تغطس فيه، وتعود العلة في ذلك إلى أن حجم الإبرة قياساً بحجم الماء تعد ثقيلة، لذلك تغوص في الماء، بينما نجد الباخرة العملاقة تطفو على سطح الماء لأن سطحها منفرج ويتخلله الهواء إضافة إلى سعة حجمها فيقل حينئذ وزن الماء المزاح عنها مما يؤدي ذلك إلى خفّة حجم الباخرة قياساً بحجم الماء الطافية على سطحه، ولما جعل الله عز وجل الهواء أخف وزناً من الماء في الحجوم المتساوية، كانت العبرة في مسألة اختلاف الأوزان مرهونة بالحجوم في الأجسام رغم أن مسألة الثقل أو الخفة هي مسائل نسبية تحصل بالقياس إلى الأجسام الأخرى كما هو معروف.

ولو لاحظنا الأسماك الكبيرة التي تعيش في مياه المحيطات والبحار، نجدها تنتقل بسرعات كبيرة من قيعان تلك المياه إلى سطوحها بفعل الخاصيّة المودعة فيها والمتمثلة بوجود الأكياس الهوائية في بطنها وقرب الغلاصم، فهي تجمّع الهواء في هذه الأكياس عندما ترم الصعود إلى منطقة السطح فيؤدي وجود الهواء إلى زيادة حجومها والتخفيف من أوزانها قياساً بأوزان المياه المزاحة.

ولو أرادت الغوص إلى الأعماق لفرغّت تلك الأكياس من الهواء وغاصت (ذلك تقدير العزيز العليم). من ذلك ندرك بوضوح أن حالة طفو السفن لا تتحقق لولا وجود الهواء. وفضلاً على ذلك فأن حركة السفن في شق عباب المحيطات والبحار لا تحصل هي الاخرى لولا وجود الهواء والرياح (وقد تمّ في غضون القرن الحالي صنع البواخر والسفن المتحركة

بوسيلة المحركات البخارية أو الكهربائية أو بالوقود النفطي) فيتم توجيه الأشرعة باتجاه معين يمكّن السفن من الحركة بالاتجاه المطلوب وبسرعات تتناسب وسرعة الرياح.

اللّجوء إلى الله تعالى بطلب النجاة في البحر:

ومما لا شك فيه ان السفن الشراعية محفوفة بالمخاطر الكبيرة المتعددة الناشئة عن هيجان البحر واضطراب أمواجه وحصول العواصف البحرية وشدة تلاطم أمواجه العظيمة، فهي معرضة إلى الغرق على الدوام، وعليه كان ركاب السفن يلجأون إلى الله عز وجل ويدعونه بكل إخلاص وإقبال عليه ان يكتب لهم النجاة والسلامة من هياج البحر، ولكن يبقى هذا الإقبال واللجوء إلى الله للأسف مؤقتاً، فهم ما أن يصلوا جانب البر سالمين حتى ينسون الله تعالى، كما يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى **(فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين)**. (سورة العنكبوت, الآية: ٦٥) ــ لأنهم أضحوا لقمة سائغة لأمواج البحر العنيفة الهيجان ـ **(فلمّا نجاهم إلى البرّ إذا هم يشركون)** (سورة العنكبوت ,الآية: ٦٥). وحالنا نحن أيضاً ليس بأفضل من حال اولئك، فنحن عندما تعترينا أوقات الشدة والضيق نلجأ حينذاك إلى الله تعالى، ثم نعاهده على ان نخلص له الدين وندع ارتكاب الآثام والذنوب، ونفعل كذا وكذا إن هو أنجانا مما نحن فيه، ولما تكتب لنا النجاة وينقلنا المولى عز وجل إلى بر أمانه، لا نلبث أن نعود تارة أخرى إلى تلويث نفوسنا، وتحطيم كياناتنا فننسى كل عهد بيننا وبينه، لذلك كان البلاء والمصيبة هدية وتحفة إلهية يقدمها الله تعالى للعبد المؤمن كما تؤكد ذلك هذه الرواية، يقول

الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) (إن الله تعلى يتحف عبده المؤمن بالبلاء كما تتهادون فيما بينكم بالهدايا والتحف)، بلى لأن البلاء يتصور في صور الشقاء والعناء والمصيبة، ولكنه في جوهره وحقيقته هو لطف، لأن البلاء هذا سيكون مدعىً للعبد المؤمن على حضور المساجد والتضرع إلى الله واللجوء إليه، فيكون حينها لجوء العبد إلى ربه وتضرعه وتوسله ثميناً وقيمّاً.

[٢٥]

(وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام * فبأي آلاء ربّكما تكذّبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٢٤ ــ ٢٥).

ولله مُلك الفُلك:

لقد ذكرنا في شرح هذه الآية الكريمة أن ملك الفلك لله عز وجل، فهي تجري في البحر وكأنها الجبال الشم في نشر أشرعتها، حتى ان الرائي ليراها من على البعد الشاسع. ويعد الفلك آية من آيات الله (تعالى) الباهرات، لأن حكمته البالغة جعلت هذا الجسم الثقيل الهائل يستقر على وجه الماء دون أن يغطس وينفذ إلى أعماق البحر السحيقة رغم أن الإبرة الصغيرة لا تلبث ان تغطس بمجرد أن يتم وضعها على صفحة الماء، وهذا في حد ذاته سر عجيب من الأسرار الالهية المودعة في عالم الطبيعة ليطلّع الإنسان على عظيم قدرة الله وجليل شأنه وبالغ حكمته.

والنقطة المهة في هذه الآية التي ينبغي الالتفات إليها هو وسم الفُلك بأنها من ملك الله (تعالى) كما يصرح بذلك قوله تعالى **(وله الجوار المنشئات)** مع أننا ندرك إن لكل سفينة صاحباً تحمل أسمه أو اسم شركته مثلاً.

من الخطأ أن يرى الإنسان نفسه مالكاً للأشياء:

ومن الأخطاء والمغالطات الإنسانية هو أن يرى الإنسان نفسه مالكاً لبعض الموجودات في العالم، في حين أنه يدرك بل ويؤمن بأن الأرض وما عليها، والسماء وما فيها ملك مطلق لله (عز وجل) كما يصرح بذلك قوله عز وجل **(لله ما في السماوات وما في الأرض)** (سورة البقرة, الآية: ٢٨٤). أو ما أشارت إليه هذه الآية **(قل اللهم مالك الملك , تؤتي الملك من تشاء, وتنزع الملك ممن تشاء)** (سورة آل عمران، الآية: ٢٦). وهذا يدلل على جهل الإنسان وقلة معرفته بكل وضوح، فهل نسي الإنسان أنه لا يساوي أكثر من حفنة من التراب مما على هذه الأرض الفسيحة؟ وأنه شيء يقف في عرض سائر الأشياء والموجودات؟ فهو لا يمتاز عن كل الأشياء إلاّ بأن الشارع المقدس (جل جلاله) قد استخلف هذا الإنسان في أرضه وجعله مالكاً ملكةٍ اعتبارية لأجل أن يقوم بحفظ النظام ورعايته في هذا العالم، ولذلك عندما نقول أن هذا البيت هو بيت زيدٍ وتلك الأرض هي أرض عمر وتلك السفينة هي سفينة زينت وهذه الطائرة هي طائرة الشركة الفلانية، فإنّما نقول ذلك باعتبار ان الملكية هي ملكية اعتبارية وليست حقيقية، لذلك كان لزاماً على الإنسان أن يلتفت إلى هذه الحقيقة ويؤمن بأن الملك لله (تعالى) جميعاً، وهذا هو ما صرحت به الآية الكريمة موضع بحثنا من أن ملكية السفن لله (عز وجل) باعتباره هو المالك الحقيقي لجميع الأشياء والموجودات، في حين ان المالك الاعتباري للشيء أو الأشياء تنقص عنده الأشياء وتزداد وتفنى أو تحصل (كأن يشتري السفينة التي لم تكن لديه من قبل، ثم يحصل من ورائها على أرباح معينة, أو تصاب بعارض فتترتب عليه بعض الأضرار أو الخسائر مثلاً)، لكن المالك

الحقيقي يبقى هو صاحب كل شيء وان حصل انتقال للأشياء من شخص لآخر، أو ابتلي الشيء بنقص أو زيادة فتأمّل.

وأجزاء السفينة هي ملك لله أيضاً:

والكل يعرف أن السفينة تتشكل من عدة أجزاء مكونة لهيكلها العام وتركيباتها الجزئية الأخرى، فهيكل السفينة يتركب من ألواح السطح وعمود الصاري الخشبية، والماسكات الحديدية، وعادة ما يكون سطح السفينة من مادة الخشب الذي يتم استخراجه من الأشجار الكبيرة، وهنا نتساءل من أين جاءت تلك الأشجار؟ لقد جاءت تلك الشجار من ابداع ذلك الاله الذي وهب الطبيعة الحب والنوى وعلم الإنسان فنون الزرع والغرس، ثم شمل هذه النباتات بعين رعايته حتى صارت أشجاراً، ثم علمّ الإنسان أساليب الاستفادة منها في تنظيم شؤون حياته اليومية بما يعود عليه بالنفع والخير. إذاً هل يبقى من شك أن خشب هياكل السفن هو من عند الله وحده؟! وحتى قطع الحديد والمسامير المعدنية التي يتم بواسطتها أحكام تماسك بدن السفينة وهيكلها هو من عند الله تعالى وحده، فهذا الحديد الذي أودعه الباري في قلوب الجبال طيلة هذه السنين المتقادمة من عمر الحياة في هذا العالم قد عرف الإنسان عليه وجعله مدداً له في نيل المنافع (ولا شك ان اكتشاف المعادن والثروات قد حصل بفعل التأثيرات والحوادث الطبيعية من حيث كونها عوامل مطر أو سيول أو تعريّة التربة أن تأثير أشعة الشمس وغيرها وفي ظل ظروف مناسبة قد بدت للإنسان وتعرف

عليها واستغلّها لتأمين منافعه)ن وعليه فان الخشب والحديد وسائر المكونّات الاخرى في تركيبة السفن هي من عند الله وحده.

تعلّم الإنسان صناعة السفن:

ولربمّا قيل: صحيح ان العلة المادية للسفن (أخشاب، حديد، مكونات أُخر) هي من عند الله، ولكن يبقى الدور المهم في إبداع صنع السفينة هو للإنسان لأنه هو الذي قطع الأخشاب والحديد وفق حجوم وقياسات محددة، ثم صمم هيكل السفينة طبقاً لحسابات وأبعاد دقيقة، وهو الذي صنع المحركات التوربينية والكهربائية والبخارية للسفن وفق المواصفات التي أجرى عليها الاختبارات ونجح في صناعات السفن، إذاً يبقى الدور المهم في مالكية السفن وصناعتها هو للإنسان.

وللجواب على ذلك نقول، إن هذه اليد التي تمسك المطرقة وترق المسامير الحديدية، وتقوم بنشر الخشب بالمنشار، والقدم التي تقطع المسافة على ظهر السفينة جيئة ورواحاً إنما هما من بديع صنع الله (عز وجل)، وحتى هذا العقل الإنساني المبدع (عند المؤمن والكفار) من حيث قدراته واستعداداته ودرجات الذكاء وفهمه لادراك خصائص الأشياء وطرق وأساليب الاستفادة منها انما هو من عند الله (عز وجل) وحده لا شريك له، ونحن نرى البعض الذين قد سلب الله منهم أحد تلك النعم (اليد، الرجل، العقل) لنعلّم أنّ صاحبها ليس لها بمالك وإنما مالكها وصاحبها الحقيقي هو الله عز وجل الذي وهبها بلطفه ورحمته للإنسان و(لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم).

وقد يحصل أن يكتشف أو يخترع الإنسان بعض الأشياء المشتملة على خواص بعض الأجسام كالكهرباء، فهذا الاكتشاف في واقعه لم يتأتى للإنسان إلاّ بالهام الهي، فكم من علماء وباحثين أمضوا سنين متمادية قد بذلوا قصارى الجهود في محاولات اكتشاف واختراع آلات وأجهزة، أو تحسين وتطوير ما هو موجود منها فعلاً ولكنهم لم يوفقوا إلى اكتشاف الكهرباء أو الطاقة الذرية، ولكن العالم الفلاني فوجئ باكتشاف موضوع معين لم يكن يطلبه بالذات في بحوثه وتجاربه ولكنه حصل عليه بطريق الصدفة عرضاً، ونظير مثل هذه الحوادث كثيرة. ولنعد الآن إلى موضوع السفينة ولنر ماهية تلك القوة أو القدرة التي تدفعها فتجعلها متحركة على سطح الماء؟ إنه الكهرباء أو البخار أو الفحم الحجري أو غير ذلك من ألوان الطاقة التي كونّها وذخرها واظهرها الله عز وجل.

فلو تصورنا ان ذاكرة الإنسان سلبت منه، فهل يا ترى سيستطيع بعد ذلك أن يفعل شيئاً؟ بالتأكيد كلاّ وعليه يجب على الإنسان أن يغنم الفرصة ويسارع إلى تقديم الشكر والثناء والحمد لله تعالى لأنه أهل ذلك، ولأنه مصدر الخيرات جميعاً ومرجع جميع آلاء الإحسان وميسر جميع سبل اداء الصالحات والخيرات، وعندما نقول باختصاص الشكر والثناء بالله وحده لا يعني ان نجحد دور الآخرين الذين جعلهم الله سبباً ووسيلة في نقل فيوضات الرحمة الإلهية إلينا، بل ما نقوله هو انهم ليسوا مبدأ أو مصدر الخيرات والبركات والافضال، فالطبيب المعالج لمرضاه عندما يكتب وصفة الدواء لمريضه بقصد علاجه فيتماثل المريض للشفاء لا ينبغي حينئذ ان يقول هذا المريض إن

الطبيب الفلاني هو الذي أنقذني وأحياني!! لأننا على يقين من ان ذات هذا الطبيب قد بعث بالكثيرين إلى المقابر!!!

لا تعارض بين المالكية الحقيقية والمالكية الشرعية للأشياء:

وهنا يتضح لنا ان المالك الحقيقي للسفن هو الله (عز وجل) بجميع أجزائها ومكوناتها العامة والتفصيلية وبدنها وصانعها الإنسان، فكل تلك الأشياء (وبضمنها الإنسان) هي من عند الله (تعالى) وإليه يعودون، بل ان ما في الأرض وما عليها وما فوقها وما تحتها هي ملك لله وحده، وهي ما يصطلح عليها بالمالكية الحقيقة.

والمالكية الإلهية الحقيقية لا تتعارض مع المالكية الاعتبارية أو التوكيلية أو الشرعية للأفراد، فعنوان المالكية المكتسب لدى الإنسان إنما حصل من خلال السبب الشرعي من قبيل البيع والشراء والميراث والهبة وغير ذلك من الأسباب التي يقوم على أساسها النظام الاجتماعي للحياة إذ لولاها لما تيسر للإنسان من نقل الأشياء وتنظيم وتسيير شؤون حياته اليومية، فقد تنسب مالكية شيء ما اليوم إلى شخص معين وفي الغد تنسب إلى شخص آخر لأنه اشتراه مثلاً أو حصل عليه بموجب الإرث، وتبقى عملية الانتقال إلى الشخص الجديد قادرة على حفظ حدود مالكيته للشيء باعتبارها شرعية محترمة ولا يجوز الاعتداء عليها بأي حال من الأحوال.

ولله سفينة أهل البيت (ع).

وفي المعنى الباطن لقوله تعالى (**وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام**) يقال ان المقصود بذلك هن الجواري على ظلمات بحر الهوى، فسفينة النجاة النبوية هي التي تمخر عباب البحر الدنيوي المحفوف بالمخاطر المهلكة المتصلة بحب الدنيا وحب النفس والهوى، فمن ركب هذه السفينة يكون قد ضمن لنفسه الوصول إلى شاطئ النجاة حيث الجنان والرضوان، ومن تخلّف عنها وعزف عن الركوب فيها فقد كتب على نفسه الغرق والهلكة في بحار الظلمات كما يتأكد هذا المعنى في نص الحديث الشريف الآتي (مثل أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجى، ومن تخلّف عنها غرق وهوى). وتعود ملكية هذه السفينة إلى الله عز وجل أيضاً، فما محمد (ص) إلاّ كائن مقرب عند الله سبحانه وتعالى، وما علي والحسن والحسين (ع) إلاّ عباد لله قد جعلهم المولى (تعالى) وسائط ربانية ونعماً إلهية حقيقية تضمن النجاة للعالمين، ومثلهم كمثل المصباح المادي في عالم المادة الدنيوي الحسي يهبنا الضياء والدفء والفوائد الجمة الأخرى، فهم مصباح عالم الروح والمعنى، ونورهم يهدي الناس إلى سبل الرشاد والفوز المعنوي، وعلى لك يكون سؤال الله التقريري الإلهي (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**) مدعىً لعدم صدور الجحود والتكذيب بنعمة سفينة النجاة النبوية هذه. ولنا في بركة هذا الحديث الشريف حسن ختام لمقالنا هذا:

شمس النبوة وقمر الولاية:

جاء في كتاب منهج الصادقين هذا الحديث الشريف المروي عن طرق العامة، فقد روي عن سليمان بن الاعمش بواسطتين عن النبي الأكرم (ص) أنه قال (إذا فقدتم الشمس فعليكم بالقمر،

وإذا فقدتم القمر فعليكم بالزهرة، وإذا فقدتم الزهرة فعليكم بالفرقدين) ونحن نعرف أن نور القمر ما هو إلا انعكاس لضوء الشمس، اما الزهرة فهي إحدى الكواكب المنيرة التي لا نظير لها في شدة نورها بين سائر الكواكب المساوية، أما الفرقدان فهما النجمان القطبيان المتقابلان، أحدهما في قطب الشمال والثاني في قطب الجنوب، وهما في شدة نورهما وتلألأهما يأتيان من بعد الزهرة.

فتساءل أصحاب النبي (ص) قائلين: وأي شيء هن يا رسول الله؟ عندئذ أجابهم النبي (ص): أنا الشمس، وعلي القمر، فإن توفاني الله إليه فعليكم بلزوم علي (ع)، وبعد علي (ع) عليكم بالزهراء وهي الزهرة، ثم تمسكوا من بعد بالحسن والحسين (ع) فهما الفرقدان (عليهم جميعاً سلام الله تعالى).

[٢٦]

(كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي آلاء ربكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ٢٦ ــ ٢٨).

مآل جميع الكائنات إلى الفناء:

(كل من عليها فانٍ) وتعني أن مصير كل إنسان على وجه البسيطة يؤول إلى الفناء، **(ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام)** فبأي آلاء ربكما يا معشر الجن والانس تكذبّان؟

قلنا إن بداية السورة تناولت اسم الأرض بالذكر في قوله تعالى (والأرض وضعها للأنام) وعليه يتضح معنى كلمة (عليها) الواردة في هذه الآية من أنها الأرض من خلال قرينتين هما:

قرينة الحال، وقرينة المقال، وبذلك يكون معنى الآية (كل من على الأرض فانٍ)، و(من) هو اسم موصول بمعنى الذي ويستخدم عادة للعاقل. وقد يستعمل أحياناً لغير العاقل ولكن بصورة محدودة للغاية، و(من) الواردة هنا تخص الإنسان والجن باعتبارهما من العقلاء، أي أن جميع الناس والجن ممن يعيش على هذا الكوكب وفي هذا العالم محكومون بالفناء ولا يبقى سوى الله وحدهُ (جل جلاله)، ولو اقبلنا أن (من) استخدمت هنا باعتبارها اسم موصول مطلق للعقلاء وغيرهم فيكون معنى الآية في هذه الحالة هو (إن كل ما على الأرض من ذي روح وغيره، بشر أو جن أو حيوانات أو نباتات فمصيره الفناء، بل وان الفناء يلحق أيضاً كل ذي عمر ومدّة، فالأرض أيضاً لها أجل لا تعدوه وهي ستؤول في آخر حالها إلى الفناء١[1] وهذه الحقيقة تدلل عليها كثير من الآيات، كما في قوله تعالى (كل شيء هالك إلاّ وجهه) (سورة القصص، الآية: ٨٨). وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى فناء جميع الأشياء من سماوات وأرضين وعلويّات وسفليّات وكل موجود بالجواز، لأن ما كان له بداية لا بدّ وان تكون له نهاية، والنهاية هي الفناء ثم حلول عالم الآخرة وقيام الساعة عندما يحيى الله فيها أرباب النهى والعقول ثانية.

كل نفس ذائقة الموت، حتى ملك الموت:

---

١ [1] (كلاّ إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً) سورة الفجر، الآية: ٢١).

جاء في كتاب البحار للعلامة المجلسي أن أحدهم قال: جئت الإمام الصادق (ع) معزيّاً بوفاة ولده إسماعيل، ولمّا جلست بادرني الإمام (ع) قائلاً (كل نفس ذائقة الموت إن في الأرض أو في السماء).

وقد خاطب الإمام الحسين (ع) في ليلة عاشوراء أخته العقيلة زينب(س) بمقالة لا تختلف كثيراً عما نقله الراوي من مقالة الإمام الصادق (ع) إذ قال (ع): (إن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون). نعم عندما يموت الجميع يأتي النداء إلى ملك الموت، من بقي؟ فيجيب قائلاً: إنهم حملة العرش واسرافيل وميكائيل وجبرائيل يا رب، فيأتيه النداء: فليذوقوا الموت، وبعد أن يأتيهم الموت، يأتي النداء مرة أخرى: من بقي؟ فيجيب عزرائيل، بقيت أنا، فيأتيه النداء: مت أنت أيضاً، فيموت ملك الموت من ساعته، حينئذ يقول الواحد الأحد الصمد: أين اولئك الذين قالوا بزعمهم ان لهم الملك والسلطان؟ **(لمن الملك اليوم)** (سورة غافر، الآية: ١٦). فلا من مجيب غير الله (جل جلاله) **(لله الواحد القهّار)** (سورة غافر، الآية: ١٦).

فطوبى لمن آمن واستيقن أن الله (سبحانه وتعالى) هو المالك الحقيقي المطلق لكل شيء، وهو السلطان العزيز المقتدر وحده لا شريك له ولا عديل.

وعليه يصبح لكل ذي لب وحصيف ان مصير كل شيء هو الزوال والاضمحلال وأنّ الباقي بعد فناء كل شيء هو الله وحده ذو الجلال والإكرام هو من أوضح الواضحات وأتم البديهيّات والمسلّمات،

لا يبقى من العالمين الا الله وحده وما خلاه (كل من عليها فان)

الأدلة النقليّة والعقليّة على فناء الموجودات:

وأقام الحكماء الالهيون براهين عقلية متعددة تدلّ على حقيقة فناء الموجودات، فقالوا إنّ كل مركّب لا بدّ له في النهاية من أن يصير إلى التحلّل، وما اجتمع اليوم من أجزاء لا بدّ وأن يأتيها يوم تتفرق فيه وتتناثر، وأحد تلك الأشياء المركبّة أبداننا.

إذا ما المرء قد صار شبيه الكأس تسبيكاً لفتّته حصاة الموت كالرمل كما كان

وسيأتي اليوم الذي تنهار فيه الأبنية المحكمة والبنايات العالية ولو انها شيّدت من قطع الجبال الصلدة ومن الصخور الصمّاء، ولقد أبصرتم كيف آل عرش جمشيد الملك وأشباه هذا العرش إلى الخراب والدمار، والله وحده هو العالم كيف كانت هيئة عرش جمشيد عندما كان في أول أيام انشائه، وها هو اليوم وبعد بضعة الوف من السنين تشاهدونه على هيئة الأطلال والخرائب، وحتى الجبال فهي قد دخلت الآن في مرحلة الشيخوخة، وهي تتحرك اليوم نحو مرحلة الزوال والفناء، ولقد تحدث علم الفلك الحديث عن انتقال الأجرام السماوية إلى مرحلة البرودة والتوقف عن الحركة، وهذا يعني ان مسيرة العالم الذي أنشأه الله (عز وجل) تسير نحو حقيقة الزوال والفناء والتحلل بعد أن جمعه الله في هيئات مركبة ومتآلفة.

انعدام التركيبات المادية في الجنة:

ولو قدّر الله عز وجل لأحدنا أن يدخل الجنة، فهو حينذاك سيخلد فيها لأنها دار البقاء، ومن أسماء الجنة الأخرى (دار السلام) لأن حقيقة ما فيها هو السلامة المطلقة التي لا تشوبها شائبة السوء أو الفناء والزوال، لأنها دار البقاء لا دار الفناء وسبب غير مجهول، لأن التركيبات الماديّة في عالم الطبيعة لا تجد لها سبيلاً إلى الجنة فتكون فيها.

وقد جاء في كتاب (شرح الأسماء) حديث شريف يناسب مقالنا هذا يقول (عندما يرد المؤمن الجنة تأتيه رسالة مكتوب فيها ت من الحي الذي لا يموت، إلى الحي الذي لا يموت، فاني كنت إذا قلت للشيء كن فيكون، فقد جعلتك اليوم كذلك ــ). وهذا ما يؤكده القرآن المجيد في قوله تعالى **(وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)** (سورة العنكبوت، الآية: ٦٤). لأن حقيقة هي أنها تؤول إلى الموت والزوال والفناء كما تحدثنا هذه الرواية الواردة عن الأئمة (ع): (إن لله ملكاً ينادي في كل يوم، لدوا للموت، وابنوا للخراب) فالدنيا ملؤها الانفصال والفراق والتباعد ولذلك لم تكن مؤهلة لتعلّق القلوب بها، ومثلها كمثل فقاعات الماء التي تظهر وتطفو على سطحه فهي لا قيمة ولا أهمية لها, ويبقى الوجود الحقيقي ممثلاً بالآخرة وعالم المعاني.

إنّما جئنا إلى الدنيا لكي نعمّر الآخرة:

فالدنيا هي مزرعة الآخرة ومقدّمتها، وقد حللنا فهيا ضيوفاً لكي نعد العدد ونهيأ أسباب السفر والرحيل والاقامة في عالم الآخرة لأنها دار البقاء والحياة الأبدية، وعليه يجدر بنا أن لا نضيع الغايات والأهداف فنسعى إلى تعمير دنيانا الفانية ونخرب آخرتنا الباقية.

هذه الدنيا شبيهُ الميتة قد أحاطتها النسور ألف الف

تارة تنهُش من مخلب ذا وذا يبقرها بمنقارٍ كسيفِ

ولكن لو جعل المرء عُشر همته التي يهتم بها لدنياه مختصةً بالآخرة لأفلح وأنجح.

لم تخدعك الدنيا، ولكنك ولعت بها:

ومن درر كلام وأقوال سيدنا الإمام أمير المؤمنين علي (ع) التي نستحضرها هي قوله (ما خدعتك الدنيا ولكنك مغرم بها) ثم يعقب الإمام (ع) بقوله (فهل خدعك قبر أبيك مع ما فيه من العبرة والموعظة)؟!.

ونحن نقول إن لم ترد لنفسك العظة والعبرة فهذا شأنك، ولكن هل ترى ان أطلال الدنيا وخرائبها هي التي خدعتك؟ أم أن المنازل المعطلة التي فارقها أصحابها ورحلوا عنها هي التي غررت بك؟ أم أن الجنائز التي تمرّ بك كل يوم وترفع لك إعلانات الموت القادم، ولوحات الدعوة إلى الحضور والمشاركة في مراسم قراءة الفاتحة على أرواح الأموات هي التي مكرت

بك؟ أم انك أنت الذي خدعت نفسك وغررت بها وأنت تمر على جميع تلك المظاهر الملئى بالعبر والمواعظ والانذار والاخطار ولكنك لا تعرها شيئاً من اهتمامك؟!

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد مررت قبل حين بامرأة مسنّة قد أحنى الدهر ظهرها وأضحى وقوفها يقارن الركوع، فسألتني قائلة: ادع الله تعالى أن يعجل بموتي!! فتساءلت قائلاً مع نفسي (هل أن هذه الخاطرة قد خطرت في بال هذه الامرأة حينما كانت شابة وتمنّت مثل هذه الأمنية.!) بلى، لقد ساقها الدهر إلى حال فقدت فيه من عوّلت عليه أن يأخذ بيدها ويقودها ان صار بها الحال إلى ما آلت إليه. فيا أيها الناس خذوا حذركم واعلموا أن الشباب لا يبقى وأنّ كل شيء قد عدا مسرعاً نحو الزوال والفناء.

شؤون الدنيا لا تثبت على حال واحد:

ان دار الدنيا بحق، دار شقاء ولكنها أيضاً دار عبرة، فهي دار تتغير وتتبدّل ولا تثبت على حال واحد، فالرجل الذي كان بالأمس موضع غبطة واشارات الآخرين، قد تحول اليوم إلى معدم وقد خسر كل شيء وتدهورت أحواله وفقد منصبه وسقط عن رأسه تاج الملك!![2]٢

---

٢ [2] هذه القضايا التي يذكرها السيد المؤلف (رحمه الله) كان قد تحدث بها قبل اكثر من ثلاثين عاماً، وبعد مرور كل هذه السنين شهدنا سوية انهيار نظام الشاه (محمد رضا بهلوي) الدموي الذي

وينقل الشيخ عباس القمي(رحمه الله) في كتابه الكنى والألقاب، أن صلاة الجمعة كانت تقام في كل يوم جمعة في مسجد بغداد الجامع، (يقول الراوي)، فشاهدت في أحد الجمع رجلاً ضريراً يمسك بإحدى يديه عصاً ويسأل الناس عطاءهم وهو يقول (ارحموا من كان بالأمس حاكماً عليكم) فسألت من ذا؟ فقالوا لي انه الخليفة العباسي الذي هجم الترك على ملكه وامسكوا به ثم فقؤوا عينيه وسلبوه ملكه وجردوه من كل شيء!!

استخدم اكثر الأساليب دموية ووحشية من اجل سلب ثروات الأمة ثم آل به الحال إلى حال لم ينفعه فيه ماله أو سلطانه (ما أغنى عنه ماله وما كسب).

(كل من عليها فانٍ * ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام * فبأيّ آلاء ربّكما تكذبّان)

(سورة الرحمن، الآيات: ٢٦ ــ ٢٨).

الفناء الذاتي والفناء الوصفي:

(كل من عليها * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي آلاء ربكما تكذبان) قلنا أن ما على الأرض من موجودات سيكون مصيرها الفناء، ولكن ينبغي أن نتعرف على المقصود من كلمة الفناء، هل هو الفناء الوصفي، أم هو الفناء الذاتي؟ وبعبارة أخرى هل هو تشتت أجزاء الشيء وتناثرها؟ أم هو انعدام العالم بأسره في هذه الدنيا هم عودته ثانية في ويوم القيامة؟

والموضوح الآخر الذي يهمنّا بحثه أيضاً هو، هل أن مسألة الفناء تختص بعالم المادة والجسم (كالأرض والأفلاك)؟ أم انها تشمل الأرواح والملائكة أيضاً؟

وسنحاول هنا أن نتناول بالشرح هذين الموضوعين وبشيء من الاختصار المفيد:

تشتت الأجزاء وانعدام الصورة والهيئة:

بخصوص موضوع نوع الفناء من حيث الكلية أو الصورية (التي لا تحيق الفناء بأساس الأشياء والأجزاء) لو اعتمدنا العقل وحده لما تيسّر لنا الخروج بقناعات ثابتة باعتبار

محدودية عقل الإنسان إزاء هذا الموضوع الكلّي، ويبقى الحل الوحيد هو فيما نقله الوحي الإلهي في القرآن المجيد إذ عبّر عنه القرآن بتعابير الهلاك والفناء والصعقة، وهو ما يحقق القدر المسلّم به من تفرق وتشتت الأجزاء، وانعدام الصور والهيئات المركبة وهو ما يصطلح عليه بالفناء.

وفي موضع آخر من القرآن يصف المولى تعالى جميع الأجسام بأنها معرضة للهلاك، وفي موضع آخر من القرآن يعبّر الله (عز وجل) عن هذه الحقيقة بنفخة الصور التي تهلك من في الأرض ومن في السماء جميعاً مع وجود استثناء محدد كما في قوله تعالى **(ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض)** (سورة الزمر، الآية: ٦٨). أو أن يصف الأرض باستحالتها إلى قطع صغار متناثرة كما في قوله **(كلاّ إذا دكّت الأرض دكاً دكاً)** (سورة الفجر، الآية: ٢١). أو أن يعبر عن الفناء بقوله تعالى **(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً)** (سورة طه، الآية:١٠٥ ــ ١٠٧).

إذاً من ذا الذي زلزل الأرض وما عليها وتركها دون الرواسي الشامخات صعيداً جرزاً ملساء لا طيّة فيها ولا ربوة فلم تعد كما كانت في أمسها؟

طي السماوات، كطي السجّل للكتب:

وعن السماوات يتحدث القرآن الكريم فيقول **(إذا السماء انشقّت)** (سورة الانشقاق، الآية: ١). وقوله تعالى **(يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده)** (سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤). ولعل المقصود من قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده) هو ان نعيدها إلى هيئتها الأولى عندما لم تكن شيئاً موجوداً، ثم خلق الله تعالى مادتها الأولى، ومن ذلك نستنتج أن السماء تعدم تماماً كما كانت قبل يومها الأول: وهذا هو الاحتمال الأول. اما الاحتمال الثاني ان تعدم فتصبح كما كانت في يومها الأول، وهذا يعني ان أجزاءها الأولية تبقى موجودة، وان الذي يفنى هو صورتها وهيئتها دون المادة الأساسية. والاحتمالان المذكوران آنفاً واردان ولا يمكن الحكم والقطع بأحدهما دون الآخر، ولكن المسلّم به ان هيئة السماء الحالية وتركيباتها الجزئية هي التي تفنى وهذا مما لا شك فيه قطعاً ويذهب العلامة المجلسي وكثير من المحدثين إلى عدم القطع في هذا الموضوع والتوقف عند الاحتمالين بخصوص الفناء الذاتي أو الفناء الوصفي للسماوات والأرض وسائر الموجودات الأخرى، أي أنهم يتوقفون في القطع عند الإجابة على تساؤل هل أنها ستعدم تماماً ثم يعاد خلقها من جديد. أم أنها تفنى من حيث الصورة والهيئة ثم يصار إلى جمعها من جديد؟ ومهما يكن الاحتمال فنحن لا نجد نصاً يقطع الأمر في هذا الشأن بحيث لا يبقى هنالك أي مجال للترجيح، والسبب يعود إلى أن ذات الآيات الكريمة التي استعرضناها سوية تحتمل هي

الأخرى هذين الوجهين من الاحتمال ويبقى لزاماً علينا ان نعتقد بفناء الدنيا وما فيها، وهذا المقدار من الاعتقاد فيه كفاية الغاية.

وهل تفنى الأرواح والملائكة هي الأخرى؟

وعن موضوع فناء الأرواح والملائكة، هل أنها مشمولة بالفناء أم لا؟ يفترض القول ان ما يتعلق بالأرواح بالخصوص لا نجد له دليلاً قاطعاً يؤكّد فنائها، ولكن الظاهر يبدو أنها تبقى ولا تفنى، ثم تتعلق في يوم القيامة بالأبدان، وهذا يخالف ما يذهب إليه البعض من فنائها ثم إعادة خلقها من جديد بنفخها في الأبدان.

اما عن الملائكة فهناك بعض الروايات والآيات التي يستفاد منها في شمول الملائكة بالفناء هي الأخرى، كما في قوله تعالى **(فصعق من في السماوات)**، ولكن تلك الآيات والروايات لا تستوجب القطع المؤكد في فناء الملائكة بنحو يشتمل على اليقين من أن الملائكة يموتون، نعم هذا ممكن من حيث الاحتمال، كما أن هذا الاحتمال وارد بشأن الأرواح. ولكن يجب في هذا الحال استثناء أرواح المعصومين الأربعة عشر (ع)، لأنهم وجه الله عز وجل بدون شك أو ريب، وهذا ما تؤكده هذه الآية (موضوع البحث)، وقد أشار إلى ذلك المولى عز وجل في موضع آخر من القرآن كما في قوله تعالى **(كل شيء هالك إلاّ وجهه)** (سورة القصص، الآية: ٨٨).

المعاني المتعددة للوجه:

(ويبقى وجه ربّك)، من معاني الوجه:

١ ــ ذات الشيء وعينه، وهو معنىً يحتمل أبعاد الكناية، لأن المعنى الأصلي للوجه هو مقدم الرأس المحدود ما بين الاذنين عرضاً، وما بين قصاص الشعر وطرف الذقن طولاً، ولما كان وجه الإنسان مثلاً في الرأس موقعاً صح إطلاق كلمة الوجه على جميع الذات.

إذاً من خلال المعنى الأولى لكلمة وجه يكون معنى الآية هو ــ وتبقى ذات ربّك ذو الجلال والإكرام ــ وان ما سواه تعالى فمصيره الموت والفناء.

٢ ــ المعنى الوصفي، وهو ما يتوجّه إليه. أي ان كل واسطة تلفت النظر إلى أصل الشيء تسمى وجهاً، والأمثلة على ذلك تستدعي الوهم والضلال، ولكننا نضطر إلى سوق الأمثلة للوصول إلى الوضوح في هذا الأمر.

فلو رام أحدنا أن ينظر إلى قرص الشمس في يوم تكون فيه السماء صافية لما استطاع ان ينظر إليها مباشرة لأنه لا يتمالك ان يغمض عينيه لشدة توهّجها، ولكن لو نظر على صفحة الماء الساكن لتمكن من مشاهدة صور قرص الشمس دون أن يضطر إلى إغماض عينيه، وهذا ما نسميّه بالنظر إلى الشيء من خلال الواسطة، فقد أصبحت صفحة الماء وجهاً لقرص

الشمس. وعليه يكون معنى الوجه هو ما يتوجه إلى الشيء من خلاله فيتم التعرّف عليه، (مع الالتفات إلى ان حصول دعاوى الحول والاتحاد الباطلة مفسدة وتؤدي بالإنسان إلى الكفر).

ولأجل تقريب فهم هذا الموضوع إلى الأذهان نقول (مع اعترافنا من أن هذا الموضوع سام ولا ترقى إليه الأمثلة):

رؤية الله (سبحانه وتعالى) في مرآة أهل البيت (ع):

إن العقول تبقى عاجزة ودون القدرة والاستطاعة على فهم وادراك حقيقة عظمة الله (تعالى) وأسمائه وصفاته، ولكننا نجد أنفسنا مضطرين لأجل استحصال الإيمان واليقين بالله (جل جلاله) ان نتمسك بالأنوار القدسية للمعصومين الأربعة (ع) كما تشير إلى هذه الحقيقة الناصعة، عبارة وردت في الزيارة الجامعة نقول (من أراد الله بدأبكم)، وما أكدّوه أهل البيت (ع) في قولهم (بنا عُرف الله، وبنا عُبد الله)ن والنص الوارد أيضاً في دعاء الندبة الذي يشير إلى هذه الحقيقة كذلك (أين وجه الله الذي يتوجّه إليه الأولياء).

وقد ورد عن الإمام علي بن الحسين السجاد (ع) في تفسير قوله تعالى **(ويبقى وجه ربّك)**، أنه قال: نحن الوجه الذي يؤتى الله منه)١ **[1]**.

---

١ **[1]** تفسير نور الثقلين (ج٥، ١٩٢) بتصرف.

إذاً مما لا شك فيه أن أهل بيت العصمة والطهارة لهم وجهة إلهية، لأن من أراد أن يوّحد الله ويؤمن به وجبت عليه معرفتهم، ولأن من أحبهم أحبّه الله، ولأنهم أبواب الله الذين أكدّت على حقيقتهم آية (وأتوا البيوت من أبوابها). وأشارت إلى ذلك العبارة الواردة في دعاء ندبة والتي تقول (أين باب الله الذي منه يؤتى)، وقد أفرد صاحب كتاب بحار الأنوار باباً لموضوع وجه الله اشتمل على روايات عديدة بهذا الصدد.

بقاء الله وأهل البيت وخواص الشيعة:

واستناداً إلى المعنى الثاني لكلمة (وجه) وهو ما يتوجه إليه، فانه ما لا شك فيه أن المقصود بوجه الله هم محمد وآله (ص)، وعلى هذا الأساس يكون معنى الآية الكريمة (كل ما على الأرض فانٍ ويبقى محمد وآله (ع)).

والنقطة المهمة والجديرة بالذكر هنا، هو أن خواص الشيعة الذي قد نهجوا منهج أهل البيت بحذافيره، كما يتأكد ذلك في نص الرواية الآتية (شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا)، لهم أيضاً هم الآخرون وجهة إلهية، فهم باقون عندما يحل الفناء، وتوجد شواهد كثيرة تدلل على حقيقة هذا الأمر، مع الأخذ بنظر الاعتبار ان عدد اولئك قليل جداً جداً، فهم قد يعدون على الأصابع لقلتهم، ولذلك نرى تحرق المسلمين شوقاً وبكاءً على أن يجعلهم الله

من خواص الشيعة الموالية لعلي (ع)، بل وكان بعض علماء وفضلاء الشيعة لا يرون في أنفسهم أنهم مؤهلون لحمل لقب شيعة أهل البيت عندما يسمهم الناس بذلك.

الله ذو الجلال والإكرام:

الجلال، هو العظمة والاستقلال المطلق، وحقيقة الجلال والعظمة أنها مختصة بالله وحده وكل ما سوى الله تعالى حقير ووضيع في ذاته.

أما الإكرام، فيعني الانعام، ولمّا كان الله (عز وجل) صاحب الافضال العامة والجود والكرم على خلقه، وان ما عند الناس من جود وكرم هو في حقيقته من عطاء الله (تعالى)، كان اختصاص هذين الاسمين محصورين بالله عز وجل.

وقد ورد في تفسير المنهج، وسائر التفاسير الأخرى أن رسول الله (ص) أوصى قائلاً: اكثروا من غنيمة هذين الاسمين وتعاهدوهما.

وورد في حديث آخر عن رسول الله (ص) انه حنما دخل المسجد ورأى رجلاً يصلي ويقول في صلاته (يا ذا الجلال والإكرام) قال (ص) ان دعائه مستجاب بفضل ذكره بهذين الاسمين الشريفين (يا ذا الجلال والإكرام).

(كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي آلاء ربكما تكذبان)

(سورة الرحمن، الآيات: ٢٦ ــ ٢٨)

استخدام (من) موعظة للإنسان:

هذه الآية الكريمة تشتمل على معنى يقول ان كل إنسان بل وكل شيء مما تحتضنه الأرض سيكون مصيره الفناء، ولا يبقى قائماً سوى وجه الرب العظيم المنعم، وقلنا في ما سبق ان (من) هي اسم موصول وقد أوردته الآية المباركة هنا على أنه اسم موصول مشترك رغم انه مختص بالعقلاء، ولكن جاءت الاستفادة منه على أنه للعقلاء وغيرهم من باب التغليب، وهو بالطبع يختلف عن (ما) الموصولية المختصة بغير العاقل، ولكنها مع ذلك تستخدم أحياناً للعقلاء أيضاً عندما تستدعي ضرورة التغليب لغير العاقل على العاقل.

إذاً وجب علينا الالتفات إلى سبب استخدام الآية للاسم(من) بدلاً من الاسم(ما) رغم أن استخدام (ما) سيؤكد حقيقة فناء كل شيء على الأرض من بشر وجن وحيوانات ونباتات وجمادات؟ ولعل أحد أهم الوجوه المحتملة في كشف ذلك السبب هو أن استخدام (من) الموصوليّة قد حصل لكي تحصل الموعظة للإنسان والذكرى بفناء الدنيا، فتكون صيغة الآية هي صيغة تذكيريّة نصحيّة وواعظة كأنها تقول للإنسان (وأنت أيضاً سيشملك الفناء كما سيشمل غيرك، ولن يبقى إلاّ وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الآية تخاطب المستمع في عبارة (وجه ربّك):

(ويبقى وجه ربّك) صيغة الخطاب في هذا المقطع من الآية الكريمة له احتمالان هما:

١ ــ الاحتمال المفيد من أن خطاب الآية موجه للنبي الكريم (ص)، وعليه يكون معنى الآية ــ ويبقى وجه ربك يا محمد (ص)...

ولقد ذكرنا أن كلمة (وجه) لعلّه أريد بها المعنى الوصفي للوجه (وجه الله (عز وجل))، وهو اشارة إلى ذلك الوجود المقدس الذي من أطاعهُ قد أطاع الله، ومن عصاه فكأنّما عصى الله،٢[2] ومصداق الوجه هو محمد (ص) وآله (ع).

اما عن عبارة (ذو الجلال والإكرام) فهي تعني ان الله (سبحانه) هو صاحب العظمة والجلال المطلقين، وهو صاحب الانعام والفضل التامين:

علاقة الاسمين الحسنيين بالآية السابقة:

فمن عظمة الله وجلاله، أن يفنى العالم فلا يبقى قائماً سواه (عز وجل)، لأن حقيقة الجلال تنطوي في ما لو حصل تجلي الجلال الإلهي جلاءً تاماً للحق لفناء والزوال بكل الموجودات والمخلوقات، وعندما يظهر اكرام الله (عز وجل) بشكل كامل تتدفق دماء الحياة في جميع الكائنات والموجودات فتصير إلى نعمة الوجود بعد الفناء، وهو وجود أبدي خالد، ومصداق

---

٢ [2] (من أطاعكم فقد أطاع الله، ومن عصاكم فقد عصى الله) الزيارة الجامعة الكبيرة.

هذه الحقيقة نجده شاخصاً أمامنا في خلود أهل الحق والصواب عندما يساقون إلى الجنة، وهنا يبرز الإكرام الإلهي بأوضح وأوسع صوره وأشكاله.

وعليه نستخلص مما سبق ان اسم (ذو الجلال) الشريف يتعلق بما سبقه من نص الآية **(كلّ من عليها فان)**، بينما نجد أن اسم (ذو الإكرام) يتعلق بنص الآية **(ويبقى وجه ربك)**.

وبعبارة أخرى، يكون في ظهور جلال الله (عز وجل) فناء الأشياء، وفي ظهور الإكرام بقاؤها. وتعّد اعادة العالم الفاني إلى ساحة الوجود ثانية أوضح وأروع صور الإكرام الإلهي حينما يدخل المولى (جل جلاله) عباده الصالحين في جنات عدن التي وعدوا بها.

جنة الجلال، أسمى الجنان:

ونقل صاحب كتاب منهج الصادقين عن رسول الله (ص) رواية مفادها أن الجلال وهو أحد أسماء الله الحسنى، هو اسم لجنة خاصة (غير الجنان الثمان التي وعد بها المؤمنون) وهذه الجنة تسمو فوق جميع تلك الجنان رفعةً، وهي محيطة بالعرش، مع أن المروي عن العرش أنه يقع فوق الجنان ويسمو عليها، وهذا يؤكّد رفعة منزلة هذه الجنة وجلالها حيث أنها احاطت بالعرش، ويشير جانب آخر في الرواية إلى طول المسافة الشاسعة بين جنة الجلال وسائر الجنان الاخرى، فهي تصل إلى مسيرة سبعمائة عام!! **(فبأيّ آلاء ربكمّا تكذّبان)** أيها الثقلان؟!!

وهل أن فناء الدنيا نعمة؟!

ولعل سؤال يراود أذهان البعض ويبتغى لنفسه الإجابة الشافية، والسؤال هو (كيف يعّد فناء الدنيا نعمة؟ حيث يقول الباري بعد ذكر مسألة الفناء **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** ولكي تتضح حقيقة وجه النعمة في فناء عالم الدنيا، ينبغي أن نلتفت إلى أن التذكير بهذه النعمة هو نعمة بحد ذاته.

في البداية يفترض بنا أن نعرف ان الله تعالى وضع أساس هذا العالم مبنياً على تحقق الفناء، كما قد ثبت لدينا من قبل ان جميع المركبّات الموجودة في عالمنا مصيرها التفكك والتحلل، وقلنا أن عالم الطبيعة هو عالم أضداد، أي انه عالم لا يمكن العثور فيه على الخير المحض، ففي الورد كثير من الأشواك، وهذا العالم يقوم على أساس ضروريات ولوازم لا تنفك عنه بأية حال من الأحوال، ففي مقابل السلامة تقف الأمراض، وبازاء الثراء ينتصب الفقر، وأمام الحياء تنبرى الصفاقة، ومع الشباب تتلازم الشيخوخة، وهكذا في عالم مليء بالأضداد حتى ننتهي إلى تتويج تلك الحالات والصور إلى وقوف الحياة في مقابل الموت.

وباستعراض سريع لأمثلة الأضداد نجد أن الإنسان لا يجد له مكاناً مفعماً بالسعادة والسرور والراحة بشكل مطلق في عالم الدنيا، وعليه كان فناء الدنيا منقذاً كبيراً للإنسان المكبّل بأغلال الدنيا والمسجون في غياهب زنزاناتها المعمورة بالآلام والمحن وضروب الشقاء والعناء،

خصوصاً عندما يقف المرء على أعتاب مرحلة الشيخوخة حيث خوار القوى وانهيار القدرات وسهولة إصابته بالأمراض والادواء والتعود على مقعد العجز فلا يجد حينئذ لنفسه منقذاً مخلصاً سوى الموت، والموت وحدهُ.

وفي التكرار ضجر وسأم:

وعلاوة على ذلك، فان عالم الدنيا مشحون بالمكرّرات، وكما هو معروف ان التكرار يبعث على حصول الضجر والملل لدى الإنسان، ففصول السنة الأربعة تأتي متعاقبة ثم تعود في السنة التالية متعاقبة أيضاً وفي السنة الثالثة هكذا والرابعة و....، والليل والنهار يتعاقبان فيما بينهما، ولا يأتي التعاقب بشيء جديد خلاف للعادة، بل ولو تفحصنا ودققنا النظر في عموميات الصور والمظاهر والحالات في عالم الدنيا لوجدناها مكررة معادة لا جديد فيها.

اما عن حظ الإنسان من دنياه فهو الآخر لا يزيد على الآلام والنكبات وضروب العناء، فهو يسعى إلى الطلب والوصول للسعادة والراحة والهناء فيها، ولكن هيهات هيهات أن يدرك ما طلب أو أن يكسب ما رغب فيه لكثرة ما في الدنيا من نكد وشقاء ونصب، فكثيراً ما يتجرع الإنسان الغصص والشرق في سائغات طعامه وشرابه، حتى أنه لا يجد في لذة الدنيا طعماً سوى المرارة، وقد أجاد المعصومون في وصف الدنيا بأنها سجن المؤمن٣[3]، لأن الإنسان

---

٣ [3] الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

في دار الدنيا تزداد معاناته مع ازدياد رفاهيته، ولو حقق لنفسه الوصول إلى المناصب والثروات لحصل معها بشكل مؤكّد على كثرة التشّوش والقلق.

ولقد مررتُ بهانئٍ في ذي الحياة	**قد نعم بالهنا بعد الزوال!!**

نعم، لأن الدنيا لم تعمر إلاّ بالأتراح والأحزان والشقاء.

التلازم بين لذّات الدنيا وفضلاتها:

ولكن لو ورد الإنسان الجنة لكان وروده هو أول هنائه وسعادته، لأن ما فيها لا يقّل عن وجود السعادة والخير والتامّين، فهو فيها في نعيم مقيم وسعادة دائمة لا يرى بعدهما أيّ عناء أو شقاء، بل أن بدنه لا يتسخ ولا يتعرّق، وما من فضلات أو نجاسات هناك، فهو حينذاك نظيف طاهر بتمام معنى الكلمتين.

وقد عبّر الإمام علي (ع) عن لذات الدنيا وحظوظها بتعبير رائع حين يقول (وافضل طعامها العسل، وهو بصاق النحل، وأبهى ألبستها الحرير، وهو براز القز. وأوج لذاتها المواقعة، وهو ولوج المبال في المبال. وأسمى مراكبها الخيل، وفيها تكمن الهلكة).

وجاء في كتاب إرشاد القلوب ان الرسول (ص) كان يمشي يوماً مع أصحابه فوصولوا على مزبلة قد اشتملت على الخرق البالية والعظام النخرة المتناثرة والقمامة والنفايات والفضلات، فالتفت النبي (ص) إلى أصحابه وقال لهم (حسب مضمون الرواية): (انظروا إلى هذه الخرق

البالية فهي ما آلت إليه ألبسة الدنيا الزاهية، وإلى هذه الأوساخ والفضلات فهي ما تخلّف عن أطعمتها اللذيذة، وإلى هذه العظام النخرة فهي آخر نعيم الدنيا!!).

بلى والله، لو كتب الله للدنيا الدوام والبقاء لكانت بلاءً عظيماً ينزل بمطرقته على رؤوس العالمين، ولأضحت على اقل تقدير مبعثاً للضجر والسأم يقلق حياة الناس أجمعين، ولكن وبفضل زوال الدنيا، ونفاد أمدها، فأنها أصبحت سلوىً وحسن عزاء لمن حلّت بساحته النوازل والمصائب لأن الدنيا لن تدوم وأن ما فهيا لن يبقى على حاله، فكان انقصاء الدنيا وتغيّر أحوالها وتبدّل أوضاعها نعم المتنفس للإنسان وأكبر عزاء له في الخلاص.

وما النعيم إلاّ الهجر لمنزلٍ عُمِّرَ بالفناءِ عندها تكون الحياة غنى بصحبه الأحيا

فكيف بنا لو خلّدنا فيها؟

وكلنا يعلم ان الدنيا زائلة وسيؤول مصيرها إلى الفناء، ولكننا نجد بعضنا يتكالب عليها ويتنازع ما لها وسلطانها ويشيع في الأرض الفتن والفساد، مع أننا نعرف أن الموت إذا ما جاء لا يطرق الأبواب ولا يستأذن أحداً، وهو آت في ساعة ما دون ريب في ذلك، فكيف بنا لو عمّرنا ألف سنة؟ أو خلدنا في الدنيا؟ أيمكن أن نتصور كيف سيكون الحال؟! إذاً فراق الدنيا ووداع عالم الفناء نعمة جليلة بذاتهن رغم أنه يعد الإنسان لدخول عالم الخلد والبقاء، عالم الآخرة.

ولقد قلنا أيضاً أن التذكير والتبصير بفناء الدنيا هو نعمة أخرى، وهذا هو ما تناولته هذه الآية المباركة من الأخبار عن فناء عالم الدنيا المادي، وهو نعمة كبيرة بذاتهن وسنأتي الآن إلى استعراض الوجوه المؤكدة على هذه الحقيقة:

اربأ بنفسك، فكل من عليها فانٍ:

الوجه الأول: ان التذكير بفناء الدنيا يعد نعمة لأن المستمع سوف يقدّر حينها قيمة عمره الثمين، فيتوجه إلى إفناء سني عمره في لزوم الطاعات وبذل العبادات، لأن دأب العقلاء الذين تيقنّوا من لزوم الفناء للعالم وسرعة الرحيل عنه أن ينشغلوا بالتفكير والسعي نحو إعداد مستلزمات السفر البعيد إلى الآخرة لأنهم على موعد مسبق معها في وقت قريب، فنراهم يبذلون قصارى الجهود من أجل اعداد ما ينفع للمنزل العامر، بل ونراهم لا يحبّذون التفريط بساعة واحدة أو دونها بما لا يعود عليهم بالنفع والخير لآخرتهم، وهذا هو ديدان أهل القلوب الحيّة والنابضة الذين قد ضاق عليهم الوقت وسني العمر.

الوجه الثاني: وهو أن التذكير بفناء الدنيا يؤدي إلى نزع الثقة والاعتماد على لذات الدنيا ونعيمها باعتبار عدم ديمومة هذه النعم واللذات، وهذه الحال ستؤدي بالضرورة إلى أن يقلع الغني وصحيح البدن عن الغرور بماله: وبنفسه وينزع لباس الكبر والخيلاء والعجب وينظر إلى الآخرين على أنهم اقران له ليس إلاّ، وهكذا حال في المعدم والمريض والضعيف فهم

سيطوون من اليأس كشحاً ولا يدعون للحزن أو المهانة سبيلاً إلى عنفوان إيمانهم، ونراهم لا يتزلزلون أو يذهلون لفقدهم بالموت عزيزاً وحبيباً عندهم لأنهم سيدركون أن (كل من عليها فانٍ) فلا هي الآلام تبقى، ولا المحن تدوم، ولا هو الهناء يقيم ولا النعيم يطول في دار قد رصدها الفناء والزوال والاندثار، وحينها عندما يأتون لك معزين بفقدك أمك أو أبيك ترد عليهم بكل سكينة، انه الموت الذي كتب علينا جميعاً فلن يفارق منّا أحداً.

ولعّل تذكير الحسين (ع) في ليلة عاشورا لأخته العقيلة زينب أفضل مصداق لما نقول حيث عنى بقوله (لقد رحل عن هذه الدنيا من هو أفضل مني، فقد خلّفها وراءه جدي وأبي وأمي وأخي، كما في نص قوله (ع) (جدي خير مني، وأبي خير مني، وامي خير مني، وأخي خير مني، ولكل مسلم برسول الله اسوة).

[٢٩]

(كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي آلاء ربكما تكذبان)

(سورة الرحمن، الآيات: ٢٦ ــ ٢٨).

عموم الفناء وشموليته نعمة:

الوجه الثالث: ولقد ذكرنا آنفاً أن فناء الدنيا بذاته يعد نعمة لأن الدنيا هي في واقعها سجن للمؤمن لأنها لا تشتمل الاّ على تكرار الصور والحالات والظواهر مع أنها في حقيقتها لا تمثل اكثر من حجاب، لا يلبث الإنسان أن يخرقه بالموت في الأوان المناسب فينطلق إلى الفضاء الأرحب في عالم الحضور والشهادة، عالم المعاني.

يقول المحقق الطبرسي في كتابه تفسير مجمع البيان، أن شمول الفناء للجميع هو نعمة اضافية لأنها تشمل كي شيء فلا يستثني بذلك أحداً ما، وتتبين عظمة هذه النعمة فيما لو افترضنا أن البقاء يختص بطائفة معينة دون سواها وعندها سيعم الهم والغم والأسى الآخرين لأن بقاء. ذلك الجزء من الخلق هو نوع من أنواع التمييز والتبعيض، بينما يكون شمول الفناء للجميع بأن تذوق كل نفس الموت دون استثناء (الأنبياء والصالحين، الأمم والأقوام، الأفراد، الكبار، الصغار) مبعثاً للارتياح وعدم الشعور بالقلق وزوال الهم عن القلوب كما يؤكد ذلك قوله تعالى **(كل نفس ذائقة الموت)**. (سورة آل عمران, الآية: ١٨٥)

تزامن موت الخصماء والغرماء:

ولعلّه من العجيب والمدهش ان يتزامن موت المتخاصمين أو المتنازعين ممن يشب بينهم الصراع أو العراك أو القتال فيتمنى الواحد منهم موت غريمه، ويكون هذا التزامن غالباً في فترة زمنية واحدةً أو بفاصلة زمانية يسيرة (كما أثبتت ذلك التجارب)ن ولقد كتب أحد معارفي كتاباً ضمنّه مذاكراته، وكان من جملة ما كتبه هو الموضوع الآنف الذكر، يقول في كتابه: أن مشير الملك وقوام الملك (وهما رجلان من الحاشية الملكية كانا في مدينة شيراز) كانا كثيرا النزاع والخصام فيما بينهما، وقد أدت بهم الحال إلى أن تنشب فيما بينهما الحروب والمعارك، ولما مات قوام الملك، لحقه مشير الملك بالموت بعد ستة أشهر من موت غريمه ليس اكثر!!

وأنا أيضاً كان لي أخوين قد اندلعت فيما بينهما نيران الخصام والنزاع والمساجلة، حتى بات كل منهما يترقب موت الآخر ويتمناه تشفيّاً، ولم يلبث أن ماتا سوية في يوم واحد قبل سنتين أو ثلاث!! وما أريد أن أوصله لكم من خلال ذكري لهذه الأمور إنما هو أن الله (عز وجل) لم يجعل للموت سبيلاً إلى أحد دون الآخر، ولم يميز بين خلقه في هذه الحقيقة الواقعة كما أنه لم يميز بينهم في سائر الأمور، في رحمته وعطائه ولطفه، وعليه كان الموت الشامل للجميع نعمة بذاته، كما يذهب إلى تأكيد هذه الحقيقة لسان العرب عندما تضرب المثل بنعمة

عموم البلاء حيث تقول (إذا عمّت البلية طابت) هذا فيما لو اتفقنا على أن الموت يدخل في جملة البلايا والنوازل فرضاً.

الالتزام بالتعاليم الصحية والوقائية لا يطيل العمر:

إن رعاية الامور الصحية والوقائية في الحقيقة لا تطيل العمر كما يدعي البعض وإنمّا تبقي على العمر، أو بعبارة ثانية تحول دون تناقص الأعمار، فكثير هم من نراهم يلتزمون برعاية الوصايا الصحية والوقائية ولكنهم لا يجتازون حدود الثمانين من العمر، بينما نجد سكّان الأرياف والقرى يطعنون السن ويعبرون سدوج الثمانين مع أنهم لم يشموا رائحة التعاليم الصحية أو الوصايا الوقائية طيلة سني عمرهم المديدة، وهذا يعني أن التقديرات الإلهية لا يمكن درؤها برعاية مثل هذه الأمور فيطلب الإنسان طول العمر الذي لم يقدر له، مع ضرورة التنبّه إلى ان ما نذهب إليه هنا في رأينا لا نقول فيه بانكار أهمية الصحة والوقاية في بناء الإنسان السليم ودفع المخاطر والآفات عن بدنه وتركيبة حياته الاجتماعية، فقد جاء الشرع المقدس بالكثير من التعاليم والآداب والسنن التي أكدّت وشدّدت على التوجه للرعاية الصحية والعمل بها والاهتمام باشاعتها في المجتمع الإنساني ولكنني أردت في عرضي هذا أن أؤكد على أن للموت توقيت معين يحل بالإنسان ان عاجلاً أو آجلاً، ولا يمكن دفعه بالوسائل مهما كانت وعليه تكون الدنيا غير مؤهلة (تحت كل الظروف والشرائط) للبقاء، وهذا أيضاً ينعكس بدوره على سائر المخلوقات الموجودة في هذا العالم فهي أيضاً تصير إلى

الزوال والفناء، وعليه ينبغي على الإنسان أن لا يدع في قلبه مجالاً للهموم والأحزان لأن هذا المصير هو مصير عام لا يستثني أحداً.

العزاء والموعظة:

الوجه الرابع: وهو أن التذكير بفناء الدنيا هو بذاته عزاء لأهل البلاء والشقاء، وموعظة لأهل الدعة والراحة، لان الناس في واقعهم ينقسمون إلى القسمين المذكورين، فعندما ينزل الموت بساحة أهل الدلال والدعة يكون لهم واعظاً بعدم الاغترار أو التكبّر، لأنه سيقول لهم أن رجال المال والأعمال والسياسة والدولة كانوا كثيرون مثلكم ولكن الموت دخل عليهم فرحّلهم إلى حيث لا تجدونهم الآن، فاياكم أن تتكبروا على فقرائكم ومحروميكم، فهل بلغت بكم الأسباب ما بلغت بقارون؟ وها هو ذا أيضاً قد وقع فريسة الموت الذي يلاحقنا جميعاً.

وعندما يحل الموت بساحة أهل البلاء والشقاء يكون حينئذ لهم أحسن العزاء، لأن كل شيء قد كتب عليه الفناء والزوال، فكما خسر الأثرياء أموالهم، وضاعت من الملاّك أملاكهم فقد خسر آخرون أرواحهم قبل أن يخسروا أموالهم وأملاكهم، بل وقد خسر البعض أموالهم قبل أرواحهم، وفي هذا الأمر كثير عزاء وسلوى لأهل البلاء والشقاء كما نرى.

التحرر من ربقة الشرك.

الوجه الخامس: والوجه الآخر في نعمة التذكير بالفناء، هو أن الإنسان فيما لو استيقن هذه الحقيقة كما يعلمها، ووقرت في قلبه، عندها سيتحرر من جميع ألوان الشرك وأنواعه، سواء منها الجلي الظاهر أو الخفي الكامن، حتى أنه يجد في يقينه بحلول الموت بساحات الجميع، الدواء الناجع لعلاج أمراض الشرك العضال.

فلو التفت عابد الأصنام، أو عابد النجوم، أو عابد الشمس، أو عابد البقر إلى أن هذه الأشياء التي يعبدها هي فانية وزائلة ولا سبيل لها للبقاء والخلود كما هو حال سائر الأشياء الأخرى لتيقن ضلالة عقيدته في أشياء أفنى عليها العمر عبادة وسعياً، فهو كمن يركض خلف السراب ليلحق به أو يمسك به، فهي زائلة كزواله هو الآخر، ولا يبقى في هذا الوجود الكبير الهائل إلاّ الله وحده خالق البقاء والفناء، واهب الحياة ومسترجعها، المحيي المميت. ترى هل سنراه بعد ذلك سيعدو خلق الفاني ويدع الله (تعالى) الباقي وحده؟

وما يصدق على الشرك الجلي، يصدق هو الآخر على الشرك الخفي، لأن الإنسان الذي عمَّر قلبه بحب الدنيا وزينتها الخداعة، وأموالها ونسائها، إنما هو في واقع أمره قد عبد الأموال والنساء والشهوات، كما يذهب على تأكيد هذه الحقيقة وصف النبي الكريم (ص) لأحوال أهل آخر الزمان عندما يقول (ص) (دينهم دنانيرهم) فيتساءل سلمان المحمدي (رحمه الله) قائلاً: وهم يومذاك على دين الإسلام يا رسول الله أم انهم مشركون؟ فيرد عليه النبي (ع): بل هم مشركون، قد اتخذوا من دنانيرهم ودراهمهم أصناماً). فنرى هؤلاء النفر

يخضعون للمال ويخشعون، وليس لهم من هم سوى المال لأنه يزعمون انه مفتاح سعاداتهم ونعيمهم، مع ان الأموال هو الآخر تسري عليه إرادة الله تعالى بالفناء كسائر الأشياء، فهم لو عرفوا حقيقة زوال الأموال وفنائها واستيقنتها أنفسهم لخلعوا مسارعين عن رقابهم ربقة الشرك هذا.

التملّق لأصحاب النفوذ والسلطة:

ومن مراتب الشرك، أن يخضع الإنسان لنظيره ممن حصل على النفوذ و الرئاسة، بحيث يصدق عليه القول أنه قد اتخذه لنفسه إلها أو ربّاً من حيث لا يشعر بحيث أن لو ادركه الموت وهو على حالته هذه لمات كافراً بالله (عز وجل)، لأنه قد مات وهو في حال لا يرى من مؤثر سوى ذلك المرء الذي يهابه ويخضع لارادته، ولكنه لو مات وهو مؤمن بالله (عز وجل) مدّلاً عليه ثم لم يتوان عن خضوعه لذلك المرء المتنفّذلمات مشركاً.

فيا أيها الإنسان المتملّق إلى من هو قد تسوّد عليك اعلم أنّ (كل من عليها فان)، فسيّدك ورئيسك قد كتب عليه الفناء وكما كتب عليك وعلى من هو سواك وهو ضعيف كضعفك ولا يجد لنفسه ما يدفع به الموت، فانظروا إلى من ينبغي له التملق والثناء؟ أليس هو ربنا الكريم وحده[1]؟! **أهذه العظام النخرة للملوك أم للصعاليك؟!**

---

[1] (ولا كففت عن تملّقك) دعاء أبي حمزة.

ورد في كتاب لآلئ الأخبار أن سبب يقظة الاسكندر عن سبات غفلته هو ما جرى له عندما مر يوماً بمقبرة فأبصر رجلاً عليه هيئة الصالحين قد عكف جانباً منها وهو يقلّب العظام النخرة، فتقدم منه الاسكندر وقال له: إني أراك تفعل فعل المجانين مع أنني لا أرى على سيماء هيئة المجانين؟ مالك تقلب بالعظام؟، فرد الرجل عليه قائلاً: أنا هنا منذ عشرين عاماً أقلّب العظام والجماجم لعلّي أعرف الملوك من الصعاليك، أو أميّز بين الأغنياء والفقراء، ولكني ما زلت لا أحير فرقاً بين أكوام العظام هذه!!

فأطرق الاسكندر مليّاً يفكر في قول الرجل، وحدث نفسه ان هذا لم يكن يرد بقوله هذا إلاّ ان يعظني فأستيقظ عن نومة غفلتي، لأني ادري ان لا فرق بيني وبين الآخرين، لأن الملك والسلطان هو الآخر زائل.

الاسكندر والقبور المحاذية للمنازل:

ونقل المجلسي أيضاً في كتابه حياة القلوب، أن الاسكندر دخل في بعض أسفاره مدينة لم ينشأ أهلها لهم مقبرة يوارون فيها أمواتهم، ولكن دورهم ومنازلهم كانت تشتمل على قبر أو عدة قبور قد رصفت عند مدخلها، فسأل أهلها: ألا توجد عندكم مقبرة توارون فيها أمواتكم الثرى؟ فأجابوه قائلين: نعم، ولكننا اعتدنا ان لا نحمل نعوش أمواتنا بعيداً، بل ندفن أمواتنا عند اعتاب منازلنا لكي لا ينسى أهل الميت أنهم على موعد باللحوق به إن عاجلاً أم آجلاً

فيكون ذلك مبعثاً لنا على عدم ارتكاب الخيانة!! نعم لو وقر معنى هذه الآية في القلوب لارتاح الإنسان، وأمن الآخرون شروره.

السعي وراء الرزق:

وهنا ينبغي ان الفت انتباهكم إلى ضرورة عدم فهم ما قلناه أننا نحث الناس على القعود عن السعي وراء الكسب الحلال، والكدّ على النفس والعيال، بل العكس من ذلك هو المطلوب، لأنه يفترض بالإنسان ان يسعى ويكد ويكسب من اجل تأمين قوته وقوت عياله ولكن على نحو يدرك فيه أن سعيه ذاك انما هو سعي مؤقت وزائل وليس له دوام وبقاء لكي يتجنب تعلق القلب بذلك السعي أو بناتجه المالي أو بمظاهر السلطة والجاه الناشئة عن العمل، لأن ذلك من شأنه ان يلحق المرء العجب والرياء والخيلاء وحب الدنيا، فتمام تلك الأمور زائلة كزوال الإنسان نفسه، لذلك كان الأولى بالإنسان ان يعلق قلبه بربه الباقي بعد فناء كل شيء. ولقد أوردت رسالة الإمام الحسين (ع) إلى أخيه محمد بن الحنفية عبارة رائعة يذكرّه فيها بقوله (ع) (كأن الدنيا لم تكن، وأن الآخرة لم تزل)ن وقد ذكّر الإمام الحسين (ع) في ليلة ويوم العاشر من المحرم بفناء الدنيا وبقاء الآخرة كيما يقوي من عزائمهم حينما قال (ع) (فهل بقي لما وعدنا الله من نعيم إلاّ أن نمضي على الموت ونعبر إلى الآخرة؟!).

(يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٢٩ ت ٣٠).

سؤال الخلائق الله في قضاء حوائجهم:

(يسأله من في السماوات والأرض) هذه الآية تعرب عن غنى الله (سبحانه وتعالى) عن العالمين، وحاجة الموجودات جميعاً إلى الله (عز وجل) ذاتاً وصفة وفعلاً.

فالأشياء في ذاتها، وأصل وجودها، ومواصلتها البقاء تحتاج إلى الله (تعالى)، كذلك تحتاج الأشياء والموجودات على الله وعونه ومدده في صفاتها وخصوصياتها الوجودية، وأفعالها، وحركاتها. وهذه الآية تؤكد ان الموجودات المساوية والأرضية تسأل الله (عز وجل) كل يوم وهو تعالى في شأن من الشؤون الإلهية.

وهنا يبرز السؤال الآتي وهو على شقين، ويفترض كل شق منه الإجابة الشافية، والشق الأول هو، ان هذه الآية المباركة تذكر بشكل عام ان جميع من في السماوات والأرض (من ملائكة وجن وبشر وغيرهم) يسألون الله تعالى، ونحن نعلم أن في الأرض من الجن والأنس من هو كافر بالله ولا شأن له به (كأن يكون لا يعتقد بالباري عز وجل) فهو بذلك لا يطلب من الله شيئاً ولا يسأله اجابة حاجة ما، ولو افترضنا أن الآية تختص بأهل الإيمان لوحدهم

لتعذّر علينا قبول ذلك باعتبار الخطاب العام للآية الذي يأكد على شمول المؤمنين والكافرين جميعاً.

اما الشق الثاني من السؤال فهو، ان الكثير من المؤمنين يسألون الله (عز وجل)، ولكنهم لم يحصلوا على اجابات منه في كثير من الحالات على ما يبدو، لماذا؟

السؤال بلسان الحال، وبلسان المقال:

فبالنسبة فيما يتعلق بالشق الأول من السؤال والمتضمن تعميم سؤال أهل السماوات الأرض لله (عز وجل) فنقول، إن العلماء ذكروا أن الأسئلة في الحقيقة على نحوين:

الأول: هو السؤال والطلب بلسان الحال والتكوين.

والثاني: هو السؤال والطلب بلسان المقال واللفظ، ولكي يتجلى لنا بوضوح المقصود من تينك النحوين من السؤال، نسوق المثال الآتي:

لنفترض ان عابر سبيل قد أحرقته الشمس اللافحة وهو يسير في رمضاء من الأرض في ساعة هجير، وقد أضرّ به العطش، فتعطلّ لسانه عن النطق لما من حاله السيء هذا وعندها نجد هذا الرجل ينطق بلسان حاله لمن يراه وهو على تلك الحالة أنه يريد ماءً، بل ان من يراه لا يلبث ان يجدّ مسرعاً من اجل أن يأتيه بالماء لأنه يقول بهيئته المتداعية أنه ظمآن

رغم انه لم يطلب الماء بلسانه، وهذا ما نعبر عنه بالنطق والسؤال بلسان الحال، وقد يحدث ان يطلب بلسانه أيضاً شربة ماء علاوة على ما يفصح به حاله.

وهكذا الحال في جميع الكائنات والموجودات، فهي تسأل الله تعالى بلسان حالها تكويناً، سواء كانت مؤمنة بالله (عز وجل) أم كافرة, جناً أو إنساً أم ملائكة أم مخلوقات أخرى من غير العقلاء (كالنباتات والحيوانات والجمادات) لأجل أن يعطيها الله ما سألت ويؤمّن لها حاجاتها، وفي مقابل ذلك، يقدم الله (تعالى) إجاباته على تلك المسائل والحاجات التي طلبتها الكائنات بلسان الحال والاستعداد التكويني دون إبطاء أو رفض لها.

السؤال التكويني للبذور والنوى:

فبذرة القمح مثلاً، طالما كانت لم تبذر في التربة بعد، فهي لا سؤال عندها، ولكن لمجرد أن يبذرها الإنسان في الأرض المعدّة لها من حيث الخصب والإرواء، تكون إذاك قد تعبّأت واستعدت للانبات، فهي حينئذٍ تسأل الله بلسان حالها أن ينبتها وينضجها ويثمرها، وهذا النوع من السؤال يسمى أيضاً بالسؤال التكويني أو الاقتضائي أو الاستعدادي وهو ما نعبّر عنه بالسؤال بلسان الحال الذي لا يشتمل على مانع معين يحول دون تحقق الإجابة الإلهية، فتنفلق البذرة إلى نصفين، نصف ينحدر في أعماق التربة فتكون منه الجذور، ونصف آخر ينطلق نحو الأعلى فتتشقق عنه الأرض ويلامس الهواء فتتشكل منه السيقان والأوراق، ثم لا تلبث

هذه النبتة حتى تثمر وتعطي أُكلها حباً كثيراً. ولو التفتنا إلى نواة التمر، فهي طالما كانت بعيدة عن البذر في الأرض فهي الأخرى لا تسأل الله شيئاً، ولكن وعند توفر الشرط اللازمة للانبات، وانتفاء الموانع والحوائل الداعية إلى عدم حصول الانبات، تتقدم تلك النواة إلى الله (عز وجل) بسؤالها التكويني (سؤال الحال) كيما ينبتها ويخرج شجرتها ويثمرها، فإذا بنا نلحظ تلك النواة الصلبة الممتنعة عن السحق والتهشم، تنفلق بقدرة الله الباهرة إلى نصفين ينبثق عنهما الجذور والساق والسعفان، ثم لا تلبث حتى تثمر فتقدم للطاعمين آلاف التمرات الطيبات ثماراً.

للنطفة والجنين في مراحل خلقه أسئلة تكوينية:

وعندما نأتي إلى الإنسان أو الحيوان، نجد ان نطفتهما أو بويضتهما لا تعربان عن سؤال ما دامتا لم تنفصلا عن أبدان الآباء والامهات، ولكن عند انحدار النطفة من صلب الأب واستقرارها في رحم الأم السالم من العيوب والنقائص، تقدم النطفة حينئذ طلبها فتسألا الله (تعالى) بلسان حالها أن ينقّلها في مراحل الكمال الخلقي (الإنساني أو الحيواني حسب نوع النطفة)، وأن يجعلها متحركة سميعة بصيرة ذات شعور و... الخ، وهذه الأسئلة والطلبات ما هي إلاّ أسئلة تكوينية تصدر عن الجميع دون استثناء، سواء كان في هذا الجميع مؤمن أو كافر، مع الأخذ بعين الاعتبار تدرج المسائل والطلبات بتدرج مراحل الخلق الأولية، فتأتي الاجابات الإلهية متدرجة أيضاً تبعاً لما ينفعها ووفقاً لما طلبته، فالنطفة تنتقل إلى صورة

العلقة بعد مضي أربعين يوماً في داخل رحم الأم، ثم تتحول العلقة إلى صورة المضغة بعد مضي أربعين يوماً أخرى، ثم يخلق الله العظام ويكسوها لحماً، ثم ينفخ فيها من روحه فتصبح كائناً في مرحلة متقدمة من مراحل الخلق إذاً النطفة، طالما هي نطفة، لا تطلب من الله تعالى أن ينفخ فيها الروح، ولكنها تطلب هذا الأمر عندما تتكامل هيئة الخلقة كما قلنا فيما سبق أن الإجابة على السؤال تتم حينما تتهيأ العوامل والظروف بالشرائط اللازمة، وترتفع الموانع والحوائل المعترضة دون شك.

حتمية اجابة السؤال التكويني:

وحرّي بنا ان نلتفت إلى ان سؤال الحال التكويني لا يقبل الرد والرفض وعدم الإجابة اطلاقاً، ولكن بشرط توفر الشرائط والمقتضيات اللازمة، وانتفاء وارتفاع الموانع الحائلة فإذا بالإجابة تنساب انسياباً بشكل دقيق ومنتظم.

فمن جملة الأسئلة والطلبات الاستعدادية (التكوينية) التي ينطق بها لسان الحال ويوافقه بها لسان المقال أحياناً، ان يتقدم المرء بطلب المقدار اللازم والضروري في طي سنين العمر وصولاً إلى التكامل الأفضل له، فتقول روحه بلسان الحال (اللهم حتى م أبقى في سجن البدن المادي هذا؟، الهي فأسألك لحوقاً بوطني الذي ما انفككت اطلبه، ووصولاً إلى رفقة أوليائك)، بل ان اجزاء البدن المادي هي الأخرى تقدم لله طلباتها الاستعدادية قائلة بلسان حالها (اللهم

فمنّ علينا بالخلاص والانعتاق من ربقة هذا العالم المليء بالاحن والشقاء والعناء). بل ويتعدى البدن والروح بسؤال الله تعالى بلسان الحال أن يقدّم الموت لها، أن تطلب أرواح الأجيال التي لم تنزل إلى ميدان عالم الدنيا بعد أن يعجّل لها بموت (فلان) لأن دوره المطلوب قد نفد، ليخلي الدور لها.

يا ماشياً على الأرض هيّا قد أزف الرحيل ففي الأصلاب والأرحام من يبغي النزول

الميرزا الشيرازي(قدس سره) في مرض الموت:

وينقل عن كرامات حجة الإسلام الميرزا محمد حسن الشيرازي (أعلى الله مقامه) أنه عندما كان مقيماً في سامراء مرض مرض الموت، فعودّه جمع العلماء وجلسوا عند رأسه وحينها بادره أحدهم بالقول: يا سماحة الميرزا, نحن على يقين من أن الله تعالى سيّمن عليكم بالعافية وتقوم من مرضك هذا، لأن عدداً من العلماء والفضلاء من أهل كربلاء وأهل النجف قد اعتكفوا عند ضريحي الامامين أمير المؤمنين (ع) والحسين (ع) وقد توسلّوا إلى الله بهما أن ينجح طلبتهم في أن يمن عليك بالشفاء والعافية، ولا بد أن يستجيب الله عز وجل تلك الدعوات. فلم يزد الميرزا في رده على المتحدّث باكثر من هذه العبارة (يا من لا تردّ حكمته الوسائل)! نعم ان الوسائل والاسباب كثيرة، وهي معدّة، ولكن لو لم تقتض حكمة الله (عز وجل) ان يحصل الرد، لأن الحكمة الإلهية تراعي المقتضيات والموانع التكوينية كما قلنا, وعليه لا تتحقق الإجابة إلاّ بما يأتي وفق السؤال التكويني الاقتضائي، وما رد الميرزا بذاك

القول الاّ تعبيراً عن حكاية روحه التي قالت بلسان الحال (بلى لقد اجتمع الكثيرون وسألوا الله ان لا يتوفاني، ولكنني سألت الله وتوسلت إليه قائلة ــ إلى متى يامولاي ابقى رهينة هذا القفص الجسماني ــ) نعم لقد كانت روح الميرزا اللطيفة تسأل بارئها الانعتاق والحرية من عالم الطبع المادي كيما تنتقل إلى عالم العلويات، فكم من قائل بلسان الحال والمقال عندما يؤول إلى هذه الحال (ليتني لم اكن، وليتني كنت نسياً منسيّاً).

الدعاء اللساني، والاجابة:

اما عن النوع الثاني من السؤال، وهو ما نعبّر عنه بالسؤال بلسان المقال اللفظي، نحو أن يقول قائل (اللهم هبني مالاً، أو هبني ايماناً، أو هبني عزةً، أو عجل بموتي راحة لي، ونحو ذلك)، وهذا النوع من السؤال يختلف عن القسم الأول الذي يحتمل معه الإجابة المؤكّدة، لأن اللسان عندما يتحرك فانما يتحرك وفق الميول والأهواء والرغبات، أو نتيجة العناء والشدة والهول، فيطلب من الله (تعالى) أن ينجح مسألته ويلي حاجته، وكثيراً ما يكون هذا السؤال والطلب لا ينسجم مع الاستحقاق أو النظام والميزان، بل قد يكون مخالفاً لاستحقاق الفرد، أو معارضاً للنظام الإلهي السائد، لأننا كما نعرف أن الإجابة الإلهية إنما تتحقق وفق رعاية الحكمة، لا مجرد تلبية رغبة لقلقة لسان ما، والحكمة الإلهية تعني مراعاة الشرائط والعوامل والظروف التي تؤمّن حصول المصلحة العليا، وتواكب النظام الأكمل في عامل الدنيا، فلو افترضنا ان الطلب والسؤال اللساني ينسجم مع المصلحة الشخصية للداعي والمصلحة العامة

فحينئذ سوف لن تتخلف الاستجابة، ولكن افترضنا العكس من ذلك بحيث يحصل من جرّاء الاستجابة المحتملة ضرر بأحد المصلحتين لتوقفت الاستجابة عن الصدور ولعوضّ الباري تعالى السائل بآلائه واحسانه بما يجعله نائلاً مفلحاً، لا خائباً ولا محروماً من سني مواهب رب العالمين لأن النظام الإلهي هذا لا جنبة بخل فيه ولا منع، فيقدم الباري (عز وجل) للسائل عوضاً عن اجابة حاجته بالمثل إن لم يكن العطاء بأفضل مما طلب.

رواية جميلة عن أستجابة الدعوات:

وقد نقل أبو الفتوح الرازي في تفسيره أن موسى (ع) سأل الله تعالى قائلاًك (إلهي أرني سرّاً من أسرارك) فجاءه الوحي وأبلغه باتخاذ طريقه في السبيل الفلاني وقاله له: إذا ما سرت في هذا السبيل فستصل إلى قرية، فأدخلها وستجد في وسط هذه القرية أربعة دور أوصافها كذا وكذا، فعرّج على أصحابها واسألهم عن حاجاتهم عند الله (عز وجل). فانطلق موسى (ع) وفق العلامات التي قدمّت له حتى وصل إلى الدار الأولى في تلك القرية، فسأل صاحبها عن حاجته عند الله، فقال له: أنا رجل مزارع وحاجتي إلى الله أن يمطرنا مطراً وفيراً يكفينا إلى حين ويلبي حاجتنا إليه ويغنينا عن تكلّف ماء الآبار، ويبارك لنا في زرعنا كثرة وعطاءً. بعد ذلك عرّج موسى إلى الدار الثانية وسأل صاحبها ألديه حاجة عند الله (تعالى)؟ فأجابه صاحب الدار: نعم، فأنا رجل فخّار أصنع الأواني الفخارية، وحاجتي إلى الله

ان يحجب المطر عنّا لكي أستطيع ان أصنع الأواني واتركها تحت حرارة الشمس كيما تجف يتماسك طينها فأكثر البيع منها.

بعد ذلك انطلق موسى (ع) إلى الدار الثالثة وسأل صاحبها قائلاً: ألديك حاجة عند الله؟ فأجابه نعم، فأنا صاحب بيدر قمح، واسأل الله (عز وجل) أن يرسل ريحاً قويّة تعينني على عزل التبن من حبات القمح فيسهل بذلك عليّ عملي.

ثم انطلق موسى (ع) إلى الدار الرابعة، وسال صاحبها ألك حاجة عند الله تريد قضاءها؟ فأجابه نعم، فأنا صاحب بستان، والريح القوية كثيراً ما تهبّ على بستاني فتنتزع الثمار منه، وحاجتي إلى الله أن يمنع هبوب الرياح!

فغمرت موسى الحيرة والدهشة من هذه الحاجات المتناقضة المتضادّة التي سأل أولئك النفر الأربعة الله عز وجل في قضائها، فدعى ربّه قائلاً: اللّهم أنت أعلم بحاجات عبادك، فهبهم ما يصلح حالهم).

إذاً لو أعطى الله حاجة أهدهم (كما رأينا) فحينئذ ستؤدي الإجابة إلى الأضرار بمصالح الآخرين، ولو حرّم أحدهم من قضاء حاجته لأضرّ الحال به وانتفع الآخرون وهكذا. وعليه فان الباري (عز وجل) يجيب المسائل ويقضي الحوائج المطلوبة بلسان المقال اللفظي فيما لو

ترتب على الإجابة الأثر المفيد المنسجم مع المصلحة العامة والمتناغم مع النظام الكوني السائد الذي يقبله الجميع، وإن لم يلتفتوا إلى ذلك غفلة أو جهلاً.

الإجابة الفوريّة، مع وقف التنفيذ:

وقد تستلزم المصلحة في أحايين كثيرة التأخير في تنفيذ الطلب أو اجابة السؤال، وبعبارة أخرى، قد يدعو المرء الله لأجل أن يقضي له حاجة ما، فيستجيب الله له، ولكن يتوقف التنفيذ وتحقيق الإجابة إلى إشعار آخر وزمن مناسب، كما حصل لموسى وهارون (ع) عندما سألا الله تعالى **(ربّنا اطمس على أموالهم...)** (سورة يونس، الآية: ٨٨). فجاءهما النداء الإلهي **(قال قد اجيبت دعوتكما)** (سورة يونس، الآية: ٨٩). ولكن زمان التحقق والتنفيذ حصل (كما تؤكده إحدى الروايات) بعد مرور أربعين عاماً على استجابة الدعوة٢[2].

ويتأكد قولنا هذا فيما روي عن الإمام الصادق (ع) بقوله بما مضمونه: قد يسأل الله في قضاء حاجة فتتحقق الإجابة بعد عشرين عاماً.

وقد يعوّض الله عبده السائل بدل اجابة مسألته بمثيل ما طلب أو أفضل منه، حتى لا يُرد من عنده خائباً، لكي لا يحصل الأضرار بمقتضيات المصلحة والنظام العام.

---

٢ [2] أصول الكافي.

(يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٢٩ ــ ٣٠).

آلة العوم لدى الحيوانات البحريّة:

قلنا إن الله (تعالى) هو الغني المطلق وما سواه محتاج له، ابتداءً من الصادر الأول محمد (ص) ومروراً بعالم العقول والنفوس الكليّة والمجردّات، وانتهاءً بالماديات. فجميع تلك الأشياء والموجودات مفتقرة ومحتاجة، وهي تسعى إلى تلبية احتياجاتها من خلال تقديم السؤال إلى الله الغني (تعالى)، وسؤالها هو في موضع الإجابة والقبول الإلهي ما دام هو في حال التكوين والاقتضاء كما ذكرنا من قبل، فالحيوان البحري (على سبيل الفرض) يحتاج إلى وسيلة تمكنّه من العوم والسباحة، وهذه الحاجة إنمّا يرفعها الحيوان ذاك إلى بارئه (عز وجل) سؤالاً بلسان الحال والتكوين، فيؤمّنها الله له بلطفه، كما هو حال الحيوانات البريّة التي تحتاج لأجل تأمين غذائها إلى عامل السرعة في الجري والحركة مثلاً فيهبها الله ما تقضي به حاجتها، أو تلك الحيوانات التي تعتاش على أكل الأعشاب والعلوف فهي تحتاج على وجود أسنان قواطع قوية، أو الحيوانات المفترسة من آكلة اللحوم التي تحتاج إلى امتلاك أنياب حادة لتسهل عليهم عملية قطع الاعشاب للأولى، وتمزيق الفرائس في الثانية، فيهبها الله تعالى ما ترفع به حاجتها، وهو

مصداق قوله عز وجل (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (سورة طه، الآية: ٥٠). بما يعطيه المولى (تعالى) للمخلوقات من وسائل تؤمن له الاستفادة المناسبة في معيشته.

لو تعلّقت الإجابة بالمصالح، إذاً لم السؤال؟!

ونحن الآن بصدد السؤال بلسان المقال الذي ينفرد به الإنسان، وأهل الإيمان بالخصوص ممن وحّد الله وعرفه، فقد يحصل أن يتوجه مسلم ما إلى الله تعالى ويسأله (الهي هب لي مالاً) أو (هب لي شفاءً)ن وهنا تثار شبهة (واجهها أهل البيت (ع) من قبل) ومفاد الشبهة هو، إن هذا النوع من السؤال وطلب الحاجات يفترض احتمالين:

الأول: أن تتطابق الحاجة في اجابتها مع المصلحة والنظام السائد.

والثاني: أن تتعارض الإجابة مع المصلحة والنظام، ولما كانت الحاجات المطلوبة بلسان الحال تحصل على الاجابات المؤكدة دون اشتراط مصاحبة الطلب التكويني بالدعاء اللفظي والسؤال بلسان المقال عندما تتطابق والمصلحة العامة فحينئذ يكون وجود الدعاء اللفظي مجرد لقلقة لسان، بل لا يعدو أن يكون مجرد لغو أو هراء!!

وقد جاءت الكثير من الروايات الرادّة على هذه الشبهة لأجل دفعها وتصحيح فهم الأذهان للموضوع على ما سنرى في الرد على هذه الشبهة:

المقدرّات الحتميّة، والمقدرّات الالزاميّة:

وللاجابة على تلك الشبهة نرجع إلى ما ذكره العلاّمة المجلسي في شرحه لأصول الكافي حيث قسّم الأمور والمقدرّات إلى ثلاثة أقسام هي:

١ ــ المقدرّات والأمور حتميّة الوقوع (كالغنى والفقر، الصحة والسقم، طول العمر وقصره، ونظير هذه الأمور) وتأتي حتميّة هذه الأمور لما تتطلبه المصلحة الإلهية بضرورة وقوعها باعتبار ارتباطها (تلك الأمور) بالقضاء والقدر الإلهي الحتمي، سواء طلبها الإنسان، أم لم يطلبها من ربه (عز وجل).

٢ ــ المقدرّات والأمور حتميّة الانتفاء، وهي الأمور التي تتطلب المصلحة الإلهية عدم حصولها أو تركها، سواء سال العبد ربه بعدم وقوعهان أو لم يسأل.

٣ ــ المقدرّات والأمور الإلزامية، ونقصد بالالزاميّة هو وقوف وقوعها أو عدم وقوعها على السؤال والطلب، فلا تتحقق الاستجابة الإلهية على الأسئلة والحاجات المطلوبة بدون وجود السؤال والطلب، فلو سال العبد ربه حاجة لحقق الله تعالى مراده، ولو لم يسأله لما تحققت الإجابة.

الرزق من المقدرّات الحتمية لأهميته:

فالرزق (مثلاً) يتعلق بالقسم الأول من المقدرّات لضرورته ولكونه يشتمل على المصلحة الحتميّة على امتداد العمر وبالمقدار اللازم لاقامة أود البدن وتحصينه من التلف، وهو ما يعبّر

عنه بحد الكفاف، فالمولى (عز وجل) يعطيه للإنسان حتى وان لم يطلبه لنفسه، أو يسأل الله (عز وجل) بردّه ومنعه.

أمّا القسم الثاني، فيرتبط تركه وعدم تحققه بالمصلحة الإلهية الحتمية أيضاً، حتى وإن أصرّ العبد (فرضاً) وألحّ في طلبه قائلاً (اللّهم هب لي من لدنك ذريّة)، فأنّ الله (تعالى) لن يعطيه ما أراد وسأل لأن في تحقق هذا الأمر (بالفرض) ضياع لدنيا هذا العبد أو آخرته.

والحال (مع الفارق) هو كمن يسأل الرجل الحصيف الكريم أن يجيبه على إعطائه جرعة من السم الزعاف لأنه يرى فيه راحته، فيمتنع الكريم عن تحقيق مراد ذلك المرء لأن فيه ضرره واذاه. أو كالطفل الذي تقع عيناه على إفعىً زاهية اللّون فيتوسّل إلى أبيه أن يعطيها له، فيمتنع الوالد المشفق على ولده عن اجابته إلى ما أراد.

وهنا تتضح لنا صورة الكرم والشفقة في عدم الإجابة إلى تأمين الحاجة الضارة أو المؤذية. وعليه وجب علينا التلفّح بوشاح الحياء والخجل من ربنا (تعالى) على كثرة إصرارنا الجهول لأنه لم يجب سؤالنا ويرد حاجاتنا المرفوعة إليه لأننا نريد منه الإجابة إمعاناً في ضرر أنفسنا جهلاً وسفهاً، وهو تعالى لا يجيبنا إلى ما سألناه رأفة بنا ورحمة، وبعد كل ذلك نمتعض من تأخر الإجابة ونعرب عن عدم رضانا من التأخير!!

عسى أن تكون زيادة المال وبالاً:

ويصادف أحياناً أن يسأل البعض ربه قائلاً (الهي فكما أثريت الأثرياء) وأغنيت الأغنياء، فاغنني من فضلك، ولو بمليون واحد فقط!) فلا يجيبه إلى ما أراد، لأن الله تعالى لو يجيبه فسيكون قد أجّج أوار النار في فؤاده، لأن بعض النفوس تكمن سعادتها في الفقر وبساطة الحال ولكنهم لا يدركون حقيقة هذا الأمر، لأنهم لو حصلوا على العطاء لقالوا في كل يوم جديد **(هل من مزيد)** دون أن يستشعروا ليومهم وهو يمر عليهم دون رجعة من طعم، لذلك لا ينجح الله تعالى طلبتهم رحمة منه ورأفة لأن في تحقق مرادهم ما يعارض مصلحتهم، ولعلكم قد سمعتم بقصة (ثعلبة الأنصاري) أحد أصحاب رسول الله (ص)، هذا الرجل كان من أكثر أصحاب النبي (ص) عبادة واجتهاداً، حتى أنه كان أول من يرد المسجد وآخر من يغادره. وكان ذو فاقة واملاق، وفي بعض الأحيان كان رسول الله (ص) يدفع إلى ثعلبة هذا بضع تمرات ليسد بها رمقة.

وفي يوم طلب ثعلبة من النبي (ص) أن يدعو له بيسر الحال، وكان النبي لا يجيبه إلى ذلك حتى اكثر من الحاحه على النبي (ص)، فدفع النبي إليه بضعة دراهم لينفق منها على نفسه فأخذها ثعلبة وخرج مسرعاً إلى السوق واشترى له شاة بتلك الدراهم، وصار يبيع من لبن الشاة وصوفها ويجمع الأموال إلى الأموال، ثم اشترى شاة أخرى، واستمر به الحال على تلك الصورة يجمع المال ويشتري الشياه حتى صار عنده قطيعاً من الأغنام، فتشاغل بقطيعه عن عبادته حتى صار آخر من يرد المسجد وأول من يخرج منه، ولما تيسرت حاله كثرت لديه

القطعان وضاقت بها الأرض، خرج بها إلى ظاهر المدينة وصار لا يصل المسجد إلاّ في الجمعات، وحتى هذه الأخيرة لم يواظب عليها فتخلف عنها هي الأخرى واشتغل برعاية أمواله وأغنامه، فتفقده النبي (ص) في المسجد بين الحاضرين في يوم من الأيام فلم يجده، فسأل أصحابه عنه، فقالوا له: أنه مشغول بثروته التي حالت دون مجيئه إلى المدينة، عندها قال النبي (ص): (الويل لثعلبة) يرددها ثلاثاً. ولما نزلت آية الزكاة، بعث رسول الله (ص) رجلاً على ثعلبة ليأخذ منه زكاة ماله، فأمتنع ثعلبة عن دفع الزكاة، وعاد الرجل إلى النبي بيدين خاويتين، فما لبثوا حتى أنزل الله (تعالى) في ثعلبة ثلاث آيات في سورة التوبة ينعته فيها بالكفر والنفاق وخلفه الوعد في قوله تعالى **(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)**. (سورة التوبة، الآيات: ٧٥ ــ ٧٧)

ولمّا رحل النبي (ص) عن دار الفناء رجع ثعلبة إلى المدينة، ولكن الناس أهملوه وتركوه وحيداً منبوذاً حتى مات حتف أنفه. هذه الحقيقة تجسد ما ذهبنا إليه من أن بعض الحاجات قد تكون عاملاً لهلاك الإنسان وتردّيه فيما لو تحققت إجابتها بعد الالحاح من العبد، ولكن العبد الجاهل نراه يولّي بوجهه عن ربه ويعرض عنه لأن الله تعالى لم يجبه في تحقيق طلبته، ولكنه لو أدرك ان هناك مصالح في عدم تحققها وأحد تلك المصالح مصلحته الذاتية لسجد لله شكراً

لأن الله عز وجل أرفق به ولم يجبه إلى هلاكه. ومع ذلك فان الله تعالى لا يرد عبده خائباً (بأي حال من الأحوال) لأنه كريم ورؤوف، فهو حينئذ سيهبه عوضاً بمثل أو أكثر مما طلبه مما فيه الخير والصلاح كما قلنا من قبل.

اللّهم هب لي ما فيه صلاحي:

أما القسم الثالث من المقدرّات، فهو ما يتعلّق بالأمور المربوطة بالدعاء والسؤال، من غير تلك المتعلّقة بالمصلحة الحتميّة في فعلها أو تركها.

فلو سال الإنسان ربّه لأجابه المولى حينئذ تفضلاً منه وكرماً، ولو لم يبادر بالسؤال في طلبها لما حققه الله (عزّ وجل). ولمّا كانت الأمور مجهولة الحال علنيا ولا ندري أهي من القسم الأول أم القسم الثاني أم الثالث، وجب علينا الدعاء والمسألة على كل حال، فالدعاء خير لا ضرر فيه، وخير ما فيه أن تترتب عليه المنفعة المسلّمة، وفيما لو كانت الحاجة المطلوبة من ضمن القسم الثالث فأن الله تعالى سيمنّ على عبده بالإجابة وإلاّ فأنه سيتفضل عليه بلطفه وكرمه بما يعوّضه عما سأل، أو أن يذخره له إلى آخرته، والدعاء في حد ذاته عبادة، ولذلك وجب على المرء المسلم أن يجعل من سؤاله وطلبته على هيئة الدعاء والتوسّل لا على هيئة الحكم والأمر كما يحصل لدى بعض الأفراد الذين يرون في أنفسهم القدرة (بظّنهم) على تشخيص المصلحة وكأنهم (والعياذ بالله) اعلم بذلك من الله (عز وجل) كأن يقولون في دعائهم

مثلاً (اللّهم هب لنا الشيء الفلاني لأنه فيه الأثر الفلاني)!! في حين أن الدعاء في ذاته يحتمل صورة عجز الداعي وضعفه ومسكنته، لذلك يجدر بالإنسان الداعي أن يقول (اللهم إن كان الأمر الفلاني فيه خيري وصلاحي، فهب لي منه ما فيه رضاك) كما يشير إلى هذا المعنى النص الوارد في دعاء تعقيبات صلاة الظهر (... ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة، لك فيها رضىً ولي فيها صلاح إلاّ قضيتها). وهنا تتضح صورة الدعاء وأسلوبه، فان تحققت الإجابة به فأعلم أنه كان دعاءً وسؤالاًن وان لم تتحقق فهو لم يكن إلاّ حكماً وأمراً, تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

بصائر القلوب تختار الآخرة:

يقول أبو بصير (وهو أحد أصحاب الامام جعفر بن محمد الصادق (ع)، ومن الرواة الثقاة، وهو رجل ضرير العينين بصير القلب) سالت مولاي الإمام الصادق (ع): إني لعلى يقين من أنك تستطيع أن تفعل كل شيء، فهلاّ مننت عليّ برد البصر عليّ عساني أرى فيه بهائك؟ فتفضل الإمام (ع) ومسح بيده الشريفة على عينيه، فأرتد إليه بصره، فتملكّت السعادة أبا بصير وعمّه السرور, حينئذ خاطبه الإمام (ع) بالقول (إن شئت أن تكون كسائر الناس حساباً وسؤالاً في الآخرة فأبق على حالتك هذه، وان شئت ان تبعث من قبرك يوم القيامة ثم ترد الجنة دون حساب فتصير معنا، وجب عليك الرجوع إلى حالك الأول) عندئذ قال أبو بصير: والله إني قد اخترت آخرتي على هذه الدنيا، فعاد إلى حاله الأول ضريراً.

وهذا هو ما نعبّر عنه بالدعاء المشتمل على الطلب والسؤال لا الحكم والأمر، بل وأنه يحمل معه (عادة) صورة الرجاء،وحالة العجز والانكسار والفاقة إلى الله، فأن أجاب الله دعوته فيها، وان لم يستجب له فلا اعتراض على مشيئته وارادته.

إجابة الدعاء، وعد إلهي حتمي:

ثم يجب على الداعي أن يدرك ان الله (عز وجل) أعلم بمصلحته منه، لذلك كان الشرط الأول في الدعاء وطلب الحاجات هو أن يتناسبا والمصلحة العامة (كما قلنا)، يعني ان يقول الداعي (على سبيل الفرض) (اللّهم هب لي ما فيه صلاحي). بعد ذلك يجب على الداعي أن يستيقن الإجابة الإلهية فيما لو كان دعاؤه سؤالاً وطلباً وليس حكماً وأمراً، مع وجود الانسجام مع المصلحة، وإلاّ فان الله (عز وجل) اكرم من أن يرد الدعاء، فيعوّض الداعي بمثيل ما سأل أو أفضل منه، إن في الدنيا، أو في الآخرة.

وعلى ذلك كان الدعاء مفيداً لا ضرر فيه البتة، وهو مستجاب بشكل قطعي، لأن المجيب (تعالى) قد آل على نفسه أن يضمن الإجابة لمن دعاه وسأله كما في قوله تعالى **(ادعوني استجب لكم)** (سورة غافر، الآية: ٦٠). ثم أكّد التزامه بالوفاء بوعده في قوله تعالى **(ولن يخلف الله وعده)** (سورة الحج، الآية: ٤٧). إن عاجلاً أو آجلاً.

إبراهيم والعابد في لقاء بعد ثلاث سنين:

فقد ورد في كتاب حياة القلوب للمجلسي، أن أحد العبّاد خرج من صومعته إلى القفر فشاهد صبياً كأنّ وجهه فلقة قمر وهو يرعى أغناماً، فأنبهر العابد لبهاء الصبي وتوجّه إليه بالسؤال: من أنت؟ فأجابه الصبي: أنا ابن خليل الرحمن (ع) وهذا القطيع قطيعه، عندها ابتهل العابد على ربه رافعاً يديه بالدعاء وهو يقول: (اللهم أرني خليلك)، ولما مضت ثلاث سنين صادف أن خرج العابد من صومعته لبعض شؤونه فالتقى رجلاً عليه سيماء الصالحين فبادره الرجل: هل لي أن أكون ضيفك في هذه الليلة؟ فردّ عليه العابد: أنّى يكون لك ذلك ومنزلي يقع في الجانب الآخر

من البحيرة ولا يستطيع أحد أن يمر عليها مشياً بالاقدام سواي، فقال له الرجل: إن من مكّنك من ذلك لقادر على أن يمكنني بمثله، هنا خطر في بال العابد أن مُحاوره ليس رجالاً عادياً ولكنه لم يعرفه من يكون، فصحبه ولما قربا من الماء وضعا اقدامهما على صفحة الماء وسارا حتى عبراه ثم وصلا إلى منزل العابد في صومعته، فجلسا سوية وشرع الرجل يحدث العابد عن القيامة وأهوالها وشدائدها ففزعت قلوبهما من ذكر القيامة، عندها قال الرجل للعابد: هلّم بنا ندعو الله أن يعيذنا من النار وأهوال القيامة، فلم يجبه العابد على ما أراد وقال له: ادع وحدك، فان دعائي لا يستجاب، فبادره الرجل بالقول: كيف؟ قال: لقد مررت بصبي يرى أغناماً لابراهيم الخليل (ع) منذ ثلاث سنين وسألت الله (تعالى) حينها أن يريني خليله فلم يجبني الله إلى ما دعوته، هنا تبسم الرجل وقال له: لقد قضى الله حاجتك، فلا تيأس أنا إبراهيم

الخليل، فما ان سمع العابد ذلك القول من ابراهيم (ع) حتى رمى عليه نفسه يحتضنه وهو باكٍ من شدة الشوق إليه، قد انهمرت الدموع على وجنتيه.

[٣٢]

(يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي آلاء ربكما تكذّبان). (سورة الرحمن, الآيات: ٢٩ــ٣٠).

ما يعبأ بكم ربّ لولا دعاؤكم:

تقول الآية الكريمة الآنفة الذكر، ان من في السماء والأرض يسأل الله (تعالى) بلسان الحال والتكوين، أو بلسان المقال والتعبير، فلو لم يأذن الله (تعالى) بالسؤال والطلب، فمن ذا الذي كان يتجرّأ أن يفصح عن حاجته ويعرض سؤاله في مقابل ارادة الله ومشيئته؟، ولكنه عز شأنه يقول **(قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم)** (سورة الفرقان، الآية: ٧٧). أي أن قيمتكم أيها الناس تكمن في مسائلكم وحوائجكم المطلوبة. وهذا ما ذهب إليه الحديث الشريف الوارد في كتاب أصول الكافي (أحب العباد إلى الله (تعالى) اكثرهم دعاءً له، وابغضهم إليه من لا يدعوه بالمرّة.

أهل البيت (ع) أكثر الناس دعاءً:

فمن هو اكثر دعاءً، وأعظم سؤالاً لله (تعالى) من أهل بيت النبوة (ع)؟ فهذا دعاء أبي حمزة الثمالي الذي علّمه إياه الإمام علي زين العابدين (ع)، نجد فيه كيف أن الإمام (ع) يدعو ربه لساعات، ويكثر من طلب الحاجات وعرض المسائل، بل وكم يظهر الإمام السّجاد (ع) من مظاهر العجز والفاقة إلى الله (جل جلاله) في أدعيته المعروفة بالصحيفة السجاديّة، ولو جلنا النظر في الصحيفة العلويّة (على مشرّفها السلام) لتجلّى لنا بكل وضوح كيفية ابتهال الإمام أمير المؤمنين (ع) إلى ربه، وكيف يعرض له مسائله، ففي دعاء كميل يعرب الإمام علي (ع) عن عجزه وفاقته وحاجته إلى الله حتى يقول (ارحم من لا يملك إلاّ الدعاء) التي يتوّج بها أمير المؤمنين حقيقة عجزه وتواضعه وفاقته إلى الله (عز وجل).

إذاً طالب الحاجات من الله (تعالى) لا يعدم الإجابة، إن كانت وفق مقتضيات المصلحة، وإلاّ فأنها لا تستجاب حين تعارضها مع تلك المصلحة، ولكن الله تعالى لا يرد عبده خائباً بل يعطيه من افضاله وآلاء احسانه ما فيه العوض مثلاً أو اكثر منه.

وقد تتطلب المصلحة فورية الإجابة على السؤال، كما قد تتطلب في بعض الأحيان الأبطاء والتأخير، ويبقى الشيء الثابت والمؤكّد أن لا خائب يُرد عن باب الله أبداً.

الأرباح المضاعفة لمن سأل ربّه:

وجاء في كتاب الفرج بعد الشّدة، أن انقطع المطر في بعض السنين ففسدت الزروع، وكانت بلدة هناك يعتاش أهلها على ريع زراعة الأرض، في تلك البلدة امرأة عجوز تعيل عائلة كبيرة بزراعة أرض صغيرة تقع في خارج بلدتها فتعود عليهم بما يسد رمقهم ويقيم أودهم. ولمّا أجدبت الأرض بامتناع السماء عن المطر غلب الأسى والحزن قلوب أهل البلدة، واغتموا كثيراً، باستثناء تلك العجوز التي خرجت إلى ظاهر البلدة ومدت أياديها إلى السماء وشرعت بالدعاء والابتهال إلى الله تعالى قائلة (يا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لما يريد، يا باسط الرزق لمن يشاء ويقدرن اللهم إن شئت أمطرتنا، وان لم تشأ لم يكن، فأصلح حالنا يا أرحم الراحمين) فما أن أنهت دعاءها حتى مرّ بها أحد الأشراف، فوقع في قلبه أن يسألها عن حاجتها، فسألها: كم كان الزرع يعود عليكم بالنفع؟ فأجابته: مائتان وخمسون ديناراً. قل الرجل: فهل في ضعف هذا المقدار كفاية لك؟ فأجابته، نعم، فأعطاها على الفور خمسمائة دينار ثم تركها وذهب لشأنه.

نعم إنها الإجابة الإلهية النورية للدعاء المنسجم مع المصلحة التي لا تلبث حتى تعقّب السؤال دون أي تأخير.

الجوهرة التي يعشقها السلطان:

وفي كتاب عدة الداعي، نقلت هذه القصة الشيّقة عن الخازن السلطاني، تقول القصة (كانت هناك جوهرة ثمينة لا مثيل لها لدى سلطاناً من السلاطين، وكان من فرط تعلق السلطان بتلك

الجوهرة أن وكلّ بحفظها خازنه ووضعها في صندوق خاص، وألزم الخازن بحفظها في داره خشية تلفها أو سرقتها أو فقدانها. وفي أحد الأيام غفل الخازن عن اغلاق باب الحجرة الخاصة بحفظ الجوهرة بعد أن جاء ليتفقدها. ثم غادر بيته وانصرف لبعض الشؤون فجاء صبي له ودخل الحجرة ثم تناول الجوهرة من صندوقها وطفق يلعب بها ويدّقها بالحجر حتى تحطمت. ولما عاد الخازن إلى بيته وقع بصره على الجوهرة السلطانية المحطمة تسمّر في مكانه وشخص بصره وتملكّه الرعب والخوف وأيقن بالموت الذي أحاط به من كل جانب، فخرج إلى الزقاق لا يلوي على شيء وهو يولول كالمجنون ويصيح بلا هدىً، حتى استوقفه أحد أصحابه (من المؤمنين) وسأله: ما الذي دهاك؟ فأجابه والرعب قد تملكه: إنّي ميت لا محالة، فسكّن روعه وسأله أن يعلمه بما حصل له فقال لصاحبه جميع ما حصل ولما انتهى من كلامه، رد عليه صاحبه المؤمن قائلاً: هوّن عليكم، لم لا تنشد أشعار الإمام علي (ع) في ظرفك العصيب هذا؟ أنشد هذا البيت وانظر الفرج:

وكم لله من لطف خفي ... يدّق خفاه عن فهم الذكي

فشرع الخازن بترديد هذا البيت، وإذا به يسمع أن السلطان قد وقع فريسة مرض القلب العضال، وكان أن حضر الأطباء والحكماء عند السلطان ليداووه مما هو فيه، فتشاوروا فيما بينهم على علاجه حتى خلصوا على ان شفاءه مرهون بصنع مركّب من الدواء يشتمل على جملة مواد بضمنها جوهرة بالأوصاف الفلانية يُأخذ ربعها ويطحن ثم يضاف إلى تلك المواد

على هيئة الخليط، وهنا سارع الحاشية باستدعاء الخازن وطلبوا منه أن يحطم تلك الجوهرة السلطانية ويأتيهم بربعها على جناح السرعة!! بلى، لو أخلص المرء بالدعاء وأصدره من صميم قلبه، ثم لم تكن حاجته معترضةً للمصلحة الالهية لتحققت الإجابة الإلهية على الفور، ودون أدنى شك أو ترديد.

نعمة طلب الحاجة تكمن في تأخير الإجابة:

إن إقبال القلب على الله (عز وجل) له أبلغ الأثر وأعظم النوال في الاقتراب منه (تعالى)، خصوصاً عندما يولي الإنسان وجهه شطر البيت الحرام ثم يرفع كفيّه بالتضرّع والسؤال بقلب كسير، حينئذ يغنم المرء القرب من الله (تعالى) ببركة السؤال وطلب الحاجات، وهذه الحالة في الدعاء لها شأن رفيع، إذ لو قضى الله حاجة عبده بسرعة لما وقف الناس على دكّة الرب الجليل مراراً، وعليه اقتضت حكمة الباري (عز وجل) ولطفه أن يجيب داعيه ويعطي مؤمله بوسائله ولكن بعد أن يمضي شيء من الوقت، لكي يكثر العبد من تردده على باب مولاه، ويلّح في عرض مسألته عليه، ويكثر من التشكّي والبكاء لديه ليحصل له القرب من الله (عز وجل). يقول المجلسي (رحمة الله) في كتابه مرآة العقول: يقول البعض ان من قال (يا الله) قضيت حاجته على الفور، حتى وان لم يدرك ذلك بنفسه، لأنه بقوله ذاك قد حصّل القرب الربّاني الذي وهبه الله إياه لأنه سعى إلى العتبة الإلهية المقدسة يجر وراءه أذيال حاجته، فجرّ (بتك الحاجة دون أن يشعر) معه القرب من الله.

لذّة المناجاة ونسيان الحاجة:

ويروى أن الإمام الصادق (ع) قال: كانت لدي عند الله حاجة فرغبت في طلبها إليه فتوضأت وتعبّأت للقائه، ثم جئته مصليّاً لاسأله حاجتي، فدخلت في حظي من المناجاة معه وبث الأسرار والحوائج لكي أنال منه التفاتته الكريمة، فتشاغلت بذلك عن حاجتي التي رمت ان اسأله اياها حتى نسيتها.

نعم، إن الله (تعالى) عندما يريد ان لا يعطي لعبده حاجة ما يسأله اياها، إنما يكون ذلك لعلمه (عز وجل) بالمصلحة، فيجعل الله حاجة عبده المنسيّة ذخيرة له في آخرته كما تؤكد هذه الحقيقة الرواية الآتية:ــ (ان الله ليعتذر إلى عبده المؤمن في يوم القيامة عن عدم اعطاء عبده حاجته في دار الدنيا, لأن الدنيا لا وزن لها ولا قيمة، وليس كما يُظّن بأن الله لا يهتم بعباده ودعائهم، فيعطيه اليوم (القيامة) من فضله ما يشاء) وفي جانب آخر من هذه الرواية تظهر صورة المرء المؤمن وهو يتمنّى (في يوم القيامة) ان لم يحقق الله (تعالى) له شيئاً من حاجاته ومسائله، لما يشاهده من عظيم عطاء الله في الآخرة.

ويأتي هذا في سياق مقارنة الدنيا بالآخرة من حيث الوزن والأهمية والبقاء. فأين العطاء الباقي من العطاء الفاني؟!

الافاقة عن الحلم المخيف:

فالدنيا أشبه ما تكون بمنزلة الحلم للنائم، فكما ان النائم يرى في منامه أحلاماً هانئة لا تلبث ان تتبدد بمجرد أن يفيق فيفقد كل هناء عاشه في زمن الحلم السعيد، وأحياناً يرى النائم كابوساً مخيفاً يجعله يتصبب عرقاً، فما أن يفيق عنه حتى يسارع إلى رفع آيات الشكر إلى ربه على أنه لم يكن اكثر من حلم، ولذلك يقول الإمام علي (ع): (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا) ويعني بذلك أن الإنسان في حلم ما دام هو في دار الدنيا، فان كان حلمه كابوساً مرعباً، فانه يُسعد كثيراً عندما ينتبه من نومته، وعليه يحمد المرء المؤمن ربه (عز وجل) عندما يموت لأنه بالموت المكتوب قد منّ عليه بالعتق من سجن المادة، وبه أيقظه من كابوس الأحلام المهولة في عالم الدنيا.

لا لليأس عند تأخّر الاجابة:

لقد قلنا أن الدعاء لا يرد، حتى وان تأخرت الاجابة، لأن التأخير فيه ما تتطلّبه المصلحة العليا وتستدعيه الحكمة الإلهية، لذلك ينبغي على المؤمن أن لا يستولي عليه اليأس والقنوط، بل عليه ان يدرك ان في هذا التأخير حكمة الهية ومصلحة استدعته، بل ان أدرك ذلك لتوسل إلى الله (عز وجل) وألّح عليه أن يؤخر الاجابة. ففي كتاب اصول الكافي الشريف، رواية يتحدث فيها الراوي عنه نفسه انه جاء إلى الإمام الرضا (ع) وقال له: لقد سألت الله تعالى ان يقضي حاجة لي عنده، ولكنّها لم تقض وقد غامرني الشك فيما يقولون من ان الدعاء مستجاب بعد الصلاة، بينما اولئك الذين هجروا اقامة الصلاة قد تهيّأ لكل منهم ما أراد من امور الدنيا، ونحن

ندعو في عقيب صلواتنا فلا تستجاب دعواتنا، فرد الإمام (ع) عليه قائلاً ما مضمونه: اياك ان تدع للشيطان سبيلاً إلى قلبك. فيعشعش هذا الخيال في فؤادك، ان جدي الباقر (ع) قال: المؤمن يدعو الله فيستجيب دعاءه، ولكنّه يؤخر قضاء حاجتهن لأنه يحب أن يسمع ضجيجه إليه وأنينه وشكواه ليقربه منه.

إذاً الله (تعالى) لا يحرم أحداً من الاجابة، فهل هناك من هو أسوء من الشيطان؟ الشيطان سأل ربه (عز وجل) ان يمهله قائلاً **(قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون)** (سورة الحجر، الآية: ٣٦). فجاءه الرد الإلهي **(قال فإنك من المنظرين* إلى يوم الوقت المعلوم)** (سورة الحجر، الآية: ٣٨).

[٣٣]

(يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي آلاء ربكما تكذبان). (سورة الرحمن, الآيات: ٢٩ــ٣٠)

إطلاقات اليوم في اللّغة:

(كل يوم هو في شأن)، (كلّ) منصوب بالظرفية استناداً إلى فعل مقدّر دلّت عليه عبارة (في شأن) وأحد وجوهه هو (يقلبّ القلوب في كل يوم).

ولكلمة (يوم) اطلاقات واستعمالات متعددة، منها:

أولاً: المعنى المصطلح والمعروف لليوم الممتد بين طلوع الشمس وغروبها، وهو ما يقال له لغةً (النهار)، وهو اليوم الشرعي والعرفي المقابل لكلمة (اللّيل).

ثانياً: المقدار المحدد من الزمان الذي ينجز فيه عمل معين، وهو ما يعنى به الوقت، سواء كان هذا الوقت يوماً واحداً أو شهراً أو ألف سنة، أي أنه لا اعتبار في قصر الوقت أو طوله، كأن يقال مثلاً (يوم الجمل) والمقصود به معركة الجمل التي استمرّت قرابة الستة أشهر، أو (يوم صفّين) أي معركة صفّين التي دارت رحاها ثمانية عشر شهراً، أو (يوم الحساب)، وهو

أحد مواقف القيامة الذي يعده القرآن الكريم ألف سنة مما نعدّ في دنيانا **(وإنّ يوماً عند ربّك كألفِ سنةٍ مما تعدّون)** (سورة الحج، الآية: ٤٧). أو (يوم القيامة) وهو مجموع مواقف القيامة ويعد بخمسين ألف سنة **(في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة)** (سورة المعارج، الآية: ٤). أو حسبما عبّر بعض الأولياء عن الدنيا والآخرة، بيوم الدنيا ويوم الآخرة، ويقصد ما أمتدّ به عالم الدنيا (من الانشاء وحتى الفناء)، وجميع ما يمتد به عالم الآخرة.

الفعاليّة الإلهيّة الدائمة:

(في شأن) ــ وكلمة شأن تطلق عادة على الأمر العظيم، وتطلق أيضاً على الفعل والعمل، فقد يقال ان لفلانٍ شأن وهذا يعني أنه مشغول بعمل ما، وهو على أية حال ليس بعاطل. وعليه يكون المعنى المناسب لعبارة **(كل يوم هو في شأن)** أن الله تعالى مشغول بفعل أمر عظيم في كل يومٍ، واليوم هنا هو الاطلاق الثاني وهو ما نقصد به الوقت المحدد لعمل ما، وليس اليوم المعروف المقابل للّيل، ومعنى (كل يوم) هو على الدوام، إذاً المعنى النهائي للآية هو ــ أن الله مشغول على الدوام بفعل أمر عظيم ــ.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: ما هو شأن الله (عز وجل)؟ والجواب، ان المقصود بالشأن الإلهي هو الفعل الواحد من الأفعال والشؤون المتعلّقة بعباده، فهو يدير تلك الشؤون والأفعال، وقد سُئل سيدنا خاتم الأنبياء محمد (ص) عن معنى هذه الآية الكريمة (كما ذكر

ذلك صاحب تفسير نور الثقلين عن أبي الدرداء عن النبي (ص) فقال: ١[1] (من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين).

غفران الذنوب وفرج الكروب:

وعليه فان أحد تلك الشؤون الإلهية هو غفران الذنوب، إذ أن الله (تعالى) هو العالم وحده كم يغفر من الذنوب على مدار الأربعة وعشرين ساعة من اليوم، وهو وحده المحصي بعدد المستغفرين، وسائلي العفو، وطالبي الصفح عن ذنوبهم وخطاياهم في كل لحظة، خصوصاً أصحاب الليل، وعشاق السحر كما في قوله تعالى **(وبالأسحار هم يستغفرون)** (سورة الذاريات، الآية: ١٨). وقوله عز وجل **(والمستغفرين بالأسحار)**. (سورة آل عمران، الآية: ١٧)

أما الشأن الآخر الذي أورده هذا الحديث النبوي الشريف فهو (فرج الكروب)، فكم من المعضلات والمحن والآلام والاستغاثات والشدائد التي يتلوّى منها العباد في كل آن يأتيهم لها الغوث الإلهي والرفق الرباني فيزول عنهم ما بهم من آلام ومعاناة.

ويرفع قوماً، ويضع آخرين:

---

١ [1] مجمع البيان في تفسير القرآن / للطبرسي.

ومن وجوه كلمة (شأن) التي وردت في الآية الكريمة، والتي أشارا لها بوضوح الحديث النبوي الشريف (سالف الذكر)، هو رفعة أقوام من البشر، وضعة آخرين، فكم من فقير يغنه الله من فضله فيرفعه، وكم من حقير ووضيع يشرّفه الله بكرمه، وكم من ذليل ومهان يعزه الله بلطفه، في كل لحظة وآن وعلى العكس من ذلك، كم من شريف يهنه الله، وكم من غني يملقه الله، وكم من عزيز يذلّه الله ويهلكه.

يقول الامام علي (ع) (الحمد لله الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، لأنه كل يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن).

يولج اللّيل في النهار، ويولج النهار في اللّيل:

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف في هذه القصة اللطفية، المناسبة لموضوعنا، (في أحد الأيام، سأل ملك وزيره: ما معنى شأن الله في قوله تعالى **(كل يوم هو في شأن)**؟ فأجابه الوزير: امهلني يا سيدي يوماً افكّر في ذلك ثم أقدّم لك الجواب, فأمهله الملك فغاص الوزير في بحر أفكاره، وأحاطت به الهموم والغموم وهو لا يحير جواباً لسؤال الملك، وكان للوزير هذا، غلام حكيم ولبيب، فلمّا رأى سيده على تلك الحال، تقدّم منه وسأله: ما الذي دهاك يا سيدي فجعلك تغرق نفسك بالهموم هكذا؟ فرد عليه الوزير قائلاً: إليك عني، فرد عليه الغلام: ولكنني أكاد أحترق لما ألمّ بك يا سيدي، فقل لي ما الخبر فلعل الله يجعلني سبباً لخلاصك مما

أنت فيه، فرمقه الوزير ثم قال له: انه سؤال الملك عن معنى شأن الله وقد استمهلته يوماً لا رد له الجواب، ولكنني لم أحر لما سأل جواباً، عندئذ قال له الغلام: لا عليك يا سيدي، أخبر الملك أنك تعرف غلاماً يعلم سر الآية وهو الذي سيخبرك بمعناها. فذهب الوزير إلى الملك وقد اصطحب معه الغلام، ثم أخبر الملك بالغلام وسر الآية، فسأله الملك عن المعنى، فأجابه: ان معنى الشأن في هذه الآية الكريمة هو "يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي) ويشفي سقيماً، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم).

نعم إن الله يولج الليل في النهار إذ ينقص النهار ويزيد في الليل، ثم يولج النهار في الليل فينقضي الليل ويزيد النهار، وهذا ما نعرفه جميعاً، ففي كل عام نشهد النهار في الصيف يمتد إلى أربعة عشر ساعة، ثم يتناقص إلى أن يصل إلى عشر ساعات في الشتاء، وتمتد تبعاً لذلك ساعات اللّيل لتصير أربعة عشر ساعة في الشتاء ثم تتناقص ساعات الليل الشتوي لتصل إلى عشر ساعات في الصيف وهكذا دواليك.

يخرج الحي من الميّت، ويخرج الميت من الحي:

ومن شأنه تعالى أيضاً, أن ينشى الأحياء عن الأموات، فهذا التراب الذي ننظره ما هو إلاّ وجوه ميت، ولكن قدرة الله تعالى تحييه فتنشأ منه الأبدان الحية.

يا صانع الخلق الذي منه أنفطر　　　هذا التراب الضعيف فيك أقتدر

وعلا كرسيُ علمك كل ذات　　　يا قائماً بالذات دونَ الذوات

ثم لا تلبث الأحياء حتى تموت، ولا يعلم كم عدد الأحياء الذين ينُشأون عن الأموات في كل يوم إلاّ الله (عز وجل)، وكم من الأحياء الذين يدركهم الموت في كل يوم؟ أبشراً كانوا أم مخلوقات أخر.

والشأن الآخر هو (إعزاز الأذلاّء)، و(إذلال الأعزاء)، (ويفعل ما يشاء).

فعندما سمع الملك هذه العبارات من لسان الغلام أنبهر بما قال، وأعجبه علمه وحسن بيانه، فجعله وزيراً له بدلاً عن وزيره السابق، وهنا قال الغلام (وهذا أيضاً من شأن ربنا) يريد به عزل الوزير عن وزاراته، واحلاله محله، فقد رفعه الله وفعل ما شاء وحكم ما أراد، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم).

من الأصلاب إلى الأرحام:

وها قد مرّت علنيا سوية نماذج وصور من شؤون الله (تعالى)، وهي جميعاً تمثل المصداق الحقيقي لكلمة (شأن) الواردة في الآية المباركة.

وقد أورد صاحب تفسير مجمع البيان أقوالاً لعدد من العلماء ضمّنها مصاديقاً ومداليلاً لكلمة شأن، يقول العلامة الطبرسي: إن الله (تعالى) يحرك في كل يوم ثلاثة قوافل، واحدة من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء فيقرّها هناك، والثانية من أرحام النساء إلى وجه البسيطة في دار الدنيا، والثالثة من ظاهر الأرض إلى باطنها، وهذه الوقافل الثلاث لا يعلم عدتها إلا الله (عز وجل)، فهذه القوافل ذات الشأن الإلهي تسير في كل يوم بارادته (تعالى)، وقوافل الموت لا تتأخر، إن ليلاً أو نهاراً **(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)** (سورة الأعراف، الآية: ٣٤). وحتى لو توسل المرء بملك الموت أن يمهله يوماً واحداً فيؤخر عنه الموت المحيق به، لرد عليه الملك هيهات فقد نفذت أيام عمرك، فيتوسل إليه أن يؤخره لساعة واحدة، فيرد الملك كلاّ فان ساعات عمرك هي الأخرى قد نفذت. (اللّهم نسألك وندعوك أن تجعل أعمالنا في تلك الساعة ملؤها التسليم والانقياد إليك وحدك لا شريك لك).

كشف الضرّ، وجلب النفع:

والوجه الآخر للشأن في هذه الآية هو ما أورده أيضاً صاحب تفسير مجمع البيان حيث ذكر ان دفع الضر وجلب المنافع هو من الشؤون الإلهية، فهو تعالى يدفع الضرر ويكشفه عن عباده، ويمّن عليهم بالمنافع ويغمرهم بالفوائد والعوائد. (وهو عليكم رقيباً) أي وفوق أنه قد تكفّل بشؤونكم فهو يراقبكم ويحفظكم، إذاً تعالوا للنظر إلى أنفسنا، فإذا فعلنا، وما الذي سنفعله والله تعالى هو الرقيب علينا؟؟

يقول الإمام السجاد (ع) (فكيف اغفل عنك وأنت ذاكري ورقيبي؟)، والمراقبة الصحيحة وفقاً لما يقوله علم الأخلاق هو (تحققها بشكل متبادل) فلا يصح ان يقال ان هناك مراقبة دون تحققها في الطرفين، فكما ان الله (عز وجل) رقيب عليّ، فينبغي حينئذ أن لا اغفل عن ذكره.

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) (رحم الله امرئ، خاف ذنبه وذكر ربّه)، فيا أيها الإنسان: تأمّل حالك وأنظر في أي شأن أنت؟ أأنت في سكر وثمالة؟! إذا أنت في كفران واعتراض.

(اللّهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك).

[٣٤]

(يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذبّان). (سورة الرحمن, الآيات: ٢٩-٣٠)

الخلق، وتقسيم الرزق في الدنيا:

بعد أن ذكرنا جملة من الأقوال والآراء في معنى كلمة (شأن)، نعود فتقول ان كلمة اليوم الواردة في الآية حسبما ذكر ذلك صاحب مجمع البيان انمّا يراد بها عالم الدنيا بأسره، لأن عوالم الوجود تنقسم إلى يومين هما، يوم الدنيا، ويوم الآخرة، وعلى هذا الأساس يكون معنى الآية الكريمة هو (الله (تعالى) في كل يوم من الدنيا والآخرة هو في شأن)، فشأن الله في يومنا هذا (وهو يوم الدنيا) هو عبارة عن الخلق والابداع والانشاء، وتقدير الأرزاق لخلقه،

وتقسيمه عليهم، والأمر والنهي لعباده، وابتلائهم، وما إلى ذلك من أمور أخرى، أمّا شأن الله (عز وجل) في غدنا في يوم الآخرة فهو الثواب والعقاب.

الخلق والانشاء في ستة أيام، والسبت يوم الراحة!!!

وفوق ذلك فان هذه الآية بذاتها هي رد مفحم لمزاعم اليهود الذين قالوا أن الله (عز وجل) خلق الخلق في يوم الأحد ثم اختتم الخلق والابداع في يوم الجمعة، فهي ستة أيام كاملة، ثم كان يوم السبت يوم استراحة الله (سبحانه وتعالى)، ومعنى كلمة السبت بالعربية هو التعطّل عن الفعل. ونحن نقول أن ما ذهبت إليه اليهود من عقيدة الاستراحة الإلهية في يوم السبت لا يعدو أن يكون محض خطل وهراء، لأن هذا الزعم مردود منذ البداية، باعتبار أن منشأ الأيام صادر عن حركة الأرض، فكيف تأتّى لهم أن يزعموا انه كانت آنذاك أياماً هي الجمعة والسبت وغيرها ولما تخلق الأرض بعد؟! بل وفي هذه الآية اكبر الرد المفحم على ما زعموا من باطل القول والاعتقاد، ولقد لعن القرآن الكريم هذه العقيدة وأمثالها، ولعن أصحابها حيث يقول (**وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**) (سورة المائدة، الآية: ٦٤).

فالزمان إذاً لا تنحصر فيه أفعال الله تعالى، بل أن شؤون الله (عز وجل) تجري في كل آن وزمان، بل أن الزمان خَلْقٌ من خلق الله وعليه فان الله (تعالى) لا يحدّه زمان ولا يقيّده أوان،

فشأن الله يجري في كل لحظة من عطاء، وأرزاق، وكشف كربات، وإجابة دعوات، وإيصال الموجودات إلى كمالاتها المطلوبة.

نظرات اللطف الإلهي إلى لوح النور:

ونقل كتاب مجمع البيان رواية شيقة عن ابن عباس(رض) حول هذه الآية تفيد (إن مما خلق الله (عز وجل)، لوحاً من درّة بيضاء، مداده ياقوتة حمراء، كتابه نور وقلمه نور، ينظر الله (تعالى) فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، بها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء٢ [2].

استضاءة القلوب بنور الأمل بفضل آية الشأن:

فببركة هذه الرواية المرويّة عن ابن عباس حول تفسير آية **(كل يوم هو في شأن)** ينبغي أن ينفجر نور الأمل في قلوب المؤمنين وأن يتنامى الرجاء بما عند الله (تعالى)، ولمّا كانت شدائد الدنيا كثيرة وصعوباتها متعددة، وجب على الإنسان أن يفوّض أمره إلى الله في كل شدّة، ويقول (لعلّ الله يشملني بنظرة واحدة من نظراته الثلاثمائة والستين فيأتيني الفرج وتشملني الرعاية واللطف الإلهيين ويدركني الغوث من عنده (عز وجل).

---

٢ [2] تفسير مجمع البيان/ الطبرسي.

على العكس من الكافرين الذين قد أغرقوا أنفسهم في بحور اليأس والقنوط من رحمة الله الواسعة٣[3] وعليه كان من اللازم على المرء المؤمن أن ينتظر الفرج الإلهي كما في نص الرواية الآتية (افضل العبادات هو انتظار الفرج)، فلعل الفرج يأتيك عصراً ان لم يأتيك صباحاً، ولعله يأتيك مساءاً أو صباحاً ان لم يأتيك في ضحاك أو ليلتك. فالتجارب كثيرة في هذا المضمار، والاحاديث جمّة، فكل منّا كانت له تجربة من هذا القبيل، فكم من شدائد وأهوال ومصاعب مرت علينا وظننا بها أن لا حل لها، ولكن الله تعالى كشف كرباتها وحل معاضلها بلطفة ورحمته (وكم من بلاء دفعته)، ولقد اشتمل كتاب (الفرج بعد الشدّة) بالكثير من الحكايات عن إدراك الغوث الرباني والفرج الإلهي لمن ألمّت به الشدائد، على حين غرّة، فرجاً قريباً عاجلاً.

فبأيّ إجابات ربكمّا لا تصدقّان؟!

(فبأي آلاء ربكما تكذبان)، قلنا إن تكرر مجيء هذه الآية انما يحصل للضرورة اللازمة بعد كل آية تسبقها، وتشتمل على ذكر نعمة ما بين نعم الله (عز وجل)، والتكرار هنا هو تكرار أكيدي وتأييدي على وجود النعمة، فالآية السابقة تناولت موضوع سؤال من في السماء والأرض لربهم (تعالى) بأن يجيبهم لما سألوه، والحال إن أبواب الإجابة الإلهية مفتوحة

---

٣ [3] (كما يئس الكفار من أصحاب القبور). (سورة الممتحنة، الآية: ١٣).

للسائلين، وعليه يأتي السؤال التقريري للجن والانسن فبأيٍ من اجابات الله (جل وعلا) على مسائل عباده في قضاء حوائجهم لا تؤمنان؟! أهناك مخلوق أو موجود رُدّت مسألته وهي في واقعها تطابق استعداداته التكوينية؟ وهل هناك من سأل الله حاجة وهي منسجمة مع حكمته والمصلحة العليا، ثم ردّه الله خائباً؟ كلا والله، ولكن الإنسان نسيٌّ.

فبأي شأنٍ إذاً أنتما تكذبّان؟

ولما كان الله ولا زال ولن يفتأ أن يكون هو في شأن، على الدوام، فبأي شأن من شؤونه، وبأي فعل من أفعاله يمكنكم التكذيب والانكار؟ أبشأن أحيائه الموتى؟ أم بشأن اماتته الأحياء؟ بتقديره للرزق، أم بتقسيمه على العباد؟ هؤلاء العباد الذين لم يكن أحدهم اكثر من قبضة تراب نبضت فيها الحياة, بل لم يكن أحدهم اشرف من قطرة ماء مهين، سمعت وأبصرت ونطقت ثم اشتدت وتعلّمت؟

فيا معشر الجن والانس ألا تنظرن إلى الذين يلتحقون في كل يوم منكم بقافلة الآخرة, وإلى الذين يقدمون إلى هذا العالم في قافلة الدنيا؟ فكم من وضيع ينال الشرف، وكم من شريف انحدر إلى الضعة، لأن المصلحة اقتضت أن يكون كل ذلك، فهل لا زلتما بعد هذا وذاك لا تؤمنان؟؟!!

رد الإمام السجاد (ع) على تهديد الحجاج الثقفي:

وجاء في المجلد الحادي عشر من كتاب بحار الأنوار في أحوال الإمام السجاد (ع)، أن ملك الروم بعث برسالة تهديد ووعيد إلى الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان)، وقد ضمّن مطلعها بكلمات قاسية وعبارات نابية، ثم جاء فيها أنه فيها أنه توعّده بأن يرسل إليه مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف، (أي ثلاثة عساكر يبلغ مجموع مقاتليها ثلاثة مائة ألف رجل) فلم يحر عبد الملك جواباً على رسالة التهديد الروميّة، ولمّا كان عبد الملك يعلم أن الإمام علي بن الحسين (ع) هو عالم العصر بلا منازع، لذلك وضع خطة ماكرة لاستطلاع اجابة الإمام (ع) حول رسالة ملك الروم (فهو لم يكن يرغب ان يطلع الإمام (ع) أو غيره على حقيقة الرسالة) فبعث إلى عامله على الحجاز (الحجاج بن يوسف الثقفي) لعنة الله عليه وأوصاه أن يتب إلى الإمام زين العابدون (ع) رسالة تهديد (تتضمن نفس عبارات التهديد التي بعث بها ملك الروم) ثم يأخذ جواب الإمام (ع) عليها ويبعث به إليه لكي يجعل من رد الإمام (ع) رداً لملك الروم، فامتثل الحجاج لأمر عبد الملك وبعث برسالة تهديد ووعيد إلى الإمام السجاد (ع)، ولم يمر طويلاً حتى جاء رد الإمام (ع) وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم ان لله تعالى في كل يوم ثلاثمائة نظرة، ما من نظرة الاّ وبها يحيي ويميت ويعز ويذل، وإني أرجوه أن يكفيك نظرة واحدة)٤[4]. فبعث الحجاج بنص رد الإمام (ع) إلى الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان)، وقام هذا الأخير بارسال رد الإمام (ع) بعينه (دون أدنى تغيير) إلى ملك الروم، ولمّا تلقّى

---

٤ [4] بحار الأنوار/ المجلّد الحادي عشر.

ملك الروم رسالة الخليفة واطلّع على ما ورد فيها، قال انه ليكذب، فهذا الكتاب وما فيه ليس من عنده، وأن حديثه الحديث أهل بيت محمد (ع)!

قبل الموعد بساعة، المحكوم بالقتل يصبح خليفة:

ونقل عن هرثمة بن أعين وزير المأمون العباسي أنه قال: في خلافة موسى الهادي العباسي، وعندما كان أخوه هارون ولياً للعهد، جاء في حراس القصير في ظهيرة يوم قائض من أيام الهجير ونادوني أن أجب الخليفة، فخفت على نفسي وقلت لعله يريد قتلي في هذه الساعة، فأوصيت أهلي بوصيتي، ثم ودعتهم وذهبت إلى قصر الخلافة، فلما صرت إلى الخليفة، صاح الخليفة بالغلمان أن اتركوا المكان وخلّوه، فلما بقيت والخليفة لوحدنا، التفت إليّ وقال: اسمع، لقد دعوتك لأجل أن تنجز عدة أمور عظام، فبادرت بالقول من فرط هلعي وخوفي منه: لبيك يا مولاي فلك السمع والطاعة، وهنا شرع الخليفة بتعريف تلك الأمور قائلاً: أمّا الأمر الأول، فأريد منك أن تقتل أخي هارون ولي العهد في ليلتنا هذه ولا تبرح حتى تأتيني برأسه، فلقد جاءني السعادة والعيون بأخبار مؤكدة تقول أنه قد أزمع على قتلي، وهنا قلت له: الأمان يا سيدي، قال: هات ما عندك، قلت: يا مولاي دع عنك ما نويت من قتل هارون فأنه من ارحامك، فردّ عليّ مغضباً: إن تفعل وإلاّ عدمتك حياتك ثم تابع قوله، أمّا الأمر الثاني فهو أن تبادر إلى الذهاب إلى السجن بعد فراغك من قتل هارون, فتبحث عن ولد علي وفاطمة (ع) فتعدمهم الحياة جميعاً، والويل لك لو بقي منهم أحداً. وامّا الأمر الثالث فهو

أن تذهب إلى الكوفة بعد فراغك من قتل السادة العلويين والفاطميين، وتنادي على رؤوس الناس، من كان من أولاد العبّاس فليخرج عن المدينة، ثم تعطي أوامرك باحراق الكوفة، بعد ذلك تتفحص دورها فان بقي فيها دار سالم تخربها، ومن عثرت عليه وبه رمق من الحياة فأذقه الحمام، ولما أتم قوله صاح بي: والآن قم وأعدد نفسك لما أُمرت به.

يقول هرثمة، ثم ولّى عني موسى الهادي وتركني ارتجف كالسعفة في الريح العاصف حتى جنّ عليّ اللّيل وأنا افكر فيما أمرني به، وقد غلبت عليّ الهواجس وإذا بي اغطّ في نومة، وفجأة حضرني من قال لي: أجب حرم الخليفة فقد دعوك لأمر عاجل، فذهبت مسرعاً وإذا بصوت الخيزران أم الخليفة يُناديني: أدخل يا هرثمة انه والله لأمر عظيم، فلمّا دخلت اعلمتني الخيزران بموت موسى الهادي! فعجبت من قولها وسألتها عما جرى وامسك بيد الخليفة وأتحسسها فإذا هو جثة هامدة لا حراك فيهان فأجابتني الخيزران محدثةً: لقد كنت أنصت إلى ما حدّثك به ولدي موسى عندما استدعاك واختلى بك، وسمعت الأمر كلّه بقتل ولدي هارون وذرية علي وفاطمة وشيعتهم, ولما ولّى عنك ودخل إلى مقصورته ذهبت إليه وجعلت أتلّطف به وأتوسّل إليه عسى أن ينصرف عما عزم عليه، فلم يلتفت إليّ، فأمسكت ذوائبي البيض وسألته أن يعزف عما نوى، فازداد حنقاً وضربني على صدري ثم صاع بي (تنّح جانباً)، فأصررت عليه أن لا يفعل، وهنا شخر غيضاً وغضباً وأمتشق سيفه وأقبل نحوي وهو يصيح: إن لم تسكتي قتلتك أنت الأخرى، فأحسست أن ما من معين ولا من

مغيث إلاّ الله وحده، فتوجّهت إليه أبث شكواي وقد فاضت عيناي بالدموع، ووقفت أصلي ركعتين، ثم كشفت عن رأسي ونشرت شعري، وشرعت بالنحيب والبكاء والانين والدعاء إلى الله (تعالى) وشكوت إليه ولدي موسى حتى خنقتني الآهات وأخرستني العبرات، وفي هذه الاثناء جاءني من يقول هلّمي فقد اختنق موسى، فقفزت من مكاني وذهبت إليه وأنا اصرخ بهم: آتوني ماءً، فلما جاؤوني بالماء أخذت أسقيه فإذا بالماء لا يدخل في جوفه، ولم يمض طويلاً حتى مات!!

هناك تقلّد هارون زمام الأمور وجلس على كرسيّ الخلافة بكل عظمة وجلال بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الموت المحتوم، ولكنه أمسى الخليفة الحاكم قبل موعد قتله بساعة واحدة، بينما يموت الخليفة السابق، (أو يقتل خنقاً كما في بعض المنقولات) الذي أمر بقتل ولي العهد والخليفة الجديد، قبل أن يُنفّذ ما عقد العزم عليه. ولكن تُرى هل اعتبر هارون بما آل إليه مصير أخيه؟! لقد فعل هارون فعالاً، (وأي فعال) بآل علي (ع)، ولم يلبث أن جاء ولده المأمون ليكمل المشوار، فيفعل فعالاً منكرة بالامام الرضا (ع) والسادة العلويين.

.

الثقلان في ثقل التكليف

[٣٥]

(سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأيّ آلاء ربكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ٣١ ــ ٣٢).

تهديد المخالفين بالحساب:

في أوائل السورة جاء بيان النعم والآلاء، وآيات القدرة والحكمة الإلهية، وبعد ذلك ذكّر الله (تعالى) بأن كل ما في دار الدنيا مصيره الفناء، ولا بقاء إلاّ لوجه الله والدار الآخرة. وقد جاء الدور هنا لهذه الآية الكريمة التي تهدد الكفار والفساق من الثقلين وتتوعدهم، ثم الانتقال بعد ذلك إلى بشارة المؤمنين والمتقين ووعدهم.

وتعد هذه الآية أول رسائل التهديد الوارد في السورة، **(سنفرغ لكم أيها الثقلان)** أي قريباً ما ستجزون على أعمالكم يا معشر الجن والانس. وكثيراً ما يستخدم في اللغة مثل هذا الاسلوب التهديدي، فقد يسيء البعض تصرفه مع سيده أو رب عمله بما لا يرتضيه منه السيد، فيبادر السيد إلى التهديد قائلاً: صبراً، سأفرغ لكم واحاسبكم على ما فعلتم. ويستخدم رب العالمين ذات الأسلوب المتداول في التحاور لتهديد أهل المعاصي ووعيدهم، فهو (تعالى)

يقول، لا تظنوا أن لا حساب لما تفعلونه، فلكل شيء أن ليس بسابقه، ولكنكم اليوم في مهلة، (كل يوم هو في شأن) ولكن سيأتي يوم يكون شأن الله (عز وجل) فيه حسابكم.

الفراغ في هذه الآية يعني القصد:

يقول المحقق الطبرسي في تفسير مجمع البيان، ان للفراغ معنيان:

الأول: يعني القصد، وعليه يكون معنى الآية (سنفرغ لكم) هو سنقصدكم دون إمهال لنجزيكم على أفعالكم أيها الثقلان.

والثاني: يعني التعطّل عن الفعل أو العمل، وهذا المعنى لا يناسب موضوع الآية بالتأكيد، فعندما نقول أن فلاناً لا فراغ لديه، فنعني أنه مشغول بأمر ما عطّله عن فعل أمور أخرى، وهذا المعنى كما نرى لا يمكن بأي حال أن نجد له انطباقاً على الذات الإلهية المقدسة لأن ذلك كفر وخطأ فاحش، فهو تعالى لا فراغ عنده، ولا يلهيه شيء عن شيء، بل ان هذه الحقيقة تصدق على الإنسان وشؤونه، فعندما يشتغل المرء بصنعة النجارة مثلاً، فهو حينئذ مشغول بها ولا يمكنه أن يكون منشغلاً بصنعة الخياطة في ذات الحال، إذاً الباري تعالى لا يلهيه شيء عن شيء ويعجزه فعل عن فعل آخر، كما يؤكد هذه الحقيقة نص الدعاء الآتي (يا

من لا يغلّطه سؤال عن سؤال، يا من لا يحجبه شيء عن شيء، يا من لا يبرمه إلحاح الملّحين)١[1] وعلى ذلك لا يصح اعتماد المعنى الثاني في تفسير هذه الآية بتاتاً.

وبهذا الشأن سُئل الإمام أمير المؤمنين (ع): كيف يحاسب الله (تعالى) الخلائق من الأولين والآخرين في يوم القيامة؟ (ظنّاً منهم ان عالم الآخرة كعالم الدنيا وان المحاسب هو الإنسان!!) فأجاب الامام (ع): كما يرزقهم جميعاً، يحاسبهم جميعاً. أي كما أن الله عز وجل يقّدر الرزق لعباده، فلا يشغله ما قدره لعبد ما عن تقدير ما لسواه، فكذلك حسابهم فهو لا يتعطّل عن البعض لانشغال الآخرين بالحساب.

ومع ذلك فنحن جميعاً نذكر الله (تعالى) ونسأله مرددين (يا الله)، ونحن نعرف ان الله (عز وجل) لا يشغله سمع عن سمع، فهو سميع لدعوات الجميع، ومجيب لحاجات الطالبين، دون ان تختلط عليه الأصوات (لكل مسألة منك سمع حاضر وجواب عتيد)٢[2].

الحس المشترك وتعود الأفعال:

ولأجل أن ندرك هذه الحقيقة بشكل أفضل، ونستيقن من ان الله (تعالى لا يشغله أمر عن أمر آخر، فلنأتي إلى أنفسنا ونجيل النظر فهيا، خصوصاً في موضوع الحس المشترك الذي

---

١ [1] دعاء الجوشن الكبير

٢ [2] دعاء شهر رجب.

يسميه الطب اليوناني (البنطاسيا)، ومحل الحس المشترك يقع في مقدم الدماغ (في الإنسان والحيوان) ويتألف من خمسة جداول تصب فيه منطلقة من خمسة سبل هي (سبيل النظر في العينين، سبيل السمع في الاذنين، سبيل الذوق في اللسان، سبيل الشم في الأنف، وسبيل اللمس والحس في بشرة البدن) وهي ما تسمى بالحواس الخمس، وهذه الحواس تصب مجتمعة في محل الحس المشترك في مقدم الدماغ، بحيث يشعر الإنسان بهذه الحواس في آن واحد دون أن يتعطل الحس في واحدة عن الاحساس بالأخريات، فعندما يتناول الإنسان طعامه يشعر في آن واحد بلذّة الطعام وطعمه، وشكل رائحته من خلال حاستي الذوق والشم، ولو افترضنا وجود (شعرة) في الطعام لأحسّت حاسة اللمس في ذات الوقت بها دون أن يتعطل عمل باقي الحواس، مع اشتغال حاسة النظر بالأبصار إلى الطعام واشتغال حاسة السمع بالاصغاء إلى أحاديث الأهل والأصحاب، إذاً الحواس جميعاً تشتغل دون ان يتلكأ عمل أية واحدة منها مع اشتغال الأخريات، تماماً كالحوض الذي تصب فيه خمسة جداول وهذا ما نعبّر عنه بالحس المشترك الذي يقع محله كما قلنا في مقدم الدماغ.

تجرّد النفس يمكنّها من الآتيان بآلاف الأفعال في وقت واحد:

ولو انتقلنا إلى نقطة أخرى متقدمة، عند النفس الإنسانية الناطقة، لوجدناها مشغولة بآلاف الأفعال في آن واحد، دون أن يتعطّل عمل البعض عن البعض الآخر، فالمعدة في دورها المطلوب، والقلب في شأنه المعتاد، والكبد في عمله المحدد، وهكذا بالنسبة لسائل الأجهزة

والأعضاء، بحيث أن مجموع الأعضاء والأجهزة والأنسجة في بدن الإنسان نجدها دائبة في أفعالها وأدوارها لا يعطلّها شيء عن شيء، فهي في حالها هذا وكأنّها أنموذج بسيط لأسماء الله وصفاته التي يصفها دعاء الجوشن الكبير في عبارة (يا من لا يمنعه فعل عن فعل)ن وعل هذا الأساس فان الفراغ يكون من شأن ممكن الوجود وهي المخلوقات، وليس من شأن واجب الوجود وهو الله (سبحانه وتعالى).

وتأسيساً على ما سبق فان الشغل والعمل والفعل في مقابل الفراغ والسبات والفترة ليس هو من شأن الله (عز وجل)، لأن الله لا يشغله ولا يقعده شيء، وما الدنيا والآخرة عنده إلاّ سيّان، إذاً ما معنى هذه الآية؟ إنه ذات المعنى الذي ذكرناه في بداية حديثنا عن الآية الكريمة، فمعنى (سنفرغ لكم) لا تعني على الاطلاق أن سنتفرّغ لكم بعد الانتهاء من أعمالنا، بل المعنى الواقعي هو ـــ سنقصدكم بحسابنا لنجزيكم على ما فعلتم ـــ، وهذا هو شأن الله (تعالى) في القيامة المشتملة على مواقف الحساب والجزاء والثواب والعقاب يا معشر الجن والانس.

إذاً هذه الآية في حقيقتها هي آية وعيد وتهديد خاص بالمجرمين.

سبب تسمية الجن والأنس بالثقلين:

وعن سبب تسمية الجن والأنس بالثقلين، ذكر العلماء عدة وجوه لذلك وسنستعرض أهمها:

الوجه الأول: الثقلان مثنى لكلمة ثقل وهو الأمر العظيم, إذ أن العرب اعتادت على تسمية كل شيء مهم (ثقيل من حيث الوزن والقيمة)، وتقف كلمة ثقيل في مقابل كلمة خفيف، وهو الشيء الذي لا وزن له ولا أهمية. وكما نعرف أن الموجودات كثيرة، ومن جملتها الجمادات، والحيوانات، والنباتات، ومخلوقات البر والبحر والسماء، ولكن الثقيل منها والمهم هو عقلاء هذه الموجودات، وهم الأنس والجن، اما سائر المخلوقات الأخرى فهي في الحقيقة مسخرة لخدمة هذين الثقلين، ولذلك كانت حركات وسكنات وأقوال وأفعال ونوايا وعقائد الانس والجن موضع ملاحظة ورقابة ومحاسبة الهية، ويترتب عليها الجزاء، بعكس الحيوانات التي لم يضعها الباري (عز وجل) في موضع التكليف.

الكتاب والعترة ثقلان أيضاً:

ولما كان معنى (الثقلان) على أساس هذا الوجه هو الأمران العظيمان، فقد نقل المسلمون (سنة وشيعة) ان النبي (ص) ارتقى المنبر في أيام عمره الأخيرة ونادى بالناس أن (أيها الناس، أنه يوشك أن أدعى فأجيب، إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني

فيهما)٣[3]. وقد ذكر عدد من علماء الحديث أن القدر المسلّم به (من دون ريب) في عترة النبي (ص) هم (علي وفاطمة والحسن والحسين وذرية الحسين (ع)).

فتلك هي العترة الطاهرة للنبي (ص) على ما اتفق عليه المسلمون، ونحن نرى بأم أعيننا كيف خلّف الرسول (ص) في عترته وذكرياته الجميلة!!

[٣٦]

(سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأيّ آلاء ربّكما تكذبّان). (سورة الرحمن, الآيات: ٣١-٣٢)

الثقلان في ثقل التكليف:

من البديهي، أن الدنيا هي دار العمل، والآخرة دار الجزاء، والآية المباركة (سنفرغ لكم أيها الثقلان) تعني ــ سنقصدكم أيها الثقلان لنجزيكم على أعمالكم ــ. والحال أن دارنا هذه هي ليست دار جزاء، بل هي دار عمل كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف (اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل).

وقد ذكرنا الوجه الأول في تسمية الأنس والجن بالثقلين، وقلنا ان الثقل يعني الشيء العظيم.

---

٣ [3] تفسير نور الثقلين، (ج٥، ص١٩٢) عن تفسير علي بن ابراهيم القمي.

الوجه الثاني: وهو المروي عن الإمام كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق (ع) (إنّما سُميّ الأنس والجن ثقلان لأنهما حملا ثقل التكليف)، إذاً حمل الانس والجن ثقيل، وهو بالطبع يختلف عن الاحمال الثقيلة التي تحملها الدواب، فثقل أحمالهم جاءت من ثقل ما كُلّفوا به باعتبارهم من العقلاء، لذلك وجب عليهما (الانس والجن) أن ينقلا الحمل الثقيل المكلّفين به إلى المحلّ المطلوب بكل أمانة، وهذا (الحمل الأمانة) الذي اشفقت من حمله السماوات والأرض والجبال كما في قوله تعالى (إنّا عرضنا لذلك وجب عليهما (الانس والجن) ان ينقلا الحمل الثقيل المكلّفين به إلى المحلّ المطلوب بكل أمانة، وهذا (الحمل الأمانة) الذي أشفقت من حمله السماوات والأرض والجبال كما في قوله تعالى **(إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)** (سورة الأحزاب، الآية: ٧٢).

تأبى السما حمل الأمانة مشفقة — بينما ذا المجنون يسعى لها

إنه والله لحمل ثقيل، لأن كلمة تكليف مشتقة من التكلّف وهو حمل الإنسان على ما لا يرغب، لذا كان لزاماً على الإنسان ان يخاصم نفسه ويحاربها، فكم من رجلٍ ما أن يقع نظره على امرأة حتى يخسر نفسه ويفقد احساسه وشعوره؟ لذلك كان المطلوب من الرجل أن يكون على نحو يمكنّه من أن لا يجد أدنى فرق بين ان يصادف في طريقه جداراً قد صبغ بألوان

زاهية أو أن يواجه امرأة قد تزينت بألوان برّاقة، لأن المهم عندنا هو أن نوصل حمل التكليف إلى المنزل الأخير، منزل الموت الذي تعد ساعته أفضل الساعات، وأولى علامات الفرج.

ثقل المعصية يقع على الأنس والجن:

الوجه الثالث: وقد ذكر بعض العلماء أن كلمة ثقل التي وسم بها الانس والجن في الآية الكريمة موضع بحثنا إنما جاءت باعتبار ثقل المعصية والإثم، فقد يتصور المرء الذنب خفيفاً من خلال ظاهره، ولكنه لو يدرك ان هذا الحمل الخفيف من المعاصي والذنوب لو تجمّع مع سواه، لجاء اليوم الذي تمثل فيه هذه الأحمال وكأنها الجبال العظيمة من المعاصي والآثام **(وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً)**. (سورة الإسراء، الآية: ١٣). وعليه يكون معنى **(أيها الثقلان)** هو ــ أيها الجمعان اللذان ثقلا من وطأة ثقل الذنوب والمعاصي.

الوجه الرابع: بينما قال البعض أن سورة الزلزال أشارت على معنى الثقل في قوله تعالى **(وأخرجت الأرض أثقالها)** (سورة الزلزلة, الآية: ٢). وأحد موارد الثقل هنا هو خروج الأبدان من باطن الأرض في يوم القيامة، ولذلك قيل للبشر ثقل، وقد استخدم التغليب في آية (سنفرغ لكم أيها الثقلان) على الجن فَعُدّ هو الآخر ثقلاً وتأسيساً على كل ما سبق ذكره من

وجوه ومعاني كلمة (ثقلان) أصبح من الواضح لدينا أن التسمية جاءت باعتبار ثقل هذين الجنسين من الخليقة وعظمتها قياساً بالمخلوقات الأخرى غير العاقلة، أو باعتبار ثقل التكليف الإلهي نسبة مع الموجودات الأخرى، أو من حيث ثقل الذنوب والآثام المقترفة من هذين المخلوقين.

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) ــ فبأي نعمة الهية تجحدان؟ أبنعمة جزاء الأعمال لا تصدقان؟!

هل يُعدّ التهديد والوعيد نعمة؟

ومن هذه الآية، والآيات الكريمة السبع اللواحق، تشرع السورة بتهديد المجرمين، فهي تأخذ منحى وصف ألوان العذاب المعد لأهل المعاصي، وصفة النار المهولة، ولا تلبث السورة حتى تعقّب كل آية منهن بآية (فبأي آلاء ربكما تكذبان)، ولعل البعض يثير في هذا المجال شبهة يدعي فيها أن من الصعوبة بمكان أن يتم اعتبار جهنم نعمة من النعم التي يذكّر الله (عز وجل) بها عباده من الجن والانس.

وسنذكر هنا عدة ردود مناسبة لهذه الشبه، في البداية نقول ان من الطبيعي ظهور قسمات الارتياح على محيّا الإنسان عندما تأتيه بشارات السرور والأخبار السعيدة التي تنبئه بهلاك عدوّه أو اصابته بالنكبات والبلايا والشدائد، وعلى العكس من ذلك يصاب الإنسان بالهموم

والغموم وتعكير المزاج عندما يبصر عدوّه وقد رفل في أحوال حسنة قد كُلّت بالسعادة والسرور.

فالمسلم المؤمن، عندما يرى يزيداً والشمر قد غلاً وأُلقي بهما في نار جهنّم تتعلج في صدره نشوات الافراح وتتفرج أساريره، وهو مصداق قوله تعالى **(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون* على الأرائك ينظرون)** (سورة المطففين، الآيات: ٣٤-٣٥)، وما ضحكهم إلاّ لأن العذاب قد أطبق على الكافرين، هذا العذاب الذي حذرهم منه المؤمنون في دار الدنيا، فلم يزدهم ذلك إلا سخرية واستهزاءً وعتوّاً، نعم لقد ضحك الكفار على المؤمنين بنصحهم واشفاقهم عليهم، فكانت عاقبتهم أن هم في العذاب قد سقطوا ولات حين ندم.

سرور أهل البيت (ع) وقد حمل إليهم رأس ابن زياد:

وجاء في كتاب نفس المهموم، والعديد من كتب التواريخ والأخبار، أن الهاشميين لم توقد لهم نار للطبخ في منازلهم منذ فاجعة كربلاء، وقد لبسوا السواد، وطفقوا يقيمون مجالس العزاء والبكاء والنحيب مدة ثلاثة سنين، حتى جاء اليوم الذي أحضر فيه المختار بن أبي عبيدة الثقفي رأس اللعين ابن زياد، ورماه في حضرة الإمام السجاد (ع)، اذّاك تبدلت أحزان أهل البيت أفراحاً، وخفف هذا الأمر شيئاً من لو عتهم وأساهم، فسجد الإمام زين العابدين (ع) لله شكر وبدا ضاحكاً مستبشراً ونزع بنو هاشم ألبسة السواد ومسوح الحزن.

النار تهدأ من غيظ قلوب المؤمنين:

فالإنسان يصيبه الغم ويأخذ قلبه الكمد عندما يبصر عدوه، وقد رفل بالنعم وهنيء بالسعادة وعلى العكس، يصيبه الفرح والسرور عندما يرى عدوّه في العذاب محضراً، وعلى هذا الأساس كانت النار وأهوالها وصنوف عذابها مبعث سرور وفرح للمؤمنين، لأن الله (تعالى) جعلها مقراً ومقاماً لاعدائهم في الله **(هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون)** (سورة الرحمن، الآية: ٤٣). فالحمد لله الذي جعل من جهنم سبباً تقر بها عيون المؤمنين، فلو لم تكن النار، لتسائل المؤمنون، في أي مكان سيلقى المجرمون يزيد والشمر وسائر أعداء الله وأعداء نبيه وأهل بيته (ع) جزاء أعمالهم؟

إذاً آية **(سنفرغ لكم أيها الثقلان)** هي في حقيقتها بشارة للمؤمنين، ووعيد للمشركين والمعاندين والمنافقين، فهي تحذّر من مجيء يوم يحاسب الناس فيه على ما فعلوه، ولا يُستثنى منه شيئاً وإن كان مقدار خردلة أو هو دونها.

الاهتمام بشأن المؤمن وأعماله:

وعن اهتمام المولى (عز وجل) بشأن المؤمن وعمله، قال السيد ابن طاووس عبارة رائعة هي: ان الحكمة الكامنة في تكليف الله (تعالى) الكرام الكاتبين بتسجيل أقوال وأعمال العباد، إنما هي محض اهتمام بشأن المؤمن والتثمين لأعماله، وهذه الأعمال تعرض في كل يوم

اثنين وخميس على امام الزمان (ع)، فان أبصر فيها حسنة أسرّته وسأل الله (تعالى) التوفيق لصاحبها، وأن أبصر فهيا سيئة سأل الله العفو والمغفرة لمقترفها.

وقد يبدو للمرء أن قطرة دمع واحدة لا قيمة لها، ولكن نقول له ليستيقن، ان لو انفجرت من عينه هذه القطرة خوفا، من الله (جل جلاله)، أو حزناً وكمداً على ما أصاب الإمام الحسين (ع) فحينئذ تكمن قيمتها الحقيقة في اطفائها لبحار من النار، وهنا يسارع الملكان الكاتبان إلى درج هذه الذرفة من الدمع في صحيفة عمل المرء.

من ذا الذي يمكنه الهرب من الله؟

[٣٧]

(سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأي آلاء ربّكما تكذبّان).

(سورة الرحمن، الآيات: ٣١ ــ٣٢).

(لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب)

الحمد لله الذي لم يجعلني من أهل النار:

قلنا أن النار جعلها الله مثوىً ومأوىً للكفار والمعاندين، وسيأتي اليوم الذي تمتلئ النار من اولئك الأشرار، كما يذهب نص دعاء كميل إلى تأكيد هذا المعنى في عبارة (أقسمت أن تملأها من الكفارين، من الجنة والناس أجمعين، وأن تخلّد فيها المعاندين)، فالنار هنا ستكون سبباً من اسباب تسكين قلوب المؤمنين، وباعثاً هاماً على تنفيس همومهم لأنها آوت أعدائهم الذين ما انفكّوا يعاندونهم.

ويروى أن المؤمن عندما ينتهي به الأمر إلى الجنة، ينتبه على احدى النعم اللهية الغافل عنها عندما يعرض له مكانه في النار الذي كاد أن ينحدر إليه فيما لو لم يكن مؤمناً، فيغلبه السرور ويسعد جذلاناً لما وفقه الله له من نجاة وانعتاق. وفي ذات الحين يعرض للكافر

المخلّد في النار مكانه في الجنّة الذي كاد أن يسمو إليه فيما لو كان مؤمناً، فتزداد حسرته ويشتد عذابه وبلائه.

إذاً النار للمؤمن مبعث سرور وفرح من جانبين:

الأول لأنها صارت مثوىً لأعدائه في الله، والثاني لأن الله (عز وجل) انقذه منها.

الفرق بين الذات والعرض:

اما الوجه الآخر في اعتبار الحساب والجزاء والنار نعماً الهية فلأنها مطلوبة، والمطلوبيّة على نحوين:

اول: المطلوب بالذات، أي أنه مطلوب للرغبة فيه مباشرة.

والثاني: المطلوب بالعرض، وهو المطلوب بالواسطة والتبعيّة لتحقيق هدف معين، ولتوضيح هذا الأمر نعمد إلى المثال الآتي:

لو أخذنا العسل (مثلاً)، هذا النوع من الطعام مطلوب للإنسان الصحيح والمعانى بذاته لأنه طعام لذيذ ومفيد، بينما الدواء المسرء نجده مطلوب عند الإنسان السقيم والمريض ولكن بالعرض، أي أن المريض يذهب إلى الطبيب، ويتكلف المشقة للوصول إليه، ثم ينفق أموالاً، ثم يذهب للبحث عن هذا الدواء المر الذي وصفه له الطبيب علاجاً، ثم يتحمل مرارة طعمه عندما يشربه، فهو يطلبه لأجل الشفاء والعافية ولذلك قيل له مطلوب بالعرض، لأنه لو لم

يكن مطلوباً لهدف وغاية لما اتعب المرء نفسه في البحث عنه والحصول عليه وتجشّم الصعوبات.

الجنة مطلوبة بالذات، لا النار:

وقد خلق الله الجنة في بداية الأمر وجعلها مطلوبة بالذات، ولكن ولكون الإنسان ميّال بطبعه للكسل والخمول، كان ذهابه إلى الجنة تفسيراً لما لطريق الجنة من صعوبات وشدائد تستدعي سعة الصدر وفائق الصبر، والحال أنه كسول ومتقاعس ولا يعدو إلاّ وراء الشهوات الآنية الحاضرة، وفي هذه الحال (سيبقى الإنسان محروماً من الوصول إلى نعم الجنة ولذاتها)، لذلك عمد المولى (تعالى) إلى خلق النار وجعل فيها ألوان العذاب والأهوال ثم حذّر منها أهل الشهوات كيما يخافوا، كما في قوله (تعالى) **(ذلك يخوّف الله به عباده يا عباد فاتقونِ)** (سورة الزمر، الآية: ١٦). فإذا ما تولّد الخوف لدى الإنسان دخل حينئذ في مدخل المتقين، فنفض عن نفسه غبار الكسل ونزع ثوب الخمول وشمّر عن ساعديه في طلب الجنة، لأنه أدرك أن ما من سبيل ثالث لمن حمل التكليف الإلهي، فأما سبيل الجنة، وأما سبيل النار، أي اما السعادة الأبدية، واما الشقاء الأبدي **(فماذا بعد الحق إلاّ الضلال، فأنّى تصرفون)** (سورة يونس، الآية: ٣٢).

إذاً جهنم كالدواء المر للرجل المريض مطلوبة بالعرض لكي يصل إلى الجنة عندما يخاف الله فيبتعد عن الذنب والمعصية، وعليه جاء السؤال الإلهي في موضعهِ عندما يقول **(فبأي آلاء ربكما تكذبّان)؟.**

نعمة النار: مما لا شك فيه أن الكثير من الأطفال والصبيان يعشقون اللعب ولا ينفكون عنه، وكلنا شهدنا اصرارهم على مواصلة اللعب رغم الالحاح عليهم بضرورة التبكير بالذهاب إلى المدرسة (مثلاً) أو تأدية الفرائض البيتية المدرسية، ورغم اصرار المربّين على أن (العلم نور والجهل ديجور) ومطالبتهم بالتعلم واكتساب العلوم والمعارف التي تؤهلهم في المستقبل ان يكونوا من ذوي الشأن، رغم كل ذلك يستمر الصبيان في التصامم والاهمال ومواصلة اللعب فلا يلبث الوالد أو الولي حتى يضطر إلى رفع العصا والتلويح. بالضرب المبرح بها ليعمد الصبي إلى أداء فرائضه وترك اللهو واللعب. وهنا لا يجد الصبي بدّاً من ترك اللعب والانصراف إلى دروسه ومدرسته ليتعلم مشفقاً على نفسه من ضربات العصا المؤلمة.

وأنتم معشر الأنس والجن اعلموا ان شؤون الله في هذه الدار عديدة، ولكن سيأتيكم يوم لا يكون فيه شأن الله (عز وجل) إلاّ الحساب **(سنفرغ لكم أيها الثقلان)** وعندها لا يغادر الحساب منكم أحداً. فهلّموا إذاً إلى العمل الصالح والايفاء بالفرائض الإلهية، واستيقنوا أن من لم يكتب له الله (عز وجل) بلوغ الجنّة فسينكب عن الصراط ويهوي إلى سحيق جهنم كما

تهوي أوراق الشجر في الخريف١[1]، لأن لنار جهنم جاذبية تتمكن بواسطتها من جذب الأفراد والأشياء نحوها، فهي كحجر المغناطيس عندما يجذب إلى أقطابه برادة الحديد، فالنار يجذب إليها أهل العذاب والشقاء، وقد يبلغ من قوة جذب النار للعصاة، أن تجرهم إليها من على بعد سبعين عاماً كما ذكرت ذلك احدى الروايات٢[2].

التحذير من الخطر الجسيم نعمة:

ويكمن الجانب الآخر في اعتبار النار والحساب نعمة عندما نقرأ قوله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) لأن هذه الآية انما مثلها كمثل الناقوس الذي يدّق ليحذر الناس من الخطر الجسيم، فهل هناك أدنى شك من أن عذاب النار هو بلاء وخطر جسيم؟ إذاً الاعلان عن هذا الخطر المقبل قبل وقوعه إنمّا هو نعمة بالغة عظيمة. ويقيننا في ذلك ينبع من صحة مصدر الاعلان وصدقه، فكما أننا عندما نسمع من خلال المذياع ان سيلاً عظيماً جارفاً أخذ يهدد مدينتنا وهو الآن متجه نحوها، فنبادر بكل عجلة إلى ترك كل شيء من أملاك ولا نفكّر إلاّ بانقاذ أرواحنا وممتلكاتنا خفيفة الحمل ونقلها إلى محل آمن هرباً من ذلك المصير المخيف. ألا يعد ذلك التحذير الاذاعي في ذاته نعمة تستحق الشكر؟ ثم لو فرضنا أن أحداً ما عرف بموضوع السيل العرم ذاك ولكنه تعمّد عدم أخبار الناس به، ألا ترونه قد ارتكب ظلماً واثماً

---

١ [1] بحار الأنوار، ج٣.

٢ [2] بحار الأنوار، ج٣.

مبيناً؟ وهل ترونه سينجح في الفرار من تأنيب الناس وتعنيفهم؟ والحال أنه لو بلغ بذلك الحدث قبل حصوله وأنقذ حياة الآخرين لوضع نفسه موضع الشكر والامتنان. وهكذا الحال أيضاً فيمن يعلم أن في مسير القافلة الفلانية اخطار محدقة بها لما سيفعله قطاع طرق قد تربصوا بها غنيمة سهلة، فيبلغ أولئك النفر بذلك الخطر ليحذروه، فهو حينئذ يكون قد أسدى لهم خدمة عظيمة لا تثمّن.

نعمة الاخبار القرآني عن الآخرة:

فيا أيها الناس، كيف بكم لو كان المشفق عليكم من الأخطار، والمحذّر الجاد لكم من الأهوال هو القرآن الكريم، فهو يخبرنا عن مكامن الخطر التي تتبع مرحلة الموت ابتداءً من البرزخ ومروراً بمراحل القيامة من حشر وميزان وصراط ونار وجنة، فهي والله نعم الهية تكمن في خرص القرآن على الاخبار بالواقع والأمور الواقعات. ولقد صدق المثل الشائع عندما يقول (الصديق من قال لك أخبرتك، والعدو من قال لك إنما أردت أن أخبرك) لأن الصاحب والمحب يعلمك بالأخطار قبل أن يحيق بك فيلحقك الأذى والضر منها، أما العدو فهو لا يتورّع أن يدعك فريسة سائغة للأخطار والأهوال، ثم لا يثنيه غدره عن المجيء إليك والقول لك إنما أردت أن أخبرك ولكن!! أليس قول العدو هذا في ذاته شماتة وتشفٍ؟ أليس هو مصيبة أخرى نزلت على رأس المفجوع، فهو يدري بالخطر، ولكنه لا يقول لك احذر حتى يحيق بك وعندها يأتيك ليأسف ويزعم أنه أراد ذلك الخلاص ولكن!! وعليه فلنعلم علم اليقين

أن ليس في هذا الوجود الهائل من هو اكثر حباً لنا من ربنا (عز وجل)، فهو يحبنا أكثر من حبنا لانفسنا، بل هو الذي وهبنا الحب وعلمنّا إياه، وهو الذي رأف بنا وعلمنا الرأفة لنرأف بحالنا, وهو الذي برحمته ملأ قلوب الآباء والأمهات بالشفقة ليشفقوا على فلذات أكبادهم خوف الأذى والضرر.

من أول المنازل وحتى نهاية الصراط:

ولقد ضم القرآن المجيد بين دفتيّه قرابة ألف آية كريمة عن موضوع سفر الآخرة، ابتداءً من أول منازلها في حالة النزع والتسليم للموت **(كلاّ إذا بلغت التراقي)** (سورة القيامة، الآية: ٢٦). ومروراً بحالة الاحتضار **(والتفّت الساق بالساق)** (سورة القيامة، الآية: ٢٩). ثم فراق الدنيا **(فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)** (سورة محمد (ص)، الآية: ٢٧). والتوسل بالعودة إلى الدنيا لطلب الاصلاح **(رب ارجعون* لعلي اعمل صالحا فيما تركت)** (سورة المؤمنون، الآية: ٩٩ ــ ١٠٠). ثم مرحلة النعيم أو العذاب البرزخي **(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)** (سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠). ثم القيامة ومنزل البعث والنشور **(يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)** (سورة يس، الآية: ٥٢). ثم منزل تطاير الكتب واستلام صحائف الأعمال **(فأمّا من اوتي كتابه بيمينه)** (سورة الانشقاق، الآية: ٧). ثم منزل الحساب **(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)** (سورة الأنبياء، الآية: ٤٧). ثم حالة تلوّن

الوجوه بين الاستبشار وبين الخوف **(وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية)** (سورة الغاشية، الآية: ٨ ــ ٩). ثم منزل الصراط **(وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون)** (سورة المؤمنون، الآية: ٧٤). ثم المصير إلى الجنة أو إلى النار. فلم يدع الله (تعالى) شيئاً عن الدار الآخرة لم يشر إليه في كتابه الحكيم، فهل بعد كل ذلك التحذير من الأخطار والأهوال، التي يريد الله (تعالى) بنا أن نخلص منها فلا نقع فريستها، يمكننا ان نجحد هذه النعمة الباهرة؟ وهل يمكن لعاقل أن يجد هذه الأخبار الإلهية عن وجود الأخطار الفادحة المقبلة بكل تلك التفاصيل والدقّة، أقلّ شأواً وأدنى صحة من اخبار المذياع عن السيل الجارف أو قطاع الطرق!!؟

(سنفرغ لكم أيها الثقلان) فيا معشر الانس والجن استعدوا، فعن قريب نقصدكم لنحاسبكم على فعالكم، ثم نجزيكم الجزاء الأوفى، فخذوا حذركم وتعبأوا انما نخبركم لكي لا يفاجئكم هول المطلّع، فزنوا أقوالكم وأعمالكم بدءً بساعتكم هذه.

إنظروا لما تقدموه لغدكم:

ثم يقول المولى (تعالى) في كتابه الكريم **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد)** (سورة الحشر، الآية: ١٨). فأي شيء ستقدمه لغدك أيها الإنسان؟ ذلك الغد الخالد بعد الموت، عندما تطالع بنفسك صحيفة عملك بعد ان يقول لك الله عز وجل **(اقرأ كتابك كفى**

بنفسك اليوم عليك حسيباً) (سورة الإسراء، الآية: ١٤). وعندها تجد الصحيفة قد ضمّت كل شيء من أفعالك وأقوالك ونواياك فتذهل وتقول **(مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها)** (سورة الكهف، الآية: ٤٩).

فهل ترى أيها الحبيب أن الابن الذي لا يلتفت إلى نصح أبيه المشفق الجاني انه قد أمن الهلكة ونجا بنفسه؟ انه الضرر الذي لا يحيق إلاّ بمن يصم اذنيه عن قبول مواعظ الواعظين ونصائح الناصحين المشفقين.

اغسلوا درن الذنوب بماء التوبة:

والآن وقد دق لنا الله عز وجل أجراس الخطر، واكثر رسوله الكريم (ص) من تحذيراته وأوصانا ان لا نحتقر شيئاً من الذنوب أو نستصغره كما دل على ذلك حديثه (ص) لابن مسعود يا بن مسعود لا تستصغرنّ شيئاً من الذنوب، لأنك لو قرأت صحيفة عملك في القيامة ووجدت فيها ذنباً قد أحصي عليك لبكيت بدل الدمع دماً وقيحاً)، بل انه كذلك، ولقد تضمنت رواية ما مفاده ان رجلاً عطّل في عرصة القيامة مائة عام لذنب اقترفه، حتى يستوفي حسابه، وعلى ذلك كان حريّ بالمؤمنين أن لا يغفلوا عن نعمة هذه الأخبار لكي تكون لهم القدرة على مغادرة دائرة الآثام والذنوب بحيث لو بدر منهم ذنباً لسارعوا على غسل درنه بماء التوبة والانابة إلى الله (عزّ وجل) للتخلص من سوء آثاره، فنحن لا نرى لنا ملجأً

حصيناً يعصمنا من الذنوب إلاّ الله (تعالى)، وهو أيضاً يأمرنا بالاسراع إليه هرباً من الذنوب قائلاً **(ففرّوا إلى الله)** (سورة الذاريات، الآية: ٥٠). اللهم منّ علينا بالتوبة والانابة إليك. وايقظنا من نومة الغافلين من قبل أن يدركنا ولات حين مناص.

[٣٨]

(يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فأنفذوا، لا تنفذون إلاّ بسلطان * فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان). (سورة الرحمن, الآيات: ٣٣ــ٣٤). لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب.

من ذا الذي يمكنه الهرب من الله؟!

قلنا عن الآية السابقة **(سنفرغ لكم أيّها الثقلان)** انها تعني سنقصدكم قريباً يا معشر الأنس والجن لنصفّي حسابكم ولنجزي كل نفس منكم ما كسبت ولا نستثني منكم أحداً، إن مؤمناً أو كافراً.

أمّا في هذه الآية الكريمة، نجد أن المولى (عز وجل) يؤكّد عجز الخلائق وضعفهم، ويحصر القدرة والقوة به وحده، لأجل ان يتبيّن الإنسان هذه الحقيقة، ويسلّم بأن القوة لله جميعاً، وما دونه لا يمتلك إلاّ العجز والضعف والفاقة.

وكلمة (معشر) مشتقة من (عشر) وهي الجماعة الكثيرة، والخطاب فيها موجّه إلى الجمع الكثير من الأنس والجن، وفيه يطلعهم الباري (تعالى) على حقيقة عجزهم عندما يخبرهم أن لو استطاعوا أن يخرجوا أو يهربوا من أقطار السماوات والأرض، فحينئذٍ فليهربوا من الله (تعالى) وملائكته وقضائه وحكمه، ومن أنواع البلاء الإلهي الحتمي، وليهربوا من الحساب والميزان والصراط والجزاء. وعبارة **(إن استطعتم أن تنفذوا)** دليل رائع على عجز وضعف الجميع، وأن القدرة لله وحده.

لا حول ولا قوّة إلاّ بالله:

(لا تنفذون إلاّ بسلطان) ومعناها ــ لا تستطيعون الفرار إلاّ بقدرة الله وقوته وعن كلمة (سلطان) وردت عدة معانٍ لها نذكر منها:ــ

١ ــ القوة والقدرة. وعليه يكون معنى الآية، أن ليس لأحدٍ القدرة على الفرار والهرب إلاّ بحول الله وقوته، وإلاّ فانه يبقى عاجزا وضعيفاً أمام قوة الله وحوله.

٢ ــ وقال البعض إن تنوين (بسلطانٍ) هو تنوين، معوّض عن المضاف إليه وهي ياء المتكلّم المحذوفة، وأصلها (لا تنفذون ألاّ بسلطاني)، أي لا تستطيعون الهرب إلاّ بقدرتي، وقد أجاد مولانا الأمام أمير المؤمنين (ع) التعبير في مناجاته الرائعة حيث يقول (مولاي مولاي، أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلاّ القوي.

مولاي مولاي، أنت القادر وأنا العاجز، وهل يرحم العاجز إلاّ القادر)٣[3] فيا من ادّعى انه من شيعة علي (ع)، تُرى هل نهلت من معين عرفان علي (ع) هذا؟ فذاك مولاك يعرب عن عجزه التام إزاء قدرة الله المطلقة. (اللهم اجعلنا ممن ينتفع من عرفان علي (ع) وحقيقة توحيده وايمانه).

نعم إن الواقع يؤكّد عجز العبد عن فعل أي شيء لافتقاره إلى القدرة الذاتية٤[4]. فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ولكن المرء تغرّه أحياناً فترة شبابه، فينسى ضعفه وعجزه حينما كان وليداً يهدهده المهد، وينسى عجزه وضعفه حينما يصير شيخاً يترنّح على شفير اللّحد، ومع ذلك فهو صريع التذكر لهذه الحقيقة، فهو عندما يذكرها يبادر إلى الهرب إلى الله (عز وجل) (يا من إليه يهرب الخائفون)٥[5] يا ربّ أن تردني فأي فلاح عندي يرفعني إليك، فلقد أقسمت عليكم بربوبيتك ولطفك أن لا تولّ وجهك عني فانك ان تمنعني عن بابك وأنا عبدك الضعيف الفقير إليك فلن أجد لي باباً أطرقه لغيرك، سبحانك لا شريك لك ولا عديل)٦[6]، اللّهم فأرحم من لا يجد لنفسه راحماً سواك.

---

٣ [3] مناجاة أمير المؤمنين (ع)، كتاب مفاتيح الجنان.

٤ [4] (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء) سورة النحل، الآية: ٧٥.

٥ [5] دعاء الجوشن الكبير/ البند٤٤.

٦ [6] النص المذكور هو ترجمة لأبيات شعرية في هذا المعنى مع شيء من التحوير تطلبه السياق.

القناعة والرضا بتقدير الله (عز وجل):

ويقول بعض المفسرين عن هذه الآية أنها تتعلّق بعالم الدنيا، وهناك من يقول أنها تتعلّق بعالم الآخرة، وكلا الفريقين ذكر عدداً من الوجوه والأدلة المؤيّدة لما ذهب إليه.

والواقع ان القرآن الكريم يحتوي على مواضيع عامة وكليّة لها كثير من المصاديق الخارجية يذهب على الاستدلال بها المفسرون، فمن يذهب إلى أن هذه الآية تتعلق بعالم الدنيا يقول، إن الله (تعالى) قال في كتابه العزيز ــ يا معشر الجن والانس الذين أحيط بهم من كل جانب، ليس لكم من سبيل للخلاص سوى اللجوء إلى الساحة الالهية المقدسة ــ فلكل فرد هموم وغموم نشأت بفعل القضاء والقدر الالهيين المقدرين له، وعليه فمن أين سيتأتى له تبديل التقدير الإلهي وهو العاجز الضعيف٧[7]؟! ونحن نرى البعض وهو يعاني من ضيق ذات اليد إملاقاً وانسحاقاً، ولكن مصالحهم العليا تتطلب ان يقدر الله لهم هذا الانسحاق، بينما نجد البعض الآخر قُدر لهم الثراء والغنى، والبعض الآخر في صحة وسلامة، وغيرهم في سقم ومرض.

---

٧ [7] راجع البند ٦٨ من دعاء الجوشن الكبير.

وعليه ينبغي على الإنسان أن يسعد بتقدير الله وحكمه، لأن ما قدّره الله له لا يعدو ان يكون محض خير وصلاح. (اللّهم ورضّني من العيش بما قسمت لي يا ارحم الراحمين)٨[8].

وهل يفر أحد من الموت؟!

ومن الموارد التي ذكرها المفسرون حول هذه الآية هو الموت، يقولون ان الخطاب موجه على هذا النحو ــ يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تهربوا من الموت فاهربوا ــ.

وها نحن قد حللنا في عصر قد تقدم فيه العلم الحديث والطب والجراحة، وتطورت بشكل مذهل صناعة الاجهزة والوسائل الطبية والمختبريّة، ورغم ذلك لم يستطع أحد منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا أن يحول دون وقوع الموت **(كلاّ إذا بلغت التراقي)** (سورة القيامة، الآية: ٢٦)، لنادى الأحبة والأهل **(وقيل من راق)** (سورة القيامة، الآية: ٢٧). ولكنهم لم يعلموا ان كل شيء قد انتهى، ويبقى الشخص الوحيد الذي يدرك هذه الحقيقة هو من نزل بساحته الموت **(وظنّ أنه الفراق)** (سورة القيامة، الآية: ٢٨). حينذاك يفقد الآخرون الأمل في الابقاء عليه حيّاً.

رحلة وداع السلطان محمود مع جواهره وكنوزه:

---

٨ [8] دعاء أبي حمزة الثمالي/ كتاب مفاتيح الجنان.

وفيما أورده صاحب كتاب التواريخ، قصة السلطان محمود الغزنوي الذي جمع من وسائل العيش الرغيد واسباب الذعة ما ندر ان يكون لأحد من أقرانه، فلقد كان هذا والهاً ومولعاً بشكل غريب بجمع واكتناز الجواهر ونفائس الأموال والحلي، ولذلك كان يعاود الغارات الغزوات على بلاد الهند فيحطم أصنامهم ويغنم جواهرهم النفسية ثم يملأ بها خزائنه، حتى فاضت تلك الخزائن بما ندر ونفس من المجوهرات والحلي ونفائس الأموال الباهرة. وعندما دنى أجله وسقط طريح فراش الموت طلب الحكماء والاطباء ليشفونه مما فيه، فأخبره الحكماء والأطباء ان لا رجاء في شفائه من مرضه هذا، وانه قد بات على موعد مع فراق هذه الدار بعد ثلاثة ليالٍ، فينصحون أن يمهد لسفر الطويل هذا فما كان منه إلاّ أن نادى الغلمان أن يأتوه بكنوزه ويضعونها أمامه ليلقي عليها نظرة أخيرة، فلبّ الغلمان ما أمرهم به وجاؤوه بصناديق المال والذخائر النفيسة والحلل والحلي والمصوغات والمجوهرات ثم اخذوا يقدمون كل صندوق أمامه ويفتحونه ثم يأتون بالآخر وهكذا، وهو ينظر إلى كنوزه نظرات الوداع والرحيل الأبدي ويشهق بآهات الحسرة على وداعهن ويهمل الدموع الساخنات ثم ينتحب وينشج نشيج الوالهين الفاقدين على ما انفق عليه العمر حتى جمعه وحازه!!

ألا ترونه ذا فعل عجيب؟ انه وبدلاً من أن يأمر أعوانه بانفاق هذه الكنوز في سبيل الله على الفقراء والمساكين وذوي العوز والفاقة، نجده (كما يسجل التأريخ) يولول ويبكي في لحظات عمره الأخيرة حسرة على فراق المال، وبدلاً من ان يتحرق بكاءً في طلب العفو والمغفرة من

الله (تعالى) على ما جنته يده الآثمتان، يبكي بكل لوعة وحرقة في رحلة وداعه مع كنوزه رغم أنه يعلم يقيناً أن جوهرة واحدة من كنوزه لم يعد يمكنه الانتفاع بها، ولو أنه افتدى نفسه بكل ما ملك من أموال، لن يصل إلى مناه في مد عمره لساعة واحدة تجنبّاً للموت المدرك له.

تُرى من ذا الذي تنفعه العبرة وتنقذه الموعظة؟ انه بلا شك ذلك المرء السعيد الذي يرى في أحوال الماضين لنفسه كل العبرة فيعتبر وفي اخبارهم كل العظة فيتعظ، بينما نجد الشقي من لا يعتبر بغيره بل يعتبر الآخرون به.

إذا ما المرءُ قد صار شبيه الكأس تسبيكاً   لفتّته حصاة الموت كالرمل كما كانا

يقول الإمام علي (ع) (كفى بالموت واعظاً) ولكن أين من يتعظ؟

ولقد قال الإمام الحسين (ع) لاخته العقيلة زينب في ليلة العاشر من المحرم وهو يربط على قلبها عندما يذكر لها موت الأحبة والأهل، إذا لم يترك الموت الفاضل وينقّض على المفضول، يقول الإمام (ع) (إن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون،... جدي خير مني (وقد مات) وأبي خير مني (وقد مات)، وأمي خير مني (وقد ماتت) و....

(يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان* فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٣٣ـ٣٤). لا بشيء من آلائك ربِّ أُكذّب.

استحالة الهرب من البلاء العام الشامل:

كلمة (أقطار) الواردة في الآية هي جمع (قطر) وهو الجانب أو الطرف، ومعنى الآية ــ يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تفرّوا من أطراف السماوات والأرض ففروا، لكنكم تدركون إنكم عاجزون عن ذلك إلاّ بوجود قدرة الله أو عونه أو مساعدته أو بحجة من الله وبرهان أو.. وعودا على بدء نقول، إن بعض مصاديق الآية تتعلق بالدنيا، والبعض الآخر يتعلق بالآخرة وذكرنا أن أحد الوجوه المتعلقة بدار الدنيا هو الفرار من القضاء والبلايا العامة، وعندما يحل البلاء الشامل (كالأوبئة والطاعون والزلازل و...) لا يمكن الفرار حينئذ من أي طرف وجانب وقطر، كما أن حلول الموت يعجز الهارب ويقع على الطالب، بل لا يمكن حتى أن يصار إلى تأخير وقوع الموت لحيازة الفرصة على الهرب.

قوة الجن الفائقة على قوة الإنسان:

والملاحظ لهذه الآية بشيء من الدقة يجدها قد قدمّت اسم الجن على اسم الانس، ولعل الباعث على ذلك هو تفوّق الجن على الانس من حيث القوة باعتبار أن الآية الشريفة تستعرض قدرة وقوة هذين المخلوقين ازاء القضاء والقدر الإلهيين، لذلك كان الافتتاح باسم الجن أبلغ وأنسب.

ومن البديهي،وكما أشرنا إلى هذا الموضوع من قبل، أن قوة الجن المادية تفوق القوة البدنية الإنسانية بمراتب عديدة، رغم أن الإنسان يتفوّق على الجن من حيث القوة الروحانية والعلمية والقدرة على اكتساب المعارف، ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة تكوين أجسام الجن، فهي اكثر شفافيّة ولطافة من أجسام البشر لأن مادة خلقهم الأولى هي النار، بينما مادة خلق البشر الأولى هي التراب، على ما نوهنا إلى هذه الحقيقة في بداية شرحنا وتفسيرنا للسورة.

ولكن يبقى الإنسان متفوقاً على الجن من حيث إلمامه بعلم القرآن والمعارف الإلهية، كما يتأكد ذلك في قوله (تعالى) **(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)** (سورة الإسراء، الآية: ٨٨). عندما قدم الباري (عز وجل) ذكر الانس على ذكر الجن، ويشهد أيضاً على هذه الحقيقة قوله (عز من قائل) **(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع العليم)** (سورة الإسراء، الآية: ١)، وعلى أية حال

فان موضوع الآية التي نحن بصددها تتعلق بالقدرة المادية، لذلك جاء ذكر الجن سابقاً لذكر الأنس باعتبارهم اكثر قدرة واعظم قوّة. ومع ما للجن من قوة وقدرة فائقتين فهو الآخر عاجز عن الفرار والهرب من قضاء الله وقدرة فتأمّل.

العلم بما وراء الطبيعة يتحصّل بإذن الله ومدده:

والوجه الآخر الذي ذكره المفسرون كمصداق لهذه الآية هو العلم بما وراء الطبيعة، حيث أن الآية تشير في خطابها معشر الجن والأنس قائلة **(إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض)** ــ لتعلموا ما وراءهما ــ فانفذوا، **(لا تنفذون إلاّ بسلطان)** فهي قد اشترطت في الوصول إلى عالم الملكوت وما وراء الطبيعة أن يتحقق اجتياز أقطار السماوات والأرض من خلال وجود القدرة الإلهية المعبّر عنها في الآية بالـــ (سلطان). وهنا نتساءل: من هو صاحب القدرة على اجتياز عالم الطبيعة والمادة الطالب الولوج إلى عالم الوجود الملكوتي عند المبدأ والمعاد لينتهي إلى الملكوتين السفلي والعلوي؟ إنه أم باهر وقاهر ولا يمكن تحقيقه إلاّ مع وجود العون والمدد الإلهين كما حصل مع الحبيب محمد

(ص) في ليلة المعراج عندما طوى عالم الطبيعة المادي وعرج إلى ملكوت العوالم الأُخر ١[1].

الملائكة تحكم طوق حصارها على عرصة المحشر:

ومن الوجوه الأخرى في المصاديق المطابقة لهذه الآية هي (القيامة)، ولعل هذا الوجه هو الأولى باعتبار سياق الآيات، واستناداً إلى ما جاءت به الروايات، وان لم يكن يتنافى ذلك مع انطباق الوجوه الأخرى التي سبقت الإشارة إليها، وعليه يكون معنى الآية **(يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض)** فانفذوا من صحراء القيامة ــ **(لا تنفذون إلاّ بسلطان)** وقد أورد صاحب تفسير البرهان في معرض تفسيره لهذه الآية حديثاً شريفاً روي عن الإمام باقر العلوم (ع) ننقل لكم زبدته، يقول (ع) (عندما يشأ الله (تعالى) أن يجمع الناس للحساب في يوم الجزاء، يأمر المنادي بالنداء: يا معشر الجن والانس اجتمعوا، فيجتمعون في أقل من طرفة عين، ثم يؤمر بأهل السماء الأولى بالنزول وإحاطة الخلائق، ثم يؤمر بأهل السماء الثانية (وهم ضعف عدد أهل المساء الدنيا) بالنزول وإحاطة أهل السماء الأولى، وهكذا يؤمر بأهل السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة بالنزول وإحاطة صفوف ملائكة السماوات التي سبقتهم (مع أن عدد أهل

---

١ [1] (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع العليم). (سورة الإسراء، الآية: ١). وللاستزادة يمكن الرجوع إلى أثر السيد المؤلف(رض) الموسوم بالمعراج في شرح وتفسير سورة النجم.

كل سماء يتزايد ضعف عدد أهل السماء من الطبقات التي تليها) فيحاط بالخلائق بصفوف، الملائكة، وهنا يأتي النداء الالهي(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان).

انحصار السلطة برحمة الله(تعالى):

(لا تنفذون إلاّ بسلطان) أي لا تستطيعون الخروج والعبور إلاّ بقدرة الله ولطفه ورحمته، فيا أيها المساكين، اعلموا انه لا سبيل لكم سوى سبيل النجاة الإلهي الذي لا بد لكم من الركون إليه والاحتماء به، وهو السلطان الإلهي الذي من حازه يكون قد خلّف وراءه الهموم والشقاء لأنه افضل سبل النجاة. وقد ذكر العلامة الطباطبائي وغيره من العلماء أنّ في هذه الآية بيان لنعمتين:

الأولى: وهي التذكير بعجز وضعف الجن والانس عندما تخبرهم الآية ان لا سبيل لهم للفرار والنجاة.

والثانية: هي التذكير بأن السلطان منحصر بقدرة ولطف ورحمة الله (عز وجل)، فقد أعطانا الله في هذه الآية الدواء الناجع، لداءٍ شخصه الباري في ذات الآية أيضاً.

وما شوقي للسيادة إلاّ عبوديّة وما رغبتي بالملك إلاّ أن أخدمك

لك

فسبيل النجاة من كل مسكنة نجده ميسوراً في بيوت الله تعالى، فليس من أحد سوى الله يأخذ بأيدينا وينتشلنا مما نحن فيه ويفرغ الهموم والأحزان عن قلوبنا، لذلك وجب علينا أن نحكم أطواق العبودية لله على رقابنا، ونروض أنفسنا الصعبة على قبول العبودية له وحدهُ كما أمرنا بذلك (عز وجل) **(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا)** (سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠). وعليه كانت تلك الآية نعمة من وجهيها، **(فبأي آلاء ربكما تكذّبان)** أبالتذكير بضعفكما وعجزكما؟ أم بالتذكير لكما بسبيل النجاة والخلاص الذي دلّكما عليه الله وجعله لكما في رحمته؟ **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** ولقد كشفنا لكما الداء ثم أرشدناكما على الدواء لتأخذوا حذركم ثم تعتبروا.

الأمر التعجيزي وهو ما يبرّز حالة العجز لدى المقابل:

ونكمل الأن بقية مضمون الحديث المروي عن الإمام الباقر (ع) (وبعد أن تهبط ملائكة السماوات السبع وتتشكل صفوفها المحيطة بالخلائق في صحراء المحشر وقد احكم طوق الحصار عليهم هنا يأتي الأمر التعجيزي (وهو الأمر الذي يعجز عن تنفيذه الطرف المقابل كأن يقال له ــ إن استطعت أن تنقل هذا الجبل إلى المكان الفلاني فانقله ــ وبداهة لا يستطيع تحقيق هذا الأمر لأنه خارج عن حدود قدرته واستطاعته) حينما يأمر الله ملكاً بالنداء **(يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان)**؛ وقد أحاط الملائكة بهم من كل جانب فهم لا يلوون على

شيء، حينذاك يعم الناس اليأس ويطرقوا برؤوسهم إلى الأرض. وهنا سكت الإمام (ع) عن الحديث وشرع بالبكاء بصوت عالٍ، يقول الرواي قلت لأصبر حتّى ينتهي الإمام من بكائه، فلمّا سكت الإمام (ع)، قلت له: فأين حينئذ جدك رسول الله (ص) وأين علي وأين ذريته وشيعته؟ (يقصد بقوله ذاك هل هم أيضاً ممن احكم طوق الحصار عليهم؟

حسنة الولاية، أمنٌ من فزع يومئذ:

إذّاك تبسم الإمام (ع) وقال: **(من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون)** (سورة النمل, الآية: ٨٩)، انهم (ويقصد بهم النبي (ص) وعلي (ع) وذريته وشيعتهم) على قطعة من مسك أذفر نصبت عليها منابر من نور وقد ارتقى كل منهم منبره، أما محمد وعلي (صلوات الله عليهما) فهما يضيئان كالشمس والقمر، والباقون كالنجوم يتألقون وقد أحاطوا بهما، وهم في راحة وأمان)٢[2]. وما عبّر عنه الإمام (ع) بالحسنة عند استشهاده بالآية الكريمة تلك انما عنى بالحسنة الولاية لعلي بن أبي طالب (ع) التي تؤمن صاحبها يومئذ من فزع القيامة.

---

٢ [2] قال الإمام الباقر (ع): إن الله إذا بدا له أن يبين خلقه ويجمعهم لما لا بد منه، أمر منادياً ينادي، فاجتمع الجن والانس في أسرع من طرفة عين، ثم أذن لسماء الدنيا فتنزل وتكون من وراء الناس، ثم أذن للسماء الثانية فتنزل وهي ضعف التي تليها، فإذا رآها أهل المساء الدنيا قالوا جاء ربنا، قالوا لا وهو آت يعني أمره، ثم تنزل كل سماء وتكون كل واحدة منها من وراء الأخرى وهي ضعف التي تليها، ثم ينزل أمر الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى ربكم ترجع الأمور، ثم يأمر الله منادياً ينادي (يا معشر الجن والانس...) الآية، تفسير علي بن ابراهيم القمي عن تفسير نور الثقلين (ج٥ ص ١٩٥).

حديث إبن عباس ساعة الموت:

وينقل المؤرخون عن ابن عباس (وهو ابن عم النبي (ص), كان من كبار المفسرين من الصحابة وقد اشتهر بعلمه وعمله حتى قيل له (حبر الأمة) أي عالمها) رفقته النبي (ص) والإمام علي (ع) لسنين عديدة، وسماعه لآلاف الاحاديث عن النبي (ص) دون واسطة أنه أيقن أن لا خلاص من أهوال القيامة وأخطارها إلاّ بالولاية، ويقال أنه عندما أحس بالموت قد أدركه رفع كفيه بالدعاء قائلاً (اللّهم إني أتقرّب إليك بولاية الشيخ علي بن أبي طالب (ع) ويعني بذلك أنه لا يثق بعمل يجده مقبولاً عند رب العالمين سوى ولاية وليّه علي بن أبي طالب (ع)، بلى والله انه لحق (ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً تائباً مستكمل الإيمان)٣[3].

[٤٠]

(يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٣٥ ــ ٣٦). (لا بشي من آلائك رب اكذب).

الشعلة المضرمة هي الشواظ:

---

٣ [3] عن تفسير الكشاف للزمخشري وتفسير الثعلبي وتفسير روح البيان للآلوسي.

وتستعرض هذه الآية المباركة الجزء المتمم لبيان ضعف وعجز الجن والانس في مقابل قدرة الله المطلقة

(يرسل عليكم شواظ) تقرأ كلمة (شواظ) بضم الشين أو بكسرها، والمشهور قراءتها بالضم، وهي تعني الشعلة النارية المضرمة ذات اللون الأزرق الخالص، وتتميز بقدرتها الكبيرة على الاحراق، ومن الطبيعي أن تكون قدرة الاحراق اكبر كلمّا كانت شعلة النار ألطف، فنار الآخرة ألطف بدرجات متعددة عما هي عليه نار الدنيا وعليه كانت قدرتها على الاحراق اكبر بأضعاف كثيرة.

المعاني المتعددة للنحاس:

وذكرت عدة معانٍ للنحاس نأتي إلى ذكر أهمها:

الأول: ويعني الدخان.

والثاني: ويعني الرصاص المذاب.

والثالث: ويعني معدن النحاس المنصهر، وهناك معان أخرى عزفنا عن ذكرها لبعدها عن واقع معنى الآية، وبناءً على ما سبق يكون معنى الآية (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس) هو ـــ يرسل عليكم يا معشر الجنة والناس نار من نيران جهنم ودخان، أو رصاص مذاب، أو نحاس مذاب ـــ. ومن يتأمل في التصوير الرائع للآيتين الماضيتين يرى

فيه ان الملائكة قد أحكمت حصارها على الخلائق وهي تحمل معها نيراناً قد اندلعت ألسنتها، أنه مشهد مخيف ومهول حقاً، فلو لم يكن التقدير الإلهي بإبقاء الناس والآخرين في موقف الحساب لالتهمتهم تلك النيران، لأن نار الآخرة نار مدركة وذات شعور كما هي سائر أشياء الآخرة، لأن الآخرة دار الحياة الحقيقية٤[4] كما تصور هذه الآية المباركة تلك الحقيقة **(إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً)** (سورة الفرقان، الآية: ١٢).

فلولا رحمة الله ورأفته لنفق وهلك كل من حملته أرض المحشر من شدة صرخات جهنم.

إذاً ألسنة نار جهنم تحول دون استطاعة أحدٍ ن الهرب، فيبقى الجميع ملازمين لعرصة المحشر لا يلوون على شيء، إن طوعاً أو كرهاً.

أنهار القطر المذاب في النار:

ونقل أبو الفتوح الرازي في تفسيره رواية يتحدث مضمونها عن وجوه خمسة أنهار تجري بالنحاس المذاب في الآخرة، كما هو الحال في انهار الجنة الأربع التي ورد ذكرها في قوله تعالى **(مثل الجنة التي وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وانهار من خمر لذة للشاربين، وانهار من عسل مصفّى)** (سورة محمد (ص)، الآية: ١٥). وتقول الرواية إن تلك الأنهار موزّعة، ثلاثة منها في النهار ونهران في

---

٤ [4] (وان الدار الآخرة لهي الحيوان). سورة العنكبوت، الآية: ٦٤).

اللّيل (ولعل المقصود هنا بالنهار والليل هو أن الثلاثة الأولى هي آثار الأعمال القبيحة والمعاصي التي ارتكبها المجرمون في دنياهم نهاراً، أمّا النهران المتبقيان فهما آثار الآثام والأعمال القبيحة المرتكبة في دنياهم ليلاًن لأن عالم الآخرة لا يشتمل على ليل أو نهار). وعلى ذلك يكون المعنى هو ان كلمة نحاس معطوفة على شواظ فيصير ــ يرسل عليكم ألسنة النيران والنحاس المذاب ــ.

الكل ينادي وانفساه يومذاك:

(**فلا تنتصران**) أي فلا يستطيع أحد منكما ان ينصر الآخر أو يغيثه، أي لا الجن بمقدورهم اغاثة الانس، ولا الانس بامكانهم نجدة الجن، بل لا الآباء باستطاعتهم نصرة أبنائهم، ولا الأبناء في وسعهم اعانة آبائهم، الكل مهتم لنفسه، والجميع يرددون انشودة واحدة هي انشودة (وانفساه)، وهو ما يتأكد في قوله (عز وجل) (**يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه**) (سورة عبس، الآيات: ٣٤ ــ ٣٧). فهم يومذاك في شأن يغنيهم حتى عن المطالبة بحقوقهم الشخصية وظلاماتهم، الجميع يصرخ وانفساه، حتى الانبياء (ع) يرددون (وانفساه) و(ربي نفسي) باستثناء واحد من جميع العالمين، يتجرّد عن ذاته ويفكر بالآخرين وينادي (ربي أمتي)، انه سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ص)، بينما الآخرون مشغولون بالتفكير بأنفسهم في

تلك الساعة العصيبة. وبعد هذا التصوير الدقيق لما سيجري في موقف المحشر من امور عظام يعقب ربنا تعالى بقوله (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**).

تلك الأخبار نعمة إلهيّة:

ويجدر بنا ان نلتفت إلى الأخبار الإلهية هذه التي تعلمنا بما سيحدث في المستقبل لنكون على بينّه ونعد العدد لذلك، وهذه الأخبار هي نعمة الهية عظيمة كما قلنا، تستحق الشكر والثناء، لان الأخبار حصل قبل أن يدركنا الموت وحينذاك تجيء مرحلة اللاعمل وتطوى فيها صحائف الأعمال، إذا ما يعلمنا به الباري عز وجل انما هو لأجل أن نتهيّأ ونتعبّأ من اجل استحصال براءة العتق من النار، فلو صدق السامع بهذه الأخبار يكون قد تدرّع بما يمنع اصابته بنبال المعاصي المستهدفة للقلوب، فيحترز من ارتكاب الذنوب ويسارع إلى طلب التوبة والمغفرة ويشرع بالندم بكاءً وأنيناً ليغسل بدمعه أدران المعاصي والقبائح التي اقترفها في ما مضى من سني العمر، بل وسيقى فرقاً وجلاً قد وقرت خشية الله في سويداء فؤاده، فيذوب قلبه من شدة حرارة الرهبة من الله وعظم خشيته من أمره (عز وجل)، وما لخوف هذا إلاّ عبادة قلبية تستوجب حلول رحمة الله ولطفه عليه، فيجزيه الله (تعالى) عن خوفه هذا بوعد صادق في قوله (**ويخافون يوماً كان شره مستطيراً**) (سورة الإنسان، الآية: ٧). (**فوقاهم الله شر ذلك اليوم**) (سورة الدهر، الآية: ١١). نعم إن شأن نزول هذه الآيات ومصداقها هم أهل البيت (ع) دون شك، ولكن موردها عام يشمل جميع أهل الخوف من الله

(عز وجل)ن فكلمّا ازدادت خشية المرء من الله وتلظّت نارها في فؤاده، كلما كان مؤهلاً بشكل اكبر لنيل رحمة الله وحفظة ورعايته، وعندما ينفض عن رأسه تراب القبر عند النشر والحشر يكون آمناً وتأتيه البشارة الإلهية التي نقلتها رواية شريفة يقول مضمونها (إن للبكائين من خشيتي أسمى وأعلى المنازل والدرجات).

بشارة لمن خاف عذاب ربّه.

ونقل كتاب لآلئ الأخبار عن قول المنصور بن عمار أنه قال: في سفر لي إلى احدى البلدات، اقتربت من مسجدها، فوردته وتهيأت لأداء الصلاة، فانتبهت إلى شاب يصلي بكل خشوع وخضوع، فحدثني قلبي ان هذا الشاب لا يبدو عليه أنه من أهل الغفلة لأن (الاناء ينضح بما فيه) فأردت أن استأنس به، فتركته حتى فرغ من صلاته ثم قلت له: أيها الشاب ان علائم الايمان تسطع من محيّاك واني أريد الأنس معك بالحديث فقل لي هل مر عليك قوله تعالى **(كلاّ إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى)** (سورة المعارج، الآية: ١٥ ــ ١٧). فرق قلبه وبكى بكاء الثكلى على وليدها، ثم التفت الي وقال: وهل تحسن غيرها؟ فأجبته نعم، هذه الآية **(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة)** (سورة التحريم، الآية: ٦). فما انتهيت من تلاوتها عليه حتى صاح صيحة عظيمة وخرّ مغشياً عليه كأنه خشبة لا حراك فيه، فتحسسته فإذا هو ميت، فقمت أفتش عن أهله وذويه، فلما وجدتهم أخبرتهم بما حدث فجاؤا وحملوا جنازته فسألتهم أن

يأذنوا لي في تولي غسله، فأذنوا لي بذلك فشرعت انزع عنه ملابسه فلما ترائى لي صدره وجدت عيه عبارة قد نقشت بخط عريض **(فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية)** (سورة الحاقة، الآيات: ٢١ ــ ٢٣).

بلى والله، ان العين التي تدمع من خشية الله (عز وجل) لا بد وان يكون لها أجراً، وأن القلب الذي يخفق فرقاً ورهبة من عذاب الله وسخطه لا بد وأن يهبه الله الأمن، ثم يواصل ابن عمار حكايته، فيقول ثم كفنّاه ودفناه وحثونا التراب على جسده، وعندما عدنا، ذهبت لأنام، فلما نمت رأيت في منامي هذا الشاب وهو على هيئة الملوك، فقلت له ما فعل بك ربك؟ قال: لقد وهبني الله منزلة تفوق منازل الشهدا وقال لي: إن الشهداء يقتلون لأجلي بسيوف الكافرين، وأنت قتلت بآية عذاب من آياتي لأجلي! فلقد نال ذلك الشاب تلك المنزلة الشريفة التي سمت على منازل الشهداء بفضل تأثره بآيات العذب تلك، وهذه حقيقة تؤكد ان هذه الآيات وان كانت في واقعها آيات عذاب إلاّ أنها في حقيقتها نعمة، **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** يا معشر الجنة والناس!

زلزلة القيامة وبشارة الخائفين:

وكتب صاحب تفسير منهج الصادقين عن سبب نزول آية **(يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات**

حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) (سورة الحج، الآية: ١). قائلاً: نزلت هذه الآية الكريمة ليلة كان المسلمون في طريقهم إلى غزو بني المصطلق، فبكى المسلمون لدى سماعهم هذه الآية ولم يطبق النوم على اجفانهم طيلة تلك الليلة حتى اطلع عليهم الصبح فوصلوا إلى منطقة القتال ما بين باكٍ وصارخ ونادب ومولول بحيث لم يقو أحد منهم على نصب الخيام للتعسكر فيها، ولم يشعلوا ناراً لأنهم اهتموا بأمر فائق على تلك الأمور، وهنا زف لهم رسول الله (ص) البشرى رأفة بقلوبهم المحترقات قائلاً: لقد اخبرني جبريل ان ثلثي امتي في الجنة، وان امتي لترد القيامة على مائة وعشرين فوجاً، يدخل من كل فوج ثمانون ألف نفر الجنة دون حساب. (وبالتأكيد ان هذه البشارة هي لمن يستعر قلبه ناراً من خشية الله وعذابه، وعندما يذكر المرء هذه النعمة لا يجد بداً من ان يقول الحمد لله الذي جعلني من أمة محمد (ص)، عندها قام أحد أصحاب النبي (ص) واقفاً وسأله: ادعوا لي يا رسول الله (ص)، ثم ما لبث أن قام رجل آخر وسأل النبي (ص) ما سأله الأول، فلم يجبه النبي (ص) إلى ما أراد. وقد احتمل بعض العلماء أن يكون الثاني من المنافقين ولذلك لم يعتن رسول الله (ص) بسؤاله. ومهما يكن الحال فان ما يهمنا من تلك الحكاية هو ان يعيش المرء موازناً بين حالتي الخوف والرجاء، فكلمّا أرادت نار الخوف أن تشدّه إليها استعان على ذلك برحمة الرجاء.

(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٣٧ ــ ٣٨). (لا بشي من آلائك ربِّ أُكذّبُ).

مقدمّات القيامة عظيمة عظم القيامة:

لا يوجد في الواقع خبر أهم وأصعب من خبر القيامة في جملة من هذه الأخبار الإلهية، باعتبار الآثار الكبيرة المترتبة عليه، فالدنيا على سعتها الرحبة يصفها الله عز وجل باللعبة عندما يقول **(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو)**١[1]. أمّا عن الآخرة فنجده تعالى يسمها بالنبأ العظيم كما في قوله **(عمّ يتساءلون، عن النبأ العظيم)** (سورة النبأ، الآية: ١). وحتى أن زلزلة الساعة يصفها المولى (عز وجل) بالشي العظيم في قوله **(إن زلزلة الساعة شيء عظيم)** (سورة الحج، الآية: ١).

إذاً القيامة وحسب الأوصاف القرآنية هي نبأ عظيم أو خبر عظيم ولكننا للأسف شغلنا أنفسنا عنها بأنباء وأخبار الدنيا.

ولما كانت القيامة أمر عظيم فان مقدماتها وآثارها هي الأخرى عظيمة باعتبار عظمة القيامة، فمن آثار القيامة تلاشي جميع الأجسام وفناءها، أي أن الأجسام المركبة والمتصلة

---

١ [1] سورة محمد (ص)، الآية: ٣٦).

تستحيل عند القيامة إلى أشياء متحللة ومنفصلة، ويصدق هذا الأثر العظيم على أجسام العالم العلوي والأفلاك أيضاً، فالكواكب والنجوم وسائر الأجرام السماوية تتركب من أجسام وأجزاء تتصل مع بعضها وتتحد، وعندما تقوم الساعة تستحيل هي الأخرى إلى ذرات ونثار.

تحطّم الأفلاك السماويّة:

فالشمس تتحطم، والقمر ينفجر والكواكب والنجوم تتشقق، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالانفطار والانشقاق للسماء وهو المفهوم الشامل لكل ما يعلو رأس الإنسان.

أما عن كيفية حصول التلاشي والزوال لهذه الأجرام، فالمتوقع هو أن يتم انصهارها بحيث تتحول إلى ما يشبه صورة الزيت بفعل تأثير الحرارة الشديدة الناشئة عن قيام الساعة والتي يعود باعثها على الأرجح إلى الانفجارات الداخلية (الباطنية) في الشموس والكواكب والأجرام الأخرى مما يؤدي ذلك إلى ذوبانها.

صيرورة اللّون الأزرق إلى الاحمرار:

والأمر المدهش هنا عند حلول القيامة هو تبدّل لون السماء، فاللون الحالي المألوف هو الأزرق، ولكن هذا اللون ينتقل إلى الاحمرار عند قيام الساعة، بل ان هذا اللون هو الآخر لا يثبت على حاله الجديد، فهو يتغير ويتبدل إلى ألوان أخرى، فكما أن زيت الزيتون عندما

نسكبه على صفحة الماء يعطي ألواناً متعددة، فان السماء كذلك تأخذ بالتقلّب في ألوانها.

فالتفت عزيزي القارئ إلى معنى هذه الآية بعدما استعرضناه في مقدمتنا هذه من لوازم الايضاح حول الانشقاق المساوي وتتابع الانفجارات الكونية وتبدل لون السماء. (فإذا انشقت السماء) أي يعد ان تنفصل الكواكب والنجوم عن أفلاكها، ثم تأخذ بالانفجار (وفي هذا الشأن يؤكد علم الفلك الحديث ان لجميع الشموس والكواكب أعماراً، وبمجرد أن تنتهي هذه الأعمار، تموت تلك الكواكب والشموس وتتلاشى).

(فكانت وردة كالدهان) ولكمة (وردة) معنيان هما:

١ ــ زهرة شجرة الورد المعروفة، وغالباً ما تطلق هذه التسمية على نوع خاص من الأوراد هو الورد الأحمر، حتى ان اللون الوردي (المشتق عن كلمة ورد) يقال للأشياء ذات اللون الأحمر القاني؛ ومعنى نص الآية هذه هو ان هيئة السماء تستحيل إلى ما يشبه الوردة الحمراء بفعل الحرارة الشديدة الناشئة عن لهيب نار جهنم، وهذا يؤدي إلى ذوبان الأجرام المساوية وقتما يرفع عن فوهة جهنم غطاؤها.

حصان تتبدل ألوانه على مدار فصول السنة:

٢ ــ المعنى الآخر هو ما أورده صاحب تفسير مجمع البيان وبعض المفسرين، وهو اسم لنوع من الخيول العربية التي تشتهر بها مدينة وردة، ومن خصائص هذا النوع من الخيول

انه يتلّون بألوان متعددة تبعاً لفصول السنة، ففي فصل يكون لونه أحمراً، وفي فصل آخر يصير لونه أصفراً، وفي فصل ثالث يكون لونه أزرقاً، وهكذا، وعليه تمت الاستفادة من هذا التلون لدى هذا النوع من الخيول وسمي الحصان بالوردة بالاستعارة اللفظية.

وهكذا الحال بالنسبة للون السماء، ففي القيامة يتغير لونها من اللون الأزرق إلى الأحمر، وعليه جاءت كلمة وردة كاستعارة لفظية تبعاً لاستعمالات اللغة العربية.

التلوّن في دهن الزيت:

(كالدهان) الدهان مشتق من الدهن وهو السمن، ووجه تشبيه السماء في هذه الآية هو من حيث التشابه في الذوبان والانصهار، فالسماء تنصهر حتى تصبح سائلة كالماء، كما هو الحال بالجبال الرواسي التي تستحيل صلابتها القاسية إلى ذرات غبار وهباء منثور٢[2].

إذاً السماء تنصهر كما ينصهر الدهن. وهناك وجه آخر للتلوّن أو تعدد الألوان والصبغات، فكما أن الزيت الذي يهرق على سطح الماء يعطي ألواناً متعددة، فمظهر السماء عند القيامة يأخذ هذا النحو فهي تبدي حينئذ ألواناً متعددة.

فإلى كل بيت نقول، هل فكّرت في يوم سيأتيك كهذا اليوم؟ وهل تخيّلت قيام الساعة إذ الجبال قد نسفت، والسماء قد انصهرت، وهل تنبّأت بما سيحل على رؤوسنا يومذاك من

---

٢ [2] (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً) (سورة طه، الآية: ١٠٥).

أهوال وشدائد ومصائب؟؟ يقول مولانا الإمام أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل (وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض، يا سيدي فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل لحقير المسكين المستكين)!!

الأمن للقلوب الوجلة:

ويروى عن سيدنا رسول الله محمد (ص) أنه دخل مرة المسجد وكان حينها شاب قد وقف صافاً قدميه يصلي ويردد في قنوته باكياً (الويل لي إذا السماء انشقت) فتوقف النبي (ص) هنيهة ورمقه ببصره ثم فال له: لقد أبكيت الملائكة ببكائك.

بلى ان هذه الحرقة واللوعة هي في حد ذاتها نعمة، وعاقبتها ان تبدل صاحبها أمناً لأن زيادة الخوف والخشية تؤدي إلى زيادة الأمن والاطمئنان لأن الله (عز وجل) أدل من أن يبكي عيناً في الآخرة بكت في الدنيا من خوفه وخشيتهن فكيف يمكننا أن نتصور تلك القلوب التي لا تطيق سماع آيات العذاب سوف تبصر عياناً ذلك العذاب؟! نعم يبقى العذاب ملائماً لتلك القلوب المتحجرة الصلبة القاسية من كثرة ما ران عليها من الآثام والمعاصي، وهذا ما يؤكده قوله (تعالى) **(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)** (سورة الزمر، الآية: ٢٢).

بينما هذه الحقيقة لا تصدق على تلك القلوب التي تعبّأت واستعدت لمثل ذلك اليوم العصيب

فتطهرت، لأن القلب الزاكي الطاهر المتطهر سوف يعتمر بخشية الله (سبحانه وتعالى) فيكتب الحصانة والمنعة من التدنس بدرن المعصية والاثم والذنب.

مناجاة الإمام الحسين (ع) والإجابة السماوية:

جاء في كتاب المناقب أن رجلاً قال للإمام أبي عبد الله الحسين (ع):

إني لأراك يا سيدي عظيم الخوف كثيره (إذ إن الإمام الحسين (ع) كان في غاية رقة القلب)، فرد عليه الإمام قائلاً: وهل فاتك ان الأمن في القيامة لأهل الخوف؟!. وأوّل بشرى تزفّها الملائكة للعبد المؤمن في ساعة قبض روحه ان تقول له **(لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون)** (سورة الأعراف، الآية: ٤٩). وهذا هو أوّل الوصال. وفي الخبر المشهور عن أنس أنه قال: صحبت الإمام الحسين (ع) إلى مقبرة بني هاشم) وهي مقبرة أبي طالب، وحالياً يقال لها المعلاّ، وتقع في مكة المكرّمة) ولمّا جئنا قبر جدته خديجة قال لي: اتركني لوحدي، يقول أنس فمشيت عنه ولكني لم أرحل بعيداً، فجلست في ناحية استمع لما يقول، فأنشأ يقول بقلب حزين (يا ذا المعالي عليكم معتمدي... إلى آخر الأبيات، وهو يناجي ربه (عز وجل) ويقول بما مضمونه يا رب يا من عليه معوّلي، طوبى لمن كنت أنت مولاه، وطوبى لمن خفق قلبه من فرط خشيتك فراح يبث إليك شكواه، ويكشف لك عما بلاه...)

يقول أنس، وفجأت دوّى صوت بين الأرض والسماء وهو يقول: لبيك لبيك أيها العزيز، أن الملائكة لتعشق صوت أنينك)، فصلّى الله عليك يا أبا عبد الله الحسين (ع).

[٤٢]

(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٣٩ ــ ٤٠).

الحساب والسؤال لا يحصل عقيب البعث مباشرة:

وبعد أن تقوم الساعة ويبعث الله الخلائق من قبورهم فينفضون التراب عن رؤوسهم يقول المولى تعالى **(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان)** والهاء في ذنبه هي ضمير متصل يعود على الانس باعتار التقدّم الرتبي، وهو نائب الفاعل لــ (لا يسأل)، وعليه يكون المعنى ــ حينذاك لا يُسأل الإنسان عن ذنبه ولا الجان ــ.

الحساب والسؤال في القيامة من بديهيات القرآن:

ولعله هنا يبرز اشكال يستوجب القيام بالإجابة عليه وحل معضله وغموضه، وهذا الاشكال هو ان مسألة الحساب هي من مسلّمات القيامة وبديهياتها، وفيها يتم تحصل الاستنطاقات وتقديم الأسئلة للخليقة العاقلة عما حملوه من عقائد وما فعلوه من أعمال وما نطقوه من أقوال، بل ان النبيين وحسبما صرح بذلك القرآن العظيم يخضعون للمسائلة

والاستنطاق، كما في هذا النص الذي يقسم على تأكيده وتحقيقه المولى (عز وجل) **(فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين)** (سورة الأعراف، الآية: ٦). فالأمم تسأل عما حملت به من تعاليم أنبيائهم، والأنبياء يسألون عن تبليغ رسالات وتعاليم الله (عز وجل)، وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تعالى **(وقفوهم انهم مسؤولون)** (سورة الصافات، الآية: ٢٤). وفوق ذلك يسأل الخلق عن تركه سيد الكائنات (ص) (القرآن والعترة) كيف كان عمل المكلّفين بالتزام هذين الثقلين وكيفية عمل الخلق والولاية الإلهية الموسومة بالنعيم في قوله تعالى **(ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم)** (سورة التكاثر، الآية: ٨). وفي الواقع فان النعيم هو القدر المسلّم به من نعمة الولاية كما هو واضح، إضافة إلى تصريح القرآن العزيز في مواضع متعددة منه بحتمية سؤال المذنبين واستنطاقهم بحيث ان المرء يحاسب على كل نية ومعتقد وعمل وقول، كبيراً كان أم صغيراً **(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)** (سورة الزلزلة، الآية: ٧ ــ ٨).

وهل يسأل المجرم عن ذنبه؟

ولكننا نجد في تصريح هذه الآية الكريمة موضوع البحث ان الإنسان والجن لا يسألان عن ذنوبهما كما نقرأ **(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان)**، وفي قول آخر يقول عز وجل **(ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون)** (سورة القصص، (٧٨). ولكن ومن خلال سياق الآيات الكريمة التي عرضناها قبل هاتين الآيتين يبدو ان موضوع المسائلة والحساب

والاستنطاق في القيامة هو من الامور القرآنية المسلّم بها, فهل انها تتعارض مع ما صرحت به هاتين الآيتين؟، في الواقع انها تبدو متعارضة لمن يرقبها لأول وهلة، وعليه يفترض بنا ان نوضح معنى الآيتين لندفع الخلط والالتباس المؤدي إلى تصور وجود التعارض لدى القارئ العزيز، مع ضرورة تثبيت مبدئيّة استحالة وجود التناقض في القرآن الكريم، ولعل افضل بيان توضيحي يزيل هذا الابهام والخلط هو ما صرح به سيدنا الإمام علي (ع):

سؤال الزنديق للإمام علي (ع):

فقد نقل صاحب كتاب بحار الأنوار هذه الرواية التي تقول إن زنديقاً جاء إلى الإمام أمير المؤمنين (ع) وعرض عليه بعض الشبهات زاعماً فيها أنها تشتمل على تناقضات حملها القرآن الكريم بين دفتيّه ثم أضاف بقوله انه ولولا هذه التناقضات لآمن بالقرآن العظيم، فسأله الإمام (ع): وأين هي هذه التناقضات؟ حينئذ عرض الزنديق الآيات القرآنية التي زعم بقوله أنها تتناقض مع بعضها البعض (من حيث ظاهرها) فرد الإمام علي (ع) باجابات وافية مفحمة، وكان من جملة ما أشكله الزنديق على القرآن الكريم هو موضوع (المساءلة. الاستنطاق) في القيامة، وحينها قال للإمام (ع): هل ان السؤال والحساب في القيامة موجود أم لا؟ لأن بعض آيات القرآن تثبت وجوده وتؤكده، بينما هناك آيات آخر تفي ذلك، فرد عليه الإمام (ع) قائلاً: إنّ للقيامة مواقف ومواطن، فهل تخيّلت أن القيامة مجلس واحد؟!

مواقف القيامة خمسون موقفاً:

وما يناسب بحثنا هذا هو ما اشتمل عليه حديث شريف يروى عن الإمام الصادق (ع) نعرضه هنا ثم نعرّج بعد ذلك على بقية حديث الإمام علي (ع) المنقول في كتاب البحار. يقول الإمام الصادق (ع) حسب مضمون الرواية، ان للقيامة خمسون موقفاً يمتد كل موقف على الكافرين ألف سنة؟؟؟؟،**(في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون)**. (سورة السجدة، الآية: ٥). وعليه كان مجموع يوم القيامة خمسين ألف سنة٣[3]. (سورة المعارج، الآية: ٤). لا يوجد تعارض بين هاتين الآيتين، لأن المراد بكلمة (يوم) في الأولى هو يوم الموقف، بينما في الثانية هو يوم القيامة المؤلّف من خمسين موقفاً، وبالطبع فان حساب المؤمن (كما تؤكده الروايات) لا يستغرق جميع هذا الوقت، بل ان فترة الحساب لا تعدو ان تكون كمقدار الزمان الفاصل بين أداء صلاتي الظهر والعصر، وهذا بالتأكيد يختص بخواص الشيعة لأنهم خرجوا من الدنيا طاهرين لم يقترفوا إثماً، أو أنهم اقترفوا بعض الذنوب ولكنهم طهروها بماء التوبة. وعليه نخلص إلى ان امتداد زمان القيامة على الأفراد يختلف من فرد إلى آخر تبعاً لكثرة الذنوب أو قلّتها، ويصل زمان القيامة إلى حده القياسي (خمسون ألف سنة) لذلك الشقي الغريق في بحار ذنوبه لينتهي به المصير إلى الهوي في

---

٣ [3] (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة).

جهنم، ولقد ذكرنا من قبل رواية عن النبي (ص) تفيد ان في القيامة من يؤخّر (يحبس) مائة عام لذنب اقترفه في دنياه.

البعث من القبور في مشهد ملؤه الخوف والحيرة:

ونعود الآن إلى إتمام بقية الحديث المروي عن الإمام أمير المؤمنين (ع)، يقول الإمام: للقيامة مواقف ومواطن، وأول تلك المواقف هو البعث والنشور، حيث تلتحق الأرواح بأبدانها فيخرج النسا من قبورهم شعث غبر ينفضون التراب عن رؤوسهم وقد ملؤوا رعباً وذهولاً في موقف لم يسبق لأيّ منهم أن حضره من قبل يحمل مشاهد مروّعة لم ير مثلها فيما سبق، فيعم الخوف والرعب جميع الحضّار حينئذ، وهذا الموقف هو بالتأكيد ليس موقف الحساب والسؤال، لذلك يقول الرب الحميد **(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان)**، لماذا؟!

لا يمكن الحساب في ظل موقف يعمه الذهول والتحيّر:

ويقول المحقق الطبرسي في تفسير مجمع البيان في معرض تعليقه على هذه الآية المباركة، إن الموقف حينذاك هو موقف تحيّر وذهول وهلع ولا يملك من أحدٍ حينها عقله وحواسّه من فرط الخوف والرعب، فكيف إذاً يتأتى لهم الإجابة على الاسئلة والوقوف للحساب؟ إلاّ اللهم بعض خواص الشيعة الذين يصفهم الباري تعالى في قوله **(وهم من فزع**

يومئذ آمنون (سورة النمل، الآية: ٨٩). بينما يكون سائر الناس في حال يعلوهم الذهول وتعمهم الدهشة: كما نقرأ في قوله (عز وجل). **(خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة)** (سورة القلم، الآية: ٤٣). إذ إن البعض تصل به درجة الذهول إلى حد تجمد فيه عيناه لمدة أربعين عاماً، إذاً من يكن في هذا الحال كيف يعقل ان يوجه إليه سؤال؟!

ولعل الكثير منّا قد عايش مثل هذه الحالات والمواقف في حياته وان اختلفت من حيث الشدة وطول الفترة، فعندما ترتجف الأرض في زلزلة (لا سمح الله) لفترة دقيقتين أو ثلاث وتكون كمهد الطفل، فحينئذ ندرك أي ذهول ودهشة تعترينا! بينما القيامة في نبأها العظيم تهتز الأرض تحت أقدام الخلائق جميعاً وتمور السماء من فوق رؤوسهم وتصم آذان الناس من فرط صيحات جهنم في تغيّضها وشهيقها وزفيرها كما يؤكد ذلك كتاب الله المجيد، وعليه فلنتصور كيف سيكون حالنا يومذاك؟! إنه والله الذهول التام والحيرة المطبقة **(وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)** (سورة الحج، الآية: ٢). ويبقى من القول ان نذكّر ان درجة الخوف والذهول تتباين بين الافراط تبعاً لاعمالهم وسلوكهم في دار الدنيا.

تجلي الهيبة والعظمة الإلهية في القيامة:

وعلى اساس ما سبق فان الموقف الأول في القيامة هو موقف تجلّي العظمة الإلهية التي يجب على الجميع ادراكها، رغم ان البعض قد أدرك من قبل هذه العظمة في دار الدنيا، وهناك من هو غني عن ادراك تلك العظمة المقدسة لأنه قد ذاب في ذات الله (عز وجل)، ولكن يبقى الكثير من الحمقى الذين لم يدركوا حقيقة عظمة الله الواحد القهّار، لذلك يأتي هذا الموقف وفقاً لما تتطلبه دواعي الرحمة الإلهية لكي يدرك الخلق شيئاً من عظمة الله وجلاله. وفي هذا الموقف ايضاً تنتزع القلوب من الصدور لفرط الهول والهلع حتى تبلغ الحناجر كما نقرأ في قوله تعالى **(إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين)** (سورة غافر، الآية: ١٨). وحينها تخرس الالسن ولا يسمع الكلام إلاّ همساً **(وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً)** (سورة طه, الآية: ١٠٨). **(فيومئذ)** أي في ذلك اليوم الذي تنشق فيه السماء ثم تصير وردة كالدهان فيغمر الخوف والوجل جميع الخلق وهم يبصرون تشقق السماء وتغير لونها إلى الاحمرار وذوبانها كالزيت، فحينئذ **(لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان)** مع أن موقف الحساب لم يأت بعد، وان صحائف الأعمال لم تتطاير بعدن وان الميزان لم يحضر موعده بعد ولو جاءت تلك المواقف **(فوربّك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون)** (سورة الحجر، الآية: ٩٢ــ٩٣).

السؤال التوبيخي لا السؤال الاستفهامي:

وهنا وجه آخر ينقله المحقق الطبرسي عن عدم السؤال في الموقف الأول عن ذنوب الخلائق ولعله هو الأقرب إلى الواقع. ففي مرحلة الحساب في يوم القيامة لا يكون حينها أي سؤال استفهامي، بل ان الاسئلة المطروحة هي الاسئلة التوبيخية، لأن من يقدم على السؤال إنمّا يتوّخى الحصول على الإجابة التي تكشف مجهولاً لدى السائل، فمثلاً عندما يُسأل المرء من أنت؟ وما عملك؟ وأين كنت؟ وإلى أين ستذهب؟ وبماذا تحدثت في المحفل الفلاني؟ وما إلى ذلك من تساءلات فانمّا يراد بها التعرف على تلك المطالب المجهولة لدى السائل فيحقق حينئذ السائل الالمام والاحاطة بما خفي عليه.

(فيومئذ لا يسأل) ففي الموقف الأول لا تثار الاسئلة الاستفهامية التي تتوخى الاستعلام والاستفهام عن هويّة المسؤول وأفعاله وتصرفاته لأن الله تعالى عالم بخلقه عارف بشؤونهم، وهكذا الحال بالنسبة لملائكته الكاتبين، فهم على علم بحال المسؤول، بل ان عموم الناس يعلمون ويعرفون المجرمين بسيماهم، وحتى الجوارح، فهي الأخرى تفصح عن كل ما فعله المرء بواسطتها (كما يتأكد هذا في الروايات) سواء كان ذلك العمل إثماً مشيناً أو عملاً صالحاً، فللوضوء نور خاص، وللغسل نور مميز وللولاية نور آخر بحيث ان الرائي يفهم حقائق تلك الأمور بواسطة نطق الجوارح.

آثار الذنوب تصحب المذنبين في المحشر:

يقول المرحوم الملاّ فيض الكاشاني، إن شارب الخمرة يأتي القيامة وهو يحمل وعاء الخمرة بيديه، واللائط يصطحب الملوط معه، والمقامر يأتي وهو يحمل آلة القمار بشكل تلتصق بيديه تلك الأمور فلا يستطيع منها إفلاتاً، ولو كان المذنب صاحب طنبور ٤[4] أو أية آلة لهو أخرى، فيأتي المحشر وهو يحملها معه، ثم لا تلبث أن ترتفع في الهواء فتنزل على أم رأسه ضرباً مبرحاً بحيث أن الجميع يفهم حينها أن عمله كان قبيحاً. ثم يقبل الآخر وقد اكتوى حبينه وظهره وخاصرتيه فيعلم الجميع أنه كان مانعاً للزكاة كما في قوله (عز وجل) **(الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم* يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم)** (سورة التوبة، الآية: ٣٤-٣٥). إذاً نستنتج من الوجه الثاني أن هذه الآية الكريمة لا تقصد السؤال الاستفهامي والاستعلامي لوضوح سلوك الأفراد.

وأنا الآن بدوري أتوجه إلى الأخوات والسيدات بالخصوص ممن لا ترغب في اهراق ماء وجهها، كما اني في ذات الوقت أوجه كلامي على كل من رام العفّة، ان هذا عمركم الذي سينقضي عاجلاً لا يمر عليكم إلاّ مرة واحدة، فالله الله أن تنفقوه في ما يعود عليكم بالغد بالحياء واطراقات الخجل واهراق ماء الوجوه، لأن ما خفي في يومنا هذا سيتجلى علانية

---

٤ [4] الطنبور ــ آلة غناء وطرب محرمة تشبه إلى حد كبير آلة العود الموسيقية.

في غد الآخرة كما يقول ربنا عز وجل (**يوم تبلى السرائر**) (سورة الطارق، الآية: ٩). فهل وضعنا في حسباننا مثل ذلك اليوم؟

يقال أن رجلاً خرج يبحث لنفسه عن موضع يستر عليه ما تغرّه به نفسه، ترى هل سيجد مثل هذا الموضع؟!

الشيعة لا يستجوبون:

وهنالك وجه آخر ورد عن الإمام الرضا (ع) يفيد ان المقصود من قوله تعالى (**فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان**) منكم أي الشيعة الموالية لأهل البيت (ع)، فشيعة أهل البيت (ع) يحشرون يوم القيامة على هيئة البشر (ذات صورهم البشرية) بينما يحشر الآخرون على هيئات وصور تطابق وتلائم حقيقة عقائدهم وطبيعة أعمالهم وسلوكهم، تقول إحدى الروايات بهذا الخصوص (يحشر الناس على صور تحسن عندها القردة والخنازير).

فالإنسن الناهل من فيوضات إمام الزمان (ع) يكون قد سمى فعلاً إلى صورته الإنسانية التي أرادها الله له فيحشر إنساناً.

وتأسيساً على ما سبق نقول إن آية (**لا يسأل عن ذنبه ــ** منكم) تعني أن حينئذ لا تسألون أيها الشيعة عن ذنوبكم لانكم قد كفّرتموها بأتباعكم لأهل البيت (ع) ووردتم المحشر طاهرين.

وتقول تتمة الرواية المنقولة عن الإمام الرضا (ع) في معنى قوله عز وجل (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه، قال: منكم، ويعني الشيعة، إنس ولا جان) (قال ومعنى ذلك ان من توالى (علياً) أمير المؤمنين (ع) وتبّرأ من أعدائه وآمن بالله وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ثم دخل في الذنوب ولم يتب منها في الدنيا, عذّبه الله بها في البرزخ ثم يخرجه يوم القيامة وليس عليه ذنب يسأل عنه). وجاء في مجمع البيان أنه روي عن الإمام الرضا (ع) انه قال: (فيومئذ لا يسأل (منكم) عن ذنبه أنس ولا جان) إن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عذب عليه في البزخ، ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه)٥[5].

وبعد ذلك يعقّب الإمام (ع) قائلاً: والله لا يُرى منكم في النار اثنان، لا والله ولا واحد، ولكني أخوف ما أخاف عليكم البرزخ, واما في القيامة فانكم تنالون شفاعتنا).

وعلى ذلك كان لزاماً على الإنسان أن يسعى من اجل ان يعتصم عن ارتكاب الذنب، ويصلح حاله، وان يوثّق علاقته ويمتّنها مع أهل البيت (ع)، لأن حقيقة الرجاء تكمن في ولاية أهل بيت النبوة (ع).

---

٥ [5] تفسير نور الثقلين، (ج ٥ ص ١٩٥).

(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٣٩ ـــ ٤٢).

(لا بشيء من آلائك رب اكذب).

ارتفاع التناقض باختلاف المكان:

قلنا إن الأشكال المزعوم على هذه الآية في قوله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان) وما أوردته الآية الأخرى التي يقول نصّها (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) (سورة القصص، الآية: ٧٨). يفيد ان ليس في القيامة سؤال وجواب، في حين ان هناك العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد العكس من ذلك وتشير على بديهية السؤال والجواب في القيامة، وقد يبدو هذا الأمر لأول وهلة مشتمل على التناقض، وقد عرضنا فيما سبق ثلاثة ردود على هذا الاشكال وسنواصل الآن تتمة بحثنا هذا ببيان آخر يزيل الشبهة ويرفع الاشكال بشكل قاطع.

يقول علم المنطق ان كل موضوع نفترض وجود التناقض فيه لا يمكن القطع باحتماله للتناقض حتى تنطبق عليه ثمانية شرائط، ولو لم ينطبق عليه شرط واحد من تلك الشرائط الثمان ارتفع التناقض. والشرائط هي:

١ ــ وحدة الموضوع. ٢ ــ وحدة المحمول. ٣ ــ وحدة المكان. ٤ ــ وحدة الزمان. ٥ ــ وحدة الشرط. ٦ – اضافة الجزء إلى الكل. ٧ ــ الفعل. ٨ ــ القوة.

فلو حصل التعدد في أحد هذه الشرائط لارتفع التناقض كما قلنا، والقضيتان اللتان نبحث موضوع التناقض المحتمل فيهما هما (السؤال أو عدمه في القيامة).

ولو جئنا إلى شرط وحدة المكان، لوجدنا أن الموقف الأول في القيامة لا يشتمل على السؤال لأنه موقف تملأه الحيرة والذهول والخوف، بينما يشتمل موقف الحساب على الميزان وتطاير الكتب والصراط وهو موقف السؤال في القيامة باعتبار وجود الاستعدادات اللازمة للمسؤول في الاعراب عن اجاباته، وكما يبدو أن الموقفان يختلفان من حيث الوحدة المكانية وعلى هذا يرتفع التناقض في القضيتين.

مساءلة البعض وإعفاء آخرين:

اما الشرط الآخر فهو وحدة المحمول، وهنا هو وحدة المسؤول، أي الأفراد الذين يستنطقون ويستجوبون أو لا يستجوبون، وكما نعم أن الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث أداء التكليفات الشرعية، وعليه فان في القيامة من يسأل ومنهم من لا يسأل لأن السؤال لا يشمل الجميع، فخواص الشيعة مثلاً ليس لديهم ذنوباً و أنهم كفروا عن سيئاتهم في دار الدنيا وأخلصوا التوبة لله فهم حينئذ في حلٍّ من مسألة السؤال والحساب في ذلك اليوم.

عدم تعلق الضريبة بالسفن الخالية من الشحنات:

فقد نقلت رواية عن الإمام الصادق (ع) نقلها صاحب البحار، مثلاً رائعاً حول موضوع المسائلة في القيامة حيث شبّه الإمام (ع) الحالة بوجود سفينتين قد مخرتا عباب البحر، احداهما محملة بالبضائع والأخرى خالية من أية بضاعة، وما ان تصل السفينتان إلى جمرك الميناء حتى يباشر رجال الجمارك بتقدير الضريبة المترتبة على حمل البضائع، وهنا يتساءل الإمام (ع) قائلاً: فأي سفينة سيطول مكوثها في الميناء وأيتهنّ سيأذن لها بمعاودة الحركة في البحر؟ وبالتأكيد سيأذن للسفينة الخاوية من البضائع بمواصلة مسيرها لأنها في منأىً عن دفع رسوم الموانئ، والبحار، أما تلك السفينة المحملّة بالبضائع فستتأخر في الميناء حتى يتمكن رجال الجمارك من تقييم بضاعتها المحمولة وتحديد المبالغ المفترض دفعها كرسوم للابحار بالبضائع. وهكذا الحال بالنسبة للإنسان الذي قد حض حساباته وقضى ديونه وذممه في دار الدنيا، فهو عندما يموت ينتقل إلى العالم الآخر وليس في ذمته شيء فهو قد أدى عباداته من صلاة وصيام وحج وزكاة، ودفع نفقات عياله، ولم يظلم أحداً أو يبخسه شيئاً من حقوقه وأدّى حقوق الوالدين والجار والأقربون بحيث يصدق عليه أن يقال له انه كان رجلاً مسلماً حقيقياً ملتزماً، وبذلك فهو يجنّب نفسه الحساب والمسائلة وطول الوقوف في عرصات القيامة.

وطبقاً للرواية الواردة في كتاب لآلئ الأخبار فان هكذا أفراد ما أن يبعثوا من قبورهم عند قيام الساعة حتى يجدوا مراكباً قد أعدّت لهمن فيمتطي المؤمن مركبه فينطلق به بطرفة عين واحدة إلى مأواه في الجنان. وحينها يتساءل المؤمن إذاً أين الحساب والكتاب والميزان والصراط؟ وأي شيء هذا المركب؟ فيأتيه الجواب، أن مركبك هذا هو المسجد الذي أنست به في دار الدنيا وها هو اليوم قد أتاك بهيئته الملكوتية لأجل أن ينقلك إلى مأواك الجنة بكل هناء، وبالطبع عندما نقول أن المرء المؤمن قد لا يكون عنده ذنب فهو معصوم، ومرادنا بالعصمة هنا هم خصوص المعصومين الأربعة عشر (ع)، أما الآخرون الذين تصدر عنهم المعصية ويبدر عنهم الخطأ أو الخطيئة ثم يتوبون إلى الله (عز وجل) منه فهم وكما تشير نصوص الروايات الشريفة كمن لم يذنب (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)٦**[6]**، وفوق ذلك فان الله تعالى يعده أن يبدل سيئاته حسنات لأنه طهر تلك السيئات بالتوبة، يقول تعالى **(فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)** (سورة الفرقان, الآية: ٧٠). وعلى ذلك يكون المرء الذي قد ودع دار الدنيا بسريرة نقيّة وثوب طاهر قد أعرض عن الحساب وسلم من التأخير في عرصات القيامة، ولو افترضنا أن العبد مات وعليه شيء من الذنوب لم يتب عنها، فيصار به إلى عذاب البرزخ حتى يطهر ثم يرد المحشر طاهراً نقياًن وهذا المعنى نقل عن الإمام الرضا (ع) عندما قال: انما هذا خاص بكم (الشيعة) فأنتم الذين لا تسألون يومذاك.

---

٦ **[6]** سفينة البحار، (ج١، ص١٢٧).

وروي عن الإمام الصادق (ع) قوله: من احب علياً (ع) وعادى أعدائه ثم أذنب فمات دون أن يتوب من ذنبه يصار به إلى البرزخ فيلبث هناك ما شاء الله (تعالى) حتى يطهر لكي يرد القيامة وهو لا ذنب عليه، وعندها لا يُسأل عن ذنبه لأنه قد أوفاه وطهره في برزخه، ثم يقول الإمام (ع): ولكني أخاف عليكم عذاب البرزخ، اما شفاعتنا فانكم تنالوها في القيامة.

إذاً أيها الأعزاء ينبغي علينا المثابرة والسعي والجد في دار الدنيا وقبل فوات الأوان بحلول الأجل المحتوم لكي نصلح أحوالنا وأعمالنا وننقي سرائرنا، لأننا في الواقع لا طاقة لنا على تحمل عذاب البرزخ الإلهي، وها نحن نرى الموت قد تأهب للهجوم علينا وهو يريد أن ينشب مخالبه في أبداننا، فينبغي بنا أن نراه كما هو قريباً منا ونحدث أنفسنا على الدوام أن لعل سنتنا هذه هي آخر سني العمر التي نطويها.

اذخر ليومك ما نبضت فيك العروق   قبل الرحيل ولات حين تأسّف

(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأي آلاء ربّكما تكذبّان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام) (سورة الرحمن، الآيات: ٣٩ ــ ٤١). (لا بشيء من آلائك رب اكذب).

تناسب العذاب البرزخي مع كبر المعصية:

قلنا عن موضوع التناقض الموعوم في هذه الآية القرآنية مع غيرها من الآيات أنه يرتفع بمجرد عدم تحقق أحد الشرائط الثمان آنفة الذكر، وقد تحقق لدينا الآن ارتفاع التناقض من خلال شرط تعدد المكان إذ إن الموقف الأول والمسمى بموقف البعث والنشور لا يشتمل على السؤال باعتبار حالة الدهشة والرعب التي تتملك جميع الخلائق حينذاك وهو موقف يختلف تماماً عن موقف الحساب. ثم ذكرنا وجود التعددية في شرط وحدة المحمول، وقلنا بوجود تعدد الأشخاص الذين يتراوح حالهم بين تحقق الحساب والمسائلة معهم وبين عدمه في القيامة، وقلنا أن المسلّم به هو اعفاء المسلم الموالي لأهل البيت (ع) التائب عن ذنوبه في دار الدنيا أو المطهر في سجن البرزخ وعذابه من الحساب والمسائلة هناك لأنه سيقدم على الآخرة وهو نقي طاهر لا تبعة عليه، وقد أكدت هذه الحقيقة كما قلنا جملة من الروايات الشريفة.

وهنا نبّه إلى أن شكل الذنب وحجمه يتطلب أنواعاً وألواناً من العقوبات والعذاب يتناسب معها، فقد يستدعي ذنب عذاباً برزخياً لمدة سنة واحدة، بينما يتطلب بعض الذنوب عقاباً يشتمل على عذاب برزخي لألف سنة مثلاً، ويتأكد ذلك بالخصوص في موضوع حقوق الآخرين، وعليه وجب الحذر الشديد من مسألة عدم الايفاء بتلك الحقوق أو تعمد غبنها أو انتهاكها، ولكي نتبيّن صورة الخطر المرعب هذا، نطالع سوية هذه القصة:

سنة من العذاب لأجل حقوق الناس:

ذكر المرحوم الحاج الشيخ النوري في كتابه دار السلام نقلاً عن المرحوم الحاج السيد محمد الأصفهاني (وهو من كبار علماء أصفهان) أنه قال: بعد مضي عام واحد على وفاة المرحوم والدي، شاهدت في ليلتي تلك في عالم الرؤيا والدي وسألته عن أحواله فأجابني لقد كنت في عناء شديد لم افرغ منه نهائياً إلاّ يوم أمس، فعجبت لقوله وسألته عن سبب عنائه ذاك؟ قال: لقد كنت مديناً بثمانية عشر قراناً ١[1] للسقا المعروف بمشهدي ٢[2] رضا ونسيت أن اوصي بها في وصيتي لأجل ترد إليه، ولقد صرت إلى اليم العذاب منذ ساعة وفاتي وحتى يوم أمس حينما وهب (المشهدي رضا) لي حقه الذي بذمتي، وأنا الآن في حال

---

١ [1] القران: أصغر عملة نقدية إيرانية كانت تستخدم في التداول إلى حد قريب وتسمى اليوم ريالاً.

٢ [2] المشهدي: لقب يضاف للمرء المسلم الذي يوفقه الله تعالى بزيارة مدينة مشهد حيث ضريح الإمام الثامن علي بن موسى الرضا (ع).

حسن. يقول السيد محمد الاصفهاني، كانت هذه الرؤيا حينما كنت مقيماً في مدينة النجف الأشرف فسارعت إثرها إلى كتابة رسالة إلى اخوتي في مدينة اصفهان وضمّنتها موضوع الرؤيا وسألتهم التحقق من مسألة الدين الذي كان في ذمة والدي وطلبت منهم تسديده لصاحبه، ولما وصلت رسالتي لهم ذهبوا إلى المشهدي رضا السقا وسألوه عن دين والدي فأجابهم بالايجاب وقال لهم: لقد كان لي بذمته ثمانية عشر قراناً، ولكنه قد مات وضاع عليّ حقي لأنني لم آخذ عليه حينها سنداً بالمبلغ، وعزفت عن المطالبة بحقي لأنني ظننت أنها ستكون عقيمة لعدم وجود الدليل على حقي، وبعد مرور عام على وفاة والدكم تذكرت الدين فحدثتي نفسي أن والدكم قد قصّر بحقي عندما لم يكتب لي بالدين، بل انه لم يتجرأ أن يذكره في كتاب وصيته، فقلت لأهبها له على حب جده رسول الله (ص) لكي لا يعذّب عليها، وهنا سارع اخوتي بدفع مبلغ الدين إلى هذا الرجل فاعتذر عن قبوله وامتنع قائلاً: كيف آخذ ما وهبته! فتأمّل عزيزي القارئ وأعلم ان البقاء في عذاب البرزخ مرهون بنوع الذنب وخطره، وأن شيعة علي (ع) يتم تطهير المذنب منهم غير التائب في البرزخ.

تطاول زمان الحساب في القيامة، إمعانٌ في عذاب المذنبين:

اما الوجه الثالث في باب حل اشكال التناقص فهو كيفية السؤال، فهل هو سؤال استفهامي؟ ام هو سؤال استنكاري؟، فمرة يسال المرء ماذا عملت؟ بقصد أن يطلع السائل على ما فعله المسؤول لأن السائل لا يدري، ومرة يسأل المرء ماذا عملت؟ بقصد التوبيخ وهو يعني في

نص سؤاله لماذا تجرّأت على فعل هذا الأمر القبيح استنكاراً وتوبيخاً، لذلك كان موقف البعث عندما يخرج المرء رأسه من قبره وينفض عنه التراب وهو على هيئته الحقيقية فلا ضرورة حينها للسؤال الاستفهامي لأن الله تعالى يظهر كل ما أخفاه العبد في دنياه، في يوم القيامة, بينما يكون السؤال في موقف الحساب على هيئة توبيخية واستنكارية، ولذلك يقف البعض ألف سنة يوبّخ ويعنف زيادة في عذابه لا ما يذهب إليه البعض من أن سؤال الحساب استفهامي (وهو السؤال الموجه للمسؤول بقصد التعرف على ما فعل وما نوى)، وخير دليل على ما نقول هو قوله تعالى في الآية اللاحقة **(يعرف المجرمون بسيماهم)** أي أن أعمال المجرمين تتجسد في ملامحهم وصورهم فتعرف منهم حينئذ حقيقة ذنوبهم ومعاصيهم.

كشف غطاء المُلك عن الملكوت:

(بسيماهم) السيماء هي ظهور حالات وأفكار الإنسان على قسمات الوجه وملامحه فيعرف حينذاك المجرمون من خلال قسمات وجوههم، السارق يبدو على سيماه ما يدلل على انه سارق، وكل فرد مذنب يعكس على قسمات وجهه ما أبطن وأخفى من أعمال وعقائد. فكما أن الأثر يترتب على العم الصالح الذي يفعله المؤمن في الآخرة، فكذلك أيضاً تترتب الآثار على الأعمال المشينة التي يرتكبها المجرمون والمذنبون فتظهر جلية في القيامة عندما يكشف الغطاء المتمثل بعالم الملك عن عالم الملكوت، فالإيمان والعمل الصالح يتجلّى نورهما في ذلك اليوم فيبصر العبد المؤمن سبيله بهما وهو يجتاز الصراط بينما تعم الكافر والمنافق

ظلمات المعاصي والنفاق والكفر فلا يبصر شيئاً ولا يستطيع حتى أن ينتفع من أنوار المؤمنين في ذات الحال كما يقول الله (عز وجل) **(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً)** (سورة الحديد, الآية: ١٣).

نماذج من هيئات بعض المجرمين في عالم الملكوت:

وهنا نستعرض سوية بعض الصور الملكوتية لبعض المذنبين كما نقلها صاحب تفسير مجمع البيان عن رسول الله (ص)، يقو (ص) (يرد النمام المحشر يوم القيامة وهو على هيئة القرد) بحيث ان جميع من يراه يعرفه على أنه نمام٣[3] ومثير للتشاحن والبغضاء بين الناس (وبطبيعة الحال لا تستدعي الحاجة ان يوجه إليه سؤال يستفهم فيه عن عمله).

(اما آكل السحت (كنقص الكيل والميزان) فيأتي على هيئة الخنزير ويأتي مؤذي جاره وهو مقطوع اليد أو الرجل، أما آكل الربا فيأتي وقد انتفخت بطنه حتى أنه لا يطيق معها الوقوف أو المشي كما يقول عز وجل **(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس)** (سورة البقرة، الآية: ٢٧٥). اما العلماء الذين لا يعملون بعلمهم فيردون المحشر وهم ينهشون بألسنتهم، ويأتي المتكبّرون وقد لبسوا جبباً من نار ويرد ذو الوجهين

---

٣ [3] النمّام: هو الشخص الذي يسمع كلاماً ما من أحد الأفراد فيعمد إلى نقله للآخرين متوخيّاً اثارة العداوة والبغضاء والاحن بينهم بقصد التفريق.

واللسانين (ممن يقابل الناس بوجه جميل ولسان طيب ثم يكيل لهم السوء والأذى بوجه كالح في غيابهم) المحشر بلسانين من نار واحد قد اندلع من فيه والآخر من قفاه، أما المرء المعجب بعمله فيرد المحشر وهو أصم ابكم، ويرد الظالم الجائر إلى المحشر وهو أعمى).

اسوداد الوجه وارتعاش اليد من علامات المجرمين:

ومن الوجوه الأخرى في معنى الآية الكريمة، هو أن يرد المجرمون المحشر وقد اسودت وجوههم واسوداد الوجه وحده كاف كدليل على جرم صاحبه كما أن بياض الوجه دليل على صلاح صاحبه ومن سيماء المجرمين الأخرى التي يعرفون بها في القيامة هو ارتعاش اليد واستلامهم لصحائف أعمالهم بشمالهم (بأياديهم اليسرى) كما نقرأ في قوله تعالى (**فأمّا من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه**) (سورة الحاقة، الآية: ٢٥). وتصور آية اخرى مظهراً آخر يعرب عن الاحتقار والتوهين للمجرمين كما في قوله تعالى (**وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبوراً**) (سورة الانشقاق الآية: ١٠ ــ ١١).

إلقاء المجرمين في النار بجمع رؤوسهم إلى أقدامهم:

(**فيؤخذ بالنواصي والاقدام**) النواصي جمع ناصية وهي مقدم شعر الرأس والجبهة ومعنى الآية هو أن الله يأمر بامساك المجرم من رأسه من ناحية ناصيته ثم يجمع إلى أقدامه، أو يمسك من رأسه لوحده من جانب ويمسك من أقدامه من جانب آخر ثم يلقى به في نار جهنم،

أو أن يمسك البعض منهم من أحد هذين الموضعين من بدنه والبعض الآخر من الموضع الآخر ثم يلقى بهم في نار جهنم على هذا الوضع المزري المشين.

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) إنما هذه الأخبار نعم لكم، فبأيها لا تؤمنان ولا تصدقان يا معشر الناس والجنّة؟!

لا تسكن روعك حتى تستيقن العفو من ربك:

فيا أيها الإنسان اعلم أنك لو عفوت عن الذنب ولويت عنه عنان نفسك فلم تباشره برأسك هذا لوردت القيامة في غدك الآتي وأنت مرفوع الرأس شامخاً، ولكنك ان ملأت هذا الرأس (والعياذ بالله) من ثقل الكبر فستجد رأسك في غد القيامة الطويل قد تمرغ بأديم الأرض ذلاً وهواناً، وعليه فلنسائل أنفسنا هل تيسّر لدينا الحصول على براءة من عذاب الله وسخطه أم لا؟ وهل أن يقيناً أن ألوان العذاب تلك لم تعد لنا بالذات؟ ترى هل نحن على يقين من أننا سنستقبل الموت القادم وقد تبنا؟ ترى هل نزعنا عن أنفسنا لباس الفضلة وتهيّأنا للموت المسرع نحونا ؟ بل هل جعلنا من قول الله سبحانه وتعالى **(انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً)** (سورة المعارج, الآية: ٦-٧). منهجاً استعدادياً للقاء الآخرة وفراق الدنيا الحتمي؟

فلنعلم ان الله (عز وجل) لم ينفك يحذّرنا وينبأنا لكي نستعد في البقية المشكوكة الباقية من العمر لمثل تلك الأهوال الشديدة والعقبات الكؤودة فنحيد عنها باصلاح ذواتنا وبناء ما أفسدناه في سالف عمرنا، فنعمر لما هو آتينا (ان شاء الله تعالى).

اسحبوني على وجهي في النار عساني لا أعود لغفلتي!

ولعل مما يروض النفس الصعبة هذه الحادثة التي نقلها كتاب قصص العلماء في موضوع فضائل سماحة الشيخ المهدي، المهدي كان الشيخ المهدي رجلاً بكاءً من خشية الله عز وجل، وكان في بعض الأحيان وعندما يستشعر أن الغفلة قد ألهته عن ذكر الله والآخرة يدعو ولده وخادمه يصحبانه إلى ظاهر المدينة في قفر من القفار، ثم يجمعون شيئاً من أشواك الأرض وأعشابها ثم يأججوا فيه النار، ثم يلتفت الشيخ المهدي إلى ولد وخادمه ويأمرهما أن يأخذوا بلحيته ويسحبانه على وجهه في النار ويقولا له: (أيها الغافل، هذه نار الدنيا وأنت لا تطيقها، فكيف بك بعذاب أعده الله في الآخرة من غضبه وسخطه) ثم يوصيهما أن لا تأخذهما به شفقة فيدعا ما أُمرا به!!

(آه من ذنوب أنا ناسيها وأنت محصيها).

(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام* فبأي آلاء ربكما تكذبان * هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون* يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان)

(سورة الرحمن، الآيات: ٤١ ــ ٤٥). (لا بشيء من آلائك رب اكذب).

سيماء المؤمن والكفار في عصر ظهرو المهدي (عج):

ذكرنا فيما سبق ان الآية المباركة تشير إلى تحقق معرفة المجرمين والكافرين من خلال سيماهم وعليه لا تعود هناك حاجة إلى الاستفهام من اولئك النفر عن اسمائهم أو أعمالهم أو سيئاتهم، وتفيد بعض الروايات المروية من طرق أهل البيت (ع) بصدد هذه الآية ان من مصاديق هذه الآية هو ظهور الإمام الحجة بن الحسن المهدي(عج) يقول الإمام أبو عبد الله الصادق (ع): (ذلك لو قام قائمنا، أعطاه الله السيماء، فيأمر بالكافرين فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ثم يخبطهم بالسيف خبطاً)٤[4] نعم ففي ذلك الرفان ينقش على جبهة كل كافر (وهذا كافر بالله)، وينقش كذلك على جبهة كل مؤمن بأحرف من نور (هذا مؤمن بالله).

وعن الدجال الملعون ورد أيضاً أنه أعور ومكتوب على جبهته (هذا كافر بالله).

وحدة الإنسان والحيوان من حيث القيمة في الجوانب الماديّة:

---

٤ [4] تفسير نور الثقلين/ المجلد الخامس ــ ص ١٩٦ نقلاً عن كتاب بصائر الدرجات.

(فيؤخذ بالنواصي والأقدام) أي فيؤخذ بمقدم رأس المجرم وقدميه فيجمعا سوية ثم يلقى به في النار. ولنا هنا وقفة قصيرة لتوضيح سبب ذكر الآية لرأس الإنسان، فكما نعرف أن احترام رأس الإنسان في الواقع يعود إلى تحقق ذكر الله من خلاله، وحصول عملية السجود لله عز وجل بواسطته ولو افترضنا عدم خضوع رأس الإنسان (والعياذ بالله) لله رب العالمين، فما الفرق حينئذ بينه وبين رأس الحيوان؟ بل وبماذا سيمتاز عليه؟ لأننا ندري ان قيمة الإنسان تكمن في حيازته للجوانب المعنوية التي يفتقر وجودها لدى الحيوان، وعليه لو فرّط الإنسان تكمن في حيازته للجوانب المعنوية التي يفتقر وجودها لدى الحيوان، وعليه لو فرّط الإنسان بتلك الجنبات المعنوية المؤلّفة للقيمة الإنسانية فحينئذ لن يكون لكلمة (إنسان) إي معنىً، بل يتهاوى الإنسان إلى منزلة الحيوان، عندما لا يتبقّى لديه سوى الجوانب المادية، ولعل الكثير من الحيوانات تمتلك من القدرات المادية ما تفوق مثيلتها التي يمتلكها مثل اولئك النفر من البشر. فالهدهد مثلاً لديه من القدرة على تشخيص محل وجود الماء تصل إلى مسافة عدة أميال، والكركون يمتلك حاسة شم قوية تمكّنه من شم الروائح النفاذة من مصادرها من على مسافة عدة فراسخ، أما عن النطق، فان الكثير من الحيوانات باستطاعتها الاعراب عن رغباتها ومقاصدها بعدة وسائل، وأحد تلك الوسائل هو اللسان، فهي تتخاطب بلغات خاصة فيما بينها، وعن حاسة السمع، فان البعوضة تمتلك حاسة سمع أقوى من تلك التي لدى الإنسان، فهي بإمكانها سماع الترددات والذبذبات الناشئة عن اهتزاز الهواء عندما يحاول

أحدنا رفع يده لطردها مثلاً، فتلوذ بالفرار قبل ان يستطيع النيل منها بسوء، وفي الصناعة والهندسة نجد أن النحل هو أعظم المهندسين الذين يختصون بهندسة العمارات والانشاءات، فهو ينشأ البيوت السداسية المنتظمة دون أن يلجأ على استخدام الوسائل الهندسية المساعدة في عمليات التصميم والانشاء.

من كل ما سبق يتبين لنا أن الإنسان لا يختلف عن الحيوان من حيث الجوانب والقدرات المادية التي يمتلكها، فهو له رأس كما للحيوانات رؤوس، ولكن هذا الرأس لو تنوّر بنور العقل وخضع لربه (تعالى) وتواضع له ساجداً على الأرض وارتبط بعالم الارواح، لصار عزيزاً كريماً، كما أراد الله (عز وجل) له ذلك حين قال **(ولقد كرّمنا بني آدم)** (سورة الاسراء, الآية: ٧٠). وقوله **(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)** (سورة المنافقون, الآية: ٨).

الجنّة ليست محل عبادة:

ويروى عن المؤمنين يستقر بهم الحال في الجنان، أن أنواراً خاصة تشع عليهم فيخرّون للأذقان سجّداً، فيأتيهم النداء: (ارفعوا رؤوسكم، ليس ها هنا محل سجود، حسبكم سجودكم في دار الدنيا). ولأن الجنة مكان الملك والسلطنة لا مكان العبودية والخضوع، مكان الحصاد وجني الثمار لا مكان البذور والغرس.

بينما يؤخذ بنواصي وأقدام المجرمين وقد غُلّوا بالسلاسل الحديدية ثم يلقى بهم في نار جهنم لأنهم يستحقون هذه النتيجة المرّة باعتبارهم لا شأن ولا وزن لهم بالمرّة.

غلّ أهل النار بالسلاسل والأصفاد:

أما عن دواعي تقييد أيادي وأرجل أهل النار بالقيود والاصفاد والسلاسل ثم الالقاء بهم في جهنم، فتعود إلى ان لنار جهنم السنه لهب وشرر عظيمة، يبلغ من عظمتها ما تستطيع ان تدفع بالأجسام إلى أعلى من فرط حرارتها الهائلة وشدة انفجارات براكينها العنيفة، لذلك كانت الاغلال والاصفاد والقيود والسلاسل الحديدية ذات السبعين ذراعاً على حد وصف القرآن المجيد **(خذوه فغلّوه * ثم الجحيم صلّوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه).** (سورة الحاقة، الآية: ٣٠ ــ ٣٢). لتثقل من وزن أبدان أهل النار فينتهون حيها إلى قعر جهنم نزلاً.

هذه النار التي كذّبتم:

(هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) (سورة الرحمن, الآية: ٤٣). هذه الآية تشتمل على التقريع العنيف والتعنيف الشديد وكفى بها عذاباً معنوياً كبيراً يتلقاه المجرمون والآثمون، فحينما يعرض اولئك المذنبون على النار يقال لهم، أنها جهنم التي كنتم بها تكذبون، ومن ذكرها تسخرون ها قد رأيتموها عياناً ومعنى كلمة (مجرمون) في هذه الآية على الظاهر هو

(منكرون) لأن حقيقة جرمهم الكبيرة تنبع من انكارهم لوجود جهنم، ويعود منشأ انكارهم هذا إلى جهلهم المركب الذي جزّأهم على انكار هذه الحقيقة.

الانكار، منشأهُ ضحالة الفكر وسطحيّة التفكير:

فلو أراد أحد أن يُنكر شيئاً ما وجوداً (من حيث القول بعدميّته جزماً وقطعاً) لوجب عليه الاحاطة التامة بجميع جوانب الشيء مورد الانكار، وإلاّ فإن الانكار حينئذ لا يعدو أن يكون مجرد زعم وهراء، وعليه فان الذي ينكر وجود الجنة أو النار هو في الواقع زعيم بأنه قد أحاط بجميع عوالم الدنيا والآخرة والملك والملكوت، ظواهرها وبواطنها بحيث أنه وصل إلى درجة اليقين في عدم وجود الخبر المقنع وعليه أنكر وجود الجنة أو النار بينما هو في واقع أمره لم يتجاوز حدود التراب المحيط بأقدامه، ومثل هذا الإنكار يعد دليل على حماقة المنكر وقلة عقله وضحالة فكره، لأنه من المسلّم به أن كلمّا وفر عقل المرء كثر بذلك احتماله للمحتملات كما نقرأ في نص القول المأثور الآتي (إنما يعرف عقل المرء بكثرة محتملاته) إذاً فهو لا يسارع إلى انكار ما لم يعلم بل يحمل ما لا يعلمه على محمل الامكان والجواز.

فلو افترضنا أن مخبراً أخبر بخبر ما وهو ممن يشهد له بالصدق والعقل، فيكفينا في اخباره هذا دليلاً على صحة ما أخبر به خصوصاً ولو أن المخبر ذاك كان نبياً أو إماماً فحينها سيقول العقل ان ما أخبر به صحيح قطعاً.

اما لو كان المخبر امرءً عادياً، وأخبرنا أن بعد عالمنا هذا عالم آخر فيه جنة ونار لقال العقل لنا علينا أن لا نقطع بالانكار فلعل ما أخبر به صحيح. إذاً عندما يقول القرآن العظيم أن محمداً (ص) هو رسول الله تعالى لقال العقل بلا تردد قد قبلت ما أخبرت به أيها الكتاب قطعاً هو رسول الله (ص).

آية ورواية عن النار:

يقول المولى (سبحانه وتعالى) في كتابه الكريم **(وان جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزءٌ مقسوم)** (سورة الحجر، الآية: ٤٣ ــ ٤٤). أي أن جهنم هي ما وعد بها المجرمون والكافرون، وجهنم هذه لها سبعة أبواب (أي سبع طباق لكل طبقة فئة من اولئك النفر تختص بهم تلك الطبقة وبألوان من العذاب خاصة، وتأتينا رواية شريفة تشرح لنا هذه الآية، تقول الرواية (إن لجهنم سبع دركات (طبقات أو أبواب) كل دركٍ فيها سبعون ألف جبل لكل جبل سبعون ألف وادٍ ولكل وادٍ سبعون ألف قعر، في كل قعر سبعون ألف قصر، وفي كل قصر سبعون الف صندوق من نار تضجّ بالحيّات والعقارب)!! إن مثل هذه الآيات والروايات المفرعة التي نقرأها الآن لو لم تكن صادرة عن كتاب الله الحكيم وأقوال المعصومين (ع) لقال العقل عنها لعلّها كذلك وعسى أن تكون صحيحة، ولكنها ولأنها صدرت عن القرآن الكريم وأحاديث المعصومين (ع) فهي مؤكدة يستيقنها العقل ولا تحتمل الشك أو الترديد. فقد جاء رجل إلى الإمام الرضا (ع) وسأله: يا بن رسول الله (ص) أخبرني

عن الجنة والنار أهما مخلوقتان؟ فردّ عليه الإمام (ع): بلى، وان رسول الله دخل الجنّة ورأى النار لما عرج به إلى السماء٥[5].

ويقول سيد الأولى وفخر الكائنات محمد (ص) (عندما عرج بي إلى السماء، أتى بي جبريل حتى وصلنا إلى مالك خازن النار، فسألته أن يرفع عن جهنم غطاءها، فردّ علي مالك: إنك لا تطيق ذلك يا محمد (ص)، فسألته أن يريني جانباً منها فكشف مالك شيئاً من غطائها وإذا بلهيبها يتأجج عالياً فلم يطق رسول الله (ص)، رؤية ذلك). نعم إنها جهنم، ولو أن قطرة من الزقوم سقطت على الدنيا لاحترقت، ولو أن أحد خزنة جهنم أطّل على أهل الدنيا بهيئته المخفية المهيبة لخرّ الناس مغشياً عليهم من شدة الرعب. وروي أن رسول الله (ص) بعدما عرج به إلى السماء ورأى النار لم ير ضاحكاً حتى قبضه الله تعالى إليه، فالرسول (ص) شهد الأمر وأبلغنا به ونحن سمعناه، وها نحن نلهو عنه، فلنعلم ان المرء إذا ما طهر ظهر عنده التأثر بهذه الأخبار، ولكننا للأسف شغلنا أنفسنا بمشاغل اصطنعناها فاستغرقت منّا أعمارنا ولم يعد فيها ما يكفي للتشاغل بأنباء الآخرة!!

انشغال يحيى (ع) في صباه بذكر الموت:

٥ [5] تفسير نور الثقلين/ (ج٥ ــ ص١٩٦) نقلاً عن كتاب عيون أخبار الرضا (ع) للصدوق.

ورد في كتاب لآلئ الأخبار وعدة الداعي وسائر الكتب الاخرى، عن رسول الله (ص) في شرح قوله تعالى (وآتيناه الحكم صبيا). (سورة مريم, الآية: ١٢). أنَّه قال (ع) (كان من زهد يحيى بن زكريا (ع) أنه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والرهبان عليهم مدارع الشعر وبرانس الصوف وإذا هم فرقوا تراقيهم وسلكوا فيها السلاسل وشدّوها إلى اسواري المسجد. فلما نظر إلى ذلك، اتى أمه فقال لها: يا اماه انسجي لي مدرعة من شعر وبرنساً من صوف حتى آتي بيت المقدس فأعبد الله مع الأحبار والرهبان فقالت له امه: حتى يأذن نبي الله في ذلك، فدخل زكريا بمقالة يحيى فقال زكريا: ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت صبي صغير؟ فقال له: يا أبت أما رأيت من هو اصغر سناً مني قد ذاق الموت؟ قال بلى ثم قال لأمه انسجي له مدرعة من شعر وبرنساً من صوف، ففعلت. فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه، ثم أتى بيت المقدس فأقبل يعبد الله عز وجل مع الأحبار حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه. فنظر ذات يوم إلى ما قد نحل من جسمه فبكى، فأوحى الله تعالى: يا يحيى أتبكي مما نحل من جسمك وعزتي وجلالي لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج، فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه وبدا للناظرين أضراسه. فبلغ أمه ذلك فدخلت عليه واقبل زكريا واجتمع الأحبار والرهبان فأخبروه بذهاب لحم خديه، فقال ما شعرت بذلك، فقام يحيى فنفض مدرعته، فأخذته امه فقالت: أتأذن لي يا بني ان اتخذ لك قطعتي لبود يواريان أضراسك وينشفان دموعك؟ فقال لها، شأنك، فاتخذت له

امه ذلك ووضعتهما فابتلتا من دموع عينيه فحسر عن ذراعية ثم أخذهما وعصرهما فتحدرت الدموع بين أصابعه، فنظر زكريا إلى ابنه وإلى دموع عينيه، فرفع رأسه إلى السماء، وقال (اللهم هذا ابني وهذه دموع عينيه وأنت ارحم الراحمين).

زكريا يحدث قومه بحديث العذاب:

وكان زكريا (ع) إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل يتلفت يميناً وشمالاً فان رأى يحيى لم يذكر جنة ولا ناراً، فجلس ذات يوم يعظهم، فالتفت فلم ير يحيى فأنشأ يقول: حدثني حبيبي جبرئيل عن الله تبارك وتعالى ان في جهنم جبلاً يقال له السكران، في اصل ذلك الجبل وادياً يقال له الغضبان، يغضب لغضب الرحمن تبارك وتعالى، في ذلك الوادي جب قامته مائة عام، في ذلك الجب توابيت من نار، في تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وسلاسل من نار وأغلال من نار. فرفع يحيى (ع) رأسه فقال: واغفلتاه من السكران ثم اقبل هائماً على وجهه، فقام زكريا (ع) من مجلسه ودخل على ام يحيى فقال لها: يا ام يحيى قومي فاطلبي يحيى فاني قد تخوفت أن لا نراه إلاّ وقد ذاق الموت، فقامت فخرجت في طلبه حتى مرت براعي غنم قالت له: يا راعي هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا؟ فقال لها لعلك تطلبين يحيى بن زكريا؟ قالت نعم ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه فقال إني تركته الساعة على عقبه ثنية كذا وكذا ناقعاً على قدميه في الماء رافعاً بصره إلى السماء يقول: وعزتك يا مولاي لا ذقت بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلتي منك، فاقبلوا إليه: ولما رأته امه دنت منه فأخذت

برأسه فوضعته بين ثدييها وهي تناشده بالله أن ينطلق معها إلى المنزل. فقال زكريا: يا بني ما يدعوك إلى هذا، إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقر بك عيني؟ قال: أنت أمرتني بذلك يا أبه قال ومتى ذلك يا بني؟ قال: ألست القائل: إن بين الجنة والنار لعقبة لا يجوزها إلاّ البكاءون من خشية الله، قال بلى، فجد واجتهد وشأنك غير شأني. ثم كانت نهاية يحيى بن زكريا (ع) على يد ملك تلك البلدة وكان للملك ابنة تعجبه وكان يريد أن يتزوجها! فلما بلغ أمها إن يحيى (ع) كان ينهى عن نكاح ابنة الاخت، أدخلت ابنتها مزينة على الملك، فلما رآها سألها عن حاجتها قالت ما حاجتي ان تذبح يحيى بن زكريا, فدعا بطشت ودعا يحي فذبحه، وكانوا يعتقدون إن الدم المسفوح من القتيل لو ساح على الأرض لعمهم البلاء، فلذلك أمر بالطشت! وذاك الحسين (ع) مرملٌ قد ساح الدم منه في الفلوات.

واهٍ لدمك الطهر قد فاض على البقاع فهلاّ أذنت يا يحى العزيز فآتيك بالطشت

(هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٤٣ ــ ٤٥). (لا بشيء من آلائك رب اكذّب).

الزقّوم والضريع طعام أهل النار:

ومن الأخبار المهمّة والمفجعة هي أخبار طعام وشراب أهل النار، حيث تمت الاشارة إلى ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم، فأهل النار يأكلون ويشربون تماماً كأهل الجنة، ولهم ألوان خاصة من الاطعمة والأشربة.

وأحد تلك الاطعمة (الزقوم) وهي شجرة عظيمة مهيبة تنبت في قعر جهنم ولها ثمر يقال له الزقوم أيضاً وهي طعام الآثمين والمذنبين كما يتأكد في قوله تعالى **(إن شجرة الزقوم* طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم)** (سورة الدخان, الآية: ٤٣ ــ ٤٦). اما هيئة هذه الشجرة وهيئة ثمرتها فلها هيئة ظاهرية مقززة تشمئز منها النفوس ان لم تكن الفرائص مرتعدة منها، وهي كما وصفها المولى عز وجل في كتابه **(طلعها كأنه رؤوس الشياطين)** (سورة الصافات, الآية: ٦٥). أما عن طعمها ومذاقها فهو بشكل لو أن المرارة في هذه الدنيا اجتمعت كلها سوية لما شكلت في ازاء مرارة هذه الثمرة من الشجرة

المخيفة هذه إلاّ النزر اليسير من مرارتها١[1]، ومن الطبيعي أن يكون إدراك هذه الحقيقة صعب علينا ومتعسراً لأننا نعيش في عالم يختلف عن ذلك العالم من حيث موجوداته وتفاصيله، وشأننا في ذلك كشأن الطفل وهو لم يزل جنيناً في رحم أمه لم يخرج إلى عالمنا ليدرك حقيقة ما هو موجود هنا، ويبقى تحقق الادراك مرهون بخروج الجنين إلى الدنيا، ونحن أيضاً هكذا, فطالما لا زلنا في رحم عالم الطبع المادي فنحن لا نستطيع أن نحير إدراكاً لتلك الحقائق على واقعها حتى ننتقل إلى رحبة ذلك العالم الجديد.

وتنقل الروايات عن ثمرة الزقوم ما يفيد أن من يبتلعها من أهل النار لا يلبث حتى تتقطع أحشائه إرباً إربا.

اما الضريع فهو الآخر من أطعمة أهل النار التي ذكرها القرآن الكريم، وهو كمثيله الزقوم يقطع الأحشاء من شدة حرارته ولا يتجرعه المجرمون من فرط مرارته.

الحميم، الماء المغلي في أقصى درجات الحرارة.

وكما أن أطعمة أهل النار لها ألوان عديدة، فان أشربتهم هي الأخرى لها أنواع متعددة، وأحد هذه الأشربة الوارد ذكرها في القرآن الكريم في عدة مواضع منه هو (الحميم)، ومعنى كلمة (الحميم) هو الماء المغلي، أمّا كلمة (آن) فهي تعني (بالغ) وهي صفة للحميم

---

١ [1] لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى كتاب الدار الأخرى في تفسير سورة الواقعة للسيد المؤلف(رض).

وآن مشتقة من انى ــ يأنى أي بلغ ــ يبلغ، فماء جهنم يصل إلى أقصى درجات السخونة والغليان بحيث ان حراراته تقطع لحم وجه الإنسان المجرم وتسقطه بمجرد أن يقرّبه من فيه ليشرب منه، فكيف به إذاً لو دخل جوف المجرمين؟!، يقول تعالى **(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً)** (سورة الكهف، الآية: ٢٩).

أما النوع الآخر من الأشربة الجهنميّة فهو (الغسلين)، وهو اسم لحفيرة في جهنم تتجمع فيها الأدران والأوساخ والقيوح والدماء التي تخرج عن أبدان أهل النار، وهذا الشراب يعاني منه أهل النار أشد العناء من شدة نتنه وعفن ريحه.

وهناك نوع آخر من الشراب هو (الصديد) وهو قيح فروج الزناة.

والآن انتبهوا إلى هذه الحقيقة وهي، ان في جهنم أماكن يتناول فيها أهلها الطعام كالزقوم والضريع، وهناك أماكن لتناول المشروبات كالحميم والغسلين والصديد.

آلام الجوع والعطش عند أهل النار:

(يطوفون بينها وبين حميم آن)، ثم لا يلبث أهل النار حتى يسلّط الله عليهم آلام الجوع فيدفعهم إلى السعي بأقدامهم إلى شجرة الزقوم (وهو ألم وعذاب آخر يشتمل على عناء عظيم) فهم لفرط ما بهم من جوع يلجأون إلى شجرة الزقوم المرّة البشعة علّهم يسدوا من ثمرتها شيئاً فلا يلبثوا حتى يكتوون بنار العطش الشديد الذي يدفعهم إلى السعي نحو الحميم

بعد أن يأخذ منهم كل مأخذ وهم على علم بأن ماء الحميم يغلي من شدة حرارته العالية، فتصوروا مبلغ حرارة عطشهم الذي يدفعهم نحو شرب الحميم؟! أو قناتهم بشرب الغسلين أو الصديد، وهم يعلمون ان الصديد هو السائل الذي تتقيحه فروج الزناة وهو منتن وحار جداً! لكنهم يرضون به شراباً معللين أنفسهم باطفاء جذوة العطش المتقدّة في أحشائهم، فما ان يهترئ أحدهم حميم جهنم حتى تتقطع أمعاءه وأحشاءه كما نقرأ **(كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم)** (سورة محمد (ص)، الآية: ١٥). بل ومن فرط حرارة جهنم وألوان عذابها الاليم تحترق جلود أهل النار، ثم لا يلبثوا حتى يبدلهم الله جلوداً غيرها إمعاناً في العذاب الشديد فيتواصل الألم فيذوقوا العذاب بجرمهم **(كلمّا نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب)** (سورة النساء، الآية: ٥٦). ويروى أن جلود أهل النار تبدل أربعين مرة حينها، لأنه من البديهي وجود ألوان العذاب الاليم في جهنم يستدعي وجود أبدان قادرة على تحمل ذلك العذاب الذي لا ينفك عنهم.

الطواف بين الزقوم والحميم:

ويقوم أهل النار بالتنقّل المتواصل بين الزقوم والضريع وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بعملية الطواف **(يطوفون)** لأجل تأمين الطعام والشراب مؤّملين رفع أذى الجوع وآلام العطش بذلك. تُرى هل يوجد لدينا خبر يشتمل على اكثر من هذا الخبر هولاً ورعباً؟! فو

الله لو أن قلباً تنبّه من غفلته بهذا الخبر لما عادت عيونه تعرف لطعم النوم معنىً من شدّة ما سيتملكه من الخوف والذعر.

وبعد هذا الخطاب الإلهي الاخباري المزلزل يعود الباري (عز وجل) إلى مخاطبة خلقه من الجنّة والنّاس فيقول **(فبأيّ آلاء ربكما تكذبان)**؟ لأن آية **(يطوفون بينها وبين حميم آن)** هي نعمة أخرى باعتبار ان جهنم التي وصفها لنا الله تعالى، وحددت لنا الروايات بعض تفاصيلها هي أمر مطلوب بالعرض (كما قلنا من قبل) لكي يخشى الناس وعموم الخلق نتائج الأعراض عن أوامر الله وفرائضه فيصير مصيرهم إلى الجنة.

وبغير ذلك لا يجد المرء سبيلاً إلى الجنة فيصير إلى النار جزاءً بما كسبت يداه لأن الإنسان يحب العاجلة ويذر الآخرة ويسارع إلى الشهوات الحاضرة.

فمن هنا كان الانذار بالعذاب نعمة، لأن ذلك يدفع العباد إلى التعلق والتوسّل بالوسائل المؤديّة إلى الجنة، فيصلحون أحوالهم ويوفّقون إلى التوبة والانابة هربا وفراراً يحدوهم الخوف من نار جهنم.

في طي الطرق الشاقّة سعادة ولذّة:

ومن جانب آخر يتجلّى وجه نعمة النار للمؤمنين عندما يجتاز المرء المؤمن الصراط وهو يشهد النار توشك أن تأخذه عن يمينه وعن شماله ومن تحت رجليه تقول الروايات (ان الله

(عز وجل) أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتى ابيضّت ثم نفخ عليها ألف عام حتى احمرّت ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة) فما أن يعبر المؤمن الصراط ويصل إلى منزله في الجنة سالماً حتى يطير فرحاً وينتشي سروراً ولعلّنا شاهدنا مثل هذه الحال في حياتنا، فعندما يسافر أحدنا على بلدٍ ما ثم يعود إلى وطنه يحس أنه قد مليء فرحاً وسروراً بعد أن يطوي سفره وقد عانى وكابد من الشدائد والأهوال والصعاب، لأن كثرة المخاطر في الأسفار تولّد لذات كبيرة عندما يطأ المرء أرض وطنه وقد سلم منها فهو حينئذ يشعر بالأمن والاطمئنان، ولأجل ذلك يقول المؤمن الناجي من أخطار النار بمجرد ان يصل الجنة وهو يشعر بالأمن والسلام **(الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن)** (سورة فاطر، الآية: ٣٤). ثم يزيد مقوله **(الحمد لله الذي صدقنا وعده)** (سورة الزمر, الآية: ٧٤).

النار جزاء للقاسية قلوبهم:

سألت ابنة مالك بن دينار أباها لم لا تنام؟ فأجابها أخاف أن يحلّ علي غضب الله وأنا في نومتي!)، فما دام القلب معموراً بخشية الله تعالى فان صلاح المرء مضمون، تخيلّوا ما سيفعل من رأى في منامه رؤيا وقد استيقنها، وهي تعلمه بحلول أجله بعد شهر واحد! أهناك من شك في مسارعته إلى قضاء ديونه وتسديد ما بذمته للآخرين ثم تهالكه في طلب التوبه والصفح والغفران على ما جنته يداه في ما مضى من عمره.

ومن وجوه اعتبار وجود النار وألوان عذابها نعمة هو لأنها ستكون جزاءً وعقاباً للظالمين والجائرين. فالمؤمن بما يملكون من رقة القلوب فهم لا يستطيعون حتى من إيذاء نملة كما هو شأن أميرهم الإمام علي (ع) حيث يقول (والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته)٢[2].

لماذا؟ لأن المؤمنين هيّنون ليّنون فهم لا يطيقون سماع أحوال النار، فكيف بهم لو يشاهدونها؟ بينما أولئك الذين قست قلوبهم فهو لا يرحمون حتى الطفل الرضيع والشيخ الفاني ينبغي لهم محلاًّ ومستقرّاً يكافئ أعمالهم بالحق كما يقول الباري تعالى **(وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)** (سورة الزمر، الآية: ٧٥). فيضع الله كل إنسان في مستقره اللائق به إذاً الحمد لله رب العالمين الذي جعل أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة.

الذكرى تنفع المؤمنين:

ومن وجوه عدّ جهنم وعذابها نعمة هو التذكير المستمر للمؤمنين بها لكي يكونوا على بينّه من أمرها وخطرها، فينتخبوا السبيل الواضح والصراط القويم بما لديهم من فطنة فيجنبّوا أنفسهم اصابة الخطايا وارتكاب الذنوب المؤديّة إلى نيل العقاب الأليم.

---

٢ [2] نهج البلاغة/ الخطبة ٢٢٤.

ولما كانت درجات إيمان المؤمنين متفاوتة فهم سينتظمون في عدة مجاميع، فبعضهم من يتأثر بشكل مؤقّت بهذه الآيات ثم لا يلبث حتى يعود إلى وضعه المشين السابق، وبعضهم من (يبكون ويزيدهم خشوعاً) (سورة الإسراء، الآية: ١٠٩). وفيهم من يستشعر عظمة الله وجلاله في كل آن فإذا بهم قد (خرّوا سجداً وبكيّا) (سورة مريم، الآية: ٥٨).

[٤٧]

(ولمن خاف مقام ربّه جنّتان * فبأيّ آلاء ربّكما تكذبّان) (سورة الرحمن، الآيات: ٤٦ ــ ٤٧).

(لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب).

جنتان للخائفين من شأن ربهم:

وبعد سرد آيات التهديد والوعيد في هذه السورة، يأتي الدور إلى بيان واستعراض آيات الرحمة والبشارة التي هي بحق بشائر وأنباء سارة لأهلها.

(ولمن خاف مقام ربّه جنتان) ومعناها أن الله يعطي لمن يخشاه ويهاب شأنه ومقامه روضتان من رياض الجنة وسنأتي لاحقاً إلى وصف هاتين الجنتين، ولكن ما يهمّ بحثنا في هذه الآية هو معنى (الخوف من مقام الرب)، وقد أورد العلماء وجهين لذلك هما:

مقام الرب في نفس الإنسان:

الوجه الأول: وتعني **(ولمن خاف مقام ربه** (عند نفسه) **جنتان)**، أي من يجد في نفسه مخافة الله وخشيته فله منه جنتان، ولا تتحقق مخافة الله في نفس الإنسان إلاّ عندما يؤمن بواقع **(ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)** (سورة ق, الآية: ١٦). وحقيقة **(وهو معكم أين ما كنتم)** (سورة الحديد، الآية: ٤). فهو قد استحضر وجود الله في قلبه واستشعره حاضراً معه ورقيباً عليه فيتولد حينئذ الخوف في قلبه فلا يعود يسيء أدباً ويرتكب معصية لله عز وجل في سرّه أو علانيته فلو افترضنا أن بائعاً قد عرض سلعة ما للبيع وهو عالم بجودتها وقيمتها، وهناك مشتري لتلك السلعة (نحتمل اطلاعه على جودة السلعة تلك وقيمتها أو عدم اطلاعه) وكان البائع رجلاً يؤمن في قرارة نفسه بحضور الله تعالى ورقابته له فهو لا يغش المشتري إيماناً منه بأن الله خبير ومطلع وان كان المشتري غافلاً، لذلك يجعل الله عز وجل لذلك البائع جنتان لأنه خاف مقام ربه في نفسه.

صفة الخائف من مقام الرب:

ولتوضيح معنى الخوف من مقام الرب نستعين بهذا الحديث الشريف الذي ورد في كتاب أصول الكافي مرويّاً عن الإمام كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق (ع)، يقول الإمام (ع) (من علم أن الله تعالى يراه ويعلم ما يعمله ويسمع ما يقوله ثم يحجزه ذلك عن القبيح فهو خائف من مقام ربه). إذاً العلم الحائل دون ارتكاب القبيح أمر ضروري وملح، ولكن بشرط وجود المراقبة، وتختلف درجات العلم هذا من فرد لآخر، وأدنى تلك الدرجات هي

ان تحصل لدى الإنسان خشية الله عز وجل حين صدور الذنب فيمتنع عن مباشرته ويعفّ عن اجتراحهن وتتدرج تلك الدرجات حتى تصل إلى أسماها فتتولد لدى الإنسان حينئذ آثاراً باهرة عجيبة.

أربعون عاماً يرقب حضور ربه!

فعن أحوال المقدّس الأردبيلي يقال أنه لم يمد رجليه طيلة أربعين عاماً في يقظته و منامه معبراً عن حاله تلك بالقول (والله اني لأستحيي أن أمدّ رجليّ في حضرة رب العالمين)، وبالتأكيد فان مثل هذا الأدب لا يخلو من أجر وثواب إلهي يناله المرء.

وفي حال آخر للمقدّس الأردبيلي، (وهو ما حصل له حين حلول الموت) عندما أراد أن يصيب السُنّة فيمد رجليه وهو مستقبل القبلة في ساعة احتضاره قال(اللّهم أسألك العفو، فاني لم أمدّهما إلاّ وأنا في اضطرار لذلك وأنت تعلم أني لم أجرأ على مدّهما طيلة الأعوام السابقة، وها أنا ذا أمتثل لأمرك وسنّة نبيك (ص)).

وقد يكون لدى البعض من الأحوال ما تشاكل هذه الأحوال، فهناك من لم يجرأ أن يرفع صوته عند الحديث إجلالاً وإكباراً لحضور رب العالمين فضلاً عن أنه لم يفحش القول، وهكذا يزداد تأدّب العبد مع ربه بازدياد معرفته.

كيف ألهو عنك وأنت ناظري:

يقول الإمام السجاد (ع) (إلهي كيف ألهو عنك وأنت ناظري، وكيف أنساك ولم تزل ذاكري). ولقد أشرنا سابقاً إلى أن المراقبة لا تنعقد إلاّ بوجود طرفين للتراقب، فكما ان الله تعالى رقيب لعباده، وجب في المقابل أن يكون العبد مراقباً لربّه، وهذه حقيقة يصرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى **(وكان الله على كل شيء رقيباً)** (سورة الأحزاب، الآية: ٥٢). وقوله عز وجل **(إن الله كان عليكم رقيباً)** (سورة النساء، الآية: ١).

تحريم النار على الخائفين:

ونقل كتاب مصابيح القلوب قصة نقلتها بعض كتب التذكرة تقول، (مرّ رجل صالح بسوق الحدادين فوقع بصره على حداد وهو يدخل يده في كور الحدادة ثم يخرجها وهو ممسك بالحديد المحمر من شدة السخونة دون أن يصيبه أذىً، (يقول الراوي) فتحيّرت من فعله وشأنه، وقلت في نفسي أي رجل هذا الذي لا تعمل النار أثرها في يده؟! فدنوت منه وتجرّأت بسؤاله: كيف لم تعمل النار أثرها في يدك فتحرقها؟ فلم يكترث بي، فعاودت السؤل وازددت إلحاحاً حتى أجابني قائلاً: لقد كنت في شبابي ثريّاً موسراً، فمرّت علينا سنة قحط وجدب ضج الناس فيها من كثرة الجوع وكنت قد ذخرت لي طعاماً كثيراً يسد حاجتي فجاءتني في يوم امرأة علوية من جيراني وسألتني شيئاً من الطعام تسد به رمقها ورمق عيالها فبهرني حسنها وجمالها، فقلت لها: لك هذا ولكن بشرط أن تسلميني نفسك فاستعففت وامتنعت وردت عليّ قائلة: ليس ذا شأني فأنا لم أجرأ على فعل كهذا طيلة حياتي ثم ولّت

عني بوجهها وانصرفت، ثم لم تلبث حتى عادت ثانية وذكرت لي ما ألمّ بها من ألم الجوع وتوسّلت بي أن أساعدها فلم أزدها على ما طلبت منها أولاً، فولّت عني وقفلت راجعة إلى دارها، وبعد حين عادت وقد بدا عليها أن الجوع قد أضرّ بها فقالت أنت وما شئت فإنني أكاد أنفق جوعاً، ففرحت بذلك، ثم عقبت قائلة ولكن بشرط أن تقودني إلى مكان خالٍ لا يرانا فيه أحد، فأجبتها على ما أرادت فأخذتها إلى مكان خالٍ لأقضي وطري منها فرأيتها ترتعش ثم قالت لي: الزم مكانك ألم تُعاهدني أن تقودني إلى مكان لا يرانا فيه أحد؟ فرددت عليها: ما الذي دهاك، ترى أهناك من هو مطلع علينا في هذا المكان؟! فقالت: بلى، فلا زال هنالك خمسة سوانا حاضرون ها هنا، انهم ربنا (تعالى) والملكين الموكلين بي والملكين الموكلين بك، فسرت في جسدي رعشة لرعشتها، وعزفت عن ارتكاب الحرام ثم قفلنا راجعين، فلما وصلنا إلى داري أعطيتها شيئاً من الطعام تسدّ به حاجتها فخالط تلك العلوية السرور ودعت الله لي قائلة: (اللهم حرم عليه نار الدنيا والآخرة)، ومنذ حيني ذلك وأنا لا أحس للنار أذىً وإيلاماً، وإني لأرجو ربي أن يعيذني من حريق نار الآخرة.

ونظير هذه القصة، يذكرها القرآن الكريم في سورة يوسف (ع)، حيث تقول التفاسير أن زليخا عندما رامت فعل القبيح ألقت بجرامها على شيء في الحجرة، فلما سألها يوسف عن سبب ما فعلت، قالت: إن هذا الصنم ربي، وأنه لمن المخجل أن ارتكب عملاً قبيحاً وهو

يراني، وهنا بادر يوسف (ع) بالقول: أتستحين من صنم عملته يداك ولا استحيي من ربي الذي خلقني؟ (ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه) (سورة يوسف، الآية: ٢٤).

[٤٨]

(ولمن خاف مقام ربّه جنتّان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٤٦ ـ ٤٧).

(لا بشيء من آلائك رب اكذب).

الجنتان، واحدة للعقائد والأخرى للأعمال:

(ولمن خاف مقام ربه جنتان) ومعناها (إن لمن خشي مقام ربه جنتان، واحدة عن عقائده الحقة جزاءً والأخرى لقاء أعماله الصالحات ثواباً، فالجنة الأولى لما عقد عليه قلبه في توحيد الله والإيمان بعدله واعتقاد نبوة سيدنا محمد (ص) واعتقاد امامة الائمة الطاهرين الاثني عشر (ع) والإيمان بالآخرة والمعاد، والثانية لقاء أدائه للفرائض والسنن والاتيان بالطاعات ولزوم العبادات والاقلاع عن المحرمات ومباشرة المعاصي والآثام وهناك من يقول أن الجنة الأولى هي جزاء الاتيان بالطاعات والفرائض، والثانية لقاء الامتناع عن المعاصي وارتكاب الذنوب. يقول فخر الكائنات وسيد الورى محمد (ص) (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلاّ ظلّه (في القيامة، ولا ظل في الآخرة في الحقيقة إلاّ ظل العرش الإلهي

المجيد)، واحد اولئك السبعة نفر هو من يرى الله رقيباً عليه وحاضراً معه وشاهداً على ما يفعل في خلواته، فيذكر الله تعالى ويخشع قلبه لذكره فتنفجر الدموع من عينيه وتبتلّ لهما وجنتيه. لأن الله عز وجل آل على نفسه أن لا يجمع خوفين لعبده، فأما خوف الدنيا وأما خوف الآخرة، يقول رسول الله (ص) (قال الله تبارك وتعالى، وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، فإذا آمنني في الدنيا أخفته في الآخرة، وإذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة)٣[3] فيهبه الله حينذاك جنتين.

(يوم يقوم الناس لرب العالمين) (سورة المطففين، الآية: ٦).

أم الوجه الثاني: وهو لا يتعارض مع الوجه الأول، وعليه يكون معنى الآية هو **(ولمن خاف مقام ربه ــ يوم القيامة ــ جنتان)** أي من خاف مقام ربّه في الآخرة عند قيام الساعة والحساب والمسائلة، فحفظ نفسه وراقبها وتعاهدها خوفاً من الله تعالى عند تلك المواقف لأنه سينتهي به المصير إلى الوقوف بين يدي رب العالمين كما يؤكد هذه الحقيقة الواقعة قوله تعالى **(يوم يقوم الناس لرب العالمين)** فهو يخاف ذلك فيُصلح صالح في دنياه، ولأجل ذلك يجزيه الله عز وجل جزاءً وفاقاً.

حالات الغشية عند الإمام الحسن (ع):

---

٣ [3] تفسير نور الثقلين (ج٥، ص ١٩٧).

وقد نقل أصحاب التواريخ في أحوال الإمام الحسن بن علي المجتبى (ع) أنه كان يجهش بالبكاء كلمّا ذكر الموت، وكلمّا ذكر القيامة والصراط والميزان ومواقف الآخرة في القيامة، وما أن يذكر (ع) موقف العرض على الله (جل جلاله) حتى يخر مغشياً عليه، لأنه كان يتمثّل موقف الحساب كلمّا ذكر الوقوف بين يدي الله (عز وجل) وذكر قدوم ذلك اليوم الذي يأتي فيه نداء رب العالمين (يا عبدنا أتذكر ما فعلته في اليوم الفلاني والمكان الكذائي!

يقول الشيخ البهائي: ومرّ الإمام الحسن (ع) يوماً بنفر جالسين وفيهم شاب يقهقه بصوت عالٍ ضاحكاً فكلمّه الإمام (ع) قائلاً له: مه أيها الشاب هل جزت القبر والمساءلة ومنكر ونكير؟! أم هل فرغت من حساب يوم الجزاء؟ فبان على وجه الفتى بالغ التأثّر بعد سماعه لكلام الإمام (ع) ولم ير بعد ذلك اليوم ضاحكاً مقهقهاً حتى فارق الدنيا.

صلاح الحال يأتي في التخوّف من المستقبل المجهول:

يعد الخوف أحد مستلزمات الايمان، وكلما استحكم هذا الإيمان في قلب المسلم، كلمّا أدى ذلك إلى زيادة درجة خوف المرء من مقام ربّه (عز وجل).

فلو لم ينس الإنسان عقبات يوم القيامة بما فيها كأد وصعوبات، وعد مستقبله قريباً وأنه أوشك أن يطأ أعتاب القيامة والحساب بقدميه حالما تغفى ساعات عمره، فينشغل حينئذ بالتفكير ببقية العمر كيف سيفنيه، وسيفكر أيضاً بما أعدده الله من ابتلاءات ستواجهه قريباً،

وسينشغل بذكر الموت المباغت له وهو لا يدري على أيّة حال سيدركه فيها، وعلى أي حال سيعقد العزم، أيموت وهو مشتاق إلى لقاء الله وأهل البيت (ع)، أم أنه سيموت وقد شغف قلبه حبّاً للمال والسلطة والعنوان؟ ثم يعتصر المرء ذهنه فيفكر في أحواله وهو قد انزل إلى قبره، فيأتيه الملكان ويسألانه، فهل سيحير لما سئل جواباً؟ وأي جواب هذا الذي سيردّ به؟ ثم تحل الساعة ويلج عالم القيامة بمواقفها الملئى بالشدائد والصعوبات والعقبات، ثم يعرض عليه سجله وقد أحصى عليه الكثير من الذنوب والآثام التي نسيها. فهنيئاً للمرء سعادته عندما يعمر قلبه بخشية الله تعالى، وهذه الخشية التي تأتي بنارها على هشيم مزارع الذنب فتذرها كالصريم. وعلى ذلك كانت شدة الخوف من دلائل الإيمان يقول رسول الله (ص) (أنا أخوفكم بالله) ويقول المولى عز وجل في كتابه المجيد **(ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً)** (سورة الإنسان، الآية: ٧). في وصف خوف أهل البيت (ع)، ويبقى الخوف من الله أحد أهم المنجيات من العذاب كما يرشدنا على هذه الحقيقة إمامنا الباقر (ع) في قوله (وأمّا المنجيات فخوف الله في السر والعلانية)٤[4].

رواية توجب الخشية:

٤ [4] تفسير نور الثقلين، (ج٥، ص١٩٧) نقلاً عن الخصال.

وضمن ما جاء في الرواية الشريفة المروية عن النبي (ص) في معرض نزول قوله تعالى **(لها سبعة أبواب)**، أن جبريل أخبر النبي (ص) عن جهنم وهيئتها فقال: ان لجهنم سبعة أبواب (طبقات) بين الباب والآخر مسيرة سبعين عاماً، وعذاب كل باب (طبقة) سبعون ضعفاً من عذاب الطبقة التي تعلوها وأقل العذاب في الطبقة الأولى وهو معّد لمن خرج من دار الدنيا ولم يتب من ذنوبه الكبائر من أمتك. بعد ذلك يخيره قائلاً: وان امتك لا تقيّد بالسلاسل، ولا يختم على أفواههم كما يختم على أفواه المجرمين (لأنهم كانوا يرددن شهادة لا اله إلاّ الله طيلة أعمارهم كما أنهم لا يقيّدون بالأصفاد والأغلال في أيديهم لأنهم مدّوها إلى الله عز وجل بالدعاء)، وبعد أن سمع النبي (ص) ذلك بكى بكاءً مرّاً، ولم يستطع من مغادرة الدار فلمّا حان موعد الصلاة جاء بعض الصحابة إليه فقيل لهم إنه في حال لا يستطيع أن يكلّم أحد بها وكان من بينهم اولئك النفر من الصحابة سلمان الفارسي، فأدرك سلمان أن ما من أحد يمكنه حل هذه الأزمة التي أهمت النبي (ص) سوى الزهراء فاطمة (ع) (لأن النبي (ص) بمجرد أن يشم ريحها أو يراها يدخل الفرح والسرورو إلى قلبه، فالزهراء (ع) إن أقبلت تقبل معها ريح الجنة ورحمة الله عز وجل لأنها خلقت من مادة ثمار الجنة)، فذهب سلمان إلى عند فاطمة (ع) وسألها أن تلقى رسول الله (ص)، فجاءت الزهراء وشاهدت أباها وقد غارت عيناه في محجريهما وهنّ محمرّات من كثرة البكاء، وقد برزت عظام جبهته وخديه وأصفّر وجهه فسألته: فديتك نفسي يا ابتي ما الذي أبكاك؟

فحدثها النبي (ص) بما اخبره به جبرئيل من أنباء جهنم وعرّفها بشيء منه واخبرها أن امته لا تصفّد بالأغلال والسلاسل ولكنهم يسحبون على وجوههم في النار (الرجال يسحبون من لحاهم، والنساء من ذوائبهن) ويصرخ الشيوخ الويل لشيخوختنا، ويضج الشبان الويل لشبابنا وتولول النساء آه ووافضيحتاه، ثم يلقون في حفيرة النار وهم على تلك الحال، فيسألهم مالك خازن النار: من أية أمة أنتم، فلقد اُمرنا أن لا نغلكّم بالقيود والسلاسل، وأن لا نختم على أفواهكم؟ (فينسى لولئك الاشقياء ذكر اسم النبي محمد (ص) لأنهّم قد علقوا قلوبهم بحب الدنيا. وكيف ينسى المرء اسم نبيه محمد (ص) وحب محمد وآله ويجري في عروقهم وقد خالط لحومهم ودمائهم؟! وكيف ينسون أسماء أهل البيت (ع) وهم يندبون العمر كله ياحسين ويا علي!!) فيقولون نحن من أمة من أنزل الله عليه القرآن! فيرد عليهم مالك قائلاً: ويحكم ألم يكن في القرآن، ما يحجزكم عن ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات؟ فيلقي بهم عندئذ في النار، فتتنحّى عنهم النار جانباً وهي تقول كيف اُحرق من يقول لا الله إلاّ الله، فيقال لها إنه أمر الله عز وجل، فتمتثل النار أمر ربها فتأخذهم من كل جانب، ويستمرون على هذا الحال المؤلم من العذاب حتى يتذكرون أسماء الله الحسنى (يا حنّان ويا منان)، فيدعون الله بها، فيأمر الله جبريل أن يمضي إليهم ويسألهم حاجتهم، فيمضي إليهم ملك الرحمة فيسألهم ما بهم، فيردون عليه قائلين من أنت؟ فيقول: أنا جبريل، فيقولون: أمين الوحي الإلهي، فيقول بلى، فيحملونه تحياتهم وسلامهم إلى النبي محمد (ص)

ويوصونه أن يذكر له سوء حالهم، وعندما يصل خبر اولئك إلى النبي (ص)، يشفع لهم بإذن الله فيخرجهم الله من النار وقد صاروا كالفحم قد اسودت أبدانهم ووجوههم، فيأتيهم النداء أن امضوا إلى المكان الفلاني حيث أحد أنهار الجنة، فيذهبون إلى حيث أمروا فيلقون بأنفسهم في ماء النهر ثم يخرجوا منهم وكأنهم الفضّة بياضاً ثم يعودوا شبّاناً فيوردهم الله جنته.

في تعاهد حب أهل البيت (ع) تحصل النجاة:

ولقد ذكرت في معرض الحديث أهمية محبة وولاء أهل البيت (ع)، لأن أي تأكيد يرد إلى المؤمنين بضرورة التعلق بعالم المحبّة انما تتأكد حقيقته في السعي إلى اعمار القلوب بحب أهل البيت (ع)، هذا الحب الذي ينبغي أن يأخذ بمجامع القلوب.

وقد تجلّت هذه الحقيقة فيما أولاه المولى عز وجل للصلاة على النبي وآله من أهمية فائقة، يضاف لها اكرام السادات من ذراري أهل البيت (ع) واكنان المودة والاحترام لهم ولآبائهم الأئمة الطاهرين (ع) والانفاق على شيعة علي (ع) واطعامهم بقصد القربة إلى الله تعالى، وهذه الأمور في ذاتها حسنة بغض النظر عما تترتب عليها من عوائد ومنافع ربانيّة في العاجل والآجل، وصدق من قال؛

ربّ زِدْ في حُزْني في فقدي حسين
وأضرم الأحشاءَ ناراً في هواه

إنني عُدت لا أبغي سواه

ثم جرّد قلبي عما غيره

(ولمن خاف مقام ربّه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٤٦ ـ ٤٧).

(لا بشيء من آلائك رب اكذّب).

أرض الجنة مفروشة بالمسك والعنبر:

(ولمن خاف مقام ربه جنتان). يروى أن سعة الجنة الواحدة منهما تمتد إلى مسيرة مائة عام، وقد غطيّت أرضها بالمسك والعنبر، وهاتان الجنتان هما جزاء لمن خاف مقام ربه، ثم تسرد السورة ألوان النعيم في تينك الجنتين اللتين وهبهما الله لذاكره ومستحضره في نفسه ومراقبه في خلواته. ولقد أسلفنا القول حول وجهي المعنى لهذه الآية الكريمة وقلنا إن أحد الوجوه هو أن يكون معنى المقام الرباني عند نفس الإنسان، وقلنا أن الوجه الآخر هو أن يكون المعنى مقام الرب عند الحساب، والمعنى الأول أسمى وارفع.

المطلوب هو الخوف الصادق:

وبالتأكيد أن المراد من الخوف في هذه الآية هو الخوف الصادق المؤثّر الذي يجعل صاحبه يفر من الذنب فراره من الأفاعي والعقارب، فضلاً عن أنه لا يدنو منها، ولذلك يقول الإمام الصادق (ع) في معنى هذه الآية المباركة (من علم ان الله (تعالى يراه ويعلم ما

يعمله ويسمع ما يقوله ثم يحجزه ذلك من القبيح فهو خائف من مقام ربه). إذاً ليس كما يزعم أولئك من أنهم يخافون الله عز وجل وهو لا يعرفون للحياء معنىً فتراهم عند ارتكابهم للمعاصي واحتمالهم للآثام لا يجدون للترك رادعاً من أنفسهم، بينما يقول الحديث المأثور (دليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب) فلو خاف العبد عذاب ربه لما ارتكب ذنباً بالمرّة، ولكن الناس يتهيبون الفضيحة ولا يعملون ما يفضحهم أمام أمثالهم، وهذه الحالة من المراقبة كانت أجدر بهم لو أنهم خافوا الفضيحة أمام الله ففروا مما زيّن لهم الشيطان, إذاً حقيقة الخوف من الله وعذابه تكمن في الهرب والفرار من ما يستوجب سخط الله وعذابه، وحقيقة الرجاء تكمن في السعي والمثابرة خلف ما رجاه الإنسان من ربه في أداء الطاعات ولزوم الفرائض وتعاهد الأعمال الصالحة لا التفريط أو التقصير بها.

مغالطة العالم مع هارون الرشيد:

وأؤكد ثانية ان دليل الخوف هو الفرار من الذنب قبل الدخول فيه، ولا يعد الخوف صادقاً عندما يزعم البعض أن قد تحصل له الخوف من الله بعد مباشرته للمعصية!! لأن الخائف لا يسعى خلف المعصية، ودواعي تأكيدي المكرر على هذا الأمر هو وجود مغالطات بعض علماء العامة من علماء السوء والضلالة التي لا يمكن للعاقل تصديقها، وخير شاهد على ذلك هذه القصة التي نقلتها بعض كتب تفسير العامة وبعض كتب التأريخ لتتضح الصورة لدى القارئ الكريم:

حدّث هارون الرشيد يوماً زوجته الصالحة زبيدة (وهي امرأة صالحة ولعلها كانت من شيعة أهل البيت (ع) ظاهراً، وقد شبهها البعض بزوجة فرعون الصالحة، فهي تعيش في بيت طاغوت عصرها ولقد قدمت هذه الامرأة خدمات جليلة لأهل الاسلام أحدها أن نقلت الماء المشهور بماء زبيدة إلى مكة المكرمة من منطقة تقع على بعد عشرة أميال على طريق مكة، حيث كان سعر القربة الواحدة من الماء قبل النقل يعادل سعر مثقال من الذهب لندرة الماء وصعوبة نقله) فقال لها: إني إمام عادل، والإمام العادل مصيره الجنة دون ريب! فردت عليه زبيدة: كلاّ انك لحاكم جائر وقد افتريت على الله كذباً عندما حتّمت الجنة لنفسك وأنت تعلم ان من يتجاهر بالكذب على الله (تعالى) فقد خلع من رقبته ربقة الإسلام وعليه لم يعد لي مكاناً في قصرك بعد هذا. فتحير هارون من قولها ولم يحر جواباً، فاغتم كثيراً لذلك واستدعى على أثره حد علماء البلاط من الذين باعوا دينهم بدنانير، (ولعل مائة لون من الجهل يحمله اولئك افضل من حمل لون علم واحد يغوون به الناس)ن فبعث خلف عالم البلاط (محمد بن الحسن الشيباني)، فلما حضر بين يديه حدثه بما دار بينه وبين زوجته زبيدة، فرد عليه عالم البلاط قائلاً: أيها الخليفة، هل مرّ بك أن أصبت ذنباً ثم تحسست في قلبك مخافة الله من ارتكابك لذلك الذنب؟ فأجابه هارون بلى والله وكثيراً ما هو، هنا صاح عالم السوء: بشراك بشراك فلك بدل الجنة جنتان، وأنا لا أقول ذلك بزعمي بل هذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى **(ولمن خاف مقام ربه جنتان)** فسر

هارون من قوله ومنحه جائزة!! (لكي يزداد تملقّه فيما بعد عندما يفسر القرآن برأيه وتبعاً لرغبات ونزوات السلاطين وامراء السوء وخلفاء الجور).

لقد باع ذلك الرجل آخرته بدراهم ودنانير، ألا فلعنة الله على علماء السوء ووعاظ السلاطين الذين لم يضلوا أنفسهم لوحدهم بل وأضلّوا من الناس جبّلاً كثيراً.

تصوروا أن الشيباني يقول إن من يتعقّب المعصية ويسعى في طلبها ثم يقترفها ويلوّث نفسه بها، ثم يستشعر الخوف بعد ذلك في نفسه فيقول آه على تفريطي فله حينئذ جنتان! أيها الأحمق ان العبد لو خاف ربه حقاً لما بحث عن المعصية ليدنسّ نفسه بها، وهل تراه سيجد لله خوفاً في نفسه وهو مشغول بالبحث عن المعاصي ليفتك بها؟!!، يقول الإمام (ع) (ومن عرضت له فاحشة أو شهوة فأجتنبها مخافة الله عز وجل، حرم عليه النار، وآمنه من الفزع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه)١[1] ولكن هارون الرشيد ومن فرط خوفه من الله ألقى بالإمام موسى بن جعفر (ع) في غياهب السجن!، ثم يعتمر قلبه بخوف الله وخشيته

١ [1] تفسير نور الثقلين (ج٥، ص١٩٧).

فيقتل ويسجن المئات من السادة العلويين والفاطميين الأبرياء! تصوروا ان هذا المجرم يخاف مقام ربه٢[2]، (من خاف ربه كف ظلمه)٣[3].

المريض يمسك عن الضار من الأطعمة:

وعليه يتجلّى الخوف الصادق في ترك ارتكاب الذنب، لأنه بغير هذه الصورة لا يبقى للخوف معنىً سوى أنه مجرد مزاعم محضة. إذاً دليل الخوف هو ترك ما يوجب الضرر، فالخائف الوجل من سخط الله وعذابه حاله كحال المريض الذي يخشى تفاقم وحدة وشدة المرض عليه لئلاّ ينتهي به إلى الموت فيمسك عن تناول الأطعمة والاشربة الضارة، وهكذا حال الخائف من مقام ربه فهو يمسك ويمتنع عن ارتكاب ما يخالف أوامر ربه عز وجل، وهذه هي أدنى منازل الخوف ودرجاته، وكلما ازدادت درجات الإيمان صعوداً عند الفرد كلما ازداد معها مقدار الخوف. ولكي تتضح لدينا ماهية درجات الخوف نعمد الآن إلى نقل هذه الرواية المشفعة بحكاية تفيد مقصدنا:

عبد الله لا يخشى أحداً إلا الله:

---

٢ [2] راجع قصة حميد بن قحطبة وقتله لمائة علوي في ليلة واحدة بأمر هارون الخليفة المذكورة في كتاب الذنوب الكبيرة ــ الجزء الأول لسماحة السيد المؤلف (رحمة الله) مع ان الإمام علي أمير المؤمنين (ع).

٣ [3] تفسير نور الثقلين (ج٥، ص١٩٧).

نقل صاحب تفسير منهج الصادقين أن أمير المؤمنين علياً (ع) لما قتل الملعون عمرو بن عبد ود العامري في معركة الخندق المشهورة قفل راجعاً إلى عسكر المسلمين، فسأله المسلون كيف لم يعتريك الخوف من لقاء عمر يا علي؟! (لقد كان عمرو رجلاً شجاعاً يعد بألف فارس وله من غلظة البدن ورباطة الجأش وقوة الشكيمة ما أن يحمل فصيل الناقة لوحده فيجعل منه ترساً ويكرّ على الألف فارس وقد تدججوا بالسلاح! فكيف لم يهابه علي الفتى حينذاك؟) فرد عليهم الإمام (ع): كيف يخشى من سوى الله من لم يعبد إلاّ إياه؟!!.

إذاً أحد عوامل التوحيد هو توحيد الله في مقام الخوف، أي أن العبد الموحّد هو من لا يخشى أحداً سوى ربه٤[4]. كما أن من عوامل التوحيد في مقام الرجاء هو أن لا يرجو العبد إلاّ ربه. فلا الزوجة ولا الأبناء ولا السلطان ولا الجاه ولا العلم ولا القلم ولا يفاعة الشباب ولا سلامة الأبدان هي التي تنتهي به إلى مناه وسعده لأن كل هذا زائل فان، وعليه كان لزاماً على المر ان يخاف ربه وحده ولا يعلق رجاءه إلاّ به لأن **(كل من عليها فان* ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)** (سورة الرحمن، الآيات: ٢٧ ــ ٢٨). بينما نجده في كل الموجودات أنها مصاديق لقوله تعالى **(ما أغنى عنه ماله وما كسب)** (سورة المسد،

---

٤ [4] راجع كتاب الذنوب الكبيرة ــ مبحث الشرك ن وكتاب القلب السليم مبحث العقائد للاستزادة. وهما من تأليف سماحة السيد المؤلف(رض).

الآية: ٢). وقوله عز وجل (**يحسب أن ماله أخلده**) (سورة الهمزة، الآية: ٣). لأن الزائل بمنزلة السراب للظامئ من فرط العطش.

حوار مؤمن الجن مع إبراهيم الأدهم:

اما الحكاية المفيدة لموضوعنا فهي حكاية ابراهيم الادهم التي نقلها كتاب تفسير منهج الصادقين: يقول ابراهيم الادهم (وهو زاهد مشهور) كنت أقطع طريقي في وهد من وهاد الأرض بمفردي فإذا بشخص مهيب يتصور امامي بغتةً، فهالني أمره، ثم لم يلبث حتى اقترب مني فسارعت بالسؤال: أمن الانس أنت أم الجن؟ فرد علي قائلاً: أمن المؤمنين أنت أم من الكافرين؟ فأجبته بل أنا رجل مؤمن، فرد علي حينها وقال: لقد كذبت، لأنك لو كنت مؤمناً حقاً كما تزعم لما هبت أحداً غير الله!!

ولعل ذلك النفر كان من مؤمني الجن على ما يبدو، المهم هنا ان المؤمن الكافل هو من لا يخشى أحداً إلاّ الله تعالى، وكما الإيمان لا يتأتى للمرء المسلم حتى يمتلك وحدة الخوف والرجاء لله تعالى!.

المشرك الذي انفرد بالنبي (ص):

ففي معركة أحد كان وضع المسلمين غير متكافئ مع وضع المشركين عدة وعدداً، بالاضافة إلى وجود عوامل أخرى سببت لحوق الهزيمة بجيش المسلمين واضابة عدد منهم

بين قتيل وجريح ولائذ بالفرار بجلده، وكان الإمام علي (ع) وأبو دجانة الأنصاري حينذاك يذودان عن رسول الله (ص) الذي لحقته عدة جراحات أثناء المعركة، وقد بقيا يقاتلان قتالاً شديداً مع المشركين لابعادهم عن رسول الله (ص)، وبعد عدة محاولات يصل هذا المشرك إلى الرسول (ص) ويشهر عليه سيفه ويقول له: والآن يا محمد (ص) من تراه سينجيك منّي؟ فيرد عليه النبي (ص) بكل ثقة ووقار: إنه ربي (أي أن الله تعالى لو لم يشأ قتلي على يديك فلن يستطيع أحد أن يفعل شيئاً ولو اجتمع الكون معه) فعزم المشرك أن يهوي بسيفه على النبي (ص) ليقتله فإذا بيده ترتعش ويسقط السيف أرضاً فتناوله النبي (ص) وشهره بوجه المشرك وقال له: وأنت من ينجيك مني؟ فرد عليه المشرك (وقد كان صاحب دهاء): عفوك عني، فعفى عنه الرسول (ص) وتركه.

رجوح كفّة الايمان على كفّة الحسنات:

إذاً الجنتان لأهل الخوف من الله تعالى جاءت كثواب، الأول على ايمانهم بالله والأخرى لأدائهم صالحات الأعمال، ومن البديهي أن كل ما يوفق إليه المرء المسلم من صالحات انما هو بفضل وبركة ايمانه لذلك يقال إن جميع حسنات المؤمن توضع في كفة ميزان يوم القيامة ثم يوضع ايمانه المتجسد بالكلمة الطيبة (لا اله إلا الله) وهي شعار الايمان ورمز التوحيد في كفة أخرى، فيرجح الايمان على الحسنات، وسبب الرجوح هو أُصل التوحيد، فبالتوحيد يدرك خوف مقام الله عز وجل ويتحصل رجاؤه. أما لو أخذنا معنى الآية على

الوجه الثاني حيث ان أحد هاتين الجنتين هي جزاء الأعمال الصالحة وأداء الفرائض، والاخرى جزاء ترك المعاصي والذنوب، فتكون هاتين الجنتين هما جزاء ما سيتحمله المؤمن في دنياه في ذات الله عز وجل من نصب وشقاء وأذى حينما يصون عينيه عن النظر إلى المحرمات ويصون نفسه عن الانزلاق في مهاوي الردى والهلكة ويؤدي الطاعات ويلتزم الفرائض وينكر الكذب ويكره الغيبة ويستهجن فعل السيئات.

جنّتا العدل والفضل:

وهناك وجه آخر في معنى الجنتين اللتين ينعم بهما الله تعالى على أهل خوفه وخشيته، فالجنة الأولى هي جنة العدل التي يثيبها لعبده بعدله لأنه تحمّل في سبيله شتى ألوان العذاب وصنوف الشقاء، والثانية هي جنة الفضل، يهبها الله بفضله ومنّه لعبده دون استحقاق منه، بل فوق استحقاق العبد رحمة من الله تعالى به.

ويقول البعض ان الجنتين اللتين تعطيان للمؤمن، انما يعطى الأولى منهما لينعم بها وأزواجه أما الثانية فهي لخدمه وغلمانه.

وتشتمل الجنتان على ضروب النعم وألوان الآلاء التي تشير إلى بعضها الآيات البينات التي سيرد ذكرها في ما يلي، ويكفينا لادراك أهمية الجنة للإنسان ذكر حديث شريف واحد، يقول المعصوم (ع) (لموضع سوط في الجنة افضل من الدنيا وما فيها) فتأمّل.

سعة الجنة:

ولكي نطلع على سعة الجنة وعظمتها نكتفي بذكر هذه الرواية بمضمونها وقد نقلناها عن كتاب لآلئ الأخبار وهي مرويّة عن رسول الله (ص) (استأذن جبريل من الله تعالى أن يأذن له في حساب عرض الجنة، فأذن له (علماً أن لجبريل قدرة وقوة هائلة، فهو على سبيل المثال بمقدوره أن يهبط من السماء السابعة إلى الأرض بطرفة عين واحدة) فانطلق ثلاثين ألف سنة فأصابه التعب، فسأل الله أن يمدّه بعونه، فأعانه الله، فسار ثلاثين ألف سنة أخرى، فتعب (وهكذا كل مرة يستأذن الله ويسأله العون فيمده بثلاثين ألف سنة كل مرة) إلى أن استقر به الحال في مكان في الجنة فوقف ليستريح وإذا بحورية تطل برأسها من غرفتها عليه وتسأله إلى أين تريد الذهاب؟ قال جبريل: أريد أن أبلغ منتهاها فردت عليه الحورية: لا تتعب نفسك فانك مذ شرعت في سيرك ولا زلت لم تخرج عن حدود مملكتي!! فسألها جبريل: ومن تكونين من الحور العين؟ فأجابته: أنا حورية أحد المؤمنين! تأمّلوا تلك الحقيقة، إنها والله فوق مستوى إدراكنا وأسمى من حدود فهم عقولنا، لأننا نعيش في عالم غير ذلك العالم، كما أن الجنين في بطن أمه يجهل معرفة عالمنا.

جنتا البرزخ والقيامة:

وقال العلامة المجلسي (رحمهُ الله) في شرح الكافي عند تعرضه لهذه الآية المباركة, لعل المقصود من الجنتين هما جنة البرزخ وجنة القيامة، لأن المؤمن بعدما تنزع روحه عن بدنه بالموت ترفل حينذاك هذه الروح في دلال ونعيم وسعادة في جنة البرزخ، وهي روضة مترامية الأطراف تشتمل على ألوان النعم البرزخية، وهذا الأمر تؤكده شواهد وأدلة قرآنية كثيرة، كما في قوله تعالى **(قيل ادخل الجنة، قال يا ليت قومي يعلمون)** (سورة يس، الآية: ٢٦). فضلاً على جنة الآخرة الموعودة التي يخلد فيها أهلها٥[5].

[٥٠]

(ذواتا أفنان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيها عينان تجريان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما من كل فاكهة زوجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنا الجنتين دان). (سورة الرحمن الآيات: ٤٨ ــ ٥٤).

جنتان كثيفتان:

(ذواتا أفنان) أي اشتمال الجنتين على الشجر الكثير ذو الأغصان المتشابكة والأوراق الكثيرة. ومعنى كلمة (ذواتا) هو صاحبتا أي انهما يشتملان ويحتويان، (أفنان) وهي جمع فنن وهو الغصن، وعليه يكون معنى الآية أن الجنتين معمورتان بالأشجار ذوات الأغصان،

---

٥ [5] لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى كتابي قلب القرآن في تفسير سورة يس والمعاد في فضل البرزخ وهما من آثار السيد المؤلف(رض).

فهما كثيفتان ومليئتان بالثمار والفواكه كما سيأتي ذلك في الآيات اللاحقة، ومن البديهي أن يكون وجود الأغصان الكثيرة المملوءة بالأوراق دليلاً على غناها بالثمار الكثيرة أيضاً.

وقد ورد معنىً آخر لكلمة أفنان وهو جمع لفنن، والفنن هو النوع، وعليه يكون معنى الآية هو (ذواتا أنواع مختلفة من الشجر والنعم)، فأشجار الجنتين تحتمل الثمار والفواكه الكثيرة والمتنوعة بطعومها وأشكالها.

عينان من الرحمة تجريان بدموع الخوف والرجاء:

(فيهما عنان تجريان) أي وتحتوي الجنتان على عيني ماء جاريتان، وقال البعض ان العينين تجريان بماء وشراب الجنة، وقال آخرون إن هاتين العينين هما من عيون الرحمة الإلهية التي تعبر عن عيني المؤمن اللتان جرتا بدموع الخوف والرجاء في دار الدنيا، فتمثلتا في الجنة عل هيئة عيون الرحمة، وقد ذكرت التفاسير إن اسمي هاتين العينين هما: سلسبيل وتسنيم، واصل هاتين العنيني يصدر من بيت رسول الله (ص) في الجنة.

فيهما من كل فاكهة نوعان:

(فيهما من كل فاكهة زوجان)، وتشتمل الجنتان على الكثير من الثمار والفواكه، ولكل ثمرة نوعان اما عن وجوه معاني هذه الزوجية أو العددية في الفواكه فقد وردت عدة وجوه في ذلك نشير على أهمها:

الوجه الأول: يقال إن الفواكه الموجودة في الجنتين، هي من فواكه الدنيا المعروفة، وهما على شكلين، أحدهما رطب والآخر مجفف، كالعنب والزبيب، والتمر والرطب، ونحو ذلك.

الوجه الثاني: إن الفواكه التي تحتويهما الجنتين هي فواكه متعددة الأنواع، يشتمل كل نوع منها على زوجين، لكل زوج منه لون خاص يختلف عن الزوج الآخر.

الوجه الثالث: أن يكون المراد بالزوجين هو وجود نوعين من الفاكهة الواحدة، أحدهما معروف ومألوف لدينا في دار الدنيا والآخرة نعرفه ولم نره.

في الجنة ينعدم اللون الأسود والطعم المر:

وقد ورد عن ابن عباس في شأن تفسير هذه الآية قوله إن في الجنة جميع ثمار الدنيا وفواكهها، مرّها وحلوها ولكن الثمار المرّة تفقد خاصية مرارتها في الجنة، فالجنة لا تحتوي على ثمار وأطعمة مرة، ولا مكان للون الأسود فيها أيضاً.

وعندما يقال إن الجنة تحتوي على جميع ثمار وفواكه الدنيا فليس المقصود به ان الجنة تشتمل على هذه الثمار والفواكه بذاتها، وانما يقصد بذلك وجود نظائر فواكه الدنيا من حيث الشكل ولكنه يختلف تماماً عما في الدنيا من حيث طعمه، فطعم ثمرة الدنيا طعم واحد، بينما ثمار الجنة يكون لكل ثمرة فيها طعوم متعددة (مائة ألف طعم)، وفي الجنة توجد الأشياء المشتملة على المتفرقات فثمرة الجنة لها مائة ألف طعم يتحسس المرء لذة كل طعم لوحده

في آن واحد مما لا يكون مثيله في الدنيا. ولعل بعضنا ذاق طعم فواكه البرزخ انه يقظة أو في المنام، وهذه القصة انموذج لذلك.

شفاء العلامة المجلسي وشرحه للزيارة الجامعة:

كتب المجلسي الأول في معرض شرحه لكتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق قائلاً: وقعت في أحد الأيام طريح فراش المرض، فتدهورت أحوالي وساءت صحتي وأحسست بيأسي من الحياة إثر ذلك المرض العضال، وحينها أُغشي عليّ وأنا مسجىً باتجاه القبلة فتراءت لي خمسة أنوار قدسية هي أنوار النبي (ص) وأمير المؤمنين والزهراء والحسنين (ع)، فدنوا مني، فأجهشت بالبكاء وأظهرت لهم توجعّي، فقالوا لي: لا تخف ثم ناولوني شيئاً من شواء كان معهم، فأكلته وإذا بي أحس له مائة ألف طعم، فسألتهم أهو من طعام الجنة ذي المائة ألف طعم؟ فأجابوني: نعم، وهنا سألت رسول الله (ص): دلني يا رسول الله على سبيل النجاة، فقال لي: عليك بأهل بيتي.

لذلك انشغل (رض) بشرح الزيارة الجامعة بعد أن منّ عليه الله (عز وجل) بالشفاء ببركة أهل البيت (ع).

دواعي وجود الفواصل بين الأوصاف الثلاث:

ولعل هذا التساؤل يدور في خلد البعض وهو (لماذا جاءت الفواصل بين الآيات الكريمة (ذواتا أفنان) و (فيهما عينان تجريان) و (فيهما من كل فاكهة زوجان) مع أنهن صفات لموصوف واحد هو (جنتان)؟ والرد بظننا يشبعه هذين الوجهين:

الوجه الأول لما كان المقام هو مقام ذكر النعمة، كان طويل الحديث أجمل وأشيق، يقال ان (وصف العيش نصف العيش) أو كما يقول المثل الفارسي (كلمّا طال الحديث العذب صار أعذب). بينما نجد في آية العذاب السابقة، وجود آيتين لم تقع بينهما الفاصلة (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن) والسبب في ذلك هو أن الآيات المشتملات على وصف الجنة تؤالف رغبة السامع وتشوّقه إليه، لذلك جاء الفصل لتشويق السامع.

إنكار الصفة يوجب الكفر كإنكار الموصوف:

الوجه الثاني: جاء الفصل بين الآيات باعتبار ان انكار الموصوف وهو الجنة يخالف مقتضى العقل فيوجب بذلك الكفر، وان انكار خصوصيات الموصوف التي جاء بها القرآن الكريم يوجب الكفر أيضاً باعتباره إنكاراً لضروري من ضروريات الدين، فعندما ينكر المرء وجود الجنة فيقول أية جنة هذه؟! أو يقول عن الحور: أية حور تلك؟! أو عن الفاكهة وثمار الجنة، أي فاكهة تلك؟! منكراً، فهو حينئذ يعرب عن عدم قبوله لي من تلك النعم

المتمثلة بالجنة أو بنعم الجنة الضمنية، وهذا الانكار بحد ذاته كفر، لذلك جاءت الفواصل بعد كل آية من آيات النعم بقوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)**! بنعمة أشجار الجنة ذوات الأفنان تكفران؟! أم بنعمة العينين الجاريتين تجحدان؟! أم بنعمة تعدد ضروب الفواكه والثمار ووجود الزوجين من كل ثمرة لا تؤمنان؟!

أيّهما أهم، أخبار المنجّم أم أخبار القرآن؟

والآن بعد أن مرت علينا بعض الآيات المشتملة على الأخبار الغيبية القرآنية، فهذه الأخبار تحدثت عن أمور تقع خارج حدود إدراك حواسنا (كما في عرض الجنة، أشجارها، وعيون الماء فيها) مما ذكره القرآن الكريم أو ما تناولته أحاديث أهل البيت (ع). ترى هل أن هذه الأخبار القرآنية أقل شأناً وأدنى أهمية من أقوال علماء الفلك؟ هل سألنا أنفسنا يوماً لماذا نحن نصدق ونؤمن بل نقطع بصحة ما يقوله عالم الفلك أو المنجّم حتى وان كان قوله عجيباً أو غريباً، بينما نتردد في الجزم والقطع بصحة ما يخبرنا به القرآن العظيم والنبي الكريم (ص) والأئمة الطاهرين (ع)؟!

لماذا نحن نصدق ودون تردد ما يقوله الفلكي من أن نور الشمس يصل إلى الأرض في غضون سبع دقائق ونصف الدقيقة، ونؤمن بما يؤكّده عالم الفلك من أن بعض الأجرام والكواكب تبعد عن كوكبنا (الأرض) مسافة ألف سنة ضوئية، بل أن بعض الكواكب أو

الشموس الموجودة في هذا الكون الرحب لم يصلنا نورها منذ أن خلقها الله عز وجل لفرط بعدها الشاسع عن كوكبنا!؟

ونتردد في تصديق سعة الجنة أو عرضها!! رغم أن ما يقوله العلماء والمنجمون يستند في الأغلب على الحدس والتقدير والحساب، وبينما ما يخبرنا به الأنبياء والأئمة (ع) يستند إلى المشاهدة الحيّة أو الأخبار بالواسطة عن رب العالمين، فنبينا محمد (ص) عرج به إلى السماء ووطأ أرض الجنة بقدميه الشريفتين وذاق طعم ثمارها بفمه الطاهر، ولعل حادثة أكله (ص) من تفاح الجنة التي كانت سبب انعقاد نطفة الزهراء فاطمة (ع) قد سمعتموها كثيراً وهي دليل يضاف إلى ما لا يحصى من الدلائل على هذه الحقيقة.

متكأ بطانته الديباج:

(متكئين على فرش) أي أن الذين يخافون مقام ربهم لهم جنتان فيها فرش قد اتكأوا عليها، و (متكئين) صفة للخائفين من مقام الرب، فهم في الجنة كالملوك والسلاطين قد اتكأوا على (فرش وهي جمع فراش وهو ما يفترشه المرء للجلوس أو الاستناد إليه في جلوسه.

والنقطة اللطيفة في هذه الآية هي اننا لو حاولنا أن نفهم ماهية وكيفية هذه الفرش والمتكئات لما حزنا إليها سبيلاً، بل لا نستطيع أن ندرك بطائن تلك الفرش.

(بطائنها من استبرق) وكلمة بطائن مشتقة من بطن وباطن، وهي تعني المادة التي تبطّن الأقمشة عادة فتستبطنها، أما (الاستبرق) فهو ما نصطلح عليه بالحرير الصيني أو ما يسمى بالديباج، وهو ألطف وأنعم أنواع الحرير، ولعل تسميته بالأستبرق ناشئة عن بريق البرق الأخّاذ، وقيل عن اصل مادة بطائن الاستبرق انه النور، ولكن ورد عن سعيد بن جبير هذا المفسر الجليل عندما سئل عن مادة بطائن الاستبرق قال: لو كان يمكن توضيح هذا الأمر لبيّنه الله عز وجل في كتابه الكريم. وهذا يكفي لوحده كدليل على أن الاستبرق لا يمكن وصفه، يقول تعالى **(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين جزاءً بما كانوا يعملون).**

(سورة السجدة، الآية: ١٧).

(متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنا الجنتين دان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٥٤ ــ ٥٧).

طلاب الجنة قليلون:

إذاً أعد الباري تعالى لعباده الخائفين مقامه (تعالى) جنتين فيهما من ألوان النعيم التي أشار القرآن إلى شيء منها، ومن جملة النعم الفُرش الرائعة ذوات البطائن الحريرية، فكيف بالفراش نفسه؟ مع العلم ن بطائن الفرش من افضل والطف وأنعم وأنور وأزهى الأقمشة حيث عبر عنها القرآن بأن مادتها الاستبرق. يقول الإمام علي (ع) (ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها) مع ان المرء كم تأخذ السعادة منه مأخذاً ويحلّق به السرور أوجاً لو حصل في هذه الدنيا على بستان أو روضة؟ بل وكم ينفق من جهده وعرقه وسعيه حتى يحقق ما صبت نفسه إليه في دنياه باقتناء بستان مثلاً؟ وهو يعلم تماماً أنه سينتفع منه لأجل محدود ثم يغادره إلى حيث لا رجعة إليه، بينما الجنة أولى بالشوق إليها والسعي نحوها وبذل العرق وتحمل الصعاب وتجشم العناء طلباً لها لأنها الباقية، ولأنها المُلك المقيم (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (سورة المطففين، الآية: ٢٦).

فواكه الجنة في متناول أيدي أهلها:

(وجنا الجنتين دان)، كلمة (جنا) تعني الثمرة المقطوفة من الشجر، ولا يصح تسمية الثمرة التي لم تجنى بعد من شجرتها (جنا)، ففواكه الجنة وثمارها في متناول أيادي أهل الجنة وأنّى شاءوا، فما أن يشتهي المؤمن فاكهة ما حتى يهبط إليه غصنها وتقترب الثمرة المطلوبة عند فمه، فهو لا يحتاج إلى النطق والافصاح عن حاجته أو رغبته أبداً.

ومعنى كلمة (دان) هو قريب، وهي مشتقة من الدنو أي القرب إذاً خلاصة معنى الآية هو (إن ثمار الجنتين وفواكههما قد دنت إلى المؤمن وأضحت في متناول يده وعند رغبته، بل ان القطاف والجني ذاتي ولا يحتاج فيه المؤمن إلى الامساك بالثمرة وقطفها بل تصير بذاتها إلى فمه وقتما شاء ذلك. فطوبى لك أيها العبد المؤمن الذي أفنى عمره في طاعة الله تعالى وتبع إرادة ربه فقد جعل الله عز وجل لك في غدك الآتي ثواب طاعتك وعبادك في نعيم الجنة فيصيّر لك الأشياء حينذاك وفقاً لارادتك ومطيعة لرغبتك وشهواتك.

من قال كلمة التوحيد فله بها شجرة في الجنة:

يقول أحد العلماء، لو أن ملكاً سمع بخبر يقول أن في الأرض الفلانية شجرة لها ثمار يعطي مائة ألف طعم في مذاق ثمرتها وقد خلص الثمر من النوى والقشور وهي تثمر على مدار

فصول السنة جميعاً، ترى كم سينفق هذا الملك، وكم سيعطي من جهده وعنائه جرياً وراء الحصول على هذه الشجرة ليتمكن من حيازتها والاستفادة منها؟

وأنت أيها المرء المؤمن حسبك أن لا تستهين بوعد الله أو تستصغره، فان من قال كلمة (لا اله إلا الله) مخلصاً غرس الله له شجرة في الجنة بها وفي سائر الأذكار يعد الله عباده بجزيل الثواب وعظيم المّن، فلم التهاون والتقاعس إذاً؟! ان فاكهة الجنة لا تحتاج منك إلى بذل جهد أو حركة، فهي جنيّة، ولو انك طعمتها واكثرت منها سوف لا تثقل على معدتك ولا يحصل لديك انتفاخ البطن أو وجع القلب الناشئ عن تناول الأطعمة دون الشهيّة.

نساء الجنة مولهات بأزواجهن:

(فيهن قاصرات الطرف) أي وفي الجنتين نساء يقصر نظرهن على ازواجهن. ويعد وجود الحور العين في الجنة أحد اكبر النعم الالهية، فقد خص الباري تعالى خلقهن للآخرة وحدها، ومع الحور العين توجد أيضاً النسوة المؤمنات الصالحات في الجنة، والمؤمنات يفوق جمالهن جمال الحور العين بأضعاف مضاعفة، مع أن زيادة تقوى وايمان الامرأة الصالحة يؤدي إلى زيادة درجات الجمال الآخروي.

ويبلغ من عشق الحور العين لازواجهن حداً يقصر فيه طرفهن عن رؤية غير ازواجهن، لذلك وصفهن الله عز وجل بـــ **(قاصرات الطرف)**، وقد ورد عن النبي (ص) قوله (قاصرات

الطرف، قصر طرفهن على ازواجهن فلم يردن غيرهم) وقال أبو ذر(رض) (إنها (أي الحورية) تقول لزوجها، وعزة ربي ما أرى في الجنة خير منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي)١[1].

قاصرات الطرف من الحور لمن قصر طرفه عن النظر إلى الحرام:

ويقول أحد المفسرين، إن نعمة قاصرات الطرف من الحور العين اللواتي يقصر نظرهن عن رؤية غير أزواجهن، إنما هن لمن يقصر طرفه عن النظرة المحرمة، فلا يجعل عيناه تزيغان بالنظر إلى ما حرم الله تعالى وهناك من يقول علة تسمية الحور العين بقاصرات الطرف هي نهن يقصر طرف الرائي عنهن من شدة تألّق ضيائهن٢[2]، فلا يستطيع من مواصلة النظر إليهن.

وتذهب إحدى الروايات إلى تأكيد هذا المعنى إذ تقول (ولو أطلّت حورية من حور الجنة على أهل الدنيا لغشي عليهم من فرط جمالها، حتى أن ضوءها ليطغى على ضوء الشمس،

---

١ [1] تفسير نور الثقلين (ج٥، ص١٩٨) نقلاً عن تفسير علي بن ابراهيم القمي).

٢ [2] تفسير نور الثقلين (ج٥، ص١٩٨) نقلاً عن تفسير علي بن ابراهيم القمي.

ولو أنها بصقت في البحار المالحة لعذب ماؤها، وان المرأة من أهل الجنة ليُرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير)٣[3]، فيكون ذلك زيادة في جاذبيتها٤[4].

رحلة خطوبة الحور العين تبدأ من المساجد:

وينقل كتاب بحار الأنوار عن رجل انه قال: رأيت يوماً الإمام زين العابدين (ع) وقد خرج لتّوه من الحمام وقد تخضّب ولبس جبّة وهو يروم الذهاب إلى المسجد ماشياً مشية ملؤها الوقار كأنه في مشية عرس، فدنوت منه وسألته: إلى أين يا سيدي؟ قال: إلى حيث تخطب الحور العين. (ومن الحور العين برحمتك فزوّجنا)٥[5].

إذاً الجنة مكان طاهر نظيف لا يشتمل على نجاسات أو أوساخ، فما فيها هو محض نور، ولذاتها نابعة من الجمال المحض فلا يعكّرها صفواً من نجاسة كما في لذات الدنيا وشهواتها. وعوداً على بدء، نقول إن معنى قاصرات الطرف هنّ من لا تتعدى أبصارهن أزواجهن.

الحور، ابكار لم يتزوجن من قبل:

---

٣ [3] المصدر السابق.

٤ [4] لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع راجع كتاب الدار الآخرة في تفسير سورة الواقعة للمؤلف(رض).

٥ [5] دعاء أيام شهر رمضان، كتاب مفاتيح الجنان.

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) أي لم يمسسهن أحد من الناس أو الجنّة، من قبل، ويرى البعض ان المقصود من هذه الآية الكريمة هو أن الحور العين المخصصات للرجل الانسي لم يطمثها أنسي قبله والحور العين المخصصات للجنّي المؤمن لم يطمثها جنّي قبله.

وبالتأكيد ان جمال الحور يتزايد ويتناقص تبعاً لأعمال المؤمن الصالحات واستناداً إلى ايمانه وتقواه. ثم تأتي الآيات اللاحق لتقدم لنا أوصاف الحور، وما يهمّنا الآن هو ان الجنة في سعادة لا تشوبها شائبة، ونعيم في نعيم لا ينغصه شيء.

ولعله من المناسب لمقالنا هذا أن نذكر احدى فضائل أهل البيت (ع)، تقول إحدى الروايات ان الحور العين بجمالهن الأخّاذ وضيائهن الباهر، يشع عليهن نور فجأة فيبهر أبصارهن ويغلب كل الأنوار (بما فيه نورهن) فيضاء له كل شيء هناك، فيتساءلن عن مصدر النور، فيأتيهن الجواب أن علياً وفاطمة (ع) قد أنسا ببعضهما فضحكا ضحكة فشع النور من فيهما.

[٥٢]

(كأنهنّ الياقوت والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٥٨ - ٦١). (لا بشيء من آلائك رب اكذب).

نساء الجنة كأنهن الياقوت في تألقهن:

ذكر سابقاً إن الحور العين أبكار لم يمسهن من قبل أحداً.

(كأنهن الياقوت والمرجان) حمرة وبياضاً، ألا هل من مشتاق لهن؟ ألا هل من راغب لزوجات مدحهن الله تعالى في كتابه الكريم؟ اللّهم فأنزع حب الدنيا من قلوبنا، واجعل بدله حبك والرغبة إلى الآخرة ونعيمها المقيم.

في هذه الآية نرى أن الله عز وجل يصف الحور العين بالياقوت والمرجان تشبيهاً، والياقوت كما نعرف هو حجر كريم ثمين جداً يمتاز على سائر الأحجار الكريمة بخصائص ومزايا، وللياقوت أنواع متعددة، فهناك الياقوت الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر، وأشهر أنواعه هو الياقوت الأحمر، وهو يشبه إلى حد كبير حبة الرمان الحمراء، وهو نفيس للغاية، ومن خصائصه أن كثرة مسه ولمسه لا تعدمه بريقه وتألقه. وقد شبّه الباري تعالى جمال الحور العين ونساء الجنة المؤمنات بالياقوت، ويكفي المرء من هذا التشبيه أن يدرك السر بعد أن تعرّف على شيء من خصائص الياقوت.

حمرة الحور كالياقوت، وبياضهن كالمرجان:

وأحد دواعي تشبيه الحور بالياقوت هو جانب الصفاء والتألق، فللحور العين من اللطافة والصفاء ما يبلغ حداً يقول عنه رسول الله (ص) (فهي تلبس سبعين حلّة ويرى زوجها مخ ساقيها من وراء حللها وبدنها، كما يرى أحدكم الدراهم إذا ألقيت في ماء صاف قيد رمح).

اما الجانب الثاني في علة تشبيه الحور بالياقوت فهو جانب اللون، فهن حمراوات كالياقوت، بيضاوات كالمرجان، وقد يبدو مظهر الجمال وفق هذين اللونين أشبه بالسراب في دار الدنيا فلا يتجلّى لنا جمال هذين اللونين على حقيقته، لأن هذين اللونين يعبران في دار الدنيا عن مظهر القيح والدم، بينما تظهر حقيقة الجمال والألوان في الجنة التي يغفل عنها الكثيرون، كما هم الحال في جمال الحور وصفائهن وسائر اللذات والنعم الآخروية.

وجه ياقوتي وبدون بدن كالمرجان:

ونقل صاحب كتاب معالم الزلفى أن المرء المؤمن عندما يرد الجنة ويحتضن حوريته، يذهب معها في عناق وتقبيل يطول خمسمائة عام! وهذه الصورة لا يمكن تصورها طالما كنا في هذا العالم، ولكن يصار بنا إلى ذلك العالم فعندها سنتمكن من مشاهدة هذه الحقيقة في دار النعيم والكرامة حيث تتجلّى هناك قدرة الباري تعالى فيبرزّ الجمال الأخّاذ.

وعليه فان معنى قوله تعالى **(كأنهن الياقوت والمرجان)** هو كأنهن كالياقوت في حمرة الوجوه، وكالمرجان في بياض وصفاء الأبدان. **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** فبأي نعمة يا معشر الجنة والناس أنتما تكفران؟! أبنعمة أزواج الجنة حمراوات الوجه كالياقوت أم في صفاء وبياض أبدانهن كالمرجان؟!!

وما جزاء الإحسان إلاّ الإحسان:

(هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان) لـــ (هل) الاستفهامية الواردة في هذه الآية أربعة معانٍ، كما ذكر ذلك المفسرون، وأهم هذه المعاني المناسبة لموضوع الآية هو الاستفهام التقريري، وعليه يكون معنى الآية ـــ ان من البديهي ان يكون جزاء الاحسان هو الاحسان، وهي الإجابة التي لا يجد المسؤول بدّا من القول والاعتراف بحقيقتها.

فأنتم أيها المؤمنون الاعزاء لم تمرغّوا وجوهكم بصعيد الأرض في هذه الدنيا إلاّ لتعربوا لله عز وجل عن انكساركم وعجزكم وذلكم إليه، فظهرتم بمظهر العبودية والخضوع لذلك حصل الله لكم من الثواب على ذلك أن يكسبكم مظاهر العزة والعظمة والجلال في تلك الدار (بأذنه تعالى) ولأجل توضيح هذا الأمر نعمة الآن إلى استعراض هذه الرواية زيادة في فهم الموضوع:

الملائكة تستأذن المؤمن في زيارة التهنئة:

يروى عن رسول الله (ص) أنه قال: عندما يستقر الحال بالمؤمن في الجنة، يبعث الله ألف ملك يهنئونه بالجنة، فيصلون إلى أول باب من جنان ملكة فيقولون للملك الموكّل بأبواب جنان عبد الله المؤمن: ١ ـــ استأذن لنا علي ولي الله فان الله بعثنا من عنده مهنئين، فيقول الملك: حتى أقول للحاجب فيعلمه مكانكم، فيقول للحاجب: إن على باب العرصة ألف ملك بعثهم رب العالمين ليهنئوا ولي الله وقد سألوني ان استأذن لهم بالدخول عليه، فيقول له

الحاجب: انه ليعظم عليّ ان استأذن لأحد للدخول على ولي الله وهو مع زوجه، قال (ص): وبين الحاجب وبين ولي الله جنتان، فيدخل الحاجب إلى القيّم فيقول له: إن على باب العرصة ألف ملك بعث بهم رب العالمين مهنئين من عنده لوليه فاستأذن لهم، فيقوم القيّم إلى الخدمة ويقول لهم: إن رسل الجبار على باب العرصة وهم ألف ملك بعث بهم إلى ولي الله مهنئين فاعلموه مكانهم فهم يستأذنون بالدخول عليه، قال (ص)ك فيعلم الخدمة ولي الله، فيؤذن لهم فيدخل الملائكة على ولي الله وهو في الغرفة ولها ألف باب، وعلى كل باب يقف ملك موكل بتلك الباب، فيدخل كل ملك مبعوث من باب من أبواب الغرفة ويبلغونه رسالة الجبار **(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)** (سورة الرعد، الآيات: ٢٣، ٢٤). فانظروا إلى هذه العظمة والهيبة التي يعطيها الله تعالى لعبده المؤمن بديلاً عن انكساره وذله في دار الدنيا، وكما يقول الحدث الشريف (إن أهل الجنة ملوك) بلى فهم الملوك والسلاطين في عين الحقيقة وذات الواقع لا سواهم.

وما جزاء التوحيد إلاّ الجنة:

وورد كذلك في تفسير هذه الآية عن رسول الله (ص) وهو يحدث أصحابه (أتدرون ما يقول ربكم؟ (يريد بذلك قوله تعالى **(هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان)** فردوا عليه: الله ورسوله

أعلم، فقال (ص): فان ربكم يقول هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلاّ الجنة؟)٦[6]، أي أن جزاء الإحسان وهي كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) التي يفني المرء المؤمن عمره في تحقيق وتأكيد حقيقتها فلا يشرك بالله شيئاً، ان شركاً خفياً أو ظاهراً، فيعبد الله وحده ويخشاه ولا يرجو إلاّ هو، ان ينعم عليه ويكرمه بإحسانه حقاً عليه تعالى. ولكن بشرط مهم وخطير، هو شرط الولاية في التوحيد كما وضح لنا ذلك إمامنا الثامن علي بن موسى الرضا (ع) عندما قال: بشرطها وشروطها، وأنا (الولاية) من شروطها. إذاً إلحاق الولاية بالتوحيد شرط لازم من شروط التوحيد الكامل.

وهل جزاء الاستغفار إلاّ المغفرة:

ولقد أجاد القول أحد المفسرين عندما قال: إن معنى قوله تعالى **(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)** هو ــ هل جزا التوبة إلا القبول؟ وهل جزاء الاستغفار إلا المغفرة والصفح؟ وهل جزاء الشكر إلا الزيادة في العطاء؟ وهل جزاء الدعاء إلاّ الإجابة؟وهل جزاء السؤال إلاّ العطاء؟ ــ. ويبقى المعنى الأشمل لكل تلك الأمور هو قوله عز وجل **(هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان)** لأنها ضمنت جميع تلك المعاني في نصها المجيد.

لقمة بلقمة:

---

٦ [6] تفسير مجمع البيان ت عن تفسير نور الثقلين (ج ٥، ص١٩٨).

وفي معرض حديثه عن هذه الآية المباركة ذكر أحد المفسرين هذه القصة (في سنة جدب وقحط وغلاء، حملت امرأة مؤمنة طفلها ومعها قرص من الخبز وانطلقت إلى البادية لتجمع الحطب والأشواك، فمرت برجل مسكين قد أضرب به المسكنة واشرف على الهلكة من فرط جوعه، فرقت المرأة لحاله وناولته قرص الخبز ليسدّ به رمقه، ثم تركته وذهبت إلى شأنها ثم لم تمض بعيداً حتى وضعت طفلها في جانب من البادية وشرعت تجمع الحطب والأشواك. فجأة أقبل ذئب وأمسك طفلها بأسنانه يريد افتراسه فذهلت الامرأة ولم تدر ما تفعل؟ وهنا ظهر رجل على حين غرّة فانتزع الطفل من أنياب الذئب وحمله إلى أمه وهو يقول لها: إنها لقمة بلقمة! يريد بقوله إن جزاء إحسانك إلى المسكين الجائع بقرص الخبز هو أن أنقذ الله وليدك الذي أوشك أن يكون لقمة سائغة للذئب.

كافئ بالمعروف من أحسن إليك:

وينبغي التنبّه إلى أن هذه الآية هي آية عامة لا تخصيص فيها، فهي تشمل المؤمن والكافر، البر والفاجر. يقول علي بن سالم سمعت أبا عبد الله (الصادق (ع)) يقول: آية في كتاب الله مسجلة، قلت وما هي؟ قال (ع) قول الله (عز وجل) **(هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان)** جرت في المؤمن والكفار والبر والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليست

المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يُربي، فان صنعت كما صنع، كان له الفضل بالابتداء)٧[7].

ولما منعت السماء قطرها في الكوفة، جاء الناس إلى علي (ع) فشكوا له ذلك، فأمر ولده الإمام الحسين (ع): اذهب وأدع، فذهب الإمام الحسين (ع) ودعا دعاء الاستسقاء فأمطر الله سماءه وارتوى الجميع، فكيف كان جزاء أهل الكوفة لهذا الإحسان؟!

منعوا الماء على الحسين وأهله　　　　واستنسوا الحال في هتك حرماته

[٥٣]

(ومن دونهما جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * مدهامّتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان نضّاختان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما فاكهة ونخل ورمّان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهن خيرات حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٦٢ ــ ٧١). (لا بشيء من آلاء رب اكذّب).

وجنتان أخريان:

(ومن دونهما جنتان) أي وغير الجنتين الأوليين أعد الله تعالى للخائفين المقربين جنتين أخريين. وقد ذكر المفسرون وجهين في معنى هذه الآية هما:

---

٧ [7] مجمع البيان ــ عن تفسير نور الثقلين (ج٥، ص١٩٩).

الوجه الأول: المراد بكلمة (دون) هو (غير) وعلى ذلك يكون معنى الآية ــ ومن غيرهما جنتان ــ أي ولمن خاف مقام ربه جنتان اخريان، وتصف الروايات الواردة هاتين الجنتين كما يلي (عن النبي (ص) أنه قال: جنتان من فضة أبنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب أبنيتهما وما فيهما، إذاً الجنتان الاوليان من ذهب، والأخريان من فضة. وسنأتي لاحقاً إلى ذكر الوجه الثاني في معنى الآية.

ولهاتين الجنتين جملة أوصاف، نذكر منها: (مدهامتان) وهي مشتقة من مادة (أدهم) وهو اللون الأسود لفظاً ومعنى، ومدهام هو اسم مفعول، ومدهامتان تثنية لكلمة مدهام، وهي صفة للجنتين من حيث كثرة خضرتهما وزرعهما حتى استحالتا للرائي وكأنهما سوداوان، وبذلك فانهما مبعثان على انشراح القلب وانفراج أساريره لأن كثرة الخضرة والزروع ما تسّر الناظر وتفرحه عادة.

عينان من المسك فوّارتان:

(فيهما عينان نضّاختان) أي فيهما عينا ماء فوارتان، والنضخ هو الفوران، وعن ابن عباس (رض) ورد في تفسير هذه الآية أنه قال (وتنضخ هاتان العينان بالمسك).

وفيهما فاكهة وتمر ورمّان:

(فيهما فاكهة ونخل ورمّان) وفي تينك الجنتين فواكه وتمر ورمان، وانمّا جاء التأكيد على الرمان، لأنه أحد ثمار الجنة كما قال الإمام الصادق (ع) (الفاكهة مائة وعشرون لوناً، سيدها الرمّان)٨[8] لأن الرمان فاكهة تنير القلب، وقد جاء في السنة استحباب تناول الرمان في ليلة ونهار الجمعة، فقد جاء عن (الامام الصادق (ع) قوله ما من شيء أشارك فهي أبغض إليّ من الرمان وما من رمانه إلاّ وفيها حبة من الجنة، فإذا أكلها الكافر بعث الله (عز وجل) له ملكاً فأنتزعها منه)٩[9]، وقيل عن رسول الله (ص) أنه كان لا يحب أن يشاركه أحد في أكل الرمان، يقول الصادقان (ع) (ما على وجه الأرض ثمرة كانت أحب إلى رسول الله (ص) من الرمّان وكان والله إذا أكلها لا يشاركه فيها أحد)١٠[10]. ولقد كان الإمام الصادق (ع) يفترش منديلاً عندما يشتهي أكل الرمّان لكي لا يغادر منها حبة واحدة.

وقد جاد في فوائد أكل الرمان أن من تناول رمانة طرد بذلك الوسوسة من قلبه أربعين يوماً. إذاً وجه الاهتمام بالرمان لأنه غذاء وفاكهة ومادة تنير القلب.

ونعود الآن إلى ذكر الوجه الثاني في معنى قوله تعالى **(ومن دونهما جنتان).**

جنات أصحاب اليمين دون جنات الخائفين رفعة وعلوّاً:

---

٨ [8] مجمع البيان نقلاً عن تفسير نور الثقلين (ج٥، ص١٩٩).

٩ [9] فسير نور الثقلين (ج٥، ص٢٠١) نقلاً عن الكافي.

١٠ [10] المصدر السابق.

الوجه الثاني: وهو ما عليه أغلب المفسرين، وإليه تذهب روايات أهل بيت العصمة (ع) في تأييد هذا المعنى، حيث ان معنى (دون) وفق هذا الوجه هو أقل واخفض وأدنى، فللمقربين وأهل الخوف من مقام الرب جنتان على ما مر القول في شأنهما، أما هاتان الجنتان فهما أقل منهما شأواً واخفض منهما رفعة، وهما تقول الأخبار قد أعدتا لأصحاب اليمين، فللمقربون والخائفون جنات عالية، ولأهل اليمين جنات دون جنات اولئك الأبرار منزلة، ويعود السبب في ذلك إلى عدم استواء المذنب مع المتقي، لأن من أفنى العمر كلّة مخلصاً لله عز وجل طائعاً مكابداً لا يتساوى في الشأن أو العطاء والثواب مع من بدر منه الذنب وصدرت عنه المعصية في حياته الدنيا واشتغل قلبه حيناً من الزمان بحب الدنيا، ولكن مع ضرورة الالتفات إلى أن نيل الجنة بذاته مبعثاً على السعادة والشرف، ومنزلة أصحاب اليمين منزلة رائعة وحسنة فهم ينعمون في جنتين تنور منهما عينا ماء بالمسك الأذفر ولهم فيها ضروب الفواكه والتمور والرمان وألوان النعم الأخرى، ولكن تبقى منزلة المقربين والخائفين أشرف وأسمى من درجة أولئك، وتبقى جنتاهما اكثر عطاءً وأوفر حظاً ونعماً من جنتي أصحاب اليمين لاختلاف المنازل والدرجات. يقول الإمام الصادق (ع) (لا تقولنّ الجنة واحدة، إن الله يقول **(ومن دونهما جنتان)** ولا تقولنّ درجة واحدة أن الله يقول **(درجات بعضها فوق بعض)** إنمّا

تفاضل القوم بالأعمال)١١[11] بل ان منازل المقربين والخائفين هي الأخرى تشتمل على درجات متعددة كما أن لأصحاب اليمين منازل ودرجات متعددة تتفاوت في رفعتها وشرفها.

لا يستقر الجميع في محل قرار واحد:

ونقل صاحب تفسير البرهان حديثاً شريفاً عن الإمام الصادق (ع) سنورده لما فيه من فائدة لا تعدم، فقد تحدث الإمام (ع) إلى بعض أصحابه قائلاً بما مفاده (يساق إلى جهنم عدد من الناس ممن تكتب لهم النجاة فيما بعد فيصار بهم إلى الجنة لما لديهم من إيمان بالله عز وجل (لأن الخلود في النار من شأن أولئك الذين لا يؤمنون بالله تعالى بالمرّة) فمر أحد أصحاب الإمام (ع) على الإمام وأخبره أن هناك من يتناقل في المجالس إن الإمام الصادق (ع) يقول بخروج المذنبين من النار وورودهم الجنة وأن الناس يتعجبون منّا إذا قلنا يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة، ويقولون لنا: أو يكونون مع أولياء الله في الجنة؟ فقال الإمام (ع) يا علي ان الله يقول (ومن دونهما جنتان) ما يكونون مع أولياء الله)١٢[12].

وفي رواية سُئل الإمام (ع) هل باستطاعة أهل الجنة ان يتزاورون فيما بينهم؟ فقال الإمام (ع): إن باستطاعة صاحب الدرجة العالية أن يزور من هو أدنى منه درجة، ولا يمكن

---

١١ [11] مجمع البيان ــ نقلاً عن تفسير نور الثقلين.

١٢ [12] المصدر السابق (ص٢٠٠). لأن أولئك المذنبون التائبون والمصرّون على الذنب المعذبون عليه يكونون في الجنتين التاليتين لجنتي المقربين والخائفين من مقام الله عز وجل.

صاحب الدرجة الدنيا أن يزور صاحب الدرجة العليا، لذلك كان بعض أهل الجنة باستطاعتهم زيارة النبي محمد (ص) مرة كل اسبوع، بينما هناك من يستطيع البقاء معه في مقامه كسلمان المحمدي(رض).

منزلة بين منزلتين:

ثم يعود السائل بالسؤال قائلاً: وهل يعد الذين نجوا من النار كفار فيجيبه الإمام (ع): لا والله لو ماتوا على الكفر لما وجدوا لهم سبيلاً إلى الجنة، فيقول السائل: فهل كانوا مؤمنين؟ فيقول الإمام (ع): لو كانوا مؤمنين لما سيقوا إلى النار (ولعل مراد الإمام (ع) انهم لم يمتلكوا درجة الإيمان الكامل التي تحصن المرء من ارتكاب الاثم واجتراح السيئة، وتدفعه إلى أداء الفرائض والتزام الواجبات بحيث يستحيل عليه ورود النار، ولكن اولئك لم يكونوا على تلك الدرجة من الإيمان، ولكنهم سيقوا إلى النار لكثرة ذنوبهم ومعاصيهم)، فهم لم يكونوا كفاراً ولم يكونوا مؤمنون واقعيون، وحسب تعبير الإمام (ع) (بين ذلك) أي بين منزلة الكفار ومنزلة المؤمنين، ولذلك شملهم العذاب لفترة معينة ثم نجّاهم الله برحمته وجعل مثواهم في منازل الجنان الدنيا.

فهلاً فكرنا بمصائرنا؟

أيها الاعزاء، إن العمر أشرف على النفاد، ولا ندري إلى م ستؤول عواقب أمورنا؟ فهل سنصير مع أصحاب اليمين؟ أم سنكون مع أصحاب الشمال (لا سمح الله)؟ وحينها كيف سيكون بنا الحال ووجوهنا قد اسودت بفعل المعاصي، فهل يعقل أن نصحب المقربين؟ ألا هل من لبيب يفكر بنفسه ويقدّم لغده ويسأل نفسه: إذا أدركني الموت فعلى أية حال سأموت؟ هل أموت وأنا غافل أم ذاكر لله تعالى؟ التفتوا أيها الأعزة إلى أنفسكم فلا يغرنكم ما أنتم عليه اليوم من التزام الطاعات، ولا تيأسن من ماضيكم المنعم بالمعاصي، انما هي العبرة في الساعة الأخرى من رحلة العمر في الحياة الدنيا فهي ساعة الحسم والفصل، واعلموا أن جميع ساعات عمرنا هي ساعة الفصل الأخيرة لأننا لا نعلم ساعة الرحيل، فلعل كل ساعة من أعمارنا يدركنا الموت فيها فننتقل حينها إلى عالم البقاء والخلود، فطوبى لمن خلد في رحمة الله ورضوانه، اللّهم منّ علينا برحمتك واجعل آخر ساعة في أعمارنا افضل ساعات العمر طاعة وعبودية لك يا ارحم الراحمين.

(فيهن خيرات حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * حور مقصورات في الخيام * * فبأي آلاء ربكما تكذبان * لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان) (سورة الرحمن، الآيات: ٧٠ ـ ٧٧).

ربّات الوجوه الصبيحة والأخلاق المليحة في الجنة:

(فيهن خيرات حسان) أي في تلك الجنان نسوة صالحات (أو منتخبات) حسناوات. وتعد نساء الجنة (من الحور العين ونساء الدنيا المؤمنات) من نعم الجنة السنيّة، حيث يشير القرآن إلى هذه النعمة في العديد من المواضع فيه. ومعنى كلمة (خيرات) وهي مجمع (خيره) المنتخبات والمنتقيات والمختارات من النسوة من ذوات الأخلاق الفاضلة والملكات الحسنة الذي تحصّل لديهن نتيجة ايمانهن بالله عز وجل وقيامهن بالأعمال الصالحات في الحياة الدنيا لذلك جاء الانتقاء والاختيار لهن بفضل ما اكتسبن، ومن جملة ملكاتهن الحسان فرط عشقهن لأزواجهن وغض الطرف عمن سواهم، والاستجابة إلى رغبات وشهوات أزواجهن مع ما لديهن من جمال مفرط وحسن أخّاذ يفوق ما لدى مثيلاتهن من احور العين، يقول الإمام

الصادق (ع) (الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهن أجمل من الحور العين)١[1] ولعل كلمة (خيرات) مشتقة من مادة خير، فيكون المعنى نسوة صالحات، ويصبح معنى الآية: ــ في تلك الجنان نسوة صالحات حسناوات ــ.

وكلمة (حسان) مشتقة من الحُسن وهو جمال وملاحة الوجه وعليه يكون المعنى ــ أن حسن النسوة الصالحات أو المنتقيات يصل إلى كمال الهيئة وجمال الصورة. وقد ذكر النبي (ص) معنى (خيرات حسان) في حديث روته عنه أم سلمة (رض) يقول فيه (ص): (خيرات حسان) أي نساء خيرات الاخلاق حسان الوجوه)٢[2].

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) فبأي نعمة من نعم ربكما يا معاشر الجنة والناس تكفران؟ أبنعمة الزوجات الحسان الخيرات لا تؤمنان؟! ولعل هذه الآية هي إشارة صريحة إلى نساء الدنيا، يقول الراوي سألت أبا عبد الله الصادق (ع) عن قول الله (عز وجل) **(فيهن خيرات حسان)** فقال هن صالحات المؤمنات العارفات٣[3]. وهذه الآية تقف بأزاء الآيات السابقة واللاحقة التي تتحدث عن الحور العين ونسوة الجنان في عالم الآخرة.

حور مخدرّات في الخيام:

---

١ [1] تفسير نور الثقلين نقلاً عن كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.

٢ [2] تفسير نور الثقلين، نقله كتاب مجمع البيان.

٣ [3] نفس المصدر.

(حور مقصورات في الخيام) أي ان الحور العين أودعن في خيام وحجبن عن نظر الأجانب إليهن، وهذا النص القرآني يعرب عن بيان رفيع حيث يؤكد منتهى العفاف والطهر لحور الجنان، فهل لا يخرجن من خيامهن كما تذهب هذه الرواية إلى تأكيد هذا المعنى (الحور هن البيض المكنونات المخدرّات في خيام الدر والياقوت والمرجان، لكل خيمة أربعة أبواب على كل باب سبعون كاعباً حجّاباً لهن ويأتيهن في كل يوم كرامة من الله (عز ذكره) وبشر الله عز وجل بهن المؤمنين)٤[4]. فالحور العين محتجبات في خيامهن عن نظر الغرباء وليس حالهن كحال بعض نساء الدنيا اللواتي تتعقبهنّ نظرات السوء والريبة لأنهن خرجن عن بيوتهنّ وتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى. وجاء في تفسير علي بن ابراهيم القمي في معنى قوله تعالى (**حور مقصورات في الخيام**) أن الحور يقصر الطرف عنهن وروي عن النبي (ص) أنه قال: (الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلاً)٥[5].

المؤمن غيور مثل ربّه:

(**لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان**) أي لم يمسسهن أنس من قبل ولا جان، فكما أنهن لم ينظر إليهن أحد نظرة حرام فهن لم يمسسهن أحد بيد سوء، وتشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة كون الحور أبكاراً، ولعل تكرر مجيء هذا المعنى في السورة المباركة هو بمثابة

---

٤ [4] تفسير نور الثقلين ــ نقلاً عن روضة الكافي.

٥ [5] تفسير نور الثقلين ــ نقلاً عن جامع الجوامع ومجمع البيان.

التذكير بهذه النعمة لأن المؤمن غيور ولا يرتضي لنفسه نظر أحد من الخلق إلى عرضه، أو أن تمتد يد سوء إليه، لأنه يبغي العفاف الدائم لأزواجه، لذلك أكدّ الباري تعالى على هذه الحقيقة، بعد ذلك يعقب الباري عز وجل قائلاً **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** أي فبأي نعمة من نعم الله لا تؤمنان يا معشر الجنة والناس؟ أبنعمة عفاف زوجاتكن اللواتي لم يستطع من أحد أن يسترق منهم حتى النظرة، فوق أنهن لم يمسسن بيد سوء من أي مخلوق كان؟!!

الجنة دار الراحة والهناء، لا الدنيا:

(متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) و(الرفرف) هو المتكأ في أحد معانية، أما (العبقري) فيعني البساط أو كل ما يفترش للجلوس عليه، وبذلك يكون معنى الآية ــ متكئين على تكايا خضر وقد افترشوا لهم بُسطاً جميلة ــ فأهل الجنة قد اتكأوا على رفرف المجد والعزة الأخضر وافترشوا عبقري الفخر والملك الرائع. ومن يراقب حال الإنسان في دنياه يجده ورغم جميع محاولاته في تأمين الراحة لنفسه، لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يعثر على ما فقده، لن دار الدنيا دار محفوفة بالبلايا والشدائد والمكاره، ففي شرابها يحصل الشرَق، وفي طعامها تأتي الغصص، وسعي المرء مشتت بين تهيئة الطعام وإعداد الملابس وإيجاد المأوى والتوجّع لأجل تأمين الرزق وتدبير المعيشة، وعندما يفكر الإنسان بالترويح عن بدنه وفكره لساعة واحدة، يجد أن ساعة الراحة المنشودة هذه كثيراً ما تتبدل عليه إلى مرارة وعناء، فتستحيل حياته إلى مجلس عزاء وهم وحزن.

لذلك جعل الله تعالى الجنة مكان الراحة الحقيقية المناسب، ومحل الهناء التام كما نجد ذلك في إشارات الروايات الشريفة. ولعلنا عرّجنا كثيراً وبعدنا عن صلب موضوعنا، وعليه فنعود إلى تفسير آياتنا موضوع البحث، يقول بعض المفسرين ان معنى كلمة (رفرف) هو بساط من بسط الجنة وهو غاية في الجمال والروعة، وقد جاء في أخبار المعراج ان رسول الله (ص) قد جلس على رفرف ليلة عروجه إلى السماء.

هل يهزّكم الشوق إلى الجنّة:

لقد استعرضنا سوية جميع نعم الجنان وآلاء الرحمن الواردة في هذه السورة الكريمة ولم يبق منها سوى آية واحدة، ونقول الآن ترى بعد إحصاء كل تلك النعم العظيمة هل هز الشوق أحدنا إلى تلك النعم الجليلة فراح يشغل الفكر في كيفية بلاغها ونيل الوطر منها؟ ولعل الشوق كان لدى البعض منذ البداية، فهل تضاعف عندهم الشوق حتى ملك عليهم كل حالهم؟ إلا هل من طالب، إلا هل من راغب في نعم الله المعدّة لمن أراد أن ينجح صفقته مع ربه؟ انها والله سهلة المنال لمن هجر الغفلة وودع الكسل وفارق الضجر.

نعم ان الشوق لو غلب على الإنسان لما ضاع عمره الثمين وساعاته النفيسة في هوس بناء عمارات الدنيا الزائلة وشراء الرياض والبساتين المنتقلة إلى الورثة، ولو غلب الشوق على الإنسان في الوصول إلى مناه في الحور العين الحسناوات الفاتنات اللواتي وصفهن الباري

تعالى في كتابه الحكيم لما تعرّض إلى حرمات الناس بنظرات الحرام ولما عكف على معاكسة النسوة الأجنبيات، لأن شوقه إلى الحور قد أخذ بمجامع فؤاده وساقه إلى طلب النعم الدائمة الرائعة، وحينئذ يهجر الذنوب ويصلح حاله ليكون طالباً حقيقياً للجنان وآلائها، فيدخل حينئذ إلى دار السلام التي لا يردها إلاّ الأصحاء المعافون **(لهم دار السلام عند ربهم)** (سورة الأنعام، الآية: ١٢٧). واما من اختار لنفسه المرض على السلامة فحينئذ سيكون مصيره المؤكد إلى مستشفى الآخرة في جهنم ليتلقى العلاج المناسب لأمراضه فان صلح حاله فبها وحينئذ سيدخل مدخل أصحاب السلامة في دار السلام، وان لم يصلح وبقيت أمراضه غير قابلة للعلاج فحينئذ عليه البقاء الدائم في مستشفى جهنم ليؤمّن الأصحاء سلامتهم من داءه الوبيل خوف العدوى. اما أهل الجنة فهم من الأصحاء وأصحاب السلامة والعافية وقد تحرروا من ربقة الأمراض العضال من حقد وحسد وحب للدنيا وغيرها كما يقول المولى عز وجل في كتابه الكريم **(ونزعنا ما في قلوبهم من غل إخواناً)** (سورة الحجر، الآية: ٤٧).

[٥٥]

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) (سورة الرحمن، الآية: ٧٨).

شرف الاسم من شرف المسمى:

(تبارك) من باب تفاعل، وتعني تعاظم وتنزّه، ومعنى **(تبارك اسم ربك)** هو ــ عظمت البركة في اسم ربك العظيم ــ أو ــ حلّت البركة في اسم ربك ذي العظمة والأنعام وكلمة (اسم منبثقة عن المسمّى، وهو صاحب الاسم الذي منه يكتسب الاسم شرفه، وكلمة (ربّك) تعني رب العالمين (تعالى) صاحب العظمة والجلال والانعام والاكرام. إذ أن (العظيم) أحد أسماء الله (عز وجل)، وقد اكتسب هذا الاسم الشرف من عظمة رب العالمين لأنه الله تعالى مبارك ومبارك، واسم (المبارك) هو من أسماء الله تعالى، وعلى أساس ذلك يكون معنى **(تبارك اسم ربك)** هو تعاظم اسم ربك ومليء بالبركة. وعليه كان لزاماً على المؤمنين ألاّ يدعو ذكر اسم الله (عز وجل) على أية حال، وفي كل حركة وسكنة عند الطعام والشراب، وعند ارتداء الملابس، وعند الدخول أو الخروج من الدار، وعند المواقعة والجماع بل وحتى عند الذهاب إلى بيت الخلاء لقضاء الحاجة، لأن البركة الإلهية تكمن في اسمه تعالى.

بسم الله الحقيقي يتحصّل في معرفة التوحيد:

البركات الإلهية كثيرة بالطبع، ولا تحدها حدود تحصرها، ويبقى مقدار الاستفادة ونيل تلك البكرات منوط باستعدادات الافراد ولياقاتهم الذاتية، وعليه تتحقق استفادة المرء من (اسم الله) مثلاً بذلك المقدار الذي يحويه من الإيمان ومعرفة الله (عز وجل) وبواسطة مبلغ همته ودرجة معرفته. ولو ارتقى الإنسان إلى مقام المعرفة بحيث يصل إلى حقيقة العبودية فسيدرك حينئذ حقيقة بسم الله، وسيحصل على بركات لا حصر لها ولا حدود بحيث تحير

فيها الألباب وتعجز عن إدراكها العقول ولو استيقن المرء قول (لا حول ولا قوة إلاّ بالله) وهو يفهم ان معنى ذلك هو (ما من قدرة مؤثرة ولا قوة فاعلة في هذا العالم سوى قدرة الله تعالى وقوته) إذّاك يستطيع أن يقول بسم الله بحقيقتها وحقيقة (بسم الله) هي أن يستنتج المرء منها أن لا عون إلاّ من عند الله ولا بركة إلاّ باسمه الكريم، ويبقى قول (بسم الله) مجرد ألفاظ صماء جامدة عندما يرى المرء في نفسه أو الآخرين ان الفعل والمشيئة والارادة منه أو منهم.

ولتقريب الموضوع على الأذهان نقول، إن المرء لو خرج من داره وهو يعلم ان ما من خطوة خطوها وما من قدم ينقلها إلاّ ولإرادة الله تعالى فيها شأن، وما من قول يلفظه إلاّ ولله فيه ارادة وحكمة فحينئذ سيدرك (بسم الله) على حقيقتها، ولو افترضنا ان المرء نسي ذكر الله (لا سمح الله) أو انعقد لسانه وهو يدرك في قرارة ذاته ان لا حول له ولا للآخرين في أي شأن إلاّ بالله تعالى، فسينساب اسم الله عز وجل الواقعي على لسانه ويجري من فيه بكل يسر وسهولة، مع تأكيدنا على أن الخصائص والأسرار الكامنة في (بسم الله) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدرجة معرفة الإنسان الناطق بذلك القول وبسلوكه العملي لما يعتقده.

الله هو الحق وما دونه الباطل:

وإذا ما تدرّج الإنسان وتقدّم في منازل المعرفة والتوحيد فعندها سيصل إلى مرحلة التصديق واليقين ويقطع بأن الله هو الحق المطلق وما سواه (تعالى) باطل زائل.

يقول الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة العامري:ـــ

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وطبقاً لرواية منقولة عن رسول الله (ص) انه قل في شعر لبيد هذا، (إنه أفضل ما قيل من الشعر قبل الإسلام)، ويقول المولى عز وجل في كتابه المجيد **(ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل)** (سورة الحج، الآية: ٦٢).

فالله تعالى هو القوي وما سواه ضعفاء، والله هو الغني وما خلاه فقراء، وستتجلّى هذه الحقيقة بعد الموت لأهل الحسن والظاهر الذين لا يؤمنون إلاّ بما تدركه حواسهم الخمس.

ولتفكيه كلامنا، والاشارة إلى البركات التي حصلت لمن تبرّك بأسماء الله تعالى نسرد لكم هذه الحكاية عن بعض الأخيار:ـــ

إبطال آثار السم بقول بسم الله:

نقل صاحب كتاب الكبريت الأحمر وآخرون، أن رجلاً صالحاً من المؤمنين عرف حقيقة بسم الله، فكان لا يفعل أي شيء دون أن يسبق ذلك بقول (بسم الله)، وكان لهذا الرجل زوجة شابة كانت قد عمدت في أحد الأيام إلى دس السم لزوجها في طعامه، فجاء الرجل الصالح

ليتناول طعامه وهو لا يدري بقضية السم، فذكر اسم الله على طعامه ثم شرع بتناول الطعام حتى فرغ منه فلم يلحقه أي ضرر من السم، وبعد فترة من الزمان شاع أمر السم المدسوس في الطعام عند أهل البلدة فسمع الرجل الصالح بذلك، ولما عاد إلى منزله سأل زوجته عن سبب دسها السم له في الطعام؟ فردّت عليه قائلة: أريد منك تجيبني كيف لم يفعل السم أثره فيك وانا اعلمك بسبب دسي السم في طعامك؟ قال لها الرجل الصالح: لعلني حينما سبقت الأكل بذكر الله لم يفعل السم أثره ببركة (اسم الله) عز وجل، فردت عليه الزوجة بالقول: لقد فعلت ذلك وأنا اريد الخلاص منك لانك شيخ فانٍ وأنا لا زلت شابة في مقتبل العمر وأبغي لنفسي رجلاً شاباً يشاركني الحياة الزوجية!

سد الرمق من الجوع باسم الله:

وذكر صاحب كتاب الكبريت الاحمر قصة أخرى مفادها: ان رجلاً مؤمناً فقير الحال كان يقيم في مدينة مكة المكرمة، وكان لا يجد في يومه كفاف نفسه، مع أنه كان يصوم الدهر، وكثيراً ما كان رفقاؤه يشاهدونه عند موعد الافطار يخرج رقعة مكتوبة من جيبه فيحملق فيها ثم يدسها في جيبه دون أن يتناول شيئاً من الزاد أو الشراب، وحينما حل به الاجل ونزل به الموت فتشوا جيوبه فإذا بهم يعثروا على الرقعة، فنظروا فيها فلم يجدوا شيئاً سوى آية (**بسم الله الرحمن الرحيم**) فعلموا حينئذ أنه كان يرفع حاجته من الطعام ويسد رمقه ببركة هذه الآية الكريمة المتضمنة لأسماء الله الحسنى. وهذا أمر صحيح ويجب علينا ان لا نبادر إلى

إنكاره، لأن الانكار كما قلنا دليل ضحالة الفكر وقلة العقل، ويعود منشأ ضحالة الفكر إلى غلبة الأسباب المادية على عقل الإنسان نتيجة صمم الأذنين وعمى العينين وأسر النفس الإنسانية بجدران الحواس الخمس، وحينئذ يتعذّر على الإنسان أن يحلق في عالم الأسباب المعنوية الفسيح.

السير على وجه الماء ببسم الله:

وحول كرامات السيد الشريف المرتضى الملّقب بعلم الهدى (هذا اللقب وهبه إياه جده الإمام موسى بن جعفر (ع)، وقد ناله عن جدارة واستحقاق) نقل أن كان للسيد علم الهدى مجالس درس وبحث في مدينة الكاظمية نهاراً يقصدها جمع من الناس من أطراف المدينة طلباً للفائدة، وكان من جملة تلاميذه شخص يسكن في بغداد ويحرص على حضور الدرس بعبور نهر دجلة يومياً بعد أن يتم نصب الجسر في وقت متأخر من كل صباح فيصل بشكل مستمر إلى درس سماحة السيد علم الهدى متأخراً، فشكا للسيد حاله وكيف أن الدرس يمضي جلّه فتعدم الفائدة منه وهو حريص على كسب العلم فأشفق عليه السيد وتناول رقعة فكتب بها شيئاً ثم طواها وسلمها له وأوصاه أن يبكّر في الغد إلى الدرس ويدع الجسر ويضع قدميه على الماء ويمشي فيعبر نهر دجلة.

فعمل الرجل وفق توصية السيد علم الهدى وامتثالاً لأمره فعبر الماء مشياً على الاقدام فوجد ان قدميه لا تبتلان بالماء واستمر به الحال على هذا المنوال عدة أيام. وفي أحد الأيام حدثته نفسه أن يتعرف على هذا الأمر العجيب المكتوب في الرقعة، ففتح الرقعة فلم يجد فيها سوى قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهنا برز جهله وضحالة عقله فقال (عجباً انها ذات الـــ بسم الله الرحمن الرحيم التي نقرؤها كل يوم) ثم طواها وعاود الحال قاصداً اجتياز النهر فما أن وضع قدمه حتى غاصت في الماء وأوشك على الغرق، فتنحى عن الماء وقصد الجسر وانتظر هناك حتى انعقد الجسر فعبر إلى الجانب الثاني، ولما وصل حلقة الدرس متأخراً سأله السيد عن سبب التأخير؟ فذكر له الأمر بما جرى، فقال له السيد عندئذ لقد ضاع أثر الآية الكريمة لأنك أقللت من أهميتها في نفسك! إذاً ما حصل إنمّا هو لعدم توفر اللياقة المناسبة، وعليه ينبغي علينا أن نعلم ان كل نقص أو قلة انما تحصل لنا نتيجة ضعف إيماننا وقلة معرفتنا بالله تعالى. إذاً معنى (تبارك اسم ربك) هو عَظُمتْ بركة اسم ربّك.

آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) هم جلال الله وكرامته:

وجاء في حديث شريف روي عن الإمام الباقر (ع) في معنى قوله تعال **(تبارك أسم ربك ذي الجلال والاكرام)** أنه قال: (نحن جلال الله وكرامته، وهم أسماء الله الحسنى كما ورد ذلك عنهم (ع) (نحن والله الأسماء الحسنى)، فالأسماء اللفظية لله تعالى نحو (الغفار، الرحيم وغيرها) هي أسماء تناسب جميع مراتب الوجود إما الاسم التكويني لله تعالى فهو يظهر في

كل مرتبة من مراتب الوجود وبما يناسبها، ومعنى الاسم التكويني هو (الاسم الذي يدل ويشهد على المكوِّن والمنشأ والموجِد) فلو نظر امرؤ ما إلى الموجودات والكائنات من خلال اسم الهي ما أو آية الهية ما لوجد أن جميع أجزاء العالم (عالم الوجود(تدخل في هذا الاسم وتحمل عنوانه، يقول الإمام علي (ع) (وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء)٦[6]، وتدخل أسماء الأنوار الأربعة عشر الطاهرة في جملة الأسماء التكوينية لله عز وجل وهي من الأسماء الحسنى لله تعالى كما يتأكد ذلك في مقولة الإمام الرضا (ع) (نحن والله الأسماء الحسنى)، ويشترك العقل مع النقل في تأكيد هذه الحقيقة الناصعة كما سنتناول هذا الأمر بالشرح والتعليق لاحقاً. إذاً إن للجلال والاكرام مظاهر متعددة وتظهر في كل مرتبة ومنزلة من مراتب ومنازل الوجود، وأتم وأكمل تلك المراتب هو ما طهر في العترة الطاهرة من ذرية النبي محمد (ص).

[٥٦]

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) (سورة الرحمن، الآية: ٧٨).

علي (ع) اسم الله الأعظم وآيته الكبرى:

---

٦ [6] دعاء كميل / مفاتيح الجنان للقمي.

قلنا فيما سبق إن أهل البيت (ع) هم أسماء الله الحسنى. ولتوضيح هذا الأمر ومعرفة معنى الأسماء نعمد إلى استبيان هذا الحديث الشريف المروي عن مولى المتقين وإمام الموحّدين الإمام علي (ع) يقول الإمام (ع) (أنا اسم الله الأعظم، وما من اسم لله هو أعظم مني) وفي حديث آخر يقول الإمام (ع) (أنا آية الله الكبرى وما من آية لله هي أكبر مني)٧[7] إذاً علي بن أبي طالب (ع) هو اسم الله الأعظم وآيته الكبرى. وفي حديث آخر مروي عن الإمام الرضا (ع) في تعليقه على قوله تعالى **(ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها)** (سورة الأعراف، الآية: ١٨٠). نقل صاحب تفسير الصافي عن تفسير العيّاشي انه قال: (إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا) وهو قول الله **(ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها)** قال: قال أبو عبد الله (ع) (نحن والله الأسماء الحسنى الذي لا يقبل من أحد الا بمعرفتنا، قال فادعوه بها)٨[8]، لذلك كان الدعاء بأسماء الله الحسنى باعثاً على قضاء الحوائج ونيل رفيع الدرجات، والآن فلنتبين كيف أن أهل البيت (ع) هم أسماء الله الحسنى؟

أسماؤنا تدلّ على المسميّات:

كلمة (اسم مشتقة بالأصل من (السمة) وهي العلامة، رغم أن البعض اعتبروا اشتقاق كلمة (اسم) من مادة (سمو)، ولكن ما يطابق ما جاءت به الرويات وبالذات الرواية المنقولة عن

---

٧ [7] (لقد رأى من آيات ربه الكبرى). سورة النجم، الآية: ١٨).

٨ [8] تفسير الصافي، ص ١٧٥.

الإمام الرضا (ع) (ما أن يلفظ اسمنا حتى يتبادر إلى الذهن صاحب الاسم، فاللفظ الحسن لنا يدلّ على المسمّى وهو صاحب الاسم ما فاللفظ دال وصاحب الاسم مسّمى ومدلول عليه).

وفي بعض الأحوال يكون الدّال هو الدليل على اللفظ كما في هذه الالفاظ الحسنى التي تدل على صاحب الاسم ولكن يبقى للاسم معنىً كليّاً، وحينئذ لا يكون دالاً على اللفظ بل يكون مجرد خط وكتابة، فهذا اللفظ الحسن لو صوّر على هيئة تصوير مثلاً فيكون المصور أو المخلوط الذي يشاهده المشاهد يدلّ على صاحب الاسم المكتوب أو الصورة المصورة.

واستناداً إلى ذلك، يجب أن لا يلتفت إلى الاسم اللفظي لوحده حينما تقال كلمة (اسم) لأن للاسم معنىً أوسع من مجرد الألفاظ.

الأسماء اللفظية، والخطيّة، والذهنيّة، والمسمى الخارجي:

ولو افترضنا أن شخصاً ما أهان اسم شخص آخر لفظياً لبدت علامات التأثر والانزعاج على وجه صاحب الاسم المهان، ولو مزّق صورته أو اسمه المكتوب بقصد الاهانة، لتأثر أيضاً، لأن لفظ الاسم وأثره في الخطوط أو الصور منسوبات إلى صاحب الاسم.

وقد يحصل أن يتخيل أحدنا صورة شخص ما في مخيلّته، وذهنه، وهذه الصورة المرسومة في الذهن والمخيلّة هي في الواقع اسم لصاحب الصورة أيضاً. ويبقى الاسم اللفظي محدوداً

بحدود الألفاظ، والاسم المكتوب أو المصور محدوداً بحدود عالم الخطوط والرسوم والصور الفتوغرافية، ويبقى الاسم المرسوم في الذهن والمخيلّة محدوداً بعالم الذهن.

وتبقى الحقيقة في المسمى والوجود الخارجي لصاحب الاسم، أي ما يجسده هذا الاسم من وجود حي خارجي، أما الالفاظ والخطوط والصور الفتوغرافية والذهنية فلا تمثّل إلاّ محل الاسم وملامحه.

الشهادة لله بالوحدانية:

لذلك كانت كل مرتبة من مراتب الوجود الناطقة بلسان الحال الفصيح دليل وبرهان على الخالق والصانع (تبارك وتعالى)، فيصرح كل متحرك قائلاً بلسان التكوين (ان لي محركاً وصنعاً عالم قادر.

كل نبت انبتته الأرض يصيح **(وحده لا شريك له) بقول مليح**

ويقول الشاعر الايراني سعدي الشيرازي أيضاً ما معناه:

أوراق الأشجار الخضر في نظر اللبيب **كتاب دليل في كل ورقة على معرفة الصانع**

نعم، إن كل ورقة من أوراق الأشجار هي اسم من أسماء الله تعالى فيما لو لم ينظر المرء إلى الأسماء نظرة استقلالية، بل بنظرة ان وجود الاسم هو للشيئية، يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) (ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه)٩[9].

وانى لأعشق العالم كله	لأن كل العال ذا منه

فكل شعرة في البدن، وكل عرق وكل عظم هو اسم من أسماء الله تعالى، وجميعها تشير إلى أن خالق تلك الأشياء هو عالم وقادر، بل وكل كلمة تصور عن فم إنما هي دليل على الناطق نفسهن فالموحّد يرى المسمّى ويعبدهن ولو لم ير المرء المسمّى وعبد الاسم وحده كافر بالله تعالى، يقول الإمام الصادق (ع) (من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بايقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته فأولئك هم المؤمنون حقاً)١٠[10].

عشقت العالم كلّه، لأن العالم كلّه منه:

ولما كان الكون بأسره هو أسماء الله تعالى، لذلك يتعلق الاشخاص الذين تنورت قلوبهم بنور العلم والمعرفة بحب أشياء ذلك العالم، فالنبي (ص) كان كلمّا قدمت له فاكهة في أول أوانها يقبلها ثم يضعها على عينه، ونتساءل، لماذا يقبل الرسول (ص) العنب؟ أهناك عناق

---

٩ [9] نهج البلاغة.

١٠ [10] تفسير الصافي، (ص٢٦).

وتقبيل خاص بالأعناب؟! والجواب نعم، فالشخص الذي لا يرى في العنب إلاّ العنب ينبغي عليه ألاّ يقبله، أما من يرى في العنب صانع العنب فهو يرى فيه اسم الله لذلك تراه يكرمه ويقبله، وله الحق في ذلك أيضاً، لأن صنع الله عز وجل محبوب، هذا المصنوع (كشجرة العنب) التي ينشئها الله تعالى بين الصخور والتراب والحصى خشبة يابسة فتخضر وتورق وتحمل عناقيد حامضة الطعم لا تلبث حتى يجعل الله عز وجل مذاقها عذب طيب فتأمّلوا كم هو لطيف خلق الله عز وجل؟ حتى أننا نأكل العنب دون أن نضطر إلى نزع قشوره.

آل محمد (ص) مرآة يتجلّى فيها الله عز وجل:

وأما معنى (الحسنى) وهي على وزن (فعلى) وهي مؤنث الأحسن فتعني الأفضل والأجود. ولقد قلنا إن جميع أجزاء الكون ومركبات عالم الوجود هي أسماء الله تعالى، وجميعها تشهد لله عز وجل بالعلم والقدرة والحكمة، ولكن الأنوار الأربعة عشر (ع) أهل بيت العصمة والطهارة هم افضل تلك الأسماء وأحسنها وأجودها.

ولتوضيح القصد نسوق المثال الآتي: كلنا يعلم ان المرايا لها عدة أشكال، فبعض المرايا محدبة تنحل وتنحف وتطيل صور الأشياء، والبعض الآخر مقعرة تقمأ وتبدن صور الأشياء وبعضها مستوية تظهر صور الأشياء وفقاً لمظهرها الخارجي المألوف، وأحجام المرايا المستوية تظهر من صور الأشياء بمقدار حجومها، فبعض المرايا لا تظهر إلاّ صورة الوجه

لصغر حجمها، وبعضها يظهر صورة البدن كاملة لكبر حجمها فلا تخفي شيئاً منه.

والموجودات في واقعها تشابه المرايا في فعلها فهي تظهر صور الله عز وجل بمقدار يتناسب وسعة وجود الموجود، والواقع أن جميع الموجودات لا تظهر إلاّ جانباً معيناً من التجلّي الإلهي بحيث لا يصدق القول على تلك الموجودات أنها استطاعت أو تستطيع أن تكون دليلاً على تجلي الله (جل جلاله)، باستثناء المعصومين الأربعة عشر (ع) فهم المرآة الكاملة التي أظهرت صفات الله عز وجل بصورتها التامة، بينما باقي الموجودات لم تظهر إلاّ صفة واحدة أو صفتين من صفات الله تبارك وتعالى. وتأسيساً على ما سبق فان أهل البيت (ع) هم الذين عكسوا كافة أسماء وصفات الله عز وجل لذلك كانت جميع الموجودات ناقصة من حيث الجهة الاسمية في مقابل آل محمد (عليهم الصلاة والسلام).

علي (ع) الاسم الأعظم، والاسم الالهي الجامع:

إذاً الوجود المقدس الذي ظهرت فيه جميع الأسماء الإلهية، بل وحتى جمال الله تعالى وسخطه هو علي (ع) كما نقرأ في الزيارة السادسة لأمير المؤمنين (ع) (السلام على نعمة الله على الأبرار، ونقمته على الفجار).

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) أي تبارك وعظم اسم ربك (ويعني بذلك محمداً (ص) وعلياً وفاطمة والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين (ع)). فكل امرئ من أهل النجاة تقوده يد علي (ع)، وكل امرئ من أهل النار يتبعه سخط علي (ع).

ومن المسلّم به عند المسلمين كافة (سنة وشيعة) أن علياً (ع) يقف عند جسر جهنم فيبعث أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة، لأنه قسيم النار والجنة كما في النص الآتي (السلام على قسيم الجنة والنار)١١[11]، فهو عين الله ويده واذنه كما في النص التالي (السلام على عين الله الناظرة، ويده الباسطة واذنه الواعية)١٢[12].

---

١١ [11] الزيارة السادسة للإمام أمير المؤمنين (ع) / كتاب مفاتيح الجنان.

١٢ [12] الزيارة السادسة للإمام أمير المؤمنين (ع)/ كتاب مفاتيح الجنان.

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) (سورة الرحمن، الآية: ٧٨).

أسماء الله هي ما اقرّه الشارع المقدس:

قلنا إن الأسماء اللفظية هي الأسماء التي تدلل على أصحابها، والتي وضعت من قبل واضعين لها بحيث صارت تلك الأسماء علامة وسمة للمسمّى بها، وأسماء الله تعالى فيها اللفظي وفيها التكويني، أما اللفظي منها وكما في هذه الأسماء المباركة (الله، الرحمن، الكريم) تدلل على وجود وضع لها وثبات، لذلك كان إطلاق الأسماء على رب العالمين موقوف على تلك الأسماء التي أجازها الشارع المقدس فلا يمكن لأحدٍ أن ينتخب اسماً لله تعالى من عنده فيسميه به كأن يسمي الله (الجوهر) أو (العاشق)، فهذا الأمر لا جواز فيه إطلاقاً لثبوت عدم تسمية الشارع المقدس لهذه الأسماء، أما الأسماء (الشريف).. (الحبيب) أو (المحب) فيمكن اطلاقها على الله عز وجل لورود مثل هذه الأسماء عن الشارع المقدس (جل جلاله).

الدليل العقلي أقوى من الدليل اللفظي:

فدليل الموجودات (أي الأسماء التكوينية) على الله عز وجل هو دليل عقلي، وهو عند العقلاء أقوى بمراتب كثيرة من الدليل اللفظي، لذلك كان أهل البيت (ع) (وهم أسماء تكوينية لله تعالى) أسمى وأشرف من الأسماء اللفظية. وبالتأكيد ان كافة الموجودات هي أسماء الله

تعالى ولكن الأنبياء والأولياء (ع) من حيث الاسمية لهم الغلبة والترجيح على سائر الموجودات لانهم (ع) من أبينا آدم (ع) وحتى سيدنا المسيح (ع) هم أسماء وجودية لله عز وجل، وكل منهم في حقيقته يمثل تجليّاً لصفة، واحدة أو اكثر من صفات الله تبارك وتعالى.

اما سيدنا محمد (ص) وآله الطاهرين (ع) فهم أسماء الله الحسنى، وهم الذين تجلّت بهم صفات الله عز وجل بشكل كبير, وما الموجودات بأسرها إلاّ كلمات الله، ويبقى محمد (ص) وأهل بيته (ع) هم الكلمات التامّات.

الحسن الذاتي والحسن الوصفي:

لقد تطرقنا سابقاً إلى موضوع المرايا، وسنتكلم الآن عن المرايا من جانب غير الجانب الذي تناولناه بالحديث سابقاً، والموضوع الذي سنطرقه هو موضوع الظهور التام، الناقص للشيء، وجانب نوعية وكيفية المرآة من حيث القيمة، فكما هو معروف أن بعض المرايا مصنوعة من مادة البلور الثمينة وهي تشتمل على حسنيين الحسن الذاتي والحسن الوصفي (حسن الاظهار)، بينما هناك مرايا تشتمل على حسن واحد.

فأهل البيت (ع) لديهم الحسن الذاتي ولديهم أيضاً الحسن الوصفي، فهم قد نهلوا من مبدأ الوجود بشكل كاف واستطاعوا أن يظهروا مبدأ الوجود بصورة حسنة فكان نور محمد (ص)

هو أول المخلوقات التي ظهرت وتجلت وتلألأت، فكانت منه أنوار العرش وغيرها، وعن نور الحسين (ع) وهو نور الأنوار انبثقت الجنة (وهي نور في حقيقتها).

فأهل البيت (ع) مظهر ودليل لجميع أسماء وصفات الله عز وجل، حتى أن أسماءهم الشريفة هي في حقيقتها منبثقة عن اسم الله تعالى كما يتأكد ذلك في هذا الحديث المبارك.

أسماء أهل البيت (ع) مشتقة من أسماء الله تعالى:

فقد نقل صاحب تفسير الصافي عن الإمام السجاد (ع)، عن آبائه (ع) عن رسول الله (ص) أنه قال (يا عباد الله، إن آدم لما رأى النور ساطعا من صلبه إذ كان الله قدر نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره رأى النور ولم يتبين الاشباح، فقال يا رب ما هذه الأنوار؟ فقال عز وجل أشباح نقلتهم من اشرف بقاع عرشي إلى ظهرك، ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت دعاء لتلك الاشباح، فقال آدم يا رب لو بينتها لي، فقال الله عز وجل: أنظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم على ذروة العرش فأنطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصافية فرأى أشباحنا، فقال ما هذه الاشباح يا رب، قال الله: يا آدم هذه اشباح افضل خلائقي وبرّياتي، هذا محمد وأنا الحميد المحمود في فعالي اشتققت له اسماً من اسمي، وهذا علي وأنا العلي العظيم شققت له اسماً من اسمي، وهذه فاطمة وأنا فاطر السماوات والأرض، فاطم أعدائي من رحمتي يوم

فصل قضائي، وفاطم أوليائي عما يعيّرهم ويشينهم فشققت لها اسماً من اسمي، وهذا الحسن وهذا الحسين وأنا المحسن المجمل شققت اسمهما من اسمي، هؤلاء خيار خليقتي وكرام بريّتي، بهم آخذ وبهم أعطي وبهم أعاقب وبهم أثيب، فتوسّل بهم إلي يا أدم، وإذا دهتك داهية فأجعلهم إليّ شفعائك فاني آليت على نفسي قسماً حقاً ألاّ أخيّب بهم أملاً ولا أرد بهم سائلاً، فلذلك حين زلّت منه الخطيئة دعا الله عز وجل بهم فتبت عليه وغفرت له١[1].

الأسماء التي يسميها الله تعالى تشتمل على المعاني:

وتختلف تسمية الله تعالى للأشياء عن تسميتنا نحن لها، ونعني بذلك التسمية ذات المعنى، اذ ان الإنسان انما يسمّي لأجل ان يضع السمة والعلامة على المولود الجديد مثلاً لأجل أن يميّزه فعندما يسمي المرء وليده باسم زين العابدين فهو لم يراع مسألة العبادة. وانه ينتظر من وليده ان يكون بالفعل زيناً للعابدين، أو أن يمسي المرء ابنته الدميمة قمراً، أو أن يسمي ابنه قبيح الوجه حسناً، فهو في هذه التسمية لا يراعي موضوع المعنى في التسمية لذلك نرى شهرة تسمية الطفل الاعمى (في إيران) باسم نور علي. ولكن تسمية الباري تعالى تشتمل على المعنى المطابق للسمة، فهو عز جل عندما يقول اشتققت له اسماً من اسمي فانما قد

---

١ [1] تفسير الصافي (ص ٢٧).

١ [2] الزيارة الجامعة الكبيرة، كتاب مفاتيح الجنان.

١ [3] دعاء ليلة عرفة، كتاب مفاتيح الجنان.

اشتق له اسماً يحمل في طياته صفة من صفات الله عز وجل يجلّيها صاحب الاسم الموسوم بالاسم الإلهي.

إذاً التسمية الإلهية لا تقتصر على اللفظ لوحده، فهو عندما سمى حبيبه ونبيه محمداً (ص) فانما قد اختار له هذا الاسم واشتقه له من أفعاله الحميدة لأنه تعالى هو الحميد المحمود في فعاله، لذلك أراد ان يظهر أفعاله الحميدة جلية فخلق حبيبه (ص) وأسماه محمداً (ع) لكي يعرف الخلق على صفة الله هذه.

محمد (ص) الأسوة في جميع خصاله وفعاله:

ومما لا شك فيه أن محمداً (ص) كان يحمل في بدنه الإنساني جميع الصفات والأفعال والأقوال الحسنة الحميدة سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها، بحيث ان الجميع اتفق على ذلك، المحب منهم أو الكاره، والعدو منهم أو الصديق، فهو العفو الحليم الرحيم الرؤوف، وكما قيل فيه (ص) (حسنت جميع خصاله) دون شك.

وعلي (ع) قد أشتق الله عز وجل له اسمه من أسمائه تعالى أيضاً، فالله هو العلي العظيم، فعلي هو العالي السامي في علو شأنه فتجلت عظمة الله وعلو شأنه في علي (ع) ولذلك فمن يريد ان ينظر إلى علو الله وعظمته فلينظر إلى علي (ع)، ويكفي من رفيع مقام علي (ع)

وعلو شأنه أنه لم يعرف منزلته هذه إلاّ الله تعالى ونبيه محمد (ص) بحيث ان بعض الأفراد ممن يفتقرون للاستعدادات اللازمة في إدراك مقام علي (ع) قالوا بألوهيته (نستغفر الله).

الشفاعة الكبرى للزهراء(س) في محشر القيامة:

وعن فاطمة الزهراء(س) قال الباري تعالى، اشتققت لها اسماً من أسمائي فانا فاطر السماوات والأرض وهي فاطمة، وتعني كلمة (فاطر) فاصم الشي وفاصله عن بعضه البعض، وهو ذات معنى (فاطمة) الذي يعني كذلك الفصل والفصم.

فقد فطر الله عز وجل السماوات والأرض من عالم العدم إلى عالم الوجود ومن ظلمات (الماكان) إلى نور الكينونة، وتجيء فاطمة (التي اشتق الله تعالى اسمها من اسمه) يوم القيامة فتعظم محبيّها من ظلمات المحشر بشفاعتها وتترك المحشر الحالك يضج بأعدائها لوحدهم..

ويروى ان تجمع الخلائق في عرصة القيامة يكون على هيئة طوائف ثلاث، قد امتازت كل طائفة عن غيرها بما كتب على جباه أهلها، فطائفة تحمل عنوان (هذا مؤمن) على الجباه، وأخرى تحمل عنوان (هذا كافر)، والثالثة تحمل عنوان (هذا محب) وهذه الطائفة الأخيرة هم محبّوا أهل البيت (ع) الذين يكونون آنذاك بأمسّ الحاجة إلى الشفاعة، فتأتي الزهراء(س) فتنتقل اولئك النفر بشفاعتها من ظلمات محشر القيامة إلى أنوار جنان الخلد.

الحسنان مظهران من مظاهر تجلّي الإحسان الإلهي:

والحسنان (ع) قد اشتق الله عز وجل لهما اسميهما من أسمائه فهو المحسن المجمل ذو الاحسان والأنعام، والحسنان هما مظهران من مظاهر تجلّى الاحسان والانعام الإلهيين اللذان بلغ من شأن احسانهما انهما لا يردان يد سائل إلى صدره خاوية من فضل الله.

يقول الشيخ الشوشتري (عليه الرحمة) في باب البكاء على الحسين (ع)، ولو ترقرق الدمع في عين المرء دون أن ينهمل لشمل الله هذا العبد برحمته، ولو انحدرت الأدمع من عينيه ولو مقدرا جناح بعوضة لأثابه الله تعالى بذلك ثواباً حسناً، ولو جرت دموع المرء حتى اخضلّ منه وجهه لأثابه بذلك ان يحول دون ان ترهق وجه ذلك العبد ذلة أو قتر في القيامة. وما ذكره الشيخ الشوشتري يطابق تماماً ما جاءت به الروايات في هذا الشأن. إذاً الاحسان هو أحد صفات الله تعالى، وعليه فهلموا نقبل بوجوهنا إلى الحسين (ع) لننال العطاء الإلهي الفذ بشفاعته واحسانه، ولعلّنا نعرف قصة آدم (ع) التي يقول فيها (مالي كلمّا ذكرت الحسين (ع) هاجت بي الأحزان؟ وكيف لا وجبريل قد حدث آدم (ع) بمصيبة الحسين (ع) وعطشه.

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) (سورة الرحمن، الآية: ٧٨).

ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها:

وها قد تبينت لنا حقيقة أسماء الله الحسنى، ومصاديقها في أهل بيت النبي (ص)، وثبت لدينا أن أسماء أهل البت (ع) هي أحسن وأشرف أسماء الله التكوينية الخارجية التي جلّت صفات الله عز وجل. وانما قيل لأسماء الله الحسنى حسنى، لأنها اشتمل على جوانب ثلاثة هي:

١ ــ جانب الدلالة. ٢ ــ جنب الذات. ٣ ــ جانب الصفة.

ولقد شبّهنا الموجودات بالمرايا المستوية التي تعكس صور الصفات والأفعال الإلهية مما شّع منها على سطوحها، فظهر من شأن الله تعالى ما ظهر وبذات المقدار المناسب من لياقة تلك الموجودات واستعداداتها.

أما الحسن في جانب حد الذات، فكان مصداقه في الصوادر الأولى، وهم الأنبياء والأئمة (ع)، فهم يظهرون بشكل جلّي صفات الجمال والجلال الإلهيين، وهم اسم الله الأعظم. لذلك نلفت انتباهكم إلى أن قوله تعالى **(ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها)**. (سورة الأعراف, الآية: ١٨٠) يعني أسماء العترة الطاهرة التي جاء الأمر الإلهي بضرورة التمسك بها.

النمطيّة الواحدة في الأسماء اللفظية:

ويعترض بعض المحققين على موضوع اعتبار الأسماء اللفظية أسماءً حسنىً، قائلين إن ذلك لا يولد القناعة الكافية في اعتقاده باعتبار وجود النمطية الواحدة في الأسماء اللفظية. فطالما كانت الأسماء لفظية فهي حينئذ لا تعدو أن تكون مجرد أسماء لا يخرج من وتيرة

اللفظ بينما تتحقق حقيقة المراتب والمنازل في الأسماء العينية الخارجية المشتملة على المراتب.

وهذه الأسماء هي التي جاء الأمر الإلهي بالدعاء بها لانجاح المطالب وأشرف مراتب الأسماء الحسنى هي مرتبة وجود خاتم الأنبياء محمد (ص) ثم أهل بيته الطاهرين (ع) الذين سمّاهم الباري عز وجل في كتابه الحميد بالوسائل الإلهية كما في قوله **(وابتغوا إليه الوسيلة)** (سورة المائدة، الآية: ٣٥). ومن البديهي ان لا تمتلك الوسائل أية استقلالية في ذاتها، إنما نالت ما نالت من الشرف من خلال وساطتها في نيل وايصال الفيوضات الإلهية، ولكيما تتضح هذه الحقيقة بشكل اكثر، ننقل لكم شرح سلمان الفارسي (رض) لهذه الحقيقة:

سلمان يحاور المنافقين:

فقد أورد صاحب البحار في المجلد التاسع عشر هذه الحادثة، يقول إن سلمان الفارسي(رض) كان جالساً في مسجد النبي (ص) يوماً وحوله جمع من أهل الاسلام قد اندّس بينهم بعض المنافقين الذين حرموا من نعمة الولاية، فقال سلمان: لو كانت لأحدكم حاجة مهمة عند السطان ما، فهل هناك من شك ان سيسارع صاحب الحاجة هذه إلى اكرم الناس على السلطان ليشفع، له في نيل حاجته فيجعله وسيلته (وهذا في الواقع أمر وجداني)؟ فأقر الجميع بذلك، وهنا عاد ليقول لهم: فاعلموا إذاً ان أحب الخلق إلى الله وأكرمهم عليه هم

محمد وعلي (ص) فادعوا الله بهما واجعلوهما لما سألتم الله فيه الوسيلة. فطفق المنافقون يسخرون ويستهزئون من قول سلمان معلنين عن نفاقهم بالقول: لو كانت اجابة الله موكولة ببركة التوسل بمحمد وعلي كما زعمت، فعلامك لا زلت فقيراً؟! ألا تسأل الله بهما ليغنيك فيجعلك أغنى أهل يثرب؟ (لقد ظن اولئك الجهال أن الرزق الإلهي لا يعدو الطعام واللباس والسكن والنكاح، يقول الإمام الرضا (ع): (العقل رزق)، تصوروا انهم يظنون ان الرزق منحصر بالشؤون المادية لوحدها، ولا يدرون ان الرزق المعنوي صورة اخرى من صور الرزق الإلهي ويفوق في شرفه وشأنه الرزق المادي) فأجابهم سلمان قائلاً: فوالله لقد أبّر الله قسمي عليه عندما سألته بحقهما حينما أعطاني من فضله الجزيل ما يعدل الدنيا وما فيها بمائة ألف الف ضعف، فبهت المنافقون من قوله هذا، وسألوه: وما أعطاك؟ قال سلمان: إنه كنز ثمين (فظن الحمقى أنه قد هدي إلى أموال طائلة) فقالوا: وأي كنز هذا؟ قال: لقد سألت الله أن يهبني قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً وان يجعلني عند البلاء صابراً، ولقد انعم الله عليّ بما سألته ببركة أهل البيت (ع).

الأسماء التي يستجيب الله بها:

(فأدعوه بها) أي فادعوا الله بهذه الأسماء الحسنى، لأن هذه الأسماء هي وسائل نيل الآلاء، والنعم التي منّ الله عز وجل على العالمين بها **(لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم)** (سورة آل عمران، الآية: ١٦٤). فألبس تلك الأنوار لباس البشرية

وجعل ذكرهم مستوجباً للتطهير من الذنوب وباعثاً على قبول الأعمال كما في النص الآتي (وجعل صلواتنا علكيم... كفارة لذنوبنا)٢[2] وأيضاً في نص الدعاء التالي (وباسمك الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت)٣[3]. وما الأسماء الحسنى إلاّ أسماء أهل البيت الذين لو جعلهم المرء وسيلته إلى الله تعالى بقلب واع وهو عارف بحقهم لاجيبت دعوته البتة، ولقضيت حاجته قطعاً، ان (إن للدنيا أو للآخرة)، مع ان الدنيا لا قيمة لها بذاتها كما قال سلمان(رض) (افضل من الدنيا بمائة ألف الف ضعف).

اختلاط الحرمان بالثراء:

ولعل البعض يقول لقد توسلنا على الله تعالى بأهل البيت (ع) ولكننا لم نجد لقضاء حوائجنا جوابا, فنقول إن الدنيا بذاتها مذمومة، وقد عمرت بالحرمان والمكاره، ولو دققنا النظر فيمن حصل على الثراء والسعة لوجدناهم قد اندفعوا نحو التوسل بالبقاء في دار الفناء! وقد باتوا وكأنهم مسامير قد سمّرت في الدنيا لا يبغون عنها حولاً ولا بدلاً وهم على تلك الحال يصعب انتزاع حب الدنيا من قلوبهم، ولو ادركهم الموت لألفيناهم قد خفقت قلوبهم لأموال الدنيا ومناصبها, لذلك نظر الله تعالى بعين رأفته وحكمته إلى مصالح عباده فابتلى بعض العباد بالحرمان والبلاء المناسب لحالهم، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يمن عليهم بفرجه، لأن الله عز وجل لا يجعل عبده يرى الحرمان المنقطع إلى الهم والمؤدي إلى اليأس من رحمته، وهو في

جانب آخر لا يعطيه الثراء والعطاء الذي يؤدي بقلبه إلى الشغف بالدنيا الزائلة حباً ورغبة.

ومما لا شك فيه أن توسل العبد بأهل البيت (ع) إلى الله تعالى وجعلهم شفعاء في قضاء حوائجه يؤدي إلى اجابة الحوائج وقضائها ولكن بشرط تطابق ما سأل مع مقتضيات الحكمة الإلهية والمصالح العامة وفي الأوان المناسب.

ولو افترضنا عدم قضاء حاجة العبد في الدنيا, فمن المسلّم به ان الله عز وجل سيجعل له ما طلب ذخيرة للآخرة كما فصّلنا القول من قبل عند تعرضنا لقوله تعالى **(يسأله من في السماوات والأرض).** (سورة الرحمن, الآية: ٢٩)

الاستغاثة بأهل البيت (ع) مؤكّدة الأثر:

ولقد جاءت وصايا عديدة تؤكد ضرورة التوسل بأهل البيت (ع)ن ولو كان الحال هو انعدام الأثر لما جاءت التأكيدات على موضوع التوسل والحث على المداومة عليه، وقد أفرد كتاب بحار الأنوار في المجلد التاسع عشر منه باباً خاصاً لموضوع الاستغاثة بأهل البيت (ع) اشتمل على ذكر الصلوات والأدعية الخاصة بهذا الشأن، بل أنه أشار إلى بعض القضايا والأمور الباعثة على التعجب والاندهاش لما في ذلك من عبر ومواعظ، كما في قصة أبي العباس احمد بن كثير ومكابداته عام ٣٨٢ هجرية في سجن سليمان بن الحن، وصدور حكم

الاعدام بحقه، ثم حصوله على النجاة والخلاص من الهلكة بعد استغاثته وتوسله بأهل البيت (ع)، وبالذات بالامام أمير المؤمنين (ع).

أينما حلّت العظمة والانعام فهي من الله تعالى:

(ذي الجلال والإكرام) وتقرأ أيضاً **(ذو الجلال والإكرام)** والأولى أشهر، وفيها يكون المعنى للآية الكريمة هو ــ عظم اسم ربك صاحب الجلال والإكرام ــ ذي الجلال والإكرام هنا صفة للرب تعالى على القراءة الأولى وفي القراءة الثانية صفة لاسم الرب (تعالى). ولقد قلنا آنفاً أن اسم الرب العظيم والمبارك هم محمد وآله (ص)، وقد ذكر صاحب مجمع البيان وغيره من المفسرين جملة من الروايات الواردة عن رسول الله (ص) التي تحث العباد على الاكثار من الدعاء بهذين الاسمين المباركين. لأنه من المقطوع به عند الدعاء بهذين الاسمين الكريمين أن يمن الله عز وجل بإجابته على الداعي بما احتمل الاسمان الشريفان من معانٍ ساميات. فمعنى الجلال: هو العظمة والكبرياء والاستغناء المطلق ومن المؤكد ان الجلال والعظمة هي شأن الله وحده وكل ما عداه ذليل، وما من عظمة نراها أينما كانت إلاّ وتعرب عن عظمة الله (عز وجل) وجلاله.

اما معنى الإكرام: فهو الإنعام والفضل والإحسان، فالله تعالى هو صاحب الإكرام وحده، أي انه هو صاحب الفضل العظيم والمن الجسيم، فهو يكرم الجميع، وحقيقة ما يقدمه المرء إلى

الآخرين من احسان انما هو من عند الله (جل جلاله) لأن الخلق كله لله وهم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد.

التنّور وإبصار النور:

وطبقاً للتفسير الوارد عن الإمام الباقر (ع) في معنى هذه الآية الكريمة مما أشرنا إليه من قبل في قوله (ع) (نحن جلال الله وكرامته)، فان الله عز وجل يمن على كل عبد تعلّق بحجزة أهل البيت (ع) بالعظمة ويحفّه بكرمه، وكما قلنا آنفاً ان الله عز وجل عندما يجيب عبده الراعي بالاسمين الشريفين (ذي الجلال والإكرام) فانما يجيب بما يحملان من معان، لأن (من لم يتنوّر لا يستطيع رؤية النور)، وقد قال الحكماء: يجب أن يكون المدرك (بكسر الراء) من سنخ المدرك (بفتح الراء) ليتمكن من الادراك عندئذ. ولقد طهر الله تعالى أهل البيت (ع) **(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)** (سورة الأحزاب، الآية: ٣٣). ولما كانوا (ع) مطهرين وطاهرين، استلزم ذلك امتلاك المرء لعين سالمة طاهرة نظيفة تمكّنه من رؤية جمالهم وساطع أنوارهم، ومعرفة أسرارهم المعنوية. وما كانت التأكيدات والوصايا والتعاليم الاخلاقية المتعددة والمتكررة بشأن تهذيب النفس ومحاولة الحصول على ملكات الزهد والتقوى إلاّ لأجل أن يحصل الإنسان على السعة والرحبة في الصدور فيكون عظيماً وحينها يدرك العظمة، ومن لم يعظم به حاله سوف لن يتسنى مطلقاً مجالسة العظماء والنهل من فيوضهم.

إذاً لا نجد مناصاً من القول إن حقيقة إدراك جلال وعظمة أهل البيت (ع) مرهون بلزوم اكتسابنا للجلال والعظمة.

الاكرام الإلهي للشيعة ببركة أهل البيت (ع):

(نحن جلال الله وكرامته) وهو قول أهل البيت (ع) في معنى الآية الكريمة، ويعقّبون القول (سلام الله عليهم أجمعين) ــ (نحن كرامة الله التي اكرم الله عباده بطاعتنا ومودتنا) ــ بل والله إنه لكذلك، بل وأن ما سمعناه أو قرأناه ما هو إلاّ قطرة من بحار كرامات الله عز وجل، لأن بركة أهل البيت (ع) تحول بين المرء المؤمن وارتكابه للذنوب، بل ويجعل مسألة اجتراح السيئات على المؤمنين صعبة شاقة، وطعمها مراً علقماً، فمن بركة أهل بيت العصمة (ع) أن لا يعرف المؤمن للدنيا أية أهمية وينزع عن قلبه غشاء محبتها.

والحمد لله رب العالمين